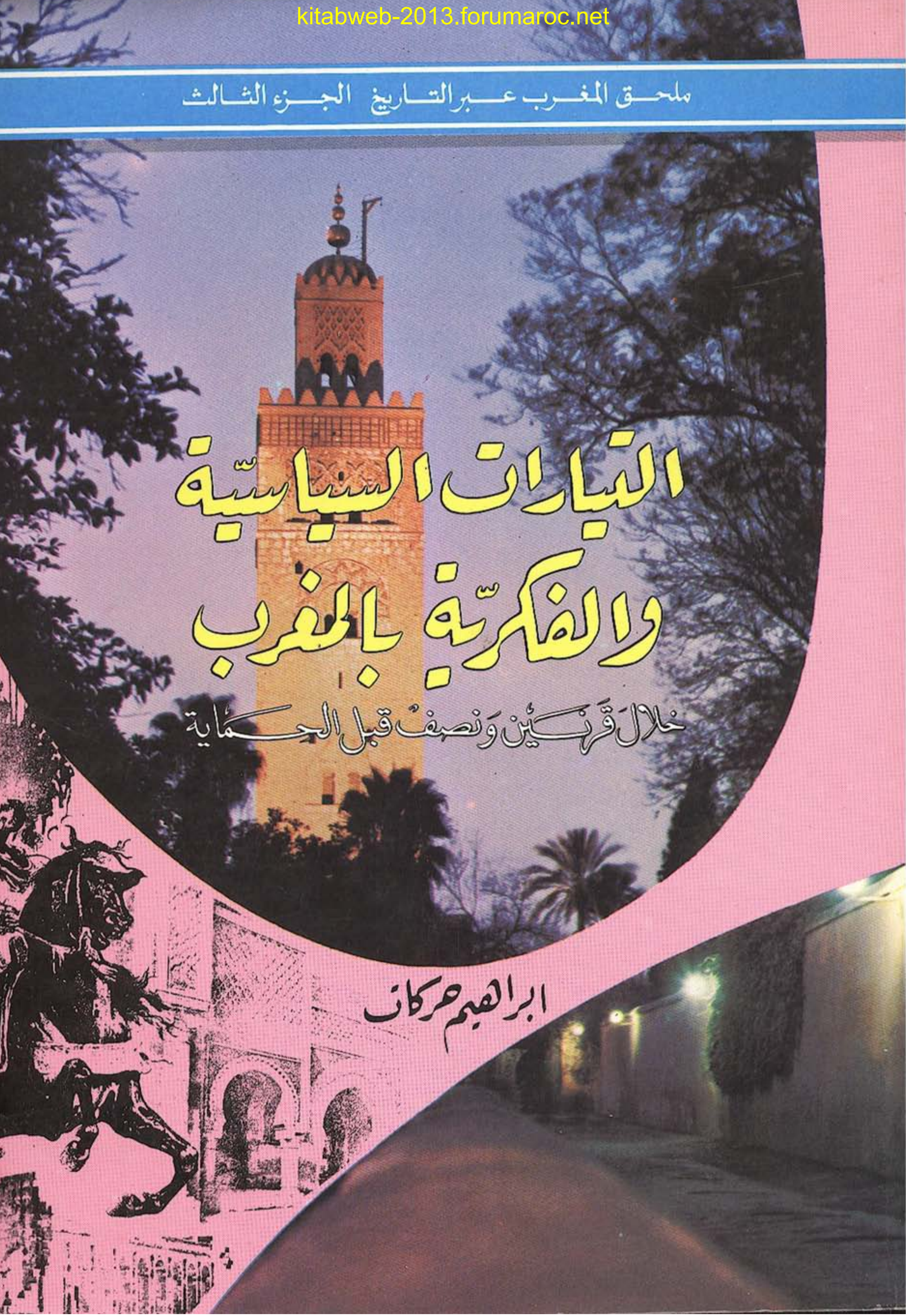


ملحق المغرب عبر التاريخ الجزء الثالث

التيارات السياسية والفكرية بالمغرب

خلال قرنين ونصف قبل الحماية

ابراهيم حركات

ابراهيم حركات

ملحق المغرب عبر التاريخ الجزء الثالث

التيارات السياسيّة والفكريّة بالمغرب

خلال قرنين ونصف قبل الحماية

نشر وتوزيع
دار الرشاد الحديثة
98 شارع فيكتور هيكو
الهاتف : 2732.56-2748.17
الدار البيضاء (03)

الطبعة الثانية 1415 ـــ 1994

الإيداع القانوني رقم 1985/315

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه الدراسة تكملة للتاريخ السياسي عن المغرب في ظل الحكم العلوي قبل الحماية والذي تضمنه الجزء الثالث من المغرب عبر التاريخ. وهي بحكم منهجها وموضوعها وحجمها جديرة بكتاب مستقل.

وقرنان ونصف قبل الحماية الفرنسية الإسبانية حقبة لا تشبه في كثير، ما مضى من الحقب في تاريخ المغرب ومجتمعه. فإذا كان هناك استمرار في الهياكل الحاكمة من حيث الشكل والتقاليد فإن تطورات كثيرة حدثت : وعي جديد وعميق، بخطورة الجشع الإمبريالي، وتعبئة شعبية انطلقت مدة في مستوى مشرف، لتطهير الثغور من الاحتلال، قبل أن يتضح ضعف الوسائل التقليدية في مواجهة الأخطار الخارجية الجديدة. وبالمقابل هناك نشاط دبلوماسي امتزجت فيه المبادرات المخزنية بتدخلات الفآت الواعية التي فتحت عيون المخزن على ما يحدث في البلاد من نشاط أجنبي هدام وما وصلت إليه الأمة من انحطاط في مستواها الاجتماعي والاقتصادي.

وهكذا اهتمت هذه الدراسة بدور المجتمع والسلطة في مجال التوعية قبل كل شيء، وبالدور الذي قام به المثقفون المغاربة سواء في نشر المعرفة أو التبادل الثقافي، وعالجت قضايا الفكر الديني والاجتماعي والسياسي فكشفت عن دور الزوايا والفقهاء في القضايا السياسية والعقائدية، وصححت أخطاء بعض الأجانب ومن سايروهم غلطا، بشأن مواقف العلماء في الميدان السياسي، وعالجت مختلف المجالات الإصلاحية التي اهتمت لها القاعدة الشعبية والعلماء والمثقفون، وحللت بموضوعية، عددا من المشاريع الإصلاحية والدستورية كما أبانت عن دور الصحافة ووضعت يد القارىء على عدد من العناصر الفكرية التي تمخضت عنها الحقبة. ثم خصصت الدراسة القسم الثاني لفنون المعرفة

وهـو يقـدم لأول مرة صيغـة مركزة وشاملة لتاريخ الفكر خلال هذه الحقبة تتحاشى التراجم الشخصية إلا في حالات نادرة (لوجود التراجم منبثة في ثنايا الكتب) وتنصب على أهم السمات الفكرية في كل علم أو شكل من أشكال المعرفة، وتعالج أهم الظواهر والمؤثرات التي تأثر بها الدارسون والمؤلفون.

وبـالجملة فإن القـارىء سيطلع على جوانب كثيرة لا شك أنها ستأخـذ كلا أو بعضـا باهتـمامـه، وستتيـح السبيـل بعـون الله لطـلاب التخصص في نقطة أو نقط معينة، فتحدد لهم المعالم وتنير لهم بعض آفاق المعرفة فيما كان من قبل مجهولا.

ومهـما كان من تواضـع هذا العمل وإنه لكذلك، فهو يكشف عن سلبيـات وإيجابيات التيارات السياسية والفكرية خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ويميط اللثام عن حقبة لا يتعارفها القراء العاديون إلا من خلال الصـراعـات الدموية والحروب الأهلية وقليل من المنجزات الإيجابية، بينما كان مجتمـع هذه الحقبـة يتـوفـر على عنـاصر خلاقة وواعية حملت مشعل الفكر الوطني والعلمي والأدبي أو ساهمت مع القواعد الشعبية في مواجهة السلبيات الداخلية والعدوان الخارجي.

وعلى الله أتوكل، وإليه أنيب

المؤلف

القسم الأول

أساليب التثقيف والتيارات العامة

الفصل الأوَّل

التعليم والتثقيف

التعليم

لم تمنع الاضطرابات السياسية عبر قرنين ونصف من وجود حركة تعليمية وثقافية تهتم بها فآت اجتماعية في كل جهات البلاد وتساهم في تنشيطها السلطة الحكومية حينما تكون على الأخص قادرة على تحمل مسؤولياتها في هذا المجال وتتوفر على وعي كاف بما عليها من تبعات.

غير أن انتشار الأمية بين الأوساط النسوية يبين عن التخلف الاجتماعي والفكري الذي كان يهيمن على المجتمع المغربي داخل الأسر والجماعات، وهذا يقدم دليلا كافيا على السيطرة التي كانت بيد الرجل على الأسرة والرأي العام، دون أن يختفي مع ذلك ظل المرأة في توجيه جملة من الأحداث، وهذا لا يكون غالبا عن بعد نظر أووعي ناضج، ولكن من طريق سلاح العاطفة والاغراء والنفوذ الفطري الذاتي. فكل التيارات الفكرية والسياسية هي بالدرجة الأولى تيارات يقودها الجنس القوي، وفي أضعف الاحتمالات يتولى تنفيذ تخطيطها، فلا عجب أن تكتسي المعارضة درجات من العنف تبدأ بالرفض الشفوي وتنتهي بالفتك المدمر بين أطراف النزاع. ذلك أن سياسة الحوار كانت في الغالب ذيلا لأقوى درجات العنف وليست قبل اللجوء إليه.

فما من شك في أن اختفاء النفوذ الواعي للمرأة وتأثيرها التربوي الهادف ترك بصمات بارزة على طبيعة المجتمع المغربي كله، وبالأخص على سلوك الرجل حاكما ومحكوما. إن هذا الحكم ليس بمطلق زمنا ولا مكانا، فالبنت يمكن أن تجلس بجانب صبيان الكتاتيب أو بعض

الكتـاتيب حتى بلوغهـا العـاشـرة وفي هذه الحـال تحفظ نصيبا من القرآن وتتعلم قراءتـه وكتـابته، وقد تحظى بمتابعة دراستها الدينية في وسط مغلق يتكون من علماء من الأقارب

وفي القصـور الملكيـة كان العنصر النسوي يتلقى غالبا تربية منزلية ومهنيـة كما هو الشأن في تربيـة الفتيـات في عهـد مولاي إسمعيـل وأعقابه (1). ولم تخل بعض المـدن من كتـاتيب خاصـة بالبنـات يشـرف عليهـا (فقـيرات) أو فقيهـات. وكـانت بعض الهيئـات الطـرقية بطنجة تخصص للبنـات تعليـما يوازيه توجيه طرقي يسمح لهن بالقيام بدور التوعية الطرقية بين الأوسـاط النسوية بعد تخرجهن. وانتشرت الكتاتيب النسوية بالرباط في أوائـل عهـد الحـمايـة الفرنسية (2) كتعبير عن تشبث الأوساط المغربية المحـافظـة، بتقـاليـدها، بعيدا عن مواكبة التعليم الحديث الذي أدخلته الحماية وأصبحت اللغة القومية فيه أجنبية.

وإذا كان التعليم النسوي ضعيفا في انتشاره ومردوده فقد كان هناك تعليم صناعي تتولاه مؤسسات خاصة تدعى دور المعلمات، وقد ظل هذا النـوع من المؤسسـات يؤدي مهمتـه حتى عهـد قريب بعـد الاستقلال. وهكذا كان البنات يتعلمن فنون الطرز والخياطة والنسيج وصنع الزرابي، وبـذلـك يتلقـين خبرة عمليـة تفيدهن في تدبير المنزل وضمان مورد للعيش عنـد الحـاجـة، فكـان هذا التعليم يوازي حمايـة الفتاة من الجهل المطلق ويعوض بعض نقصها في التكوين الثقافي.

وشهـدت هذه الحقبـة توسعـا كبـيرا نسبيا في المدارس الخاصة التي تختلف شكلا ومهمة : 1ـ الكتاتيب 2ـ دور الفقهاء والمربين 3ـ الزوايا 4ـ المدارس الطلابية الرسمية 5ـ المساجد.

إن التعليم في جل هذه المؤسسـات لم تكن تحدده تشـريعـات ولا لوائح قانونية، لكن هناك أعراف تنظم شؤون الكتاتيب التي تخضع لرقابة

1ـ محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 285

2ـ عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر، 1، 65

مشـتركـة بين المحتسبين ونظار الأوقاف عندما يكون للكتاب وقف معين. وعلى العمـوم فإن الكتّـاب يسـاعـد على رفع الأمية في الأحياء والقرى، بينـما تقـوم دور بعض الفقهـاء بتكـوين يختلف من المـرحلة المتـوسطة إلى مرحلة التخصص. وتؤدي الـزوايـا دورا مشـابهـا وربـما تلحق بها أيضـا كتـاتيب. ولكن مهمتهـا أيضـا تلقـين الـذكـر والأوراد وإخضـاع روادها لتـوجيـه روحي وقـد يصبـح توجيهـا سيـاسيا كما هو شأن الزوايا الكتانية والفاضلية والوزانية. ويتوفر عدد كبير من هذه الزوايا على أوقاف خاصة أيضـا ويحصـل على هبـات من الخواص وربما من المخزن أحيانا، كما أن عددا غير قليل من الزوايا تحظى بإعفاءات من الضرائب والتكاليف المالية رغبة في أن تضمن ولاءها ومساعدتها للدولة أو في الوقوف مع اتجاه رسمي معـين، حيث نجـد ولاء الـزوايـا يتـوزع بين مجمـوعـة من الأمراء الذين يتنـازعـون على العرش. وقوة الزاوية تقاس بمقدار عدد أتباعها وفروعها وشخصية زعمائها.

أمـا المـدارس الطـلابيـة الـرسميـة فهي استمـرار للنموذج المريني والأندلسي. وأنشأ بعض الملوك عددا منها بعدة مدن، كمدرسة الشراطين بفـاس من إنشـاء مولاي رشيـد وكالمدارس التي أنشأها محمد الثالث بأنفا ومراكش والصويرة.

وأنشئت قليل من المؤسسات المتخصصة خارج التعليم النظري، ومن بينهـا مدرسـة الأوديـة بالرباط والتي أنشأها مولاي إسمعيل لتكوين روادها في الملاحة البحرية (3)

على أن المـدارس الطـلابيـة نفسهـا هي مدارس تخصص تشـرف الدولة على أنظمتها وتؤدي رواتب أساتذتها والقائمين عليها.

أمـا المسـاجد فيختلف دورها التعليمي من حلقات شعبية للتوعية الـدينيـة والفكرية، حيث يمكن للجماهير التي تتكون أغلبها من الحرفيين أن تستمـع إلى دروس السـيرة النبـويـة ودروس الـوعـظ وحتى الحـديث والتفسير، إلى حلقات لشرح بعض المتون التعليمية للتلاميذ المبتدئين،

3ـ م. س. ص 12

في النحو والفقه وغيرهما. ثم حلقات تلقى فيها دروس معمقة يتتبعها طلاب متقدمون سنا وتكوينا (4).

كان التعليم في جميع هذه الأطوار والمؤسسات بدائيا في طرقه التربوية والتلقينية، وفي معظم الحالات بعيدا عن أبسط الشروط الصحية سواء من حيث نظافة الأماكن أو موقعها أو تخطيطها وتجهيزها. وإذا كان هذا التعليم يحافظ على تقاليد الشعب ويراعي اهتماماته الدينية من حيث المظهر، فهو لم يكن يستجيب للزوح الإسلامية التقدمية التي تجلت في صدر الإسلام نفسه وفي عهود ازدهار حضارته الوسيطة. وهذا ما أدركه الواعون من بين المثقفين فضلا عن المسؤولين، وبخاصة منذ عهد الحسن الأول، فدعوا، أوعملوا على إدخال تغييرات في توجيه التعليم وإصلاحه، على ضعف في مردودها وسعة مداها.

وكان التعليم في الكتاتيب القروية يخضع من حيث تنظيمه لبعض الأعراف المحلية والتي لا تتفاوت كثيرا في مبادئها، وهي على أي حال موضع عناية النوازل الفقهية وبخاصة منذ القرن العاشر (16 م). فقد كان المعلم (أو الطالب كما كان يدعى) يتعاقد مع الجماعة المقيمة بالقرية أو الدوار على أن يتولى التعليم عندهم مقابل شروط مادية، نقدية وعينية، وعلى أن ترضى الجماعة بتعليمه بعد اختباره لأيام قليلة، وتقع المشارطة (التعاقد) كتابة عند ذلك لمدة سنة وقد تتجدد إذا أظهر الطالب مقدرة وحسن سلوك (5). وكان هذا الوجه من التقاليد القروية عجيبا في شكله وجوهره، فالجماعة هي التي تختار المعلم، وهي التي تراقب نشاطه التربوي وحتى سلوكه الخاص وهي التي تؤدي راتبه، وكل هذا يتم بعيدا عن تدخل الدولة وبحماية فقهية لا تجامل أي جانب. ويظهر أن كتاتيب المدن لم تكن تحظى بهذا النظام الشعبي القويم في أكثر من وجه، ولذلك كان المخزن ينفحها ببعض الصلات التي تقدم من الأوقاف أو من بيت المال، وعلى العموم كان يستفيد من هذه الصلات فقهاء وطلبه وقائمون على المساجد (6).

4 - يرجع ما سبق أن أورده المؤلف في «المغرب عبر التاريخ» بشأن مؤسسات التعليم التقليدية، وانظر: جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي. من أعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 297 و 339. وتاريخ تطوان لمحمد داود، 6، 285، وكذلك سوس العالمة لمحمد المختار السوسي و Deverdun, Marrakech, p. 567 Champion, le Maroc et ses villes d'art.

5 - ابن سودة، قبيلة زعير، 1، 90.

6 - بنمنصور، الوثائق، 2، 44.

وكـان نزلاء المـدارس من الطـلاب بالقـرويين ينتمون في غالبيتهم إلى الجهات الأخرى غير فاس، وبينهم جزائريون وسودانيون. ويعتبر غير الفـاسيـين آفـاقيـين كما كانـوا يدعـون، ولم يكن الطـلاب تنقصهم روح الرفض والثورية التي يتسم بها الطلاب في أقطار أخرى أيضا، وقد يحدث من سوء تصرف السلطة إزاءهم ما تخشى عواقبه.

وحدث سنة 1211 / 1796 أن تهدم جزء من الطابق العلوي للمدرسة المصباحية بفاس، فعمد القائد أحمد اليموري الى إتمام هدم أربع عشرة غرفـة، فغضب الطـلاب واعتصمـوا بمسجـد فاس الجديد بجوار القصر الملكي وأخـذوا يقـرأون القـرآن حتى أثـارت أصـواتهم انتبـاه السلطـان فاستقبلهم وأمـر بتعـويضهم عن خسـائرهم وأصلح ذات البين فيما بينهم والقائد (7).

وفي مراكش أقيم حفل رسمي سنة 1271 / 1854 على إثر قمع ثورة ابـراهيم اليـزدكي بالصحـراء، ودُعِي الطلبـة إلى القصر الملكي مع فآت اجتماعية أخرى، فلما سأل العاهل عمن بقي بدون إطعام قيل له لم يبق الا الطلبـة والطحـانـون، فغضب الطلبـة لذلـك، وانصـرفـوا رغم استعطاف الحاشية، ثم دعاهم العاهل في اليوم التالي وأكرمهم ثلاثة أيام متـواليـة. وعنـدمـا أجـري على طلبـة مدارس فاس اختبار في حفظ متن خليـل، حصـل النـاجحـون على صلات جزيلة، وكـان ذلـك في عهد مولاي سليمان (9).

وإذا كان الطلبة يقفون بصمود إلى جانب الأساتدة الذين يجمعون بين المقدرة العلمية والسلوك الملتزم، فهم بعكس ذلك ينفرون ممن ينقصه هذا الجـانب أو ذاك من شخصيـة الأستـاذ المثـالي كما كان في تصور الرأي العـام. وهكـذا رفض طلبـة مراكش دروس العـالم محمـد بن إبـراهيم الهشتوكي فجاهروه بالنكير وهتفوا ضده حتى انسحب مضطرا إلى سوس (10).

---

7 ـ الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 368 ـ 370

8 ـ ناصري ، استقصا ، 9، 68

9 ـ ضعيف ، م،س،ص 391

10 ـ عباس المراكشي إعلام ، 5، 347

ومتعت السلطة العليا كلا من طلبة القرويين وطلبة مراكش بإقامة حفل سنوي عرف بحفلة سلطان الطلبة، وذلك أن طلبة فاس ساعدوا مولاي رشيد على القضاء على اليهودي ابن مشعل الذي كان ذا ثروة عريضة ونفوذ سياسي حقيقي بمنطقة تازا وبني يزناسن، وكان يحتال بواسطة أعوانه على أعراض بنات الأسر الفاسية، فقام مولاي رشيد وهو طالب بإثارة الطلبة ضد ابن مشعل، وتم له الاستيلاء على أمواله والفتك به، وساعدته تلك الأموال على تنظيم حركة قوية لتوحيد المغرب، ومن ثم دعا الطلبة الى إقامة حفل سنوي ينصبون فيه سلطانا من بينهم يمكن أن يحصل من العاهل الحقيقي على إطلاق سراح بعض المساجين وربما على امتيازات أخرى. وكانت هذه السلطنة المؤقتة تشترى بالمزاد العلني ويغطي صاحبها مصاريفه أضعافا بما يحصل عليه من هبات ملكية ومساعدات مخزنية لإقامة الحفل (11).

وتأخر الاحتفال المذكور بمراكش الى عهد السلطان محمد الثالث فلم يكن يجري إلا إذا كان حاضرا بها، وكانت الاجتماعات التمهيدية تنعقد بمدرسة ابن يوسف، أما معسكر سلطان الطلبة فينصب بحدائق رياض العروس أو بأحد الجنائن الملكية بعد اختفاء الحدائق المذكورة (12).

وفي سنة 1211 ه وقع النزاع بين طلبة المدن وجبالة من جهة، وطلبة بوادي الشاوية ودكالة وغيرهم من جهة أخرى، وذلك بمدرسة الشراطين، فنصب كل من الفريقين سلطانا.

ولم تكن رعاية الطلبة تكتسي طابع الاستمرار والتنظيم والتعميم، فهي مرهونة بالمناسبات الدينية والاعتبارات الظرفية والسياسية. وهكذا كان الطلبة يعيشون في كل أنحاء البلاد عيشة بؤس وضنك. فبحلول القرن العاشر (16م) انتهى ما كان ينعم به الطلبة بفاس خاصة، من مساعدات مادية وغذائية، وحل محل ذلك غرفة متواضعة غير مفروشة، وخبزة يومية، وعلى الطلبة كل الباقي وهو كل شيء تقريبا، لكن الطلبة

---

11 ـ يراجع عن حفل سلطان الطلبة، جامع القرويين للدكتور ع. الهادي التازي، و Caille, la petite histoire du Maroc 1, 178

12 ـ Deverdun, Marrakech, p. 570

كانـوا من القنـاعـة والـرضـا بواقعهم اليـومي بحيث يهتمون بدرجة أولى بالدرس والتحصيل على عقم الدراسة محتوى وطريقة.

ولم تخل هذه الفـترة من تدخـل الـدولـة بين الحين والآخر في تحديد المـواد الـدراسيـة أو الكتب المقـررة. ويظهـران كلا من السلطـانين محمد الثالث ومولاي سليمان كان له أوفر نصيب من هذا التدخل، لاسيما ما يهم التـدريس بمساجد فاس. ولذلك نص منشور بشأن المواد الدراسية على كتب معينة (13):

1 ـ الحـديث: المسـانـد، كمسند ابن حنبل، والصحاح كصحيح البخاري وصحيح مسلم

2 ـ الفقـه: مدونـة سحنـون، البيـان والتحصيل والمقدمات لابن رشـد، وجـواهر ابن شاس، ورسالة ابن أبي زيد ونوادره، ومختصر خليل بشروح بهرام والخرشي والمواق والحطاب والأجهوري، وكتب الفقه القديمة.

3 ـ السيرة: الاكتفاء للكلاعي وسيرة ابن سيد الناس

4 ـ النحو: الألفية والتسهيل

5 ـ البيان: الإيضاح والمطول

6 ـ الأدب واللغـة: دواوين ستـة شعـراء ومقـامـات الحـريـري والقاموس ولسان العرب

7 ـ الكلام: عقيدة ابن أبي زيد

8 ـ التفسير والتصريف والأسطرلاب والحساب باختيار الأستاذ

9 ـ المنطق والكـلام والفلسفـة وكتب غلاة الصـوفيـة والقصص: منعت بحجة إقبال طلبة البادية عليها وتركهم حلقات الفقه والحديث واللغة.

ويظهـران إجـراء السلطـة العليـا هذا لم يكن عن جهل لقيمة هذه العلوم وكتبهـا ولكن لأن العـاهـل نفسـه كان حديثيَّ النزعة يرى الرجوع الى أصول الشريعة والعلوم التي تدور في فلكها مباشرة دون غيرها.

على أن السلطان محمد الثالث قد اهتم فعلا بالدراسات الحديثية كما يأتي تفصيـل ذلـك في باب فنون المعرفة. وبعض الكتب التي وضعها

---

13 ـ محمد بن عبد الله، الفتوحات الإلهية، مقدمة المدني بلحسني ص و

هو نفسه أو أشار بوضعها كانت مما أضيف الى المقررات ككتاب الفتوحات الإلهية الذي ذكر الضعيف أن محمد بن أبي القاسم السجلماسي كان يتولى تدريسه بالرباط (14) . وكان هذا العاهل ضد تدريس المختصرات بصفة مباشرة ، بما في ذلك مختصر خليل والحاجب حتى كاد الناس يتركون قراءة خليل كما قال المشرفي . وكان يفضل الرسالة والتهذيب ويحض على مذهب الأشعري ومذهب السلف ، وينهى عن قراءة التوحيد بالطريقة التقليدية ، وهذا حسب كلام المشرفي . أما الناصري فيؤكد منع قراءة كتب التوحيد المبنية على مذهب الأشعري (15) . وهذا ما يتفق مع مخطط محمد الثالث

أما مولاي سليمان فأعاد توجيه العناية إلى المختصرات لاسيما مختصر خليل .
وانتقد الناصري في الاستقصا سياسة اللجوء الى المختصرات ، واحتج على عقمها بآراء مربين من مختلف النزعات كأبي بكر بن العربي والشاطبي وابن خلدون ، وكلهم اتفقوا حسب قوله على «أن سبب نضوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله فيه ، إكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم ، وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني ، الواضحة الأدلة ، التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة . . . » (16) .

وهكذا انتشرت طريقة التعليم بالمختصرات كما كانت قبل عدة أجيال من هذه المرحلة ، فلم تكن دعوة محمد الثالث سوى حدث عابر . بل إن عدوى المختصرات امتدت بشكل لم يكن معهودا من قبل ، إلى مؤلفات أو موضوعات لا مكان لها غالبا في مجال التدريس ، فرأينا الحضيكي ، يختصر الإصابة ، وعلى الحريشي يختصر نفح الطيب وهكذا (17) . على أننا نجد الحضيكي يتولى تدريس مختصره المذكور بمراكش (18)

---

14 ـ ضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة ، ـ 202 و 234

15 ـ مشرفي ، حلل بهية ، ص 159 ، ناصري استقصا ، 8 ، 68

16 ـ استقصا ، 8 ، 67

17 ـ انظر الصفحات من 276 ـ 280 من فهرس الخزانة الملكية ، ج 1 ، إعداد محمد عبد الله عنان

18 ـ عباس المراكشي ، إعلام ، 6 ، 84

ويظهر أن المراكز التعليمية الأخرى غير فاس لم تتأثر بتقنينات الكتب والمواد التي ألزم بها أساتذة وطلاب فاس، ولذلك نرى المنطق يدرس بمراكش كما نشاهد كتبا أخرى يتناولها الطلاب كتلقين القاضي عبد الوهاب وجمل الخونجي (19). بل إن الشيخ محمد التاودي بن سودة معاصر السلطان محمد بن عبد الله قام على تدريس المنطق بفاس مع مواد علمية أخرى (20).

وخارج الفترة المذكورة حرر الأساتذة والطلبة من التقنينات الرسمية فدرسوا عقيدة التوحيد بطريقة السنوسي وشرح الألفية للمكودي وتحفة الحكام، وتولى بعض الأساتذة تدريس عدة أراجيز في التجويد بالإضافة إلى بعض الكتب العلمية كمنية ابن غازي في الحساب ورسالة الصفار في الاسطرلاب. ونجد كتبا كثيرة تحظى بعناية الطلبة والأساتذة، ولكن الطرق التعليمية ومحتوى الكتب شكلا وجوهرا يتشابه ويكرر بعضه بعضا (21).

وتحدث الناصري مؤلف الاستقصا (22) عن بعض الكتب والمواد التي درسها على الفقيه القاضي محمد عواد، ومنها على الخصوص الإحياء للغزالي وعوارف المعارف للسهروردي، بالإضافة إلى كتب متداولة كالشفا والصحيحين والاكتفاء للكلاعي.

وكذلك قام الشيخ محمد الكتاني في آخر مرحلة من الفترة التي تتناولها هذه الدراسة بشرح الفتوحات المكية لابن عربي والإحياء للغزالي والحكم لابن عطاء الله. وقام على تدريس الكتب الصحاح وغيرها كما كان يدرس التفسير بطريقته الخاصة، وكان في ذلك من القلائل الذين تحولوا من دراسة الكتب إلى المواد (23).

أما في ميدان العلوم التجريبية فقد تباعد مستوى الطلبة كثيرا عن التقدم الكبير الذي حصل في معاهد الغرب، وهكذا لاحظ زائر فرنسي للمغرب خلال القرن التاسع عشر (24) أن القرويين التي عرفت

---

19 ـ م. س. ج 1، 219
20 ـ م. س. ج 6، 140
21 ـ م. س. ص 82 ـ 83، 143، 321 . 2، 456 . 8، 321
22 ـ استقصا، 9، 165
23 ـ محمد الباقر الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 153 ـ 154
24 ـ 270، Hoefer, Empire du Maroc, p

ازدهارا كبيرا في العصر الوسيط لم تعد تدرس بها في المواد العلمية المذكورة إلا مبادىء الهندسة حسب أقليدوس، بينما يتلقى الطلبة عن نشأة الكون ما تضمنه القرآن (كان المستشرقون يجهلون الحقائق العلمية الدقيقة بشأن الكون، والتي وردت في القرآن). أما وصف الكون فيدرس حسب نظريات بطليموس. ويقتصر تدريس الفلك على معلومات ضرورية لمعرفة أوقات الصلاة مع استعمال اسطرلابات بالغة الخشونة. وليس للجغرافيا مكان في برامج التعليم، بينما تدرس الفيزيقيا حسب أرسطو. وأهم ما يشغل بال الطلاب هو ما يتناول ما وراء الطبيعة. وبالمغرب مؤرخون قلائل وهم يجهلون كل شيء عن تاريخ أقطار أخرى. وإذا كان هناك من يشتغل بالكيمياء التقليدية، فإن الطب يقتصر على الروحانيات ولا مكان للتشريح ولا للتاريخ الطبيعي، وحتى اللغة انحط مستواها إلى درجة أن الطلبة قد يجهلون قراءة ما يكتبونه (انتهى ما لاحظه الزائر المذكور).

والواقع أن جل هذا الكلام يصادف وجه الحقيقة، فإن كتب القلصادي ومنية ابن غازي وسائر الأراجيز المتداولة في العلوم لم تكن إلا شروحا وترديدا لنظريات الإغريق ومسلمي العصر الوسيط. فقد تخلف هذا العصر حتى عن نظريات نيوتن وغاليليو وديكارت. وهو لا يساير تطور الغرب المعاصر الذي أخذ يطبق الرياضيات على الفيزيقيا، وتوصل إلى عزل كثير من المواد الكيماوية وتقدم خطوات في علوم أخرى كالآثار والجيولوجيا والجغرافيا، ولذلك كانت المبادرات المحدودة بتوجيه بعثات طلابية إلى خارج المغرب قبل السلطان مولاي الحسن، ثم الاهتمام المتوالي الذي أبداه هذا العاهل بشأن تكثير البعثات إلى الخارج تطورا عظيما بالقياس إلى التخلف العلمي الذي سجله المغرب مدة تزيد عن خمسة قرون.

وينظر إلى الأستاذ المثالي على أنه ذلك الذي يشغل وقته بالمطالعة والبحث ويصبر على التدريس أطول وقت ممكن في اليوم، فقد قيل عن محمد بن المدني جنون أنه قد يجلس من الصباح إلى قرب الزوال لإلقاء محاضراته. وذكر أن الشيخ محمد الكتاني كان يجلس للإلقاء من الظهر إلى المغرب. والأستاذ كباحث يقوم بتدوين ملاحظاته بهامش المصنفات، وهو

مع هذا ملتـزم بعيـد عن التملق للولاة والمسؤولين. وشبه المراكشي الفقيه جنـون بابن الحـاج العبـدري في تشـدده على المناكر وبعض ما اعتبره من البدع كآلات الطرب والسماع (25).

وبعض المثقفين ينظرون بتقدير خاص إلى الأساتذة الذين جمعوا بين علوم الشريعة وعلوم الباطن وسلكوا مسلك الصلحاء في زهدهم وحافظوا على هيبتهم في نفـوس الـدارسـين عليهم. وهكذا قيل عن محمد أزنيط المتوفى سنـة 1317 / 1899 أنـه كان يعتكف في المسجد (بمراكش) ليلا ونهارا وأنـه اشتغـل بالتـدريس أربعـين عامـا. وكثـيرون رفضوا مناصب مغرية وفضلوا منصب التدريس أو العدالة.

على أننـا نلاحـظ أن العلماء كلما اقـتربت أزمة البلاد من انفجارها بفـرض الحـماية، ازداد عدد المتحفظين منهم في رفض إغراءات السلطة. فإن الفقيه محمد البريبري الذي لم يكن يمارس التدريس الا في نطاق ضيق لروحه الانغزالية رد ثلاثة أخماس راتبه إلى بيت المال محتجا بأن خمسه فيه كفاية لمعاشه.

وكان العالم علي بن أحمد بن دينية الرباطي يتعيش من نسخ الكتب ويقوم بتدريس الكتب المطولة التي زهد فيها غيره.

واشتغل أحمد بن عبد السلام ملين بالتجارة يرى فيها كسبا حلالا وبعيـدا عن وظـائف المخـزن التي تقيـد حريـة المنتسبـين إليها وقد يصبح بعض هواتهـا مدجنـين لا يملكـون صدق الكلمـة. ولم تمنع التجارة هذا العـالم من أداء مهمتـه التثقيفيـة. واحـترف آخرون العدالة كمهنة حرة، وكانت مهنة شريفة بالنسبة لمن نزهوا أنفسهم عن الزور (26).

وهذه الصور الطيبة كانت توازيها في الطرف الآخر صور سيئة تحط من قيمة الجماعة المثقفة. فهناك مرتشون ولماعو أحذية يزينون السوء للكبار في أوقات كان الميل فيها مع الحق أوجب وأقرب إلى الخير منالا.

وتخلتف طرق التدريس أو تتقارب بين بعض المدرسين حسب نوع تكـوينهم ومؤثـراتهم التربوية والتثقيفية ودرجة مواهبهم في التبليغ. فهناك

---

25 ـ عباس المراكشي، إعلام، 7، 55 ـ 56

26 ـ يراجع بشأن النماذج المذكورة، م. س. ص 116 وج 8، 311. عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر، 2، 25، 74، 95، 104، 339، 356

من تنفذ معلوماته إلى الطلبة مهما ضعف مستوى استيعابهم، وهذه حال الفقيه محمد أزنيط الذي كان يدرج دروسه على ثلاث مراحل، أولاها يبسط فيه العبارة والمادة، وثانيتها يعيد المعلومات مرتبة وثالثها يوجز حتى يساير جميع المستويات ويجعل الحقائق ترسخ في أذهان الطلاب (27).

وهناك من لا يلجأ إلى تقريرات الآخرين وخلافاتهم بل يتجه إلى المعلومات مجردة عن الاعتراضات والاحتمالات ويدعمها بالحديث والقرآن. وكان محمد الطاهر بن عبد الكبير الفاسي (ت. 1324 / 1906) يسير على هذه الطريقة ويستنكر التدريس بطريق الحواشي والخلافات والأقوال التي تشوش ذهن الطلاب (28). وكان مع هذا شديد الحافظة، وقد كان حفظ المعلومات والأقوال دليلا على متانة المعرفة (29). ولم يكن الاستنتاج الشخصي والاجتهاد في عرض المشكلات والقضايا والوصول إلى النظريات الخاصة من المميزات العلمية المألوفة. وبالمقابل كانت هناك فئة تميز بين الأحكام المردودة والمقبولة وتحقق في مسائل المعرفة التي من اختصاصها (30).

وجمع بعض الفقهاء كمحمد بن الجيلالي السباعي بين قوة الحافظة وبراعة الإبداع الأدبي. وكان يحفظ قاموس الفيروزبادي وتفسير القرطبي وغيره (31). وقد كان من هذا النموذج عديدون وأغلبهم لا يقدم إنتاجا مكتوبا.

وقارن محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي في رحلته المشرقية بين طرق التدريس بالمغرب والمشرق، فذكر أن «عادة المشارقة اليوم في النوازل الفقهية مالكية وغيرهم، أنهم يعتمدون تقريرات وظواهر ولا يعتنون بمطالعة كتب الأحكام الفقهية كالمعيار (32).

وهذه الطريقة الشرقية التي يمكن أن نسميها بالطريقة التقريرية المباشرة أو الذاتية هي التي كان يسير عليها بعض الأساتذة المغاربة

27- مراكشي، أعلام، 7، 112
28 - م. س. ص 141
29 - م. س. جس 6، 81، 93
30 - م. س. ص. 94
31 - م. س. ص. 149
32- م. س. ص 210

المتأخرين. وابن ناصر المذكور هو شيخ الزاوية الناصرية ومعاصر مولاي سليمان. وكان على اطلاع واسع بالمعارف الإسلامية والدينية.

وحيث إن الطلاب الذين يهتمون بدراستهم لا يجدون مغريات تشغلهم ولا مسليات تلهيهم فإنهم يصرون على تحصيل أكثر ما يمكن من المعلومات في فروع المعرفة التي في متناولهم. ومن هذا الصنف من أصبحوا أساتذة بارزين :

1- إدريس بن محمد المنجرة (ت. 1137/1724) درس التصوف والقراءات السبع والعشر، والنحو والحساب والأوفاق والفقه على عدة مذاهب بمصر وحصل على إجازات كثيرة من علماء المغرب والمشرق (33).

2- أحمد بن عاشر الحافي (1163/1749) درس النحو والتصوف والفقه والتفسير والحديث والبلاغة والمنطق والكلام والعروض وأجازه عدد كبير من علماء مراكش وفاس وغيرهما (34).

3- محمد بن محمد العلوي المدغري (1325/1907) درس بمدغرة وفاس وجمع بين عدة علوم كالفقه والتفسير والتصوف والنحو وقام بالتدريس سنين عديدة بالزاوية الحمزاوية وفي آيت عياش واستفاد من خزانتها الكبيرة (35).

4- محمد بن ابراهيم السباعي (1332/1913) الذي تحدث عنه عباس بن إبراهيم المراكشي في الإعلام بقوله (36) «كان صدرا شهيرا حافظا نقادا موفور الحظ في الحديث والتفسير والأصلين والعربية والتاريخ، متقدما في الفقه حافظا مستحضرا لقواعده، مستشهدا لها من الكتاب والسنة والإجماع، يقيس الأشباه والنظائر، ويستخرج من النصوص الفوائد، يهجم بالمعقول على المنقول، ويعارض ويرجح ويرد ويزيف، ويقول (نحن رجال وهم رجال). وانتهت إليه رئاسة قلم الفتوى في مراكش مع كثرة من كان بها من الشيوخ آنذاك...». وقال أيضا : (37) «وكان متبحرا في أيام العرب ومعرفة وقائعهم، حافظا لما

33- م. س. ج 3، 19
34- م. س. ج. 2، 380
35- م. س. ج. 7، 45 - 147
36- م. س. ص 192
37- م. س. ص. 193

كانوا يوردونه من أمثالهم وحكمهم وأشعارهم، وأشعار المولدين، وتاريخ الإسلام والقضايا الواقعة قديما وحديثا. وكان له رحمه الله لسان حاد وقلم كالسيف لا يبقي ولا يذر على المبتدعين والمخالفين للشرع المطهر».

وواضح أن اتساع ثقافة هذه الشخصيات قد يؤدي إلى تميز أغلبها بالاستقلال الفكري وفرض ذاتيتها سياسيا أو اجتماعيا أو في كلا الميدانين.

التبادل الثقافي مع أقطار المغرب الكبير

اعتاد المغاربة الذين يتوجهون إلى المشرق برا بقصد الحج، أن يقضوا فترة من سفرهم في الاتصال بالمثقفين والعلماء، فيتلقون مزيدا من التكوين العلمي أو يقومون بالتدريس تطوعا لبعض الوقت. خلال ذلك تتاح لهم فرصة التعرف على النشاط الثقافي والتطورات العامة بالجهات التي يحلون بها. وهذه الظاهرة لم تكن خاصة بهذا العصر فهي قديمة قدم الفتح الإسلامي واتسع مدها مع العصور. وعلى سبيل المثال فان محمد ابن عمرو الرباطي (1244 / 1828) توجه إلى الحج قبل بضع سنوات من وفاته فحضر في تونس دروس العالم إبراهيم الرياحي الذي كان قد وفد على المغرب قبل ذلك، وكذا دروس محمد بيرم الأصغر، ومحمد المحجوب ومصطفى بيرم وغيرهم، ثم تبادل معهم الإجازة أخذا وعطاء، وهذا من النوادر (38).

وحل العالم الأديب التونسي إبراهيم الرياحي بالمغرب سنة 1218 / 1803)، موفدا من لدن باي تونس حمودة باشا على إثر مجاعة حلت بالقطر التونسي فطلب باسم حكومة تونس مساعدة من الحبوب وقام المغرب بواجبه في هذا المجال. ولقي الرياحي قبولا حسنا من جانب علماء فاس ومن السلطان مولاي سليمان الذي استمع الى قصيدة مدح منه. وحل الرياحي بسلا وأجازه أحد علمائها محمد الطاهر المير. ونقل الرياحي الطريقة التيجانية مباشرة عن مؤسسها أحمد التيجاني بفاس الذي حظي بعطف خاص من مولاي سليمان ورجالات المخزن عموما (39).

38- م.س.ج 6، 221 ـ 222

39- بنمنصور، أعلام، 1، 166

وتناول عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري في رحلته «لسان المقال، في النبإ عن الحسب والنسب والآل» والتي كتبها سنة 1158/1745 اتصالاته بعلماء المغرب دارسا ومستجيزا، ومنهم محمد بن عبد السلام بناني وأحمد الورزازي الذي كان بناني هذا يعده معتزليا. واتصل أيضا بالشيخين عبد السلام القباب وعبد القادر الفاسي وقال إنه لم يحصل منهما على طائل. ويظهران أن الشيخ الفاسي قد أصبح عاجزا عن العطاء بسبب سنه، ففي أيام مولاي إسمعيل كان يحمل في محفة، وحضر أيضا مجالس الطبيب عبد الوهاب أدراق، وهو طبيب القصر الملكي، كما حضر مجالس علماء آخرين. وابن حمادوش عالم فلك وهيئة وطبيعيات وذكر أسماء عدد من مؤلفاته في هذه المجالات (40).

والتحق بالمغرب عدد كبير من المثقفين الجزائريين بعضهم إبان الاحتلال الإسباني لبعض ثغور الجزائر وبعضهم في فترات لاحقة، وبالأخص عند الاحتلال الفرنسي. وذكر السليماني في «اللسان المعرب» أسماء عدد من الأسر العلمية المهاجرة، ومن بين علماء الجزائر الذين استقروا بمراكش وساهموا بدور نشيط في التثقيف والتوعية العالم عبد القادر بن محمد الراشدي الذي أسند إليه قضاء مراكش (41).

وجمع الراشدي، وكان يلقب أيضا بالشركاوي (كاف معقودة) بين عدة علوم كالنحو والمنطق والبيان والحساب والتنجيم والفقه والحديث والأصول. وتولى التدريس مدة بالقرويين أيضا. وكانت وفاته سنة 1272/1855

واجتمع أبو القاسم الزياني (1249/1833) بعلماء قسنطينة وبعض صلحائها كعلي بن مسعود الونيسي والفقيه الحفصي العلمي والمفتي أبي القاسم المحتالي. ولقي ترحابا خاصا من بايها كما تحدث بذلك في «الترجمانة الكبرى (42)».

وتنقل المثقفين والدارسين بين المغرب والجزائر كتنقل ساكن القطر الجزائري بين وهران وتلمسان، وساكن المغرب بين فاس ومكناس. فلائحة التبادل أطول من أن تحصر، والمراسلات السياسية كان لها موضع

40- د. أبو القاسم سعد الله، مجلة الأصالة، أكتوبر 176

41- مراكشي، إعلام، 8، 463

42- زياني، ترجمانة كبرى، ص 153-159

أثير بين العلماء. وهكذا كان الشأن فيما تبودل بين الأقطار الثلاثة من خطابات ومذكرات بشأن الحركة الوهابية وأشار لبعضها الناصري في الاستقصا، وفيما تبادله الزعيم عبد القادر الجزائري من استشارات سياسية وفقهية مع علماء المغرب فضلا عن غيرهم. وفي تحفة الزائر جملة من نصوص الاستشارات والردود.

البتادل الثقافي مع السودان

إن الزوايا القادرية بفروعها في كل من درعة وتافيلالت والصحراء الجنوبية والغربية وأقطار إفريقيا الغربية هي قبل غيرها محاور وملتقيات فكرية واجتماعية لأتباع الطريقة وتلاميذها وشيوخها. فهناك نشاط دؤوب بين هذه الأقطار والمراكز يمتد أيضا بموازاته نشاط اقتصادي بالرغم من ضعفه كلما تقدم الأجنبي في تغلغله. ولا يوجد مع هذا فاصل جغرافي أو إثنولوجي بين العناصر الزنجية المغربية وأشقائها بالأقطار المجاورة. وكثيرون من علماء السودان لقوا ترحابا وتجاوبا من المغاربة، فمحمد بن محمد بن سينة الفلاني وهو شيخ معمر (ت. 1186) عرفه طلبة مراكش بجودة الفهم وقوة الحفظ كما قال عباس المراكشي، وهو من منطقة مسوف من قبيلة فلانة التي قيل إن نسبها يتصل بالخليفة عمر بن الخطاب (43).

وكان الفقيه الأديب أحمد بن الأمين الوداني يتلقى بعض الحلول الهندسية على السلطان محمد بن عبد الرحمن بمراكش قبل أن يتولى تدريسها بهذه المدينة، وذلك اعتمادا على كتاب «اقليدس (44)» الذي استعان به العرب قرونا عديدة.

وتلقى عدد كبير من طلبة المغرب الطريقة المختارية الكنتية، ومنهم محمد بن أحمد بن دحو الأزموري (ت. 1284/1867) الذي تلقى الطريقة على يد المختار الخليفة تلميذ مؤسسها المختار الكنتي بالصحراء المغربية. ثم شيد ابن دحو زاوية لهذه الطريقة بأزمور حيث درس على يده كثيرون أجازهم كإبراهيم التادلي وزين العابدين بناني وابن المعطي السرغيني (45).

43- مراكشي، إعلام، 6، 81
44- م. س. ج 2، 409
45- م. س. ج 6، 317 - 319

ومن علماء درعة أحمد الكاملي (ت. 1315/1897)، وهو رحالة زار المشرق والهند واستقر أخيرا بمالي ثم بتندوف، وكانت له اتصالات بعلماء السودان وتأثير بالمناطق التي حل بها (46).
ومن الشخصيات الكبرى التي يتنازعها السودان والمغرب صالح بن محمد العمري الفلاني وهو من أفذاذ المشاركين في المعارف الإسلامية وقام بالتدريس في مختلف أنحاء المغرب حسبما نقله المراكشي في الإعلام (ج 7).

وازدادت الصلات الروحية والثقافية متانة بسبب انتشار الطريقة التيجانية بإفريقيا الغربية انطلاقا من المغرب، خصوصا مع وجود ضريح مؤسسها بفاس وتقاطر أهل السودان على المغرب لزيارته.

التبادل الثقافي مع المشرق

هذا التبادل هو مطمح الأقطار الإسلامية جميعا، لأسباب دينية وغير خافية، والأفارقة هم أكثر توجها إلى المشرق، من المشارقة بالنسبة للأقطار الإفريقية. ومن أواصر التبادل مع الشرق ركب الحجاج الذي كان يتوجه سنويا باشراف وفد رسمي ضمنه عدد من العلماء المرموقين. وهذا الركب يمر عبر عدة أقطار، وبخاصة مصر، ولو بحرا، فيقيم بها مدة في الذهاب والإياب. وهناك الوفود السياسية كتلك التي كانت تتصل بالبلاط العثماني باسم المغرب أو تمثل الباب العالي لدى المغرب، وبعض الوفود تقوم بمهمات سياسية لدى أقطار المشرق الأخرى، فهناك وفد مولاي إسمعيل إلى أمير مكة بشأن ما كان يتعرض له بعض الحجاج مع وجود نزاع داخلي هناك، وكذا وفد مولاي سليمان الى الأمير سعود حول المذهب الوهابي، ووفد السلطان محمد الثالث إلى ملوك المشرق محذرا من تصرفات نجله الأمير اليزيد. وكل هذه الوفود وغيرها يمثل فيه مثقفون يجرون اتصالات مع الممثلين للفكر الديني والأدبي بالمشرق فيؤثرون ويتأثرون. وهناك أعداد كثيرة ممن زاروا المشرق استقروا هناك مدة أو بصفة دائمة واسهموا في تنشيط الحركة العلمية كما ياتي تفصيله.

46ـ ع. العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية، 3، 139

وقـدم على المغـرب عدد من علماء المشـرق بعضهم استقـر به مدة طويلة أوبصـورة نهائيـة، وعمـل كثيرون منهم على جلب الكتب ونشرها خصوصا بعد رواج حركة الطبع بتركيا ومصر ولبنان، ومن هؤلاء المشارقة:

1ـ أحمد بن عبد الحي الحلبي (47)

وهـو من أهـل حلب، حظي في المغرب بتقدير كبير، وحل بفاس، وكـان على المـذهب الشـافعي مجلى فيـه ولم يأخـذ بالمـذهب المالكي بعد استقـراره بالمغـرب. كما قيـل أنـه درس بالمشرق قبل أن يستكمل دراسته بالمغـرب على يد شيـوخ منهم المـرغيتي وعبـد القادر الفاسي. وبلغ مقاما كبـيرا في التصـوف وأنشأ شعـرا كثـيرا في المـديـح النبوي، وألف جملة من الكتب جلها ترتبط بهذين المجالين، ومنها : الحلل السندسية في المقامات الأحمـديـة، والكنـوز المختومة في أربعة أجزاء وديوان شعر ضخم في حوزة الأستـاذ محمـد إبـراهيم الكتاني وكتاب الدر النفيس في مناقب إدريس بن إدريس، وكل هذه الكتب وأخرى غيرها بالخزانة الملكية بالرباط وبعضها أيضا بخزانتها العامة (الوطنية). وكانت وفاته بفاس سنة 1120 / 1708 ودفن قرب ضريح دراس بن إسمعيل.

2ـ عبد الرحمان بن أحمد النابلسي (1305 / 1887) (48)

فلسطيني ورد على المغرب في الثمانينات من القرن الثالث عشره. وتلقى عنه بفاس والرباط والصويرة ومراكش عدد من الدارسين كالكامل الامـراني والعربي بن السائح وأحمد الوعدوني وأجازهم كما أجاز السلطان محمد الرابع بمراكش. وهو حنبلي المذهب.

3ـ محمد بن خليفة المدني (1313 / 1895) (49)

رحـــل من المـــدينـة سنـة 1305 / 1887 ودرس بالحجـاز ومصـر والجزائر، ثم قدم الى المغرب سنة 1309 / 1891 وأخذ عن علماء الأسرة الكتانية وعلى رأسهم جعفر الكتاني، كما لقي العربي بن السائح بالرباط وتنقـل بعـد هذا بين مراكش والصـويرة وآسفي وأجاز بعض طلبتها وجمع

47ـ إعلام، 2، 232. ع. العزيز بنعبد الله، م.س. ص 104

48ـ مراكشي، إعلام، 8، 150

49ـ م.س. 7، 107

عددا كبيرا من الكتب المخطوطة يقرب من عشرين صندوقا ضاعت كلها بعد وفاته. ومات شريدا بمكناس في ظروف أزمة سياسية خطيرة مرت على المغرب.

4- حسن البغداي (50)

أصله من الموصل وكان فقيها حنفيا ضليعا في المعقولات. واستقر بمراكش ثمانية عشر عاما حتى 1317/1899. وتولى تدريس العلوم العقلية بها كما قام بتدريس جمع الجوامع بالمدرسة اليوسفية بمراكش، ثم قام بالتدريس أيضا في الصويرة وسوس، ولم يظبط تاريخ وفاته.

وينتمي كل من هؤلاء الأساتذة الأربعة إلى مذهب من المذاهب الثلاثة التي تكون مع المذهب المالكي مجموع المذاهب السنية. على أنه لم يكن لهؤلاء المشارقة تأثير واسع المدى من الوجهة المذهبية، خصوصا وأن الدولة تشبثت بالمذهب المالكي منذما قبل هؤلاء العلماء بنحو ألف سنة، ولكن أكثرهم تأثيرا من حيث الانتاج والإشعاع هو أحمد الحلبي.

وأما الطلبة الذين توجهوا إلى المشرق فغالبيتهم كانوا لا يقصدون المنطقة للدراسة ذاتها بل لأداء شعائر الحج. ولكن مقامهم قد يمتد شهورا أو أعواما وقد يصبح نهائيا إما بمصر أو بمكة أو المدينة على وجه العموم. ففي هذه المرحلة لم يعد يقصد دمشق الا قليلون جدا بينما العراق اختفت تقريبا من لائحة الأقطار المقصودة، وذلك أن الحكم العثماني كان أشد وطأة في دمشق وبغداد منه في أقطار أخرى، ثم إن مصر استقلت تقريبا عن السلطة العثمانية في أوائل القرن 19 م كما فرض الوهابيون وجودهم بالحرمين. ولم يكن الطلبة كلهم شبابا بالضرورة، بل كان فيهم أيضا كهول وشيوخ وفيهم علماء ضليعون لا يستنكفون من حضور دروس زملائهم بالمشرق، خصوصا ان كانوا ذوي إشعاع وشهرة.

ونجد الطلاب المغاربة ينتمون إلى كل جهات المغرب تقريبا، ففيهم الدرعي والدمناتي والمكناسي والرباطي والفاسي والسلوي والشياظمي والمراكشي وغيرهم.

50- م. س. 3، 107

وما يدرسه الطلاب هو العلوم والفنون المتداولة بالمغرب تقريبا، كالتفسير والفقه والحديث، وبعضهم يدرسون التصوف على يد مشايخ الطرق، وبينهم من يدرسون أو يتوسعون في دراسة الحساب والتوقيت والفلك والرياضيات عموما. وعدد كبير من الكتب المتداولة في التدريس هي نفسها المتداولة بالمغرب ككتب الصحاح والسنن والزرقاني والموطأ، وهناك من تروقهم دراسة الفقه الشافعي أو الحنفي أو الحنبلي وقد يحضرون مجالسها جميعا.

وأغلب الدارسين يوسعون لقاءاتهم العلمية مع المثقفين والعلماء، وفيهم من يفضل هذه اللقاءات في مجالس خاصة أو مفتوحة للمذاكرة خارج الحلقات الدراسية. وواضح من كل هذا أن العائدين الى المغرب يرجعون بتصورات جديدة عن أوضاع المشرق والمشكلات التي يعانيها كما يقيسون مدى تقدم المغرب أو تخلفه بالقياس إلى بعض أقطار المشرق ومجتمعاته المتقدمة نسبيا كمصر. ومن الذين درسوا بالمشرق :

1ـ إبراهيم بن محمد السوسي الآيسي (1077/1666) (51)
اتجه إلى الرياضيات والفلك وتابع دراسته بمصر ثم استقر بمكة الى وفاته

2ـ الحسين بن محمد بن ناصر الدرعي (1091/1680) (52)
كان ذا ثقافة إسلامية واسعة، وجمع بين الفقه والحديث والحساب، والتفسير والقراءات وغيرها. ومن شيوخه بمصر عبد المعطي المالكي والزعتري والشيخ سلطان، وتوفي ودفن بزاوية أعلان بدرعة.

3ـ الحسن بن مسعود اليوسي (1102/1690) (53)
كانت له لقاءات مع علماء المشرق وبخاصة علماء مصر، وشخصيته أشهر من أن تحتاج الى تقديم، وسيرد ذكره أكثر من مرة في هذه الدراسة بحول الله، ومكث شهورا بمصر وكتب ولده عن رحلته الى المشرق وتوجد منها نسخة بالخزانة الملكية بالرباط.

51ـ م.س، 1، 283
52ـ م.س، 3، 200
53ـ م.س، 2، 357

4ـ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (1128/1715)

حج أربع مرات وحل بطرابلس ثم بالمدينة فدرس على بعض شيوخها وأجازه بعضهم ثم اتصل في مصر بعلي بن محمد الزعتري ودرس عليه التوقيت بكيفية موسعة وقراءة ورش على محمد البقري، وتلاميذه بالمغرب كثيرون وعرف بالتزام السنة ومحاربة البدع. وله إشعاع ثقافي في عدة مجالات.

5ـ إدريس بن محمد المنجرة (1137/1724) (54)

درس القراءات بمصر على علي بن جميل، كما درس على عدد من علماء مكة والمدينة وعدد من علماء المشرق بها وممن درس عليهم بالحرمين وأجازه عبد الجواد المنوفي الشافعي ومنصور المنوفي الشافعي، والفرضي المصري صالح بن حسن الحنبلي، وعبد الحي الشرنبابلي الحنفي المصري. ومال إدريس المنجرة الي التصوف أكثر من غيره

6ـ أحمد بن محمد الصقلي (1177/1763) (55)

صوفي كبير اجتمع في طرابلس الغرب والجريد والحرمين بعدد كبير من العلماء، لا سيما الصوفيين والطرقيين منهم، وممن اتصل بهم في مصر عبد المجيد الزبادي المغربي ومحمد بن سالم الحفناوي الشافعي، وكان للصقلي اتصالات كثيرة بالطرقيين في المغرب أيضا، ولا يبدو أنه اشتغل بالقضايا السياسية

7ـ أحمد بن عبد الله الغربي الرباطي (1178/1764) (56)

درس كثيرا على علماء مصر ومكة والمدينة، خصوصا التفسير والحديث وأجازه أكثرهم

8ـ أبو القاسم بن سعيد العميري المكناسي (57) (1178/1764)

تلقى جزءا من دراسته بالمشرق أثناء ذهاب خناثة بنت بكار إلى الحج وكان في موكبها، ولم يستجز أساتذته هناك، وغلب عليه الفقه والنحو

54ـ م. س، 3، 19

55ـ م. س. ، 2، 386

56ـ ن. م. ص 385

57ـ م. س. ، 1، 388

والأدب. وهو فاسي المولد، وتولى قضاء مكناس، وشرح العمل الفاسي شرحا وقع عليه إقبال كبير كما نقل عباس المراكشي عن نشر المثاني والتقاط الدرر

9ـ محمد التاودي بن سودة المري (58) (1209/1794)

حج سنة 1191 ولقي عددا كبيرا من علماء مصر وغيرهم، وذكره الشيخ مرتضى في القاموس كأحد شيوخه، لأن محمد التاودي عقد حلقات درس كثيرة بالمشرق ونال حظوة كبيرة هو وعقبه في عهد محمد الثالث ونجله مولاي اليزيد.

10ـ عبد العزيز أحمد المطاعي المراكشي (59)

حج سنة 1196 و1203 ثم حج ثالثة، ودرس بمصر على مرتضى الزبيدي وعلي بن عبد البر الشافعي وغيرهما، وأكثر دراسته هناك للحديث، ومعلوم أن العناية بالحديث تمكنت في عهد محمد الثالث الذي عاصره المطاعي هذا وزوده السلطان بمال كثير في إحدى حجاته

11ـ محمد بن علي العدلوني الدمناتي (60) (1306/1888)

مكث بمصر للدراسة ثمانية أعوام ودرس على الشيخين عليش والبولاقي وغيرهما، واتجه اهتمامه إلى الفقه مع اشتغاله بعلوم أخرى وتولى الفتوى والتدريس بالمغرب في مراكش وآسفي ودمنات.

12ـ محمد الطاهر بن عبد الكبير الفاسي (61) (1324/1906)

تلقى قسما من دراسته بالمشرق خصوصا بمصر والمدينة، وبين شيوخه بعض المكيين والهنود وغيرهم كرحمة الله الهندي وهاشم الحبشي الباعلوي وعابد السندي، وهو مشارك وأكثر عنايته بالحديث والعربية والتاريخ

13ـ أحمد بن قاسم جسوس (62) (1331/1912)

مال إلى الأدب، وتنقل من أجل الدراسة بين مراكش وطنجة وتطوان كما درس بمصر على عبد الهادي نجا وأحمد الرفاعي وعبد الرحمان النابلسي، ودرس أيضا بالحرمين، وهكذا (اجتمع بعلماء هذه البلاد

58ـ م. س. ، 6، 136

59ـ م. س. ، 8، 445

60ـ م. س. ، 7، 66

61ـ م. س. ، 7، 140

62ـ الجراري، من أعلام الفكر، 2، 40

فأخـذ وسمـع واستجـاز واستفـاد وكتب في ذلك كناشا خصوصيا أتى فيه على تراجم كل من أخذ عنه وسمع) كما قال الجراري مؤلف أعلام الفكر المعاصر.

14ـ الطيب بن أحمد عواد (63) (1919/1337)

درس بسـلا ثم تجول دارسـا ومتـاجـرا في أقطـار المغـرب ومصـر والقسطنطينيـة واليـونـان وأجـرى اتصالات علمية بعدد كبير من المثقفين واهتم أيضا بالجانب الأدبي كمعاصره الرباطي أحمد جسوس

وإذا كانت سلسلة الطـلاب الـدارسـين بالمشـرق أطـول من أن تحصـر، فإن قليـلا من المتأخـرين منهم اهتمـوا بحركة التجديد التي كان رائـدهـا جمال الـدين الأفغاني، ومع ذلك فإن الشخصيات السياسية التي زارت المشـرق وكـانت تتلقى أخبـاره من طريق الصحافة تأثرت بشكل أو بآخـر بما كان يحدث من تطـورات فيـما وراء المغرب الكبير شرقا. وبعكس ذلـك نلمس إقبـالا عجيبـا من المغـاربـة على دراسـة الحـديث بالمشـرق وبخـاصـة في البقـاع المقـدسـة التي تأثرت بالدعوة الوهابية. وشجع هذا الاتجـاه الحـديثي السلطـان محمـد الثـالث ومـولاي سليمان، ولذلك كان العـائـدون يحظـون عنـد الاقتضـاء برعـاية السلطة، والاقامت الأوساط الاجتماعية باحتضانهم والاستفادة الجماهيرية من حلقاتهم

أمـا الأسـاتذة البارزون الذين قضى بعضهم شطرا كبيرا من حياته بالمشـرق حيث حظـوا بمكـانـة معنـوية مرموقة، وغالبا بتكريم مادي من السلطة والمتعاطفين، فإن بينهم بعض الذين استكملوا هناك دراستهم أو وسعوها وحبب إليهم المقام لفترة أو بصفة نهائية. ومن هؤلاء الأساتذة :

1ـ أبو سالم العياشي عبد الله بن محمد (64) (1679/1090)

ولـد سنـة 1627/1037، أسرته من فيكيك (شرقي المغرب) ثم استقـرت بآيت عيـاش. درس بفاس قبل أن يواصل دراسته بمصر حيث تلقى الحديث والتفسير والفقه والأدب واللغة وغيرها، ولقي بمكة شيوخا كثـيرين كالشيـخ المـلا إبـراهيم بن حسن الكوراني وهو عالم كبير أجازه أبو سالم. ولقي بالمـدينـة العالم الصوفي أحمد القشاش والعالم المغربي محمد بن سليـمان الـروداني وآخـرين كثـيرين راسلهم أبو سالم فيما بعد، من المغرب

63ـ م.س. ص 314

64ـ عبد الله بن عمر العياشي، الإحياء والانتعاش، م.خ.ع، الرباط، ص 48ـ172

بخطابات وأشعار، وهم من مختلف الأقطار هنودا وعربا وفرسا وغيرهم. وكانت المدينة تحتضن عشرات العلماء والشخصيات الفكرية البارزة.
واتجه أبو سالم إلى الشام، والتقى في فلسطين بعدد كبير من المثقفين منهم عبد الكريم بن الفكون القسمطيني، وألف في الفقه والتصوف وغيرهما، وله أدب يتسم بالمسحة الدينية، وترك أبو سالم بالمشرق أثرا بارزا في حلقاته الدراسية واتصالاته.

2ـ محمد بن محمد بن سليمان الروداني (65) (1682/1094)

هو معاصر أبي سالم العياشي، ولدا معا في سنة واحدة، درس بالمغرب على شخصيات علمية بارزة كعيسى السكتاني ومحمد بن سعيد المرغيتي، وبالجزائر على مفتيها الأكبر سعيد قدورة وبمصر على الشهاب الخفاجي والشيخ سلطان وآخرين، ثم استقر مدة طويلة بمكة مدرسا ومؤلفا وتلقى بالشام عن علمائها. أخذ عنه عدد كبير بمكة والمدينة وتركيا، وكان غريز المعرفة والعلم حتى وصفه أحد تلاميذه بقوله: «إنه يعرف الحديث والأصول معرفة ما رأينا من يعرفها ممن أدركناه، وأما علوم الأدب فإليه النهاية فيها. وكان في الحكمة والمنطق والطبيعي والإلهي الأستاذ الذي لا تنال مرتبته بالاكتساب. وكان يتقن فنون الرياضة: إقليدس، والهيأة، والمخروطات والمتوسطات والمجسطي ويعرف أنواع الحساب والمقابلة والموسيقى والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره».
وأضاف تلميذه هذا واسمه عبد القادر بن عبد الهادي علوما أخرى كان يحذقها الروداني كالتفسير والأوفاق والسيمياء والكمياء... وكان مع هذا مخترعا. ومن ابتكاراته آلة كروية تستعمل في التوقيت والهيأة وتصلح لسائر الأقطار على اختلاف أطوالها وأعراضها، وذكر صاحب خلاصة الأثر عددا من تلاميذه بالمشرق، وتوفي بدمشق، ودفن بسفح قاسيون.

3ـ الحسن بن مسعود اليوسي (66) (1690/1102)

سبق ذكره كأحد الدارسين بالمشرق، ويظهران أنه بالرغم من مقامه عدة أشهر بمصر اكتفى غالبا بالاستماع إلى دروس أساتذتها.
وكتب ولده عن رحلته التي لم يشر فيها إلى اتصالات والده العلمية. غير أن فقهاء مصر ألقوا عليه أسئلة أجاب عنها (67).

65ـ مراكشي، إعلام، 5، 320 (نقلا عن خلاصة الأثر للمحبي). م.م السوسي، سوس العالمة، ص 181
66ـ م.ع. الله عنان، فهارس الخزانة الملكية ،1، ص 438
67ـ معرض المخطوطات والوثائق بالرباط، فهرس 1974، ص 61 (مخطوطات)

4ـ محمد بن أحمد الصغير الورزازي (68) (1725/1138)

درس بفاس وسجلماسة قبل أن يحج مرتين، واستقر بمصر نهائيا حتى وفاته، وقام بالتدريس بالحجاز ومصر فلقي إقبالا كبيرا وكان ضليعا في العلوم العقلية والنقلية

5ـ محمد الدقاق الدغمي (69) (1745/1158)

نشأ بسلا وتلقى دراسته بفاس ثم جاور بالبيت الحرام أكثر من عشر سنين ثم استقر بالمدينة وبها توفي، وكان على اطلاع بالفقه والتصوف والبلاغة وحظي بإقبال الطلاب بالمشرق كما كانت تكرمه السلطات العثمانية والمحلية.

6ـ أحمد بن محمد الأزدي المراكشي (70) (1773/1187)

درس بالمغرب وتابع دراسته بالمدينة ومصر، وأخيرا استقر بالمدينة حيث زاول التدريس وتوفي هناك. وثقافته فقهية ومتنوعة.

7ـ المهدي بن الطالب بن سودة (71) (1877/1294)

من علماء فاس، وصف بأنه كان فقيها أصوليا محدثا بيانيا منطقيا نحويا مشاركا، وله حواش على بعض الكتب والشروح. حج سنة 1269 وقام بالتدريس في مصر والحرمين وكان على دروسه إقبال كبير.

8ـ محمد بن عبد الكبير الكتاني (72) (1909/1327)

قام برحلة إلى البقاع المقدسة سنة 1321 ه ومكث نحو شهر بمصر فتلقاه علماء الأزهر ومثقفو مصر بترحاب كبير واستقبله الخديو عباس بتقدير، والقى بمصر محاضرة دينية في الأزهر عن أركان الاسلام وأجرى صلات بعلماء الأزهر وشيوخ القطر من مختلف المذاهب ورددت الصحافة المصرية اصداء زيارته كما كان لمحاضرته وقع كبير. وفي مكة ألقى بالبَيت الحرام دروسا في التفسير كما ألقى عدد من تلاميذه المرافقين له دروسا أخرى في البيت الحرام، ودعاه أمير مكة عون الرفيق إلى قصره غير مامرة، وتبادل عشرات الإجازات مع علماء الحجاز كما كان يتناول الأوضاع الاستعمارية حيثما حل. ويبدو أن الكثير من أفكار الكتاني التقت مع

68ـ مراكشي، إعلام، 6، 34

69ـ م. س. ص 60

70ـ م. س. 2، 414

71ـ م. س، 7، 283

72ـ الباقر الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 94-100

الأفكار الوهابية بالرغم من وجود نقط خلاف أقل أهمية من نقط الالتقاء وذلك كالأوراد الكتانية التي رددها مع تلاميذه بالحرم النبوي . وفي جميع الأحوال فإن العلماء المغاربة لم يكونوا ينكرون على الوهابيين تطبيقهم الحرفي لتعاليم السلف بشأن هدم الأضرحة وغير ذلك . فكل من الفريقين يستقي من السنة النبوية .

الاجازات

إن الشهادة التي يسلمها الاستاذ إلى الطالب عندما يتلقى عنه لفترة طويلة أو قصيرة تمثل في حياة هذا الطالب تزكية علمية . فهي تسمى إجازة ، لأنها تجيز له أن يلقن نفس المعارف التي تلقاها عن شيخه بنفس السند الذي يمتد عادة لعدة أجيال . ففي نهاية دراسته على أي شيخ يكون من حق الطالب أن يستجيزه وكلما كثر الشيوخ والاجازات كانت تلك ضمانة أقوى لدى صاحبها ليؤكد سعة اطلاعه وعمق معارفه . ونظام الاجازة معروف في الأنظمة الاسلامية من أمد بعيد ، وهو على العموم حق للأستاذ وليس للادارة أو الجهاز القائم على تمويل كراسي التدريس .

وفي العصر الذي هو موضوع هذه الدراسة ، حصل على إجازات متعددة لا طلاب ختموا دراستهم فحسب ، بل استجاز كذلك ، علماء وأساتذة زملاء لهم أو نظراء في المعرفة أو التخصص مثلما عرفنا آنفا في تبادل الاجازات بين علماء مغاربة ومشارقة ، وهذه الاجازات لا تتطلب حضور حلقات دروس ، بل يمكن أن تكون بالمراسلة .

إن صيغة الاجازة اختلفت بين الطول والقصر ، وبين الضبط والتعميم ، فالمجيز يمكن أن يكتب الاجازة مباشرة على هامش طلب المستجيز ، وقد يكتبها في صفحات على حدة مذكرا بطلب المستجيز ومنوها بشخصيته وقد يلقبه بلقب علمي أو أكثر كالفقيه والعلامة ، وهناك إجازات استغرقت صفحات كثيرة لأنها تفصل كل ما تلقاه المجيز وما درسه من كتب والشيوخ الذين درس عليهم ، وسلسلة شيوخ هؤلاء أيضا إلى غاية المصدر الأصلي ، وعلى سبيل المثال فإجازة محمد بن عبد السلام

الفاسي للبويحياوي استغرقت أربع ورقات، وإجازة علماء الجزائر وتطوان لابن زاكور من ثلاث وعشرين ورقة وإجازة أبي سالم العياشي لعثمان اليوسي في أربع وعشرين ورقة (73)

وهناك شيوخ لا يسلمون الاجازة إلا بعد إلحاح وتكرار طلب (74). وما لم يدرسه الشيخ أو يتعمق فيه يعتذر عن إدراجه في الاجازة (75).

وكثيرا ما تكون الاجازة بأسلوب أدبي رائق أو رائع مع أشعار مضمنة أو من إنشاء المجيز. وبعض المجيزين قد يزودون المجاز بوصايا علمية وسلوكية (76). وبعض المجيزين يحددون المقروء من كل كتاب بدءا ونهاية. ومن جهة أخرى فهناك كثيرون عنوا بجمع إجازات الشيوخ الماضين (77) وهذه المجاميع ذات قيمة في الحكم على نظام الدراسة ومحتواها وأساليبها وأهدافها من خلال المقارنة والجرد، وفي جميع الأحوال نلاحظ حرص المجيزين على تجنب ادعاء علم لا يملكونه.

البعثات الدراسية

إذا كان الاقبال على دراسة العلوم الدينية بشكل يعيد نشاط العصر المريني في هذا المجال، فإن تخلف المغرب في العلوم الحديثة ظل شاملا وملموسا في الميادين العسكرية والطبية والهندسية والصناعية. فالعالم الاسلامي الذي ينتمي إليه المغرب كانت بعض أقطاره متفوقة على المغرب بأشواط، فقد ترك بابليون بونابرت بمصر جملة من مؤثرات الحضارة الغربية قبل أن يعمل محمد علي على إنشاء تعليم حديث شمل الطب واللغات الأجنبية والتقنيات العسكرية وغيرها. وكان الأتراك متقدمين في المجالات العسكرية وفنون الهندسة والشؤون البحرية فضلا عن نشاطهم في تدوين القوانين واسبقيتهم إلى طبع الكتب وإنشاء الصحف بالنسبة لمعظم العالم الاسلامي بما فيه المغرب. ففي أكثر من مجال، كان المغرب متخلفا عن مصر بأزيد من نصف قرن، وعن الاتراك في عدة مجالات بأزيد من قرن.

73- م. عبد الله عنان، فهارس الخزانة الملكية، 1، 19، 58، 352
74- مراكشي، إعلام، 6، 167
75- م.س. ص 169
76- م.س. 7، 119، 195
77- م. عبد الله عنان ،م.س.، ص 275

وهـذا ما بدأ الاحسـاس به تدريجيـا وببطء، بعد أن ازداد احتكاك المخزن بجيران المغرب الفرنسيين بعد احتلالهم الجزائر، واكتشف المغرب انحطـاطـه الخطـير بعـد معـركة إيسلي، ومن ثم بدأ شيء من الاهتمام أو الشعـور يراود المخـزن بضـرورة عمل شيء ما لاصلاح الوضع. وكانت المحاولات الأولى في منتهى التواضع حتى إنها لم تحدث أثرا يذكر لان في المحاولات ما كان فرديا بعيدا عن تأثير المخزن وعن التواصل مع الأطراف المعنيـة. فادريس الجعيـدي (ت 1308/1891) يدرس الـريـاضيـات والهندسة ويوسع معارفه بالتنقل بين أقطار أوربا (78). والسلطان مولاي عبـد الـرحمن يعمـل على تكـوين نجله الأمـير محمـد في الهنـدسـة والرياضيات، وكان معه رفاق بينهم أحمد بن عبد الرحمن (79) بورقية (1906/1324).

وتحدث الكانوني (80) عن إحدى البعثات التي وجهها مولاي عبد الرحمان إلى أوربا، ولعلها الوحيدة التي أرسلها هذا العاهل، وفيها أربعة طلاب ذكر منهم أحمد حيدة (ت 1293/1876)

ووجه السلطان محمد الرابع إلى مصر ثلاث بعثات كان في الاولى أحمـد شهبـون الـذي وضـع مؤلفـا في الجغـرافيا ونقل بعضه المرحوم عبد الـرحمن بن زيـدان في «إتحـاف أعـلام الناس»، وكذا محمد بن كيران من فاس وآخـرون. وكـان في البعثتـين الثـانيـة والثـالثـة تقنيـون في الفنـون العسكـريـة وطـالب في شؤون الطبـاعـة من الشـاون (81) وذلـك سنـة 1283/1866. وهـذه البعثـة الثـالثة حفظت بشأنها مراسلات تبودلت بين السلطـة المـركـزيـة ووكيل المغرب بمصر محمد أفروخ التطواني (82) وتتعلق المراسلات (بين 1283-1285) بالنفقة على المتدربين.

ولمـا تولى الحسن الأول سنـة 1290/1873 عجل بإرسال بعثاته الأولى واهتم لهذا الجـانب بشكـل خاص، وكـان له هو نفسـه ولـع بالـرياضيات والعلوم الحديثة وهكذا توالت البعثات أيامه حسب الترتيب الآتي :

78- عبد الله الجراري، من أعلام الفكر، 2، 275
79- م.س، ص 31
80 - عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية، 4، 246
81- م.س. مديرية الوثائق، مجموعة الوثائق، 2، 420
82- مجموعة الوثائق 2، 727 420، و 430 - 435

1291/1874 بعثة كبيرة إلى القاهرة وأخرى من خمسة عشر طالبا في الهندسة درسوا اللغات الأجنبية بطنجة قبل توجيههم إلى عدد من أقطار أوروبا وجلهم من الرباط وفاس، ووزعوا فيما بين انجلترا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وبروسيا وأقاموا هناك سنوات كثيرة بين خمس واثنتي عشرة، وكان منهم إدريس بن عبد الواحد الذي كلف بمدفعية طنجة والزبير سكيرج الذي كلف بتركيب الموازين ومحمد الجباص الذي ألحق بالمخزن المركزي (83) ويظهر ان هذه البعثة لم تفارق طنجة إلا بعد دراسة طويلة حسبما تدل على ذلك وثيقة ملكية (84).

وكان بين طلبة الهندسة بإيطاليا العربي حركات الذي أتقن الايطالية فصار يكتب بها وينظم الشعر.

1293/1876 : تم إعداد مجموعة من الطلبة لتوجيههم إلى أوروبا فدعا العاهل مولاي الحسن ولاة الأقاليم أن يختاروا نجباء الطلبة ليتلقوا مبادىء العلوم الرياضية، فأجريت عليهم مباراة بالقصر الملكي قبل انتقاء أفضلهم للذهاب إلى أوروبا. وهكذا وجه خمسة وعشرين إلى جبل طارق، أحدهم لتعلم الطب وهو من فاس، والباقون من جهات مختلفة (85). فأقاموا هناك سنتين، وعين منهم 12 قواد مائة، والتحق سبعون آخرون بجبل طارق، ثم توالى هذا التدريب الحرفي والذي شمل بدون شك ميادين عسكرية متنوعة، حتى بلغ مجمل المتدربين 280

1297/1879، فيها كان سفر البعثة المكونة من 15 طالبا إلى أقطار أوروبا بعد أن تلقت دراسة وتكوينا علميا مطولين بطنجة كما سبق، واستمرت هذه الدراسة أزيد من ست سنوات بالنسبة لبعضهم أو لاكثرهم بالاصح (87)، لاننا نرى ثلاثة منهم يعودون من لندرة في هذه السنة بالذات ونالوا تنويه الجهات المختصة بأنجلترا (88).

ومن بين الخمسة عشر المذكورين محمد بن الكعاب الشرقي الذي بعد قضاء ست سنوات ونصف بطنجة توجه مع رفيقه قاسم الأوديي

83- الموسوعة المغربية، 4، 246

84- مجموعة الوثائق، 3، 442

85- الجراري، م.س. ص 368

86- مجموعة الوثائق، 3، 456. موسوعة مغربية، 4، 246

87 - أحمد معنينو، مجلة البحث العلمي، ع 25/1396 - 1976 ص 220

88- مجموعة الوثائق، 3، 494

والطـاهـر بن الحاج الأودي إلى فرنسا وبها قضى أربع سنوات ونصفا قبل أن يوفـد مع رفـاقـه إلى بلجيكـا للوقـوف على بعثـة المتـدربـين التقنيين ببلجيكـا وجميعهم في الشؤون العسكـريـة (بطـاريات المدافع، صناعات الخـراطيش وتلفيفهـا الخ . . .) وكانوا سنة 1301 / 1884 سبعة وثلاثين وزعوا بين صيرن ولييج وكلهم من فاس ومكناس ما عدا واحدا من الدار البيضاء واثنين من الرباط (89) وعاد بعضهم إلى المغرب سنة 1303 / 1885 .

وغاب الطالب الكعاب عن وطنه أربع عشرة سنة زار أثناءها عددا من عواصم أوروبـا وعـين بعـد عودتـه في «المكينـة» التي أنشأهـا مولاي الحسن بفـاس لصنـع الأسلحـة الخفيفـة، وبـدون شك كان تحت إدارة الأجـانب المشـرفين على المعمل رغم طول خبرته العملية والعلمية . وترك مجمـوعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لانتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة . وهذه التصاميم بحوزة ورثته (90) .

1299 / 1881 ، وزع ثلاثـون تقنيـا في البحـريـة على بواخـر الإنجليز والفرنسيين والألمان والاسبان والايطاليين وعشرة للدراسة في قيادة السفن والميكانيك وأربعة لتعلم العلوم البحرية (91) .

1301 / 1883 : بلغ مجمـوع الطلبـة المـوجهـين إلى أوروبا عدة عشـرات ضمنهم السبعـة والثلاثـون الـذين وجهـوا إلى بلجيكـا و15 عسكـريـا للتـدرب على حرب مدافع كروب الألمانية بالاضافة إلى خمسة طلبـة في التقنيـات العسكـريـة ثم سبعة آخرين في نفس السنة من طنجة وسـلا والـربـاط وأسنـد إلى اثنـين منهم بعـد تخرجهـما مهندسين، مهمة إصلاح الأبراج بالمراسي (92)

1302 / 1884 وجـه إلى أوربـا خمسـة طلبـة وسبعة صناع لتعلم صنـع المتفجـرات والتلغـراف ونصب القنـاطـر وعـدد من الصنـاعـات العسكرية البسيطة .

89ـ مجموعة الوثائق ، 3، 494

89ـ أحمد معنينو، م.س، ص 224 ـ 227

90ـ م.س. ص 221

91ـ موسوعة مغربية ، 4، 247

1887/1305 أتم 55 صناعة الحدادة وتركيب الآلات وإفراغ النحاس وصنع المدافع والخراطيش وتصفية المعادن (93)

كانت هذه الجهود في مجموعها ذات أهمية ولكن عددا كبيرا من الخريجين لم تسند إليهم مسؤوليات عامة في نطاق تخصصهم، فظل التخطيط والتوجيه والرواتب المغربية وقفا على العسكريين والاوروبيين، حتى إننا لا نكاد نجد إلا أفراد قلائل برزوا من الخريجين على الصعيد الوطني أو في حسم معركة أوسد نقص تركه الاوربيون، وأسوأ من ذلك أن الوظيفة العمومية لم تكن منظمة ولا الرواتب قارة أو كافية، ولم تكن هناك تنظيمات توحد شمل المهندسين والتقنيين الوطنيين، فحالما يعودون إلى أرض الوطن يتوزعون بين المدن ويتركون وشأنهم مع الأيام حتى يذيبهم اليأس في مهنة أو حرفة بعيدة عن تخصصهم بعد فترة قليلة يمارسون فيها هذا التخصص في ظروف شاقة.

وقد كتب الطالب محمد الكعاب إلى المسؤول المخزني الكبير أحمد ابن موسى تقريرا عن وضع الطلبة ببلجيكا سنة 1301 يعرض ما كانوا عليه من عوز وديون تراكمت عليهم من الجهات البلجيكية التي تنفق عليهم وتنظر إليهم وإلى حكومتهم بازدراء (وإن هذه سبعة أعوام ونصف مفقودين عن الأهل والوطن والأعداء لا ينظرون إلا بعين الاحتقار حتى صرنا لا نستلذ طعاما ولا شرابا) (94)

وكان الطلبة يكاتبون المخزن فلا يتلقون الجواب. ويبدو أن المخزن لم يكن يفكر في عواقب حرمان الطلبة من زيارة أهلهم سنوات طويلة متتابعة، ولا ما في هذا الحاجز الانساني من انفصام ومركبات تحدث في شخصيتهم

لقد كان هناك بون شاسع بين نوايا السلطة العليا في هذه الحقبة، وطرق التنفيذ لدى الجهات المخزنية المتخاذلة، وهذا ما يثير العجب حقا.

92- م. س. ص 246

93- ن. م. ص 247، نقلا عن محمد المنوني. ويراجع ما كتبه الاستاذ المنوني عن البعثات في كتابه: «مظاهر يقضة المغرب في العصر الحديث»

94- أحمد معنينو. م. س. ص 223

نشر الكتاب وجهود الشعب والسلطة

ظلت شعـوب الشـمال الافـريقي بصـور عامـة، متأخـرة كأغلب الشعـوب التي استعملت العـربيـة في كتـابتها عن ركب الدول الاوروبية التي قطعت مجالا كبـيرا في ميـدان نشـر الكتاب وترويجه، فإذا كانت تجارة المخطوطات بأوروبا قد بلغت أوجها في القرن الخامس عشر م (95) فإن الطبـاعـة الخشبية هناك قد أخذت مكانها في أوراق اللعب وغيرها قبل أن يقـوم جوتنـبرغ بإنشاء المطبعة الآلية التي طبع عليها الكتاب المقدس سنة 1455 . وفي أواخـر القـرن السادس عشر م تخصص لنشر الكتب وطبعها جماعـة من تجار الكتب، فغـزا الكتـاب المطبـوع المكتبات العامة والخاصة والمؤسسات التعليمية (96).

وفي 1486 ظهـرت الحـروف العـربيـة مطبوعة لأول مرة في كتاب حول رحلة حج إلى القـدس لمارتـين ووت من رجـال الـدين. ومن أجل تمسيـح المسلمـين في إسبـانيـا بعد انهيار مملكة غرناطة نشرت بين الرهبان المبشــرين مصنفــات يتعلمـون بها اللغـة العـربيـة ابتـداء من 1505، واستعملت المفردات العربية بالقشتالية، ثم ظهر أول كتاب عربي مطبوع عن أوقـات الصـلاة على المـذهب المـالكي بفـانـو الايطـالية (97) سنة 1514، ومنـذ ذلـك الوقت ظهرت كتب عربية كثيرة طبعت بإيطاليا ومن أقدمها المصحف الكريم وبعض كتب النحو وضمنها الأجرومية.

وكـانت أول مطبعـة عربيـة بمصر هي التي جلبها نابليون بونابرت 1798 م ثم أنشأ محمـــد علي مطبعـة بولاق سنـة 1821 وكـانت تمهيـدا لانتشـار المطـابـع بمصر لا الشرق العربي كله، لأن الطباعة عرفتها لبنان منذ سنة (1610)، وسوريا سنة 1706 (98).

وهكذا فإلى ظهور المطبعة بالمشرق ظل الكتاب العربي يروج من طريق النسـخ. وذلـك كان عائقـا لانتشـاره على مستوى واسع، وما بين الانتشــار الشعبي للكتـاب بأوروبـا عن طريق المطبعـة وظهـور المطبعـة

95- سفندال، تاريخ الكتاب، ص 82 (ترجمة محمد صلاح الدين حلمي)
96- سنفد دال، م. س. ص 207
97- مجلة اليونسكو. نقلا عن العلم الثقافي، 30 يوليوز 1982 م (الرباط)
98- أحمد عطية، دائرة المعارف الحديثة، مادة طباعة

الحجرية بالمغرب في الستينات من القرن 19 م (13 ه) فترة تجاوزت بكثير قرنين ونصفا، كما أن الفرق بين ظهور هذه المطبعة المغربية وانتشار الطباعة العربية بمصر مدة تناهز نصف قرن.

على أن هذا العائق لم يحل دون رواج المخطوطات بكيفية فاقت ما كان عليه العصر السعدي مثلا، فهناك شغف شديد بجمع الكتب واقتنائها بلغ حد التنافس بين الخواص والأسر، وقد يؤدي ببعض الناس ثمنا باهظا لاقتناء نسخة من كتاب متداول كثيرا ولكن النسخة لها مميزات معينة، فمحمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي عرض على بائع كتب باسطمبول مائة وأربعين دينارا في نسخة من صحيح البخاري في مجلد واحد بخط أبي علي الصدفي شيخ القاضي عياض فأبى، ومقابل ذلك، اشترى من نفس البائع وهو طالب، مجموعة كتب قيمة أخرى بثمن تافه (99). وحيث إن ابن حجر العسقلاني اعتمد في (فتح الباري) على هذه النسخة بالذات، وأن شرحه هذا تداوله المغرب والمشرق كله، فإن الهاوي المذكور وهو عالم مغربي من درعة تحدث عنه إلى السلطان مولاي سليمان فعرض السلطان كتابة على صاحب النسخة مبلغ ألف ريال، ثم وقف الأمر عند هذا الحد نظرا لانعدام الأمن في تونس والجزائر بسبب النزاع بين حكامهما (100)

ووقف أحد المغاربة بتونس على رحلة لابن العربي المعافري في أجزاء (101)، واستنسخ محمد بن عبد السلام المذكور أثناء رحلته عددا كبيرا من الكتب النادرة كشرح أبي الحسن الأنطاكي على البردة في أجزاء ضخام وغيره، وعندما تحدث عن مكتبة الشيخ مرتضى الزبيدي بمصر قال إنه لم يشاهد مثلها ولا خزانة إدريس العراقي بفاس (102).

وبين الملوك والأمراء من عنوا بتحبيس الكتب على الخزائن العمومية أو اقتناء عدد منها أو استنساخها لخزائنهم الخاصة، وقد حبس مولاي رشيد خزانة الجامع الأعظم بفاس الجديد منذ 1079/1668 (103)

99- مراكشي، إعلام، 6، 193

100- م.س. ص 194 - 195

101- م.س. ص 101 - 207

102 - م.س. ص 210

103 - 80، 1، Champion, le Maroc et ses villes d'art

وكان محمد الثالث ومولاي سليمان من الملوك الذين يستقدمون الكتب من خارج المغرب. وهكذا كان في مقدمة الكتب التي أوصى بها محمد الثالث أبا القاسم الزياني مجموعة من المساند للأئمة أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل، وقدم الوزير الأعظم العثماني للزياني نسخة من «الدرر» في الفقه الحنفي، وهو عندهم كما قال، كخليل عند المالكية (104)

وحبس مولاي الحسن مجموعة من الكتب على خزانة المسجد الأعظم بسلا في زيارته لها سنة 1293 ه، وذلك على يد القاضي أبي بكر عواد وبطلب منه (105) ويبدو أن ذلك كان بسبب إقبال القراء على الخزانة.

ومن الكتب التي تم استنساخها بأمر مولاي إسمعيل أربعة وعشرون سفرا من العنترية والفداوية والأزلية وما يتصل بها من أخبار البطولات. والغرض التربوي من هذه القصص واضح. وهو بث الروح النضالية لدى قرائها. وكان عدد النساخين أربعين من فاس ومكناس (106). وعند ما طلب الاسبان سنة 1101 / 1689 فداء مائة من أسرى العرائش اشترط مولاي إسمعيل أن يطلقوا مائة أسير مسلم ويسلموا للمغرب خمسة آلاف كتاب عربي يختارها في إسبانيا وفد رسمي (107)

واطلع المستشرق دوفردان (108) على فهرس كتب جامع ابن يوسف بمراكش والذي تم اعداده بأمر مولاي إسمعيل. كما تضمن لائحة استعارة كتب هذه الخزانة التي لم يكن عليها إقبال تقريبا مدة قرن، كما أنها تعرضت للنهب بالتعاقب، وفي عهد مولاي الحسن تم تجميع كتب مساجد مراكش في القاعة الكبرى التي أنشأها بالخزانة المذكورة.

104ـ الزياني، الترجمانة الكبرى، ص 126 ـ 127
105 ـ بنمنصور، أعلام المغرب العربي، 1، 263 ناصري، استقصا، 8، 152
106ـ الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 71
107 ـ م.س. ص 74، وانظر الخطاب الملكي بهذا الشأن في مجموعة الوثائق، 1، 418
108 ـ 569، Deverdun, Marrakech 1

وقد وضع مولاي عبد الحفيظ يده على نفائس هذه الخزانة عندما كان بمراكش (109). ومع ذلك فإن الخزانة لا تزال تضم عددا مهما من المخطوطات وبعضها نادر

وعني السلطان محمد الثالث عناية كبيرة بنسخ الكتب النادرة وكتب الأدب حتى كان من أجل ذلك كما قال الزياني (110) يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، بل لا يمسك شيئا» وقام بتوزيع اثني عشر ألف كتاب على خزائن المغرب، وكانت ضمن ما جمعه جده مولاي إسمعيل في خزانته الخاصة بمكناس (111)

وحيث إن محمد الثالث الذي درس اللغة العربية وأدبها دراسة جيدة، قد وجه اهتمامه إثر ذلك إلى الدراسات الحديثية، فقد استقاد بشكل خاص من المسانـد التي استجلبها من المشرق، وكان مسند أبي حنيفة عزيزا بالمشرق نفسه ويتضمن أسانيد غير معروفة بالمغرب، وكان مسند ابن حنبل يتضمن ثلاثين ألف حديث. وقد انكب محمد بن عبد الله مع مجموعة من كبار الفقهاء والمحدثين على دراسة هذه المساند دراسة مستوفية فاحصة في اطار الاتجاه السني (الراديكالي) الذي أحيى به عصر المنصور الموحدي في المغرب (12) ومن جهة أخرى نظم محمد الثالث عمليات إعارة الكتب بخزانة القرويين وكذا فتح وإغلاق الخزانة.

وراجت مهنة النسخ بشكل خاص خلال القرنين 12-13 (18-19م)، وإذا كان بعض النساخين ينسخون بقصد تثقيفهم الذاتي فإن آخرين يجدون في هذه المهنة موردا جيدا، وبعضهم جمع بين الانتاج الثقافي ومهمة النسخ أو الوراقة (113)

وأنشأ الخواص والأسر والزوايا أو قاموا بإثراء خزائن وضعوها في خدمة الدارسين والقراء، فكانت هناك خزائن بمناطق الشمال وفي دكالة وسوس وفاس والمناطق الصحراوية وعبر أنحاء المغرب كله تقريبا. ومن بين هذه الخزائن على سبيل المثال :

109- Idid

110 - زياني، بستان، ص 140

111- م.س. ص 103. ناصري، 8، 17 Deverdun, Op. Cit

112- مقدمة الفتوحات الالهية (تأليف السلطان محمد بن عبد الله) ص (و)

113- مراكشي، إعلام، 6، 265، 311 8، 159

1ـ خزانة العالم الكبير ادريس العراقي بفاس، وقد سبقت الاشارة إليها

2ـ خزانة زاوية تينغملت بين بني عتاب وهنتيفة، قيل إن كتبها كانت مضرب الأمثال وأنها خلفت الزاوية الدلائية في أهميتها ولم يبق منها في أول القرن 14/ 20 سوى سبعمائة كتاب

3ـ خزانة عبد السلام الصقلي بفاس (ت 1330 ه) وكانت كبيرة، وضمت نوادر الكتب كشمس المعالم للصومعي وشرح الاردبيلي على مشكاة المصابيح.

4ـ الخزانة الحمزاوية التي جمعها أبو سالم العياشي (1090/ 1679) من المغرب وأقطار المشرق، حتى إن عددا من الكتب لم يكن يوجد إلا بها، ونسبت الزاوية الحمزاوية التي ضمت هذه الخزانة إلى نجله حمزة الذي درس بالمغرب والمشرق كوالده. وقيل إن أبا سالم لم يترك لنجله إلا خزانته وبغلا... وتقع الزاوية في آيت عياش. ونقلت نفائس هذه الخزانة بعد الاستقلال إلى الخزانة العامة (الوطنية) بالرباط (114)

5 خزانة إبراهيم بن عبد الملك السوسي فقيه ونحوي وكان مفتيا بمراكش. بنى لخزانته الكبيرة بمراكش دارا مزخرفة واسعة المرافق، وقال عباس المراكشي : كانت منتدى الوافدين على مراكش من العلماء والأدباء (115) وهو معاصر مولاي الحسن، وقام بمهمة التعليم في قصره

6ـ الحسن المزميزي بمراكش، كان فقيها حيسوبيا معدلا، وضمت خزانته بفاس كتب التعاليم. وله مؤلفات أحدها في علم تسطير الرخامات (للتوقيت) وتعاليق حول اللوغاريتما (116).

7ـ الخزائن الصحراوية، كمكتبة أحمد الحضيكي (قرن 12/ 18) وقد تنقل بين ولاتة ودرعة والمشرق والهند، ومكتبة تيمكيدشت أسسها الشيخ أحمد الميموني (قرن 13/ 19 م) ومكتبة ماء العينين وجمعت خطوطا من أقطار المغرب والمشرق (117)

114ـ م. س، 6، 210. 8، 144، 496، 7، 146

115ـ بنمنصور، أعلام، 1، 174

116ـ مراكشي، أعلام، 3، 197

117ـ عبد العزيز بنعبد الله معلمة الصحراء، 1، 96

8 ـ خزائن سوس، كخزانة مسعود المعدري (ت 1319 / 1901) وخزائن الأسر بإيليغ وأولاد جرار وإيفران وقبيلة ايسي الخ . . . وأعطى عن أكثرها المرحوم محمد المختار السوسي تفاصيل كافية في «سوس العالمة (118)

كانت كل الكتب تقريبا تتناول الجانب الديني كالفقه والتفسير والحديث، أوعلوم الآلة كما كانت تدعى كاللغة والنحو، أوما يمت بصلة للدين كالتوقيت والفلك، ولم تكن هناك كتب للثقافة العامة الا نادرا، ولا مؤلفات مبسطة يمكن أن توضع تحت تصرف المبتدئين من القراء. فالثقافة التي كان يجب أن يتلقاها الدارس كانت مصممة ومفروضة من زمان على يد الفقهاء وأرباب الزوايا. وقد قام مستشرق فرنسي في أوائل سنوات الحماية الفرنسية بوضع جرد لما كان بخزانة المسجد الأعظم بطنجة من كتب حسبما جاء في سجلات الأوقاف. وليأخذ القارىء نظرة عن النزعات الثقافية والتوجيهات الدراسية، يكون من المفيد ذكر جملة من هذه الكتب في تنوعها. ومنها سلوان المطاع لابن ظفر المكي (598 / 1202) والمعيار للونشريسي فى ستة مجلدات، والمجلد الثاني من تفسير ابن عطية الغرناطي (542 / 1147)، وسيرة ابن هشام (218 / 834)، وديوان المتنبي في نسخ متعددة، وهداية المريد لمحمد عليش، وكتب لابن البناء، والحاوي في الفتاوي للسيوطي وشرح ابن غازي للألفية، ورسائل ابن العربي في التوحيد، والمغازي لابن سيد الناس، والجمان للشطيبي، والقاموس المحيط للفيروزبادي، والبيان والتحصيل لابن رشد (520 / 1126) ومناقب الصحابة لابن أبي الخصال الغافقي (540 / 1146). وهناك عدة نسخ من البخاري والموطأ وشروح عليهما، ونسخة من نزهة الأفكار لابراهيم سركيس اللبناني (ت. 1880م). وباستثناء هذا الكتاب لا نجد أثرا لمطبوعات الشرق من لبنان ومصر في النصف الثاني من القرن 19 م، وطنجة بالذات هي التي عرفت ظهور الطباعة العربية لأول مرة بالمغرب، وهي الميناء الرئيسي الذي كانت تحط به سفن مصر وأنجلترا التي أصبحت اكبر وسيط تجاري بين دول البحر المتوسط

---

118 ـ محمد مختار السوسي، سوس العالمة، ص 168 ـ 175

119 ـ P. Maillard, Essai de bibliographie marocaine. Revue le monde musulman, T 35/1917 - 1918. Paris

إلا أن هذا النقص الكبير كانت تقابله محاولات فردية محدودة لم يكن لها كبير أثر على انتشار المطبوعات الشرقية. وعلى سبيل المثال فإن الطبيب محمد شاكر الدمشقي الذي درس بتركيا واستقر في مطلع القرن 14 ه بسلا حيث لقي نجاحا كبيرا، كان يستورد مطبوعات الشرق كتبا ومجلات وجرائد، وبذلك يكون شارك في نشر الثقافة العصرية بالمغرب لذلك العهد حسب عبارة المرحوم عبد الله الجراري (120)

ومن راجع لائحة الأدباء والمثقفين الذين تعاقبوا بالمشرق خلال القرن 19 م إلى مطلع القرن العشرين يجد بينهم كثيرا من الذين انتجوا وأثروا في الفكر العربي والإسلامي وفي مسار التعليم بوجه عام كرفاعة الطهطاوي ذي الثقافة الأزهرية والأوروبية وعبد الهادي الابياري المؤلف اللغوي وحسين المرصفي مؤلف الوسيلة الأدبية ومبارك باشا مؤلف قصة علم الدين وصاحب الخطط التوفيقية وعبد الله نديم السياسي مدير مجلة الأستاذ وعدد من الجرائد والمترجم محمد عثمان جلال صاحب (العيون اليواقظ) الذي تضمن ترجمة أمثال لافونتين وغيرهما (121) وهذا عدا كتابات المصلحين الكبار كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا. وهناك مجلات قيمة كالمقتطف وجرائد سياسية ومجلات متنوعة كلها ظهرت خلال القرن 19. ومع ذلك فإنتاج هؤلاء وغيرهم من مثقفي وساسة العراق وسوريا ولبنان لم يكن له أثر يذكر في المنشورات الرائجة، لأن المطبوعات القليلة ظلت من الندرة والعزة بحيث إن بعضها كانت تتلقفه الأيدي وتستنسخه (122)، ثم إن السلطة لم يتجه اهتمامها إلى إصلاح التعليم واقتباس الثقافة العربية الحديثة من المشرق، وهذا فيما عدا الجهود التي بذلت في اتجاهات مختلفة، على يد محمد الثالث والحسن الأول وفيما بينهما نشأت المطبعة الحجرية التي انكبت على التراث دون غيره. فمحمد الثالث اتجه على الخصوص إلى الجانب العقيدي والفقهي، والحسن الأول انشغل بالتكوين العسكري والهندسي دون أن يمتد به العمر

120- الجراري، من أعلام الفكر المعاصر، 2، 121. وتوفي شاكر سنة 1323/1905، وترك خزانة كبيرة تفرقت كتبها بعده. وكان صديقا لوالد المؤلف. وبيدي نسخة خطية من كتاب له في الطب مع بتر

121- الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص 426 - 461

122- نسخ أبوبكر حركات، والد المؤلف، بخط يده، فصولا من تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان. (وهي بين يدي). وكان أبو بكر جماعا للكتب

ليحقق طفرة وطنية أخرى بإنشاء تعليم وطني حديث يستفيد من خبرة الخريجين من المعاهد الأجنبية،

وتناول دخول المطبعة إلى المغرب عدد من الكتاب والباحثين (123)، ولذلك ينبغي الاقتصار هنا على الضروري من المعلومات بشأنها. فالطباعة العربية بدأت في شكل مبادرة فردية على يد القاضي بتارودانت محمد الطيب الروداني. وهكذا فإن إقليم سوس الذي كانت تارودانت من أهم مراكزه العلمية، كان دائما أسبق أقاليم المغرب إلى عمليات الاصلاح الوطني ذات المدى البعيد (دور عبد الله بن ياسين، دور ابن تومرت، دور محمد الجزولي، دور جزولة في قيام السعديين ومقاومة الاحتلال، الخ . . .)

وقد اتفق محمد الطيب الروداني مع طباع بمصر على أن يتولى تركيب وتشغيل المطبعة الحجرية التي اشتراها القاضي من مصر. وقد نقل نص التعاقد بينهما كل من الاستاذين المنوني وبنمنصور، وهو مؤرخ ب 14 ربيع الأول 1281 / 1864 وكان دخول المطبعة المذكورة إلى المغرب في شعبان من نفس السنة. وليس في وثيقة التعاقد ما يدل على أن هناك طرفا رسميا (124)، غير أن المطبعة الحجرية بدل أن تستخدم في تارودانت، وجهت إلى مكناس هدية للسلطان محمد بن عبد الرحمن. وبذلك أصبحت مطبعة رسمية يسدد نفقاتها القصر والأوقاف، ونقلت بعد ذلك إلى فاس، وليس يرجع دخول المطبعة الحجرية إلى عهد سابق كما فهم بروفنصال ولوتورنو وحتى دوفردان الذي رجع إلى هذا الأخير. نعم، كان هناك مغاربة مثقفون ومسؤولون زاروا المشرق من قبل واطلعوا على مطابعه ومطبوعاته، فقد زار مغربي اسمه محمد الفاسي الآستانة التي كانت قد دخلتها الطباعة العربية في أواخر العقد الثاني من القرن 18 م (12 ه)، وزار المطبعة التي تركها نابليون بمصر، وكانت هذه الزيارة سنة 1801 / 1216، وكذلك عرض السفير إدريس العمروي على السلطان محمد الرابع فكرة إنشاء مطبعة سنة 1276 / 1860، وذلك من

123ـ من أسبق الذين تناولوا الموضوع جورج سلمون وبيروتيي في مجلة Archives marocaines وجرمان عياش في، Hespéris. Rabat. 1964 ودوفردان في كتابه عن مراكش ص 570 ولوتورنو، ومحمد المنوني في مظاهر يقظة المغرب، 1، 205

124ـ نص الوثيقة في المصدر السابق، وفي مجموعة الوثائق، 1، 48 (مديرية الوثائق الملكية الرباط)

خلال رحلتـه عن باريـز، منـوهـا بمزايا الطباعة شرقا وغربا (125) وكان أول مطبــوعـات هذه المؤسســة التي دعيت تارة بالمطبعـة السعيـدة وتـارة بالمحمدية هو شمائل الترمذي، تم تابعت عملها في نشر كتب التراث حتى 1288 حيث تحولت إلى إدارة فردية يسيرها محمد الطيب بن الأزرق بعد نقلهـا إلى فاس، ودعيت حينئـذ بالمطبعة الفاسية، وهذا المسؤول الجديد كان من قبـل معـاونـا للطبـاع المصري، ثم ظهرت مطابع حجرية أخرى تباعا بفاس

أمـا الطبـاعـة السلكيـة الحديثة بالعربية فظهرت لاول مرة بطنجة حيث اهتمت قبـل كل شيء بطبـع جريدة بالمغرب منذ 1306 / 1889 ثم توالى طبع الجرائد بهذه المطبعة الجديدة ومن بينها جريدة السعادة سنة 1905 م (126)

رعاية العلماء والمثقفين

بدأ دور الفقهـاء قويـا في تاريـخ المغرب منذ العصر المرابطي عندما تبنى المغرب رسميا المذهب المالكي وفرضه المرابطون على مجموع التراب الـوطني بواسطـة الفقهاء، وحتى الصلحاء والطرق الصوفية التي تسربت إلى إفـريقيـا الغـربية لم تحد في مجموعها عن الخط المالكي في أكثر محاوره. وحيث إن الفقهاء وأغلب أرباب الزوايا هم مرشدون دينيون واجتماعيون يلتصقـون بالمجتمـع من طريق التـوعيـة الفكرية والدينية ويتحولون عند اللزوم إلى حركـة معـارضة تناهض الانحراف السياسي أو التقاعس عن الجهاد، أو السياسة الضرائبية فإن ذلك يزيد من قوة مكانتهم لدى الأمة، ويجعـل المخـزن يحسب لهذه القـوة حسابها. ومن جهة أخرى نجد عددا من الملوك قد تأثـروا بتـوجيه الفقهاء في تربيتهم ودراستهم الأولى. وحيث إن ثقافة هذه الفئة من الملوك لم يكتسبها هؤلاء خارج بيئة الفقهاء فإن كلا من الفريقين كان يفهم جيدا أفكار الطرف الآخر، وهذا لا يجنب ظروف التصادم التي ينظر فيها كل من الجانبين إلى الأمور بنظرة مخالفة.

125ـ منوني م. س. ص 204 ـ 205

126ـ زين العابدين الكتاني الصحافة المغربية، 1، 66 ـ 67

وحرص أغلب الملوك على أن يكرموا العلماء حتى الذين لهم مواقف صريحة ضد جوانب معينة من السياسة المتبعة، مادامت المعارضة لا تتخذ صور تكتل مسلح أو تتعامل مع هذا التكتل بالذات.

وكذلك حافظ بعض الملوك على بعض التقاليد القديمة في صلة الأدباء الذين ينظمون قصائد في مدحهم، لأن هذا المدح تزكية سياسية أيضا، وبخاصة في ظروف القلق وضعف السلطة، فلا عجب إذا، أن يحظى شاعر الأدب العربي والملحون، سعيد التلمساني من مولاي محمد ابن الشريف بما يناهز 25 رطلا من خالص الذهب لبعض أمداحه فيه (127) ومولاي سليمان مدحه حمدون بن الحاج وهو فقيه كبير، بقصيدة فأعطاه دارا من مخلفات العصر المريني بفاس، وعينه في منصب مسؤولية بالعرائش ووهبه زكواتها وأعشارها لمدة عامين تقريبا حتى يعيد بناء الدار التي خصه بها في فاس (128). وكان مولاي سليمان يعاني من اضطرابات الأطلس وخيانة المسؤولين الجهويين في عدد من المناطق، وفاس نفسها كانت في موقف معارضة، ومن ثم فإن قيام شخصية بارزة من فاس بمدح مولاي سليمان له دلالته في هذا الظرف الصعب.

وحيث إن مولاي سليمان كان يختار فرص العطاء، فقد استقدم من الجزائر أحد علمائها محمد الشاهد على إثر قصيدة مدح نوه فيها أيضا بمختصر خليل الذي كان قد فتر ذكره على عهد محمد الثالث، وكان ضد تدريس المتون (129). وواضح أن تزكية شخصية مولاي سليمان وعمله هنا انطلقت في اتجاهين، أحدهما كتقوية لمركزه، والثاني كارتياح للعودة إلى تقليد تربوي دشنه العهد المريني.

وارتبط السخاء الملكي بالميول المذهبية للملوك أنفسهم، وهكذا فإن المحدثين لقوا عطفا متزايدا من محمد الثالث. ففي ظهير باسم هذا العاهل (130)، مؤرخ بأوائل رمضان 1190 / 1776 خصص للمحدث الكبير إدريس العراقي مبلغ خمسمائة درهم من الفضة سنويا من دخل ميناء تطوان، وكمية من شقق الملف والكتان على يد قائد هذه

127ـ أفراني، نزهة الحادي (نص فرنسي، نشر هوداس) ص 499. ناصري، استقصا، 7، 31
128ـ مراكشي، إعلام، 3، 127
129 ـ المشرفي، الحلل البهية (مخطوط خزانة عامة، الرباط) ص 176، 177
130 ـ مراكشي، إعلام، 3، 18

المدينة. ومقابل ذلك، دعي العالم إلى (بث العلم ونشره في جميع الأوقات)، وهذا يعني تطبيق اتجاه السلطان في خدمة المدرسة الحديثية التي كان العراقي من أعلامها وإن لم ينص الظهير على تدريس علم بعينه. ولهذا الغرض بالذات كان محمد الثالث يجمع بمقصورة الجامع بمراكش عددا من فقهائها والوافدين إليها من علماء المغرب فيذاكرهم في الحديث وشرحه وفي الأدب وتاريخ العرب (131) وكان الفقهاء بالنسبة إلى السلطان محمد الثالث دعما كبيرا لنفوذه كعالم وملك، فكان يحرص على أن يتعرف عليهم، وقد اعترف جده مولاي إسمعيل بأن أربعمائة عالم ساندوا الحركة العلوية في أوائل نشأتها. ولما دخل محمد الثالث إلى فاس سأل عن فقهائها واحدا واحدا حتى تعرف عليهم (132).

واتهمت زاوية أبي الجعد بسبب وشاية من بعض ولاة بني زمور بكون أهلها يأوون عناصر ورديغة التي تتملص من أداء الضرائب، وكانت الزوايا ملاجىء سياسية، فأمر السلطان أن تتولى إدارة المخزن وضع يدها على ما يحيط بالزاوية ما عدا الحرم، وعمد الجيش إلى إخراج اللاجئين من الأضرحة رغم تعليمات السلطان ثم أخرج شيخ الزاوية محمد العربي الشرقي وهو عالم تلقى جزءا كبيرا من دراسته بمصر، وكان إخراجه بأمر العاهل الذي استقدمه مكرما إلى مراكش فأقام فيها بحومة القصور ثلاث سنين يحضر مجالس السلطان الحديثية، وأخيرا دعاه إلى الرجوع إلى الزاوية فصادف استعداده للسفر موت السلطان، غير أن نجله اليزيد زاد في بره وقدم له مجموعة كتب (133). وهكذا فإن نكبة الزاوية سلم منها شيخها وأسرته، فقد كانت الزاوية الشرقاوية ذات قوة في منطقة الشاوية، ومن ثم فان رعاية الشيخ لم تكن لمكانته العلمية والدينية فحسب بل للوزن السياسي لزاويته أيضا.

وإذا كان في العلماء من برهنوا عن شمم وعلوهمة، فإن في الملوك من عاملوهم بكثير من التواضع والتقدير. نقل أحمد بن خالد الناصري عن الجيش العرمرم لاكنسوس أن مولاي رشيد دعا أحد العلماء ليتدارس

131 ـ الفتوحات الإلهية (للسلطان محمد بن عبد الله) مقدمة المدني بلحسني. ص (لا)

132ـ زياني، بستان (م،خ،ع الرباط ص 98

133ـ مراكشي، إعلام، 6، 185

134ـ ناصري، استقصا، 7، 44

معـه بعض الكتب فامتنـع وقال قولة مالك : العلم يؤتى ولا يأتي ، فأخذ السلطان يتردد على منزل العالم ، وكان مولاي رشيد يحضر دروس الشيخ اليوسي بالقرويين .

ودعا مولاي إسمعيل خليفته المعين بمراكش ونجله مولاي المأمون إلى أن يذهب بنفسـه إلى منـزل الوزير العالم أحمد اليحمدي ليأخذ ظهير تقليـده ، وكـان بين الأمـيروالـوزيـر جفـوة ، فذهب إليـه مكـرهـا ثم قال للعـاهـل : إن اليحمدي يزعـم أنه علمك دينك ، فرد السلطان : إن قال ذلك حقا فهو صادق ، فإنه هو الذي علمني ديني وعرفني بربي (135) .

وعنـدمـا وقعت العـرائش في قبضـة المغـاربـة وأسر عدد من أهلها طالب كارلـوس الثـاني عاهل إسبانيا بإطلاق سراحهم لانهم استأمنوا قبل دخـول المغـاربة إلى المدينة ، فرد مولاي إسمعيل في خطاب يشرح وجهة نظـرا العلماء بعـد أن اقتنـع بحججهم في اعتبـار هؤلاء الاسبـان أسـرى ويعـاملون كذلـك ، وممـا ورد في الخطاب (136) (وبقينا في حيرة من هذه المسألـة من وجهـين : الأول ، لا نقـدر نخـالف شريعتنا التي هي أساس ديننا ، والوجه الثاني ذلك القول الذي سمعه في تلك المائة (من الاسرى) أحببنا الوفاء به وأنفت نفوسنا أن يسمع عنا الناس قلنا كلمة ولا نوفي بها ولولا معارضة العلماء لنا بهذا الاحتجاج القوي لكنا سرحنا هذه المائة) .

وكـان مولاي إسمعيـل يستنـد في إقرار هيبة المخزن وتنظيم الدولة إلى عنصرين متوازيين، النصوص الشرعية التي يستصدرها من العلماء ، ثم قوة الجيش تطبيقا لأحكام هذه النصوص . ومن ثم فسلطة العلماء هي سلطـة تشـريعية ، ودورهم بالنسبة للسلطة والأمة شبيه إلى حد كبير بدور الـبرلمـان المنتخب . فلا غرابـة أن يكتب مولاي إسمعيل إلى الشيخ محمد بن عبـد القـادر الفـاسي يذكره بأن أخاه مولاي محمد (بايعه ما يقرب من أربعمائة عالم من أهل العلم وذوي الأقدار والأحساب والأخطار، وجلهم سمعنابه وعرفناه ، وأدركنا كثيرا منهم (137)

135 ـ م . س . ص 78

136 ـ مجموعة الوثائق ، 1 ، 417ـ418

137 ـ Mohammed El-Fasi, Lettres inédites de Moulay Ismaïl. Hespéris. 1962. p. 60

وفي كثير من الحالات نجد البر بالعلماء لا يقتصر على أشخاصهم وهم أحيــاء بل يمتــد إلى أسـرهم بعـد وفـاتهم حيث تخصص لورثتهم المباشرين إنعامات ملكية.

وتقمص عدد من الملوك والأمـراء الشخصيـة العلمية بشكل مباشر كما هو الشأن بالنسبـة إلى السلطـان محمـد الثـالث ومولاي سليمان ومحمد العالم ومحمد بن عبد الرحمن ومولاي الحسن ومولاي عبد الحفيظ، فمحمد العـالم لقب كذلـك لصفتـه العلميـة، وكـان على إطـلاع عميق بالعلوم التقليـديـة ويتـذوق الأدب حتى كان ينفعل لسماع الشعر ويتأثر له. وكان يحيط نفسه بالمثقفين الذين سلموا من النكبة بعد إعدام محمد العالم وكان قد ثار بسوس وأعلن نفسه بها ملكا.

وحسب الزياني (138) كان الأمير علي نجل محمد الثالث وخليفته بفـاس يتشبـه بمحمد العالم في كرمه وأدبه ويعنى كثيرا بنسخ نوادر الكتب ويخـاطب بالشعـر والـترسـل معـاصـريـه من الأدبـاء الفاسيين والبكريين والقـادريـين. ويكـاد كل المؤرخـين المعـاصرين والقريبين من عصر محمد العالم يتعاطفون معه كعالم وأديب، وهذا التقارب بين المثقفين ومحمد العالم سببــه أنــه تأطـر كليـا أو كاد في بوتقتهم حتى وهـو يديـر ثورة، بينـما كان التعـاطف بين المثقفـين ومـولاي إسمعيـل معكوسا، فهو لم يكن في درجة العلماء ولكنـه كان يتقـرب إليهم أكثـر مما يتقـربـون إليـه فيما عدا حالات خاصة. وهو في ذلك لا يصدر عن خوف، لكن عن وعي ذكي بمكانتهم الاجتماعية والسياسية مع محدودية أفقه في ميدان الشريعة بالنسبة إليهم.

المجالس العلمية

لم يخلق المغرب فكرة المجالس العلمية، فهي قديمة في أوائل الدولة الاسلامية، بل هي موجودة بشكل أو بآخر لدى شعوب التاريخ القديم. فملوك الهنـد والصـين كان لهم مجالسهم من الحكـماء والمنجمين، والبلاط البيـزنطي كان يهيمن عليـه الـرهبـان وتجـري فيـه مناقشات علمية ودينية وسيـاسيـة. وفي الاسـلام فتـح الـرسـول (ص) باب النقاش العلمي في

138ـ نقلا عن الناصري، م.س، ص 92، مشرفي، حلل، ص 112

مجالسه خاصة بمسجد المدينة وبيته المجاور. والأحاديث النبوية أثار كثير منها أسئلة الصحابة والزوار، وبفضل هذه ألأحاديث إلى جانب تلاوة القرآن وشرح أحكام الشريعة من خلاله انطلاقا من المجالس النبوية أمكن توجيه الفكر الاسلامي في خطوطه النبوية الأصيلة، وتكاد كل أنظمة الحكم الاسلامي العامة والمحلية تتخذ من جماعة الفقهاء الكبار مجالس شورى ومنتديات للثقافة الدينية واللغوية، وبعض الأنظمة تجاوزت فيها هذه المجالس النطاق الديني المحض كما كان الشأن في مجالس بعض الخلفاء الاسلاميين الذين كان من جلسائهم أطباء وأدباء وإخباريون وغيرهم. وتميزت الأنظمة الملكية أكثر من غيرها باطراد وجود مجالس فكرية أو دينية بها تلازم أو تجالس في فترات معينة، الملوك ونوابهم عند الاقتضاء.

وإذا كانت هناك مجالس فعلية بالمغرب قبل المرابطين، فإن الفقهاء برزوا خلال حكمهم باستمرار في مجالسهم. وأطلق مصطلح المجلس العلمي رسميا لأول مرة على عهد بني مرين، ولكننا لا نلمس بشكل حاسم تأثيره على الميدان السياسي. ويكاد كل ملوك العلويين قبل الحماية يحتضنون مجالس علمية يناقشها العاهل في مسائل دينية أو سياسية، وهذا يصدق بالاخص على الملوك البارزين. وهكذا فعملية تجنيد الحراطين بفاس، وقضية أسرى العرائش أثارت مجالس متعددة بإشراف مولاي إسمعيل. وهذا عدا الاستفسارات التي اتخذت شكل مذكرات إلى العلماء في عموم المغرب في قضايا كهذه وغيرها.

على أن الظاهرة الجديدة التي أنشأها محمد الثالث هي تطويق المجالس العلمية بالانكباب على الحديث وحده. إن هذه الظاهرة لم تمت بوفاته، بل أصبحت عرفا احترمه سائر الذين تعاقبوا بعده. وحيث إن السلطان محمد بن عبد الله اعتنق المذهب الحنبلي كعقيدة حسبما صرح بذلك في أول كتابه «الفتوحات الالهية» وفي آخره أيضا، فقد لجأ إلى إنشاء أو إعادة حركة حديثية شاملة بالمغرب تستجيب لعقيدته الحنبلية. ولابد أن أصداء الحركة الوهابية التي بدأت بالظهور في شبه جزيرة العرب قبل تولية محمد الثالث سلطانا كان لها تأثير قوي في هذا الاتجاه الحديثي. ومن ثم فإن جل المجالس العلمية التي تحلقت حوله وحول خلفائه كانت

بالـذات مجالس حديثيـة حتى عهـد الحسن الأول. ولم يكن ذلـك فقـط تفسـيرا للتعـاطف مع الحـركـة الـوهابية بشكل خفي (والمغرب كان يجدد الحـركـة الحـديثية التي عرفها خلال القرن 7 / 13م) وإنما كان ذلك أيضا كضربة موجهة إلى الزوايا التي ذهب المجتمع في التهافت على أضرحتها مذهبا بعيدا. فإذا كان في جزيرة العرب أضرحة لكبار الصحابة ومزارات مقـدسـة على مستـوى بشـري عالمي فإن الأمـر لم يكن كذلـك بالنسبـة للمغـرب الـذي اتخـذت فيـه الفـآت الاجتماعية المقهورة والضعيفة، من أضـرحـة أشخاص عاديين أحيانا شفعاء حقيقيين وعيادات طبية وأصناما تحاط الأشجار والدار بزين حولها بالتمائم والتعاويذ.

وقامت هذه المجالس الحديثية أيضا بإعادة الاعتبار إلى أصل كبير وأساسي للشريعة بدل اللجوء إلى الخلافات الفرعية داخل إطار المذهب المـالكي وهي خلافـات يحلو للمفتـين أن يتحفـوا بها حتى أولئك الأميين وأشبـاه الأميـين ممن يسألـون عن شؤون دينهم وينتظـرون أجـوبـة محددة تنطلق من أصول الشريعة ثم من اجتهادات المفتين أنفسهم.

كانت المجالس العلمية تتكون عادة من نخبة العلماء الذين يدعى بعضهم من خارج العاصمة ويمكثون في ضيافة القصر أو بعض رجالات المخـزن ويحصلون في نهايـة مهمتهم على إكـرام السلطـان عينـا ونقـدا، وهناك من يلازمون السلطان في مهمة طويلة قد تمتد بتنقلاته من مكان لآخر.

ومن أعضـاء مجلس السلطـان محمـد الثـالث: محمـد الغربي من الرباط، وكان يلازم الملك مع زملاء له في مختلف تنقلات العاهل بقصد دراسـة ومقـارنة ثم جرد مسانـد الأئمة التي استقدمت من المشرق، ومحمد بن الطاهر المير من سلا وكان فقيها محدثا مفسرا ذا معرفة بالطب، ومحمد الكـامـل الرشيدي الفقيه المحدث، وعبد الرحمن بوخريص الذي وصف بالفقيـه العـلامـة، وعبد السلام بن بوعزة حركات وعبد الرحمن المنجرة، والتهامي بن عمرو، وعلي بن إدريس الفيلالي، ومحمد بن عبد الصادق.

وهـذه الجـماعة من بين مجلس السلطان محمد بن عبد الله اختصت بوضع مؤلفات قرر السلطان موضوعاتها أو أمرهم بتدوينها طبقا لتوجيهاته وإمـلاءاتـه، وهنـاك علماء آخـرون من المحـدثـين استقـدمهم من فاس

ومكنـاس ومراكش وسلا وتادلا للتدريس بمراكش (139) التي كانت قد تخلفت كثـيرا في الميـدان الثقـافي حتى في بعض المعارف الدينية كما لاحظ ذلك دوفردان في كتابه عن مراكش.

وكان محمد بن عبد الرحمان عالما بالحديث بالاضافة إلى سعة أفقه في أغلب العلوم الـدينيـة الأخـرى وفي الحساب والهندسة أيضا. وكان له مجلس رسمي لتدريس الحديث تنعقد حلقاته مدة رجب وشعبان ورمضان من كل سنـة. ومن أعضـائـه (140) عبد القادر العراقي وأحمد الشبيهي والمدني الغرفي والمفتي عبد القادر الدباغ.

ومن أعضاء المجلس العلمي لمولاي الحسن، الفقيه المحدث عبد الهـادي الصقـلي وعالم الصحراء محمد البوهلالي الركائبي وكان من الذين يتنقلون مع السلطان حيثما حل (141).

وآخـر المجـالس العلميـة قبـل الحماية كانت من تنظيم مولاي عبد الحفيـظ بفـاس ومـراكش، واقتفى أثـر أسـلافه في تنظيم حلقات حديثية تستغـرق رجب وشعبـان ورمضـان، ومن أعضـاء مجلس مولاي عبـد الحفيـظ، الشيـخ ماء العينين، ومحمد بن عبد الكبير الكتاني والمفتي محمد عبد السلام العمراني وعلي بن محمد العدلوني.

ولم تكن هذه المجـالس تخلو من منـاقشـات يثـيرها العاهل بنفسه، وكـان مولاي عبـد الحفيـظ يتلقى مباشرة ردود الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتـاني الـذي كان يرى ان بعض وجهـات نظر السلطان تخالف نصوص الكتاب والسنة (142).

لقد كانت للمجالس العلمية صورة علمية تقليدية، ولكن الطابع السياسي كان أيضا يهيمن على بعض أهدافها وتحركاتها.

139ـ مراكشي، إعلام، 6، 116، 161، 162، 188. 8، 122. مقدمة الفتوحات الاهية (لا)
140ـ مراكشي، إعلام، 6، 381
141ـ م. س. 8، 508، عبد العزيز بعبد الله، الموسوعة المغربية، معلمة الصحراء، 1، 180
142ـ محمد الباقر الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 214

الفصل الثاني

الفكر الديني والاجتماعي ومحاولات الإصلاح

إن الفكر الديني في مستوى المجتمع، يمثله كل من الفقهاء والزوايا حسب منظوره الخاص. وإذا كان معروفا بالبداهة أن الزوايا تمثل تنظيمات تختلف في دقة أهدافها ووسائل عملها فإن الفقهاء لم يفكروا يوما ما أن يتكتلوا في هيئة أو هيئات دائمة توحد أهدافها وطرق عملها، غير أن عددا لا يستهان به من الفقهاء كانوا يتعاطفون مع الصلحاء أو يتقمصون هم أنفسهم شخصية الصلحاء، بل إن عددا كبيرا منهم ينضم بمحض إرادته إلى هذا التنظيم الصوفي أو ذاك دون أن تنزع عنهم صفة الفقهاء، إذ ليس هناك خط فاصل بين الكتلتين، حتى إن الصوفي المثالي هو الذي يجمع بين علم الباطن وعلم الظاهر أي بين التصوف والشريعة، وبالتالي فهو فقيه بقدر ما هو صوفي، فهنا قاسم مشترك من غير شك. وهكذا فليس هناك عداء ظاهر على الأقل بين الفقيه الصالح والصوفي المتفقه، ولكن الفقيه قد يتحول إلى محارب قوي ضد الشعوذة المموهة بالصلاح، وضد بعض الممارسات الشعائرية التي يرى فيها الفقيه السلفي انحرافا ضد السنة وأصول الدين. وهذه الممارسات التي قد تشمل جوانب أخرى كابتزاز المال واستغلال الفقراء أثارت نقد الفقهاء وكتبوا عنها مذكرات ومصنفات عديدة.

تيار الزوايا وموقف السلطة

لم يكن موقف الـزوايـا واحـدا من المخـزن، ولا من الأوضـاع التي أحدثها الزحف الاستعماري. غير أنه من باب الارتجال أن نحكم بأن أيا منها كانت تتمتع بالنزاهة المطلقة في تحديد مبادئها وغاياتها، كما أن تجريد هذه الـزاويـة أو تلك من كل الايجـابيات في إطار ظروفها الزمانية والمكانية يمثـل أيضـا ضربـا من التجني. إن نشأة الـزوايـا في حد ذاتهـا تعبـير عن حاجات بيئية واجتماعية لم تكن الظروف السياسية العامة لتتيح بديلا عنها ولا أن تغني عن قيامها في هذا العصر، فبعضها أدى دورا بارزا في مناهضة الاحتـلال والـوجود الاستعماري، وبعضها نشط في ميدان التوعية الدينية والثقافية في جهات لا تحظى عادة باهتمام السلطة في هذا المجال. ومقابل ذلك فإن أغلبها تشبث بامتيازاته الضرائبية رغما عن السلطة أو بموافقتها، ولكن عندما يكون المخزن في مركز قوة يحرمها هذه الامتيازات وإذا قاومت فقد تتعرض لتدابير زجرية عنيفة.

إن معظم الـزوايـا الكبرى التي قاومت سياسة المخزن أو سايرتها أو ناهضت السيـاسـة الاستعـماريـة نشأت بالـذات على مشهـد من النظام العلوي. وهـذا شيىء لابـد أن يستـوقف النظـر، فالـزاوية الأم التي هي الزاوية القادرية بالنسبة لمعظم الزوايا الناشئة في هذه المرحلة قد تخلت عن مكـانهـا لكل هذه الفروع التي أنشأ كل منها أوراده وطقوسه واختط لنفسه اتجاها سياسيا معينا. بل إن الفروع أنشأت بدورها شبكة من الزوايا امتد بعضها إلى خارج التراب المغربي كالزاوية الدرقاوية مثلا. وهذا لا يعني أن الـزاويـة القادرية قد اختفت من الوجود، وإنما يعني أن فروعها تحولت هي أيضـا إلى جذوع ذات أفنـان. إن تكـاثـر هذه الفـروع ونشأة زوايـا جديـدة وقـويـة في ظل الحكم العلوي يعـود إلى أسباب مختلفة، منها قوة نفـوذ بعض الأسـر التي تحولت إلى تنظيـمات سياسية أو دينية أو للغرضين معـا. ومنهـا دور تلاميـذ بعض شيـوخ الـزوايـا الـذين فضلوا أن ينشئـوا تنظيـمات مستقلة عن أسـاتـذتهم، ووجـود فراغ روحي في بعض الجهات التي لم تنشط فيها زوايا سابقة أو تقاعست عن اداء دورها. ومنها دوافع مادية أتاحت للكثيرين من أرباب الزوايا أن يستفيدوا من الاعفاءات

الضــرائبيـة. وفي جميـع الأحـوال تبقى هذه التنظيـمات تعبـيرا بارزا عن الظروف البيئية والسياسية التي كان يعيشها المجتمع المغربي على الصعيد المحلي أو الوطني.

والزوايا بالنظر لتوسعها ونفوذها على المجتمع فهي لا تكاد تفصل العمــل الــديني عن العمـل السيـاسي، وهـذا شيء طبيعي من حيث استحالة بناء حاجز بين الاسلام في اتجاهه الروحي، والاسلام في اتجاهه السياسي، ومواقفها ليست موحدة، ففيها التي تميزت بمعارضة المخزن، والتي اتجهت لمنـاهضـة الاستعـمار بشكـل ما، وبينهـا التي اتخـذت موقف الاعتدال أو اللين تجاه المخزن أو الوجود الأجنبي (1) :

1ـ الزوايا المعارضة للمخزن

من أهمهـا الـزاويـة المبـاركيـة والشـراديـة والـدرقـاوية والشرقاوية والكتانية. فالزاوية المباركية أسسها أحمد بن عبد القادر من أحفاد محمد بن مبارك الزعري التستاوتي الذي ادعى المهدوية ثم ألقي عليه القبض وألزم بسكنى مكنـاس حيث توفي 1129/1716. وتظهـر فكرة المهدوية لدى المؤسس كمحـاولـة انقـلابيـة وكـرغبـة في إعـادة تقويم ديني مشبع بروح التقشف والزهد.

وفي غرب مراكش نشأت الزاوية الشرادية بعد عودة مؤسسها محمد الشـرادي من الحـج 1177/1763، والشراردة مجموعة عربية من فروع معقل وبينها الشبانات الذين سبق أن حكموا مراكش ثم أقصوا عنها عند ظهـور العلويـين فهم معـارضـون بحكم ماضيهم التـاريخي القـريب كما تعــاطفت معهم بعض فروع معقــل. وتمكنـوا من سحق هجـوم قام به الجيش بقيـادة مولاي سليـمان، ثم أعلنـوا توبتهم وكـانـوقد نهبـوا مينـاء الصـويـرة، ثم رفضوا التعامل مع رجال السلطة الذين عينهم مولاي عبد الرحمن، وأدى ذلك إلى تخريب زاويتهم ونقلهم إلى منطقة الغرب. فدور هذه الزاوية كان طيلة حياتها سياسيا أبرز منه دينيا، وكان افتتاحها 1244/1828.

1ـ يراجع ما كتبه صاحب الدراسة في الجزء 3 من المغرب عبر التاريخ (الفصل الرابع من القسم الثالث) وفيه تصنيف للزوايا يخالف بعض الشيء

والدرقاوية نسبة إلى محمد أبي درقة بن يوسف. وبدأت الحركة الدرقاوية قبل مولاي إسماعيل فأنشأت فروعا لزاويتها في مختلف أنحاء المغرب والجزائر، وهي شاذلية وكان أتباعها على الأخص من أهل المدن ولكن كان لها عدد كبير من الأنصار بالأطلس المتوسط حيث أحيت بذلك أمجاد الدلائيين في الميدان الروحي إلى حد، غير أن الدرقاويين ينتمون إلى النسب الادريسي. ومن كبار شيوخهم العربي الدرقاوي معاصر مولاي سليمان ومولاي عبد الرحمان، وله دور بارز في إثارة أتباع حركته بالجزائر ضد الاحتلال الفرنسي. وتورط في قيادة الثورة ضد مولاي سليمان لصالح الأمير يزيد، وفيما عدا هذا الحادث الذي سجن من أجله الشيخ العربي مدة تجاوزت عامين التزم الدرقاويون نوعا من المرونة تجاه السلطة، لكنهم بالمقابل هيأوا الأطلس المتوسط قبل ظهور الحركة الكتانية لمعارضة التدخل الأجنبي (2). وتعد رسائل العربي الدرقاوي في التصوف من أبدع ما أنتج في هذا المجال الروحي.

وأسس محمد الشرقي (ت. 1010/1601) الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد وحظيت الزاوية لفترة ما بعطف المخزن حتى كان عهد محمد الثالث، وفي هذه الفترة بلغت الزاوية أوج قوتها بفضل أتباعها الكثيرين بالشاوية وتادلا والذين وقفوا بصلابة في وجه الاحتكارات الأوروبية التي تولت تسويق المنتجات الزراعية إلى الخارج انطلاقا من الدار البيضاء. وحيث إن الزاوية كانت كعشرات من أمثالها تحظى بالاعفاءات الضرائبية، فقد كان يأوي إليها لاجئون من الضغط الضرائبي من غير أربابها. وهكذا تم تخريب منشآت الزاوية بأمر المخزن ونقل شيخها العربي بن المعطي إلى مراكش إلى فاس ومنها أعيد إلى أبي الجعد في عهد مولاي هشام. وبالرغم من أن أرباب الزاوية وضعوا أنفسهم في خدمة القضية الوطنية بعد معركة إيسلي فقد جوبهوا بفتور من المخزن، ومن ثم ولوا وجوههم تدريجيا عن السلطة، وحرصوا ليلة الحماية حسبما ذكره إيكيلمان على أن تعفيهم الادارة الفرنسية المرتقبة من الضرائب. واتخذ الشرقاويون الطريقة الشاذلية ذات النفوذ الصوفي المطلق بالمغرب.

2- كتب الجزائريون عن العربي الدرقاوي. ومنهم محمد المعسكري، كنز الأسرار في مناقب مولاي العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأبرار. مخطوط كلية الآداب ج.م.خ. الرباط، رقم 8

وأخيرا فإن الزاوية الكتانية التي نشأت على يد الشيخ (الأب) محمد بن عبد الكبير الكتاني حوالي 1267 / 1850 أصبحت لها طريقة خاصة بها بعد أربعة عقود من السنين على يد حفيد الشيخ وسميه محمد ابن عبد الكبير. وتنبني الطريقة الكتانية على أربعة أركان: 1 التوبة، وهي الندم مع الاقلاع عن الذنوب 2- امتثال الأوامر واجتناب النواهي 3- التماس المعاذير لكل الناس على اختلاف مذاهبهم وآرائهم 4- نظرة التعظيم لله في سائر الموجودات مهما صغرت.

واتخذت الزاوية الكتانية موقفا صريحا ضد سياسة مولاي عبد العزيز. وهكذا كان عميد الكتانيين محمد بن عبد الكبير أبرز الشخصيات العلمية التي تولت خلع مولاي عبد العزيز وإعلان بيعة أخيه مولاي عبد الحفيظ مقابل التزامه بوقف التدخل الأجنبي والعمل على رد الاعتبار إلى الزوايا والشرفاء والعلماء من حيث تخويلهم الاعفاءات الضرائبية التي جردهم منها السلطان عبد العزيز في إطار توحيد الضرائب وتعميمها.

ووضع الشيخ محمد الكتاني مجموعة كبيرة من المؤلفات في التصوف وغيره من العلوم الدينية.

2- الزوايا المعارضة للسياسة الاستعمارية

إن بعض الزوايا التي عارضت سياسة المخزن من بعض وجوهها كان لها دور في معارضة السياسة الاستعمارية والتغلغل الأجنبي، وبالأخص الزاوية الكتانية. وهناك زوايا أخرى واجهت الاستعمار الأجنبي بشكل أو بآخر، ومنها الزاويتان الكنتية والفاضلية بالصحراء الغربية والجنوبية، والقندوسية والكرزازية بالصحراء الشرقية، والتيجانية بإفريقيا الغربية وإن كانت انطلاقتها من المغرب، والريسونية بالشمال (3) وبرز دور أنصار الكتاني بالأطلس المتوسط خاصة في مواجهة الاستعمار لفترة طويلة. أما الزاوية الريسونية فساندت المخزن ضد السياسة الاسبانية التوسعية، وتولى أحد المنتمين إلى الأسرة الريسونية مولاي أحمد معارضة السياسة العزيزية كما أزعج الأوربيين بطنجة وعرقل الامتداد الفرنسي نحو الشمال وإن اتهم بملاينة الطرف الاسباني.

3- جل هذه الزوايا عولج دورها السياسي بين ثنايا الجزء 3 من المغرب عبر التاريخ للمؤلف. وانظر بالأخص الفصل الأخير منه

3ـ الزوايا المعتدلة والمحايدة

يمكن أن يصنف بينها الزاوية التيجانية بالمغرب لأن موقفها تجاه السلطة وحتى ضد التدخل الأجنبي كان أقل تشددا، بل إن هناك من يرى أن عناصر تيجانية كان موقفها غير سليم بالنسبة للتدخل الاستعماري. وهناك الزاوية الناصرية التي بالرغم من أن نفوذها الروحي وثرواتها الكبيرة أدت إلى مضايقة بعض شيوخها فإنه لم يكن لها مواقف سياسية معينة، لانها كانت في موقع أقل تورطا في الصراعات السياسية الداخلية، وبدون شك فإن شيوخ الزاوية أنفسهم والذين وجهوا همهم لنشر الطريقة ولبث المعرفة كان لهم ضلع في هذا التحييد. وتعاطفت الزاوية الفاسية مع المخزن، ولكن أفرادا منها برزوا في ميادين المعرفة وترك بعضهم آثارا قيمة كأبي زيد عبد الرحمن الفاسي ومحمد العربي الفاسي.

وأسس جد الوازنيين مولاي عبد الله الشريف بينما كانت الدولة السعدية تتجه نحو مرحلة احتضارها، خلوة بوزان حيث تكونت مدينة بفضل توافد مريديه، وهذه الزاوية الجديدة اقتبست تعاليمها من جدها القديم الشيخ عبد السلام بن مشيش. وقام الوزانيون بدور حاسم في تعريب منطقة جبالة ونشر تعاليمهم بالمنطقة. وبعد أن ثبت الاحتلال الفرنسي أقدامه بالجزائر تمكن الشيخ العربي الوزاني من إقامة علاقات طيبة مع حكامها رغبة في أن تواصل فروع الزاوية بالجزائر نشاطها، وأخيرا فإن دخول مولاي عبد السلام في مظلة الحماية الفرنسية وزواجه من إنجليزية قبل إقرار الحكم الفرنسي بالمغرب، بسنوات كثيرة، أثار لغطا في الأوساط الاجتماعية، ومع ذلك فإن الزاوية الوزانية لم تفقد مركزها الديني بمهادنة الاحتلال الفرنسي.

وإذا كان هناك شيء من الاختلاف في الاذكار والاوراد وطريقة الرقص أو الجذب أو اتخاذه من حيث المبدأ، فإن كل الزوايا المذكورة تلتزم أساسا بتعاليم السنة وقد تبتعد بعضها عن مضامين السنة في مفهوم طبقة علماء الاجتماع الديني المسلمين والذين نددوا بالبدع حسبما سيأتي تفصيله.

والواقع أن الزوايا الكبرى كلها هي قبل كل شيء زوايا أسر شهدت مولدها على يد مؤسس واحد، ثم نمت وترعرعت على يد

سلالتـه التي أصبحت تكـون المئـين من النـاس ينبثـون في مختلف جهات البـلاد ويشـرفـون جماعيا ومحليا أو بالتفويض على فروع الزاوية. ومقدمو الـزاويـة قد يكونون من الأنصار وليس بالضرورة من سلالة الشيخ. لكن الشيـخ الأكـبر الـذي ينتخب من أغلبيـة الأسر هو الناطق بلسان الطريقة والمفـوض من ناخبيـه لدى الجهات الرسمية إذا اقتضى الحال تدخله لدى هذه الجهات.

إن ما يوحـد بين أتبـاع الطريقة هو حلقات الورد والذكر. والزاوية والمنـاسبـات الـدينيـة وحتى العـائليـة وكـذا مآتم الـراحلين من الأنصار والمتعـاطفـين تتيح للمنظمين والمريدين فرص التجمع الروحي والاتصال الانساني. ويبقى موسم مؤسس الطريقة والذي يقام سنويا حول ضريحه، في فترة محددة، أهم فرصـة تجمـع أكـبر عدد من الأنصـار والمريدين وحتى الـزوار المتـبركين أو الفضوليين. وقد تكتسي مواسم بعض المؤسسين وكبار الأوليـاء طابعـا وطنيـا وشعبيا حقيقيا، غير أن المواسم في أغلبها لا تمر دون مشـاهـد تعـد موضع استنكار من الفقهاء ونقاد الاجتماع الديني. ومن ثم نفهم موقف بعض الملوك الذين نددوا بالرقص والجذب والبدع التي تجلت في ممارسـات المتفقـرة. لكن إلى هنـا انتهى الاجراء المخزني ضد هؤلاء، وبلغ قمتـه في محاولـة إضعـاف بعض الـزوايـا ماديا وحتى تخريب مبانيها ونفي كبرائهـا، ففيـما عدا أربـاب الـزوايا أنفسهم هناك المجتمع الساذج المتشبث بعبـادة الأضـرحـة أو بتقـديسهـا إلى حد العبـادة، فإذا كان الوهابيون قد أفلحوا في تسوية الأضرحة بالأرض فإن أغلبية فقهاء المغرب كانوا أقل تصلبا تجاه الأولياء وأضرحتهم وذلك بالرغم من وجود حركة نقد وحتى معارضة علنية في وسط الفقهاء ضد الانحرافات الملموسة في وسط «الفقـراء»، وكـذلـك بالرغم من كون المنظور الروحي للفقيه يختلف عن منظـور الصـوفي، فإن الأول يلتزم بنصوص الشريعة، والثاني قد يبدأ من حيث يبـدأ الفقيـه وينتهي إلى الـولـه أو الجـذب، غير أن نقطـة الالتقاء المبـدئي بين الفقيـه والصـوفي الحقيقي كما يراه الفقيـه المغـربي أن يخضع كلاهما لتعـاليم السنـة. ولذلك يمكن أن نقول بكثير من اليقين أن ظاهرة الكـرامـات التي فشت بشكـل غريب قبـل العصـر الذي هو موضع هذه الـدراسـة قد خفت حدتهـا نوعـا، فهي لم تختف بل بقي لها وجود واسع، ولكنها إذا اجتذبت متعاطفين هنا وهناك فإن أربابها لم يعودوا يمثلون

كصلحاء ذلك الوزن الضخم الذي كان لهم خلال العهد المريني وحتى السعدي .

وهكذا فإن وسط الفقهاء اقترب بشكل ملحوظ من وسط الزوايا أو أغلبها وهذه الظاهرة لم تكن عميقة ولا فاشية من قبل . غير أن الفقهاء لا يحظى بإعجابهم وتقديرهم إلا من تشخصوا فيه مثال الصلاح ونقاوة العبادة والسريرة ، فماذا يقول أحمد بن خالد الناصري وهو فقيه مطلع قبل أن يكون مؤرخا ؟ إن نماذج تقديره للصلحاء كثيرة على الرغم من تفتحه نسبيا على التطورات الايجابية للحضارة الغربية . فهو يقول مثلا عن الشيخ محمد الهاشمي الطالبي من صلحاء سلا (4) : (الشيخ المنور الذاكر الخاشع) ، ويقول : (كان مجلسه مجلس علم وحياء ووعظ وذكر للأولياء والصالحين) ، ويقول (كان محافظا على الصلوات وقيام الليل والأذكار. . . . .) ، وقال عن الشيخ أحمد التيجاني (5) : (أقبل عليه الخلق واشتهر أمره بفاس والمغرب . وهو شيخ الطائفة التيجانية رحمه الله ونفعنا به) .

وبمثل هذه التنويهات يتحدث أكنسوس والزياني والضعيف ، وإذا عرف كل هؤلاء بصفتهم مؤرخين فإن في فهارس الشيوخ التي كتبها عدد كبير من الفقهاء ممن درسوا على شيوخ طرق وزوايا ما يغني بشأن تأثير هؤلاء في توجيه طلابهم ، ذلك التوجيه الذي يستمر أثره حتى بعد أن يصبح الطالب عالما ضليعا أو ذا مركز اجتماعي مرموق (6)

وظل لبس المرقعة والتصريح بجواز لبسها من صوفي لآخر تقليدا متبعا ، وهكذا فإن محمد الخلطي يتأثر بشيخه الرباطي أبي بكر بناني ، ثم يجيز لبس المرقعة لتلميذه فتح الله بناني ، وكل هؤلاء الشيوخ الثلاثة قد برزوا في علوم الشريعة بقدر ما برزوا في التصوف (7) ، ومثلهم العربي ابن السائح (ت 1309 / 1892) دفين الرباط والذي كتب عنه المؤرخ بوجندار وحظي بتقدير شعبي كبير كما لقي تعاطفا من الفقهاء أيضا .

---

4 - ناصري ، استقصا ، 9 ، 178 .
5 - م . س ، 8 ، 105 .
6 - راجع بشأن الفهارس : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، لابن سودة ، ج 2 ، 285 - 332 .
7 - الجراري ، من أعلام الفكر المعاصر ، ج . 2 116 .

على أن لبس المرقعة في ظل الزحف الحضاري والاستعماري خلال النصف الثاني من القرن 13 / 19 م لم يرق بعض الجهات التي وجدت في هذا المظهر من التصوف عملا مثيرا ومخالفا للسنة والذوق العام، وهكذا هاجم عدد من فقهاء تطوان وبخاصة المناهضون للحركة الدرقاوية، حمل السبحة في العنق على ضخامتها وسير صاحبها حافيا مع لبسه المرقعة. ولقي الشيخ ابن عجيبة محنة حقيقية فسجن بسبب التزامه بالطريقة الدرقاوية أخذا عن شيخها العربي. وهكذا تصدى محمد بن عبد الله المكودي التازي لأهل تطوان التي جرت بها هذه الأحداث، فكتب مذكرة مطولة في حوالي اثنتين وستين صفحة يرد فيها على انتقادات التطوانيين (8)، وسماها الارشاد والبيان في رد ما أنكره الرؤساء من أهل تطوان.

والحق أن مظاهر الفقر والمذلة التي شملت «تعرية الرأس والمشي بالحفا والسؤال بالأسواق والجلوس على المزابل مع الحذر من النجاسة والرقاد بالطريق وحمل القربة على الظهر وإعطاء الماء لله» اعتبرها أحد شيوخ الطريقة الدرقاوية مما يبعد المتفقر عن الخلق ويقرب من الخالق (9). وعندما نقارن هذه المظاهر التي تمسك بها الشيخ العربي نفسه بالتعاليم النبوية الصريحة نجدها مناقضة لهذه التعاليم، بل إن القرآن بالرغم من اعتباره أن شهوات الدنيا ظل زائل فهو يعتبر الاستفادة من نعمها الحلال عملا مشروعا: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟».

على أن هذا السلوك الشاذ في الحياة لم يختص به الدرقاويون، فما هو إلا رد فعل ضد التيار المادي الذي يسود زمناما في مجتمع اختل توازنه العقائدي والسياسي. وإذا كان الشيخ العربي قد حارب هذا التيار بصورة مناقضة تماما فقد كان ذلك لفترة محددة من ظهوره كشيخ طريقة. ولقد قيل عنه وعن طريقته إنها شاذلية بشكل عميق، أي أنها تجمع بين الشريعة والحقيقة وأن الشاذلية بصفة عامة لا يصل مشايخها إلى حال من الجذب تغيبهم عن الاحساس بأنفسهم (10)، وتميز الدرقاوي بالحض

8- توجد نسخة منها بكلية الآداب (جامعة م.خ. الرباط). وانظر دليل مؤرخ المغرب لابن سودة، ج، 2، 436

9 - فتح الله بناني إتحاف أهل العناية الربانية، ص 129

10- م.س. ص 124-125

على التجرد من الدنيا في الوقت الذي كان في عبادته مقتصدا ملازما لتعاليم الشرع. ولذلك فإن الشيخ عبد الواحد الدباغ (ت. 1271 ه بفاس) يأخذ على الفقهاء بشكل غير مباشر، ميلهم إلى الرفاهية والترف، وينطبق هذا بالخصوص على الذين أحسنوا الاستفادة من تعاملهم مع السلطة (11) : «كم من أقوام يصطلحون مع الهوى بالعلم، فيكتسبون الدنيا ويدخرونها لانفسهم فيها بالتوسعة والرفاهية ويقولون: نحن فيها بالله لا بأنفسنا، وهذا كلام حق أريد به باطل، من حيث إن لكل حق حقيقة وحقيقته التي يتحقق بها هي الخروج عنها بالايثار والاكتفاء بالله».

وقد كان عبد الواحد الدباغ هذا من تلاميذ العربي الدرقاوي، فهل كانت الطريقة الدرقاوية أيضا تمثل مناهضة لبعض الطرق التي كان مشايخها أكثر ترفا وأقل ميلا إلى التجرد الكلي كما هو شأن الطريقة الوزانية مثلا ؟

كانت الدعوة إلى العمل الروحي مع كل هذا سلاحا نفسيا وعقائديا في مواجهة التدخل الاستعماري، فنشاط الدرقاويين بدأ منذ أن تجلى عجز الأتراك عن مواجهة هذا التدخل بصورة حاسمة في الجزائر. ولقد ظهر الدرقاويون هناك كتلة شعبية ناهضها الأتراك أنفسهم، ثم إن اللجوء إلى محاربة العدو الاوروبي بالذكر وقراءة الدعوات، بموازاة القوة المسلحة كان ظاهرة بارزة في هذا العصر الذي اشتد فيه التكالب الأجنبي وأخذ الغزو الحضاري الأوروبي يكتسح الأوساط الاجتماعية بالموانىء والمدن الكبرى خاصة، فلم يكن غريبا والحالة هذه أن يقوم الشيخ محمد الكتاني هو أيضا، بدعوة الامة إلى الجهاد ومقاومة الحماية الفرنسية بينما هو يأمر أنصاره بقراءة دعوات خاصة تحمل إحدى مجموعاتها اسم الحزب السيفي (12). وإن لهذا الاسم وحده دلالة عميقة على قوة التحدي معنويا وماديا ضد التغلغل الاستعماري. بل إن توازي التحصين الروحي مع العمل السياسي نجده يشمل كل دعوات الاصلاح التي ارتفعت من

11ـ م. س. ص 134

12ـ الباقر الكتاني، الشيخ محمد الكتاني، ص 67، 77

المثقفين، حتى إن أحدهم قدم مشروع إصلاح سياسي وإداري لم يتردد في تضمين فصوله بندا يلزم المساجد والكتاتيب بقراءة منظومة ناصرية تشمل دعوات وتوسلات إلى الخالق عز وجل (13).

تيار الفقهاء: (محاربة البدع)

عرفنا أنه لا يوجد فاصل يحجز كليا بين الفقهاء والصوفية، فهناك خطوط التقاء وجوار بين الفئتين، لأن الفقيه قد يتقمص شخصية الصوفي في تقشفه وشغل جزء من وقته في الذكر والعبادة، ولربما تعاطف مع طريقة بعينها أو انتسب إليها، ثم إن الصوفي لابد أن ينطلق من علوم الشريعة قبل علوم الباطن، فله جانب من شخصية الفقيه. وليس كل زاهد عالما بالشريعة وبالحقيقة، لكن أهم نقط الالتقاء بين الفقيه والصوفي أن يأخذ كل منهما بقدر من مميزات الآخر. وهكذا فأغلب مشايخ الطرق درسوا ما يدرسه الفقهاء، ولابد أن نسجل هنا أن ظاهرة العصر هي أن أغلب الفقهاء أيضا درسوا التصوف بقدر وبعضهم قد ينتهون إلى التصوف الفعلي وحتى الجذب أو الدروشة كحال ابن عجيبة. وحيث إن هناك طبقة ثالثة من الفقهاء الذين بالرغم من اطلاعهم الواسع على العلوم الدينية بما فيها التصوف، لم ينجرفوا إلى الدروشة والسؤال وغيرهما من الظواهر السلبية في ممارسات بعض الطرقيين، فإن بينهم من تصدى لنقد الانحرافات الاجتماعية والدينية والأخلاقية سواء بالنسبة لبعض الطرق أو على الصعيد العام. وهذه الطبقة من نقاد الاجتماع (لان كل الانحرافات يتدخل فيها الدين) لم تكن وليدة ما قبل الحماية بقليل، فهي موجودة منذ أن وجدت الانحرافات والتي تبرز عادة في الطرف الموازي لظهور مؤسسي الأديان أو المذاهب (السامرية في عهد موسى، يهوذا الاسخريطي في عهد عيسى، ظاهرة المتنبئين في عهد الرسول محمد (ص)). وبهذه الصفة تصدى ابن تيمية لنقد النصيرية، وتصدى ابن الحاج الفاسي لنقد الانحرافات بالمشرق والمغرب. وحمل زروق على أغلب أرباب الزوايا.

أما في العصر العلوي فإن الذي دشن عملية النقد الاجتماعي هو الحسن ابن مسعود اليوسي الذي جمع بين المعرفة العميقة والروح الفلسفية النفاذة والصراحة في القول والجرأة في الرأي والموقف، مع استقامة سلوك ووعي بالمسؤولية الفكرية.

13 ـ يرد نص هذا المشروع وتحليله في الفصل الثالث

ودرس اليوسي أوضاع المجتمع المغربي بدقة، فهو يمثل ذلك الجيل المتميز بديناميكية البحث والذي لا يكاد يستقر بمدينة أو جهة حتى يغادرها إلى مكان آخر. وكذلك أولئك المثقفون الذين تضيق بهم السلطة في هذه الجهة أو تلك، أو الذين ينالهم بسوء حسد الزملاء وتجار السياسة والدين. فظاهرة الهجرة الداخلية وإلى الخارج لم تكن خاصة باليوسي ولا بأهل المغرب الأقصى فقد شملت مثقفين من المشرق وعموم المغرب الكبير، وهذه الفئة إذا لم تقترب من المجتمع وتداخله فإنها تقترب من نفسها أو لا وتقترب من وسطها ثانيا، وهي تكشف عن نفسها من خلال الاحتكاك وتنوع المعرفة، وبصفة خاصة من طريق التأمل الباطني ثم التأمل الخارجي. واليوسي قوي الملاحظة، ويميز بين فئتين : العامة والخاصة (14) ويدرس بعناية لهجات البربر بينما يكتب بلغة عربية عالية لا تخلو من شوارد وسعة أفق (15). وبدون شك فإن معاناة الجماهير الشعبية دفعته إلى كتابة الكثير عنها عرضا أو قصدا كما في المحاضرات وفي مذكرته عن جماعة العكازين. وكذلك نراه ينتقد كسلفه القديم أحمد زروق، ابتزاز المال من المريدين والزوار لاطعام الوافدين على الزوايا، بالرغم من أن أهل البادية أنفسهم يرون أنه لا بركة مع زيارة الشيخ إذا كان الزائر خاوي اليدين، وأن أفضل مثل للشيخ الصالح أن يضع ماله في خدمة الفقراء لا العكس (16). وآراء اليوسي في محاربة البدع لا تختلف في كثير عن آراء سابقيه قبل بضعة قرون، وذلك لان البدع نفسها لم تتغير شكلا، لكن اليوسي لا يهاجم البدع فحسب، بل يعدد ظواهرها وأسبابها بدقة ويهاجم أطرافها مهما كانوا أفرادا أو جماعات.

وكان القرن 13 / 19م يمثل ذروة النشاط الطرقي وفشو البدع التي وضعت بشأنها عشرات المذكرات والمصنفات. وهذه الفترة بالذات تمثل أوج الانبعاث السلفي في جل العالم الاسلامي كرد فعل ضد اكتساح الغزو الثقافي الغربي وأفكار التحرر الأوروبية والتي هي استجابة للسياسة العلمانية. والحق أن الدعوة السلفية قد وجدت بالمغرب جذورها خلال القرن 12 / 18 على يد محمد الثالث بعد أن اصبحت بعض الزوايا ذات

14 - Berque, al-Youssi, p 52

15 - Op. Cit, p 54

16 - Op. Cit, p 128

قوة سياسية ومادية، واستقطبت عشرات الألوف من الاتباع، لكن إذا كانت تهمتها الرسمية خلال القرن 12 / 18 في حمايتها لمن تتابعهم الدولة في التزامات مالية، فإن انتشار البدع في الأوساط الشعبية، وما أخذ على بعض الطرق من انحرافات عن السنة، أصبح في القرن 13 / 19 موضع معركة قلمية بين خصوم الطرق وأرباب الزوايا وأنصارهم، كما أن المخزن وجد نقطة ضعف لدى هذه الطرق لردعها تارة بالقوة وتارة بالعمل على إسقاطها دينيا في أعين الفآت الشعبية، لاسيما بعد أن اصبحت تعارض سياسة المخزن أو تتجاوز ميدان التحرك الدبلوماسي إلى التحرك الشعبي المسلح ضد التدخل الاجنبي.

على أن المخزن نفسه تبنى الدعوة إلى تقويم الانحرافات الاجتماعية والدينية، فعمل مولاي سليمان على إبطال المواسم وندد بالتوسل إلى الأضرحة واستنكر تصرفات بعض الطرق، وأصدر لذلك منشورا ورد ذكره في الترجمانة الكبرى للزياني. وكان لتحرك مولاي سليمان صدى قوي في أوساط الفقهاء المتشبثين بالسنة، وبينهم قاضي مراكش محمد عاشور الرباطي الذي عرف بتشدده في اختيار الموثقين وشهاداتهم، وقد حرر مذكرة ركزها على بدع عاشوراء بمراكش، أو ما كان يعرف ب (الفرجة). ومما استنكره (17) :

1ـ تخنث الرجال واسترجال النساء ولاسيما تقليد الزي الأوروبي بالنسبة لهؤلاء وأولئك.

2ـ استعمال آلات الطرب ليلة عاشواء. وأورد صاحب المذكرة هنا رأي ابن زروق بشأن (أصحاب الحال) أي المجاذيب الذين يفنون ذاتهم في الله ولكن يعاملون معاملة المجانين فلا يقتدى بهم.

3ـ ابتزاز المال من الأثرياء وشتمهم وإذا يتهم إذا رفضوا أداء المال لهؤلاء الذين اتخذوا آلات الطرب في شوارع البلد.

4ـ الدوران بالنواعير في ساحة المدينة واعتبار أداء المال على ذلك محرما شرعا

5 التمثيل الشعبي المرتجل الذي يقلد فيه الممثل يهوديا أو مسيحيا أو تاجرا أو بدويا أو ما إلى ذلك

17ـ مراكشي، إعلام 6، 298 ، 302

وبـاستثنـاء ما أخـذه الفقيه عاشور بحق على (أصحاب الحال) لما فيـه من بشـاعـة منظر وخلق وسلوك فإن المآخذ الأخرى دخل بعضها منذ زمن غير قصير في باب العادات المستحسنة، لان تطور المجتمعات يفرض من الأحكام ما يتجاوز منظور بعض الفقهاء.

وكتب أحمـد المـرنيسي (18) (ت. 1277 / 1860) عن البـدع، خصوصا ما يتعلق بالاجتماع على الرقص والنقر على الطبول في المزامير. وبشأن البدع أيضا كتب أحمد المراكشي المعروف بطوير الجنة مذكرة سماها : (فيض المنـان في الـرد على مبتـدعـة الـزمـان) (19)، وأحمد بن خالد النـاصـري : (تعظيم المنـة بنصرة السنة) (20). وإذا كتب الناصري في الدفاع عن السنة فذلك لان البدع التي عايشها الناصري تناقض انفتاحه الأكيـد على التطـور الحضـاري وليس لانه يساير سياسة الدولة، فهو قبل كل شيىء سليل الزاوية الناصرية التي كانت مبادئها سلفية الاتجاه، وهو أيضـا نصـير الصلحـاء والفقهـاء الملتزمين ولو أنه ينتمي إلى هيئة موظفي المخزن. وقد سجل في كتابه المشار إليه جملة من انحرافات بعض الطرق والزوايا.
كذلـك وقف أبـو القاسم الزياني موقفا مناهضا لبعض الطوائف خصوصا الطائفة التيجانية مبتدئا بانتقاد مؤسسها الشيخ أحمد الذي قال عنه الزياني إنـه كان في بدايـة أمره يعاشر بعض الكيماويين بتلمسان، وأن بايها سجنه ونفاه فتشرد في جهات الصحراء حيث جمع حوله مجموعة من الأوباش كما قال، فطارده باي وهران، وعندئذ لجأ إلى فاس مع بعض أسرته وبطانته، ورحب به السلطان مولاي سليمان «ولما اجتمع به ورأى تقشفه وزهده ظن أنه من أهل العلم والزهد كما وصف له الرسول (أي مبعوث التيجاني إلى السلطان قبل اجتماع التيجاني به)، وزعم أنه من أهل المعقول والمنقول. . . . »

ثـم ذكـر أن التيجـاني انضم إليـه أنصـار جدد بالمغرب وانتسبوا إليه وكـان يدعي أنـه يرى الـرسـول (ص) يقظـة لا مناما وأن تلاميذه تلاميذ النبي عليـه السـلام. ولم يسمـح لاحـد من تلاميـذه أن يأخذوا وردا عن غيره، واعتبر طريقته وحدها سنية (محمدية)

18ـ خزانة المرحوم عبد الرحمن بن زيدان (انظر ابن سودة، دليل، 2، 447)
19ـ م. س. ص. 491
20ـ م. س. ص 449. عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة، 3، 98

وختم الـزيـاني انتقـاده هذا بالتنـديـد بأحوال الفقراء خلال موسم مولاي إدريس وما يقومون به من رقص وتصفيق وغناء وانشغال بذلك عن الصـلاة كل يومهم ، ونقـل بعـد ذلـك كلام القـرطبي في تفسـيره للآيات المتعلقة بقصة السامري حيث قال عن التصوف كمذهب ومبدأ : «مذهب الصـوفيـة بطـالـة وجهـالة ، وما الاسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الـرقصٍ والتـواجـد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسداً له خوار. . . .»

وبديهي أن الرقص والتواجد سبق عصر موسى زمنا لانه من ظواهر التعبير لدى الانسان في بدائيته .

واعتـبر الـزيـاني أن موقف الطائفة التيجانية وغيرها من المبتدعة كما قال ، هو الذي قاد مولاي سليمان إلى إصدار منشوره بشأن البدع والمواسم .

إن المـدهش في موقف الـزيـاني تجاه التيجانية هو تناقضه مع موقف السلطان نفسه بشأن الشيخ التيجاني . فمولاي سليمان لم يشجع التيجاني فحسب ، بل احتضن حركتـه بشكـل غير مبـاشر. والزياني مؤرخ رسمي للدولة وهو يجل مولاي سليمان ، غير أن الزياني كان هنا مدفوعا بدافعين ، أولهـما أنـه يحمـل روح الفقيـه بالـرغم من أن إنتاجه التاريخي يطغى على غيره . وممـا أنتجـه : الـدرة الفـائقـة في الـرد على أهـل البدع والزنادقة ، وكشف الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار ، وثانيهما أن الزياني حمل جرحـا دفينـا لم يلتئم قط ، منـذ أن أرغم في أول عهد مولاي سليمان على ولايـة وجـدة ونهبت قافلتـه فلجأ إلى المغـرب الأوسط ، وهناك تعرف عن كثب ، على موقف الطـوائف الـدينيـة وخباياها كما تعرف على وجهة نظر الأتراك كحكام . فاحترامه مع ذلك للسلطان لم يمنعه من أن يستقل بفكره ورأيـه . وأخـيرا فإن الـزيـاني كتب عن الطـائفـة التيجـانيـة في «الترجمانة الكبرى» (21) قبل وفاة مولاي سليمان ، بعدة سنوات (22) .

21ـ عن هذا المصدر أخذت وجهة نظر الزياني حول التيجانيين ص 460 ـ 466

22ـ أتم الزياني كتاب الترجمانة الكبرى سنة 1233 / 1817 (مقدمة الترجمانة ، ص 34 ، . وتوفي مولاي سليمان سنة 1822 م

أما المرسوم الذي ألغى به مولاي سليمان المواسم فهو في الوقت ذاته خطاب موجه إلى الأمة يتناول بدع الطوائف ويذكر بتعاليم السنة . ومن حيث التفاصيل :

1- يوضح الخطاب أن الأمة خلطت إيمانها بالبدع وانقادت للشهوات

2- يندد بهولاء الذين استغلوا المواسم لابتزاز المال

3- ينص بالذات على طائفتي عيساوة وجيلالة الذين وصفهم بالحماقة والضلالة والجهالة .

4- يستنكر زخرفة الأضرحة والمساجد ويعتبر ذلك مخالفا لما كان عليه صدر الاسلام والسلف الصالح .

5- يندد بالغناء والرقص في الاجتماع للذكر ويدعو الناس إلى التوبة من مناكرهم وبدعهم .

6- يشرح طريقة التقرب إلى الله كبديل عن بدع الطوائف ، بأنها تكون بقيام الليل والمجاهدة ومقاومة شهوات النفس وأداء فرائض الدين

7- يستنكر استعمال الرايات أو كثرتها لدى الطوائف ، واختلاط الذكور والإناث في المواسم

8- يأمر الولاة بمنع الطوائف من حضور المساجد وغيرها وهذا نص المرسوم كما أورده الزياني (23) :

23- ترجمانة ، ص 466

«باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم»

يقول لكم أمير المؤمنين ، وناصر الدين المتمسك بسنن المهتدين، وسنة الخلفاء الراشدين.

الحمد لله الذي تعبدناه بالسمع والطاعة، وأمرنا بالمحافظة على السنة والجماعة، وحفظ ملة نبيه الكريم، وصفيه الرؤوف الرحيم، من الاضاعة إلى قيام الساعة، وجعل التآسي به أنفع الوسائل النفاعة، أحمده حمدا ينتج اعتماد العبد على ربه وانقطاعه، وأشكره شكرا بقصر عنه لسان البراعة، واستمد معونته بلسان المذلة والضراعة، وأصلي على مولانا محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة، على العموم والاشاعة ، والرضى عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة.

أما بعد :

أيها الناس شرح الله لقبول النصيحة صدوركم، واصلح بعنايته أموركم، واستعمل فيما يرضيه أمركم ومأموركم، فان الله قد استرعانا جماعتكم، وأوجب لنا طاعتكم، وحذرنا اضاعتكم، (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم،) سيما فيما أمر الله به ورسوله، أوهو محرم بالكتاب والسنة النبوية، واجتماع الامة المحمدية «الذين أن مكناهم في الارض أقاموا الصلاه» الآية، ولهذا نرثي لغفلتكم وعدم إحسانكم، ونغار من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسكم، فألقوا لامر الله آذانكم، وأيقظوا من نوم الغفلة أجفانكم، وطهروا من دنس البدع إيمانكم، واخلصوا أسراركم وأعلانكم، اعلموا أن الله بمحض فضله أوضح لكم طرق السنة لتسلكوها، وصرح بذم اللهو والشهوات لتملكوها، وكلفكم لينظر عملكم، فاسمعوا قوله في ذلك وأطيعوا، اعرفوا فضله عليكم وعوه، واتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون والبدع التي يزينها أهل الاهواء ويلبسون، وافترقوا أوزاعا، وانتزعوا الاديان والاموال انتزاعا، بما هو صراح كتابا وسنة واجماعا، وتسموا فقراء، وأحدثوا في دين الله ما استوجبوا به سقرا، «قُل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا : الآية» وكل ذلك بدعة شنيعة، وفعلة فظيعة، وشيمة وضيعة، وسنة مخالفة لأحكام الشريعة، وتلبيس وضلال، وتدليس شيطاني وخبال، زينه الشيطان لاوليائه فوقتوا له أوقاتا، واتفقوا في سبيل الطاغوت في ذلك دراهم واقواتا، وتصدى له أهل البدع من «عساوة وجلالة» وغيرهم من ذوي البدع والضلالة، والحماقة، والجهالة، وصاروا يرتقبون للهوهم الساعات، وتتزاحم على حبال الشيطان وعصيه منهم الجماعات، وكل ذلك حرام ممنوع، الانفاق في انفاق في غير مشروع، فانشدكم الله عباد الله هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة عمه سيد الشهداء موسما، وهل فعل سيد هذه الأمة أبو بكر لسيد الارسال، صلوات الله عليه وعلى جميع الاصحاب والآل موسما، وهل فعل عمر لابي بكر موسما وهل تصدى لذلك أحد من التابعين، رضي الله عنهم أجمعين، ثم أنشدكم الله هل حرمت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المساجد، أوزوقت أضرحة الصحابة والتابعين الاماجد، وكأني بكم تقولون في نحو المواسم المذكورة، وزخرفة أضرحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع، حسبنا الاقتداء والاتباع، «أنا وجدنا آباءنا على أمة : الاية»، هذه المقالة قالها الجاحدون، هيهات هيهات لما توعدون، وقد رد الله مقالهم، ووبخهم وما أقالهم، فالعاقل من اقتدى

بشاباته المهتدين، وأهل الصلاح والدين، «خير القرون : الحديث» وبالضرورة انه لن يأتي آخر هذه الامة باهدى مما كان عليه أولها، » فقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقد الدين قد سجل، ووعد الله بأكماله قد عجل «اليوم أكملت لكم دينكم : الاية، » قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «أيها الناس قد سنت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الجادة، فلا تميلوا بالناس يمينا ولا شمالا» فليس في دين الله، ولا فيما شرع نبي الله، أن يتقرب لله بغناء وشطح، والذكر الذي أمر الله به، وحث عليه ومدح الذاكرين به، هو على الوجه الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن على طريق الجمع ورفع الاصوات على لسان واحد، فهذه سنة السلف، وطريقة صالحي الخلف، فمن قال بغير طريقهم فلا يستمع، ومن سلك غير سبيلهم فلا يتبع، «ومن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المومنين الاية، » «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، الاية» . فما لكم يا عباد الله ولهذه البدع أمنا من مكر الله، أتلبيسا على عباد الله، أومنابذة لمن النواصي في يديه، أم غرورا بمن الرجوع بعد إليه، فتوبوا واعتبروا وغيروا المناكر واستغفروا، فقد أخذ الله بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور لما اغضوا عن المنكر عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عقبى الجميع ما بين العاصي والمداهن المطيع، أفيز لكم الشيطان وكتاب لله بأيديكم، أوكيف يضلكم وسنة نبيه تناديكم، فتوبوا إلى رب الارباب، » وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا : الاية» ومن أراد منكم التقرب بصدقة أووفق لمعروف إطعام أونفقة، لعلى من ذكر الله في كتابه، ووعد فيهم بجزيل ثوابه، كذوي الضرورة الغير الخافية، والمرضى الذين لستم بأولى منهم بالعافية، ففي مثل هذا تسد الدرائع، وفيه تمثل أوامر الشرائع، «انما الصدقات للفقراء : الاية» ولا يتقرب إلى مالك النواصي بالبدع والمعاصي، بل بما يتقرب به الاولياء والصالحون، والاتقياء المفلحون، بكل حلال، وقيام الليالي، ومجاهدة النفس في حفظ الاحوال، والأفعال والاقوال، البطن وما حوى، والرأس وما وعى، وآيات تتلى، وسلوك الطريقة المثلى، وحج وجهاد، ورعاية السنة في المواسم والاعياد، ونصيحة تهتدى، وأمانة تؤدى، وخلق على خلق القرآن يحدى، وصلاة وصيام، اجتناب مواقع الآثام، وبيع النفس والمال من الله «ان الله اشترى من المومنين : الاية» «ولكن البر من ءامن بالله : الاية» ، «وان هذا صراطي مستقيما : الاية» الصراط المستقيم كتاب الله وسنة رسول الله، وليس الصراط كثرة الرايات، والاجتماع للبيات، وحضور النساء والاحداث، وتغيير الاحكام الشرعية بالبدع والاحداث، والتصفيق والرقص، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص، «افمن زين له سوء عمله : الآية» عن المقدام ابن معدى كرب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يُجاء بالرجل يوم القيامة وبين يديه راية يحملها وأناس يتبعونه فيسئل عنهم ويسئلون عنه، «اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا : الاية» فيجب على من ولاه الله من أمر المسلمين شيئا من السلطان والخلائف، أن يمنعوا هؤلاء الطوائف، من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لاحد يدين لله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم، فإياكم ثم إياكم والبدع، فانها تترك مراسم الدين خالية خاوية، والسكوت على المناكر يحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية، فمن المنقول عن الملل، والمشهور في الاواخر والاوائل، ان البدع والمناكر إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت فيهم المثلات، وشحت السماء وسبحت النقماء، وغيض الماء، واستولت الاعداء، وانتشر الداء، وجفت الضروع، ونقصت بركة الزروع، لان سوء الادب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسد طريق الفوائد، والادب مع الله ثلاثة :

1) حفظ الحرمة بالاستسلام والاتباع.

2) رعاية السنة من غير الخلال ولا ابتداع.

3) مراعاتها في الضيق والاتساع، لا ما يفعله اليوم هؤلاء الفقراء، فكل ذلك كذب على الله وافتراء، «قل إن كنتم تحبون الله : الاية»

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقام عليه رجل فقال يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا، فقال : أوصنا، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة لمن وليكم وأن كان عبدا حبشيا فانه من يعش بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الامور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. وها نحن عباد الله أرشدناكم وحذرناكم وأنذرناكم، فمن ذهب بعد بهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الوبال عليه وعلى أبناء جنسه وتنه الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والاخرة «ذلك هو الخسران المبين، فليحذر الذين يخالفون عن أمره.... الاية.

انتهى

وإذا كان مولاي سليمان قد وجد في الفقيه عاشور أحد الذين تقبلوا نداءه بشأن الطوائف والمواسم والبدع، فإن هناك آخرين من الفقهاء انتقدوا تشدده ومن بينهم قاضي مراكش أيضا ومفتيها ابن مريدة محمد المكي السرغيني (ت. 1234 / 1818) الذي كتب مذكرة يرد فيها على طعون السلطان، سماها «الكواكب السيارة، والبحث والحث على الزيارة»، وقد طبعت هذه المذكرة إبان الحماية بفاس (1355 / 1936). وقد كان في الفقهاء من يحبذ أو يقبل زيارة الأولياء وأضرحتهم، ولكن جميع الفقهاء السنيين متفقون بشأن البدع التي تشوه المواسم والزيارة (24).

كذلك اتخذ مولاي عبد الحفيظ موقفا صريحا ضد الطوائف التي نسبها إلى الابتداع، وبالأخص الطائفة التيجانية. وبهذا الصدد كتب كتابا سماه «كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع، المتقولين الذين حادوا عن منهاج السنة، وأحدثوا اعتقادات لم ترد عمن شرح الدين والسنة». وطبع هذا الكتاب بالمطبعة الملكية (الحجرية) بفاس 1327 / 1909 (25).

24- عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة العربية، 2، 112. ابن سودة، دليل، 2، 434

25- ابن سودة. م. س. ص 471

على أن المـدافعين عن الأولياء وزيارتهم، وعن الزوايا بصفة عامة كان لهم صوت مكتـوب كما كان ذلـك من حق المهـاجمـين أيضا. ومن ثم نجد ابن المواز عبد الواحد قاضي مراكش (ت. 1318/1900) يكتب عن منـاقب السبعـة رجـال، وهنـا نلاحظ أن القضايا الدينية والاجتماعية فضـلا عن السيـاسـة كانت موضع معركة قلمية خلال القرن 13/19 م بمراكش كما هو الشأن بفاس أيضا (26).

لكن الطـرافـة هي في وجود صراع بين بعض الطوائف وقد يتدخل فيـه شيـوخ هذه الطـوائف ومثقفـوهـا، فمحمـد بن الطيب البـوعـزاوي الشاوي نصير الزاوية الشرقاوية وأحد قادة المقاومة بالشاوية ضد الاحتلال الفـرنسي انتقـد الكتـانيـين وكتب بشأنهم «الانتصار بالله لقول لا إله إلا الله، الفـرد الـوحـداني، في الرد على الكتاني»، فرد عليه زعيم الكتانيين محمد بن عبد الكبير بمؤلف عنوانه: لسان الحجة البرهانية في الذب عن شعائر الطريقة الأحمدية الكتانية».

وظهر كل من الكتابين في حياة صاحبه، وقد طبع رد الكتاني بفاس سنة 1900 م (27).

وإذا كان خطـاب مولاي سليـمان قد انتقد صراحة كلا من عيساوة وجيـلالـة، فإن هنـاك من دافـع عن مؤسس الطريقة العيساوية محمد بن عيسى دفين مكناس، حيث تتوفر إحدى الخزانات الخاصة على مذكرة في كراسة بعنوان: «تمسك الفقير الحقير بطريقة الولي الشهير الخطير» (28).

وأخـيرا فهنـاك من الفقهـاء من وقف إلى جانب الطرق جملة وحمل على منتقـديهـا كما فعل عبد القادر بن عبد الكريم الشفشاوني في «سلوان الاخـوان ونصـرة الخـلان في جمع الطوائف والأعيان...» وكتب العربي المشرفي ينتصر لأصحاب الطرق، مذكرة رد فيها بعنف على العالم جنون الذي انتقد بدعهم (29).

26ـ موسوعة مغربية، 2، 125

27ـ ابن سودة، م.س. ص 438، و 472

28ـ ن.م. ص 448. والمذكرة عند الأستاذ محمد المنوني

29ـ م.س. ص 493 و 455

مؤثرات الحضارة الأوروبية

وتميز العصر العلوي قبل الحماية بتيار فكري جديد هو تيار مدوني التقارير عن أوروبا وحضارتها، وكل هؤلاء زاروا أوروبا في مهمات رسمية أو في رحلات خاصة للدراسة أو غيرها. إن هذه الموجة من أصحاب التقارير تذكرنا بنظرائهم الأوروبيين الذين بدأوا نشاطهم عبر عدد من أقطار إفريقيا وحتى خارجها قبيل وخلال الكشوف الاستعمارية، لكن الزوار المغاربة لم تكن لهم مطامح توسعية ولا اقتصادية، بل وصفوا ما شاهدوه كموضع إعجاب وأحيانا كموضع نقد. ومعظم هذه الفئة من الأدباء والكتاب، لكن ما من أديب أو كاتب انسلخ عن الدراسات الدينية والفقهية. وهذا الازدواج في الشخصية الأدبية هو الظاهرة الأصيلة في أقطار المغرب التي لم يكن يخلو فيها المجال للأدباء أمام الهيمنة الشبيهة بالكهنوتية لهيئة الفقهاء. ومن ثم فالأديب فقيه بالرغم عنه ولو في سلوكه وموافقة الظاهرة.

وممن كتبوا عن أقطار أوروبا :

1- محمد بن عبد الواحد الغساني (ت. 1119 / 1708) كتب عن مدريد والشعب الاسباني ومهمته هو كمفاوض في افتداء الأسرى

2- أحمد بن المهدي الغزال (ت. 1191 / 1777) كتب أيضا عن سفارته إلى إسبانيا وشمل وصفه الجوانب الاجتماعية والأثرية ومختلف المظاهر الحضارية بالاضافة إلى نشاطه بشأن فداء الأسرى.

3- محمد بن عثمان المكناسي (ت. 1214 / 1799) كتب ثلاثة تقارير أو ثلاث رحلات عن إسبانيا، ثم مالطة ثم تركيا.

4- محمد الصفار الذي ذهب إلى باريس برفقة السفير القائد عبد القادر اشعاش في عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام سنة 1262 / 1847 كتب رحلة ممتازة، وفيها وصف الكاتب عوائد سكان باريس ومظاهر الحضارة الأوروبية بفرنسا بما في ذلك تسيير الشركات والمطابع والمصانع ومظاهر التقدم العلمي والمآثر التاريخية الكبرى بالعاصمة وما يتعلق بميزانية الدولة.

5- إدريس بن محمد العمروي (ت. 1296 / 1879) كتب تقريرا عن سفارته إلى فرنسا ووصف مدنها الكبرى كباريس ومرسيليا وليون. وأثار

إعجابه القطار الذي كان يتنقل به، كما أعجب بطبيعة البلاد متأثرا في ذلك ببيئته الفاسية. ووقف طويلا عند باريس يصف حياة أهلها في بيوتهم وطريقة بنائهم وتوزيع غرفهم. وانشغل بالجوانب العسكرية وأنظمة الدولة عموما.

6- الحسن الغسال دون تقريرا عن رحلته مع الباشا عبد الرحمن بن عبد الصادق إلى أنجلترا في عهد إدوارد السابع معاصر مولاي عبد العزيز، وذلك سنة 1902/1320، وقد لفت نظره وسائل النقل وسرعتها كالقطار والترامواي. وزار حديقة الحيوان والبرلمان وبعض متاحف لندرة ومعاملها الحربية (30).

وهناك تقارير لكتاب ومبعوثين آخرين، ويرجع إلى هؤلاء الذين ذكروا آنفا في القسم الأخير من هذه الدراسة في عرض الحديث عن الرحلات. غير أن أهم تقرير من حيث الاطار الجغرافي الذي تناوله، هو الذي وضعه الفقيه إدريس بن محمد الجعيدي. وكان قد رافق بوصفه كاتبا، السفير محمد بن الحاج الطاهر الزبدي في عهد مولاي الحسن. وكان على البعثة التي ضمت كذلك الأمين بناصر غنام أن تقوم بمهمة في عدد من دول آوروبا كفرنسا وأنجلترا وإيطاليا وبلجيكا، وتوج الجعيدي نشاطه هذا بتدوين رحلته: «تحفة الأحبار بغرائب الأخبار». وقال الناصري معاصر الجعيدي عن هذه الرحلة: «اشتملت على كل ندرة وغريبة وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة» (31).

كان هناك إذا، شهود عيان للحضارة الأوروبية في عقر دارها. والحقيقة أن شهودا آخرين سبقوهم خلال أجيال متعددة منذ القرن الحادي عشر / 17م، كمبعوثين دبلوماسيين أو مسؤولين في حركة الجهاد البحري وحتى أسرى ومجاهدين في هذه الحركة التي قادتهم إلى غزو السواحل والموانىء الأوروبية. لكن السابقين لم يتركوا آثارا مكتوبة إلا فيما ندر، وبقطع النظر عن المراسلات الرسمية. أما هؤلاء الذين مرا الحديث عنهم باقتضاب، فقد أحدثوا أدبا حضاريا جديدا لأول مرة. وهو أدب لا

30- انظر عن هذه التقارير: دراسة للأستاذ محمد الفاسي بمجلة البينة، أكتوبر1962، الرباط. د. زكي مبارك (مغربي): تحفة الملك العزيز للعمراوي. بحث علمي العددان 31، 32. م. عبد الله عنان، فهارس الخزانة الملكية، ج 1. النسخ الخطية من الرحلات في الخزانة العامة والخزانة الملكية بالرباط

31- ناصري، استقصا، 9، 151

يرتبط في شيء بالعالم الاسلامي الذي كان متخلفا وله هواته الكثيرون في عالم الرحلات. فإذا عايش الأوروبيون المغاربة في أرضهم فإن ما نقلوه من مؤثراتهم الحضارية كان قليلا وفي كثير من جوانبه سلبيا. أما المغاربة الذين زاروا أوروبا دبلوماسيين وسواحا وطلبة وتجارا فقد شاهدوا مظاهر الحضارة الغربية عن كثب، في المصانع والشركات والمتاحف والمعاهد والمصالح الادارية والمؤسسات المنتخبة. وشاهدوا هذه الحضارة من صنع أبنائها وليس بفضل السواعد الأجنبية. وهذه المؤثرات كما سجلتها أيد أمينة، أو عايشتها عقول متفتحة، كان لها دور كبير في تعميق الوعي بضرورة الاصلاح، إلا أن شكل الاصلاح ومراحله لم يكن موضع تخطيط موحد، بل إن التيار المحافظ والتيار المجدد لم يلتقيا في كثير من خطوط الدعوة إلى الاصلاح كما تبين ذلك من مواقف الفقهاء بشأن الطوائف والمواسم، وكما تجلى في بعض مشاريع الاصلاح التي سياتي تناولها.

لكن أخطر مشكل اجتماعي واجه التيارات الوطنية عامة في مجال التأثير الأوروبي هو قضية الحرية الاجتماعية، وبالأخص حرية المرأة، وهكذا فإن أقطار المغرب الاسلامي انشغلت كلها بالجانب الاجتماعي من الحرية في الوقت الذي انشغل فيه مفكرو الشرق بالحرية السياسية، وبينهم جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي. لكن مفكري المغرب انطلقوا في الاتجاه المضاد بينما انطلق المشارقة في الاتجاه المطالب لان الظروف الاقليمية فرضت كلا من الاتجاهين.

والحرية بمفهومها الأوروبي كما يرى أحمد الناصري تقتضي إسقاط حقوق الله بالنسبة للمسلم، لأنها تنطلق من لا دينية الدساتير الغربية، ونقل هذه الحرية إلى المغرب من شأنه إسقاط حقوق الله كالصلاة والصوم وتقتضي إباحة المحرمات كالخمر والزنا. وتحرر الولد والبنت من سلطة الوالدين بعد بلوغهما يؤدي إلى تهتكهما ورفع مراقبة الأبوين عنهما وإسقاط حق البرور بوالديهما.

ويتابع محمد السليماني الناصري (32) في هذه الآراء مشنعا على هؤلاء الذين هم من بين المغاربة يرون « أن الحرية هي خروج الحريم بادية متهتكة فاعلة ما يرضيها ويسخط ذويها». وواضح أن هناك من

32ـ م. س. ص 114. سليماني، اللسان المعرب، ص 167

مالــوا إلى تحويــل المــرأة بعض الحــريــة في الظهــور خارج بيتهــا، وأن شخصيـات متفتحة كالناصري والسليماني لم يكن همها أن تضغط بالحذاء على المـرأة، بل كانت تنظـر إلى سلبيـات الحـريـة الغـربية التي خشيت عدواها لا على المرأة المسلمة فحسب بل على الأسرة المسلمة كلّها، لكن الأسـرة المسلمـة لم تكن في حالـة طيبة تماما، كما أن علاجها لم يكن في أن تنقل إليها القوانين والأخلاق الغربية في سلبياتها.

وكـان ابن أبي الضيـاف التـونسي أقرب إلى فهم مضمون الحرية بالنسبـة للمـرأة، من زميليـه المـذكورين، ففي منتصف القرن 19 تقريبا (33)، دعا إلى تعليم البنت لان جهلها يدفعها إلى ارتكاب المحرمات، ولان عشرة المتعلمة أطيب من عشرة جاهلة.

وإذا كان النــاصــري قد تملص من تقــديم تصـور عن الحـريـة السيـاسيـة، فإن معـاصـره السليماني كان كآخرين أكثر شجاعة في تحديد مفهـوم هذه الحـرية التي جرى الاصطلاح على تسميتها بالحرية المدنية. وحيث يمتـزج هذا المفهـوم بالجـانب الاجتـماعي أيضـا، فلا بأس بنقـل نظرية السليماني في هذا المجال حيث يقول: «الحرية التي تصبو إليها نفس كل عاقـل هي أن يكـون المرء حرا في دينه ومعتقده الصحيح، لا يتعرض إليـه عنـد أداء شعـائـره، حرا في حريمه لا يلمس ولا ينظر إليه نظرة سوء (كـذا). حرا في مالـه، لا يؤخـذ منـه دانق إلا بحقـه، حرا في فكره يقول الحق إذا علمه، ولا يخشى من سيطرة مستبد، حرا في جسمه، لا يكلف بخـدمـة إلا إذا أخـذ عنهـا أجـرة في مقـابلة عرق جبينـه، حرا في حقوقه المـدنيـة، لا يسجـل عليه حكم إلا إذا عجز عن الدفاع عن نفسه بحجة بالغـة بين يدي أولي الأمـر، لا أن يقـول الحاكم المستبد: خذوه فاقتلوه، من غير حجة. . . .»

المذهب الوهابي بين أنصاره وخصومه

ارتبط ظهور المذهب الوهابي في جزيرة العرب بالظروف العقائدية والسيـاسيـة التي أتـاحت انتشـاره واستقـراره بينـما كان يجتاز معظم العالم الاسـلامي ظروفـا مشـابهـة. وتنسب الحـركـة الوهابية إلى محمد بن عبد

33 _ Béchir Tlili, Etude d'histoire sociale tunisienne, p 106
وانظر آراء ابن أبي الضياف عن الحرية السياسية (Op. Cit p. 212)

الوهاب من بني تميم الذين تميز تاريخهم بروح المعارضة. وكانت ولادته فيما بين 1111ـ1115 (1698ـ1703) بوادي حنيفة من نجد، وهو ينتمي إلى أسرة دينية مستنيرة أخذته بحفظ القرآن والحديث ودراسة سائر علوم الدين، ثم تنقل بين عدة مراكز من المشرق دارسا، لاسيما في بغداد والبصرة حيث تلقى الفقه الحنبلي ودرس كتب ابن تيمية وتأثر بها. وانشغل باله بما لاحظه في البصرة التي تأثرت بمؤثرات فارسية متحررة أبعدتها عن أصول الاسلام. وهناك استنكر تقديس الأضرحة والتوسل بالرسول والصالحين، ولكن نظرا للرقابة التركية عاد إلى مسقط رأسه حيث دعا إلى اتباع الشريعة واشتد في الدعوة لتطبيق عقوبة الرجم على الزاني. وسرعان ما لجأ إلى الدرعية بعد أن طالب عامل المنطقة برأسه، فتمكن من إقناع أميرها محمد بن سعود بتطبيق المذهب والعمل على نشره ابتداء من 1158/1740، وبذلك أصبح محمد بن عبد الوهاب رجل الأيديولوجية الأرثودوكسية يقابله محمد بن سعود كزعيم سياسي. إن هذه السلطة المزدوجة تتكرر في بعض فترات التاريخ وتؤدي غالبا إلى نجاح حقيقي. ومن نماذجها في الاسلام :

أبو عبد الله ـ عبيد الله الفاطمي

عبد الله بن ياسين ـ يوسف بن تاشفين

المهدي بن تومرت ـ عبد المومن بن علي

ومن نماذجها في الأيديولوجيات الحديثة : ماركس ـ لينين، مع اعتبار أن ماركس لم يعايش لينين زمنا ولا مكانا، ولكن هناك عقلا أيديولوجيا ويدا منفذة. والتقسيم الثنائي للسلطة (زمنية وروحية) غير وارد في أصول الشريعة الاسلامية عكس المسيحية، ولكنه حقق نجاحات أكيدة في مرحلة نشأة بعض الأنظمة القوية.

وبفضل تبني أسرة آل سعود للمذهب الوهابي تكون لديها دعم روحي بعث دما جديدا في أنصار المذهب الذين هددوا سلطة العثمانيين على المنطقة، وأرغموا المسلمين الوافدين خصوصا في مواسم الحج والعمرة على الالتزام بالتعاليم الوهابية بما في ذلك الامتناع عن زيارة الأضرحة كما منعوا التدخين وجردوا الضريح النبوي من مجوهراته. وعلى الرغم من أن العثمانيين دفعوا بجيوشهم لغزو الوهابيين واستعانوا أخيرا

بالجيش المصـري بإشـراف محمـد علي فإن الأسـرة السعـوديـة وأنصـارها صمـدوا بقـوة حتى بعد أن دكت عاصمتهم الدرعية واستمر الصراع ضد النفـوذ العثماني ثم المصري طيلة القرن التاسع عشر على فترات ووقع في الأسـر أو القتـل أو تحت طائلة الحكم بالاعـدام عدد من أفـراد الأسـرة السعودية. ولم يتخل السعوديون قط عن نشر المذهب الوهابي سواء داخل جزيـرة العـرب أو خارجهـا وخـلال مواسم الحـج أو بالمراسلة مع الأقطار الاسلامية البعيدة.

وفي عهـد عبـد العـزيـز الأول الـذي تولى سنة 1765 وتوفي سنة 1803 / 1218 ه هاجم الوهابيون العراق واستولوا على كربلاء وحطموا ضريـح الحسـين بن علي، وكان من مذهبهم منع إقامة الأضرحة والقباب حتى لا يصبـح المـوتى معبـودين من دون الله، ورأوا أن إقـامة الأضرحة مخالف للسنة النبوية.

وبـدأ المـذهب الوهابي أول فترات نفوذه القوي خارج شبه جزيرة العرب انطلاقا من الثلث الأخير من القرن 18 م، وخلال هذه الفترة كان على عرش المغـرب السلطـان محمـد الثـالث الذي كان يتتبع بدقة مجرى الأحـداث في الشـرق الاسـلامي، فهو من جهة، يتعاطف مع العثمانيين الـذين يواجهـون الـزحف الاستعـماري الغربي. ومن جهة أخرى يوطد صلاته بأمراء البقاع المقدسة التي سبق أن زارها مع والده وهو حدث سنة 1730 م. وإذا علمنـا أن عمليـة الاهتـمام بمقابلة الأحاديث النبوية فيما بين مختلف كتب الحـديث (المسـانـد) لم تبـدأ إلا في السنـوات الأخيرة من حكم محمد الثالث، وأن أبا القاسم الزياني الذي كلف بجلب المسانـد من القسطنطينية (34) لم يحصل عليها إلا خلال 1200 / 1785 بينما كانت وفاة العاهل المغربي سنة 1205 / 1790 أدركنا إلى أي حد كان لاصداء الحـركـة الوهابية من التأثير على قرارات السلطان بشأن العمل على تركيز السلفية. فمحمد الثالث لم يكن وهابيا، ولكنه كان سلفيا في حدود السنة النبـويـة التي لا يمثلها بالضرورة مذهب سني معين. ولذلك كانت عملية الـدراسـات الحـديثيـة أكـاديميا ومدرسيا وعلى نطاق المساجد والحلقات ترتبط بكل المساند وذلك دون أن يتملص محمد بن عبد الله من أن ينسب نفسه إلى المذهب الحنبلي في (الفتوحات الالهية). والمذهب الوهابي يرتكز

34ـ الزياني، ترجمانة، ص 110 و 126

بالـذات على ابن حنبـل ثم على ابن تيميـة ، فابن حنبـل يمثـل الجـذع المشترك بين سلفية الوهابيين وعقيدة محمد الثالث الخاصة والتي لم يلزم بها الأمة ، بل حرك كل اتجاهها نحو سلفية مشتركة قوامها الدراسات الحديثية غير مشـروطـة بابن حنبـل ، ومناهضة بعض الزوايا الثرية دون أن يذهب بعيـدا في هذا الميـدان الأخـير، لأن المجتمـع المغربي كان يجد في كثير من الـزوايـا إطارا لتسانده ونشاطه الروحي . وعملية هدم الأضرحة اقتصرت أو كادت على زاويـة أبي الجعـد . وفقهـاء المغـرب أقوياء داخل المجتمع المغـربي حيث يعيش أغلبهم قريبـا منـه وعلى اتصال يومي به ، وقد ظل المـذهب المـالكي سليم البنية لأن التشطيب على مختصر خليل من لائحة الـكتب المقــررة لم يدم طويــلا ، ومن ثم فظــروف المغــرب كانت بهذه الاعتبـارات تختلف عنهـا بالنسبـة للمشـرق ، وبـالاخص بالنسبة لجزيرة العرب ، وإن كانت هناك أيضا وجوه تشابه في البنيات الاجتماعية لا تنكر .

وفي عهد مولاي سليمان بدأت مرحلة جديدة في علاقة المغرب مع الـوهـابيـين . فقد تلقى العاهل المغربي نسخة من مذكرة وجهها محمد بن عبـد الـوهاب إلى علماء تونس ، كما وجهها إلى أقطار سنية أخرى كمصر والشام (35) ولا توجد وثيقة تثبت أن المغرب قد تلقى هذه المذكرة مباشرة كما ظن الناصري في الاستقصا ، (36) فكل من الزياني وأكنسوس يثبت أن المذكرة وصلت عن طريق تونس وهما معاصران لمولاي سليمان وشاهدا عيان ومؤرخان رسميان .

ونقــل أكنســوس عن الـزيـاني أن المـذكـرة وردت من تونس سنـة 1227 / 1812 م وذلــك في عهــد سعــود الأكــبر الــذي تولى الحكم بالسعودية من 1218 إلى 1230 (1803 ـ 1814) وليس في عهد نجله وخلفـه عبـد الله كما ذكـر النـاصـري ، ما لم يكن الأمير عبد الله قام بهذه المبادرة عن والده .

وتتضمن المذكرة الوهابية :

1 ـ الدعوة إلى اتباع السنة النبوية

35 ـ م . س ص 393

36 ـ ناصري ، استقصا ، 8 ، 120

2ـ استنكـار التـوسل بالأموات من أولياء وأشباههم والتقرب إليهم بالزيارة وذبح القربات.

3ـ استنكار التوسل بالرسول نفسه

4ـ استنكـار بنـاء القباب على الأنبياء والأولياء اعتمادا على تعاليم نبوية والعمل على قتال من خالف سنة الرسول بهذا الشأن

وفيما يلي نص المذكرة كما نقلها الزياني (37):

الحمد لله

نستعينـه ونستغفـره ونعـوذ به من شر الفسقـاء ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهـد أن لا الـه إلا الله وحـده لا شريـك له، ونشهـد أن محمدا عبده ورسوله، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، ولا يضر إلا نفسه ولا يضر أحدا، وصلى الله على سيدنا محمد.

أما بعد فقد قال الله تعالى: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشـركـين»، وقـال تعـالى: «قـل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم». وقال تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»، وقال تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت الاسـلام دينـا»، فاخـبر سبحـانه وتعالى أنه أكمل الدين واتمه على لسـان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بلزوم ما أنزل عليه، وقال تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصيكم به لعلكم تتقـون»، والـرسـول صلى الله عليـه وسلم قد أخـبر أن أمته تأخذ ما أخذت الامم قبلها شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وثبت في الصحيحين وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لتتبعن من كان قبلكم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، وأخبر في الحديث الآخر أنه ستفترق أمته ثلاثا وسبعين فرقة، كلها في النار الا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال من كان مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي، وإذا علم هذا فمعلوم ما جئتم به من حوادث الامور التي أعظمت الاشراك به والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجيات، وتفريج الكربات، التي لا يقـدر عليهـا الا رب الارض والسـماوات، وكذلك التقرب إليهم بالزيارة وذبح القربات، والاستعانة بهم في كشف الشـدائد، وجلب الفوائد، إلى غير ذلك من أنواع العبادات التي لا تصح إلا لله، وصرف شيء من أنواع العبادات لغير الله كصرف جميعها، لانه سبحانه أغنى الاغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، وأخبر أن المشـركـين يدعـون الملائكة والانبياء والصالحين «ليقربهم إلى الله زلفى»، ويشفعوا لهم عنده، وأخبر أنه «لا يهدي من هو كاذب كفار»، وقال تعالى «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الارض، سبحانه وتعالى عما يشركون»، وأخبر أن من جعل بينه وبين الله وسـائـط بوسم الشفـاعـة فقـد عبدهم واشرك به، وإذا كانت الشفاعة كلها لله كما قال تعالى: «قل لله الشفاعة جميعا» فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه» «من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه»، وقال تعالى: يومئذ لا تنفع الشفاعة الا

37ـ زياني، م، س ص 394

من أذن له الـرحمـان ورضي له قولا»، وهـو سبحـانـه لا يرضى إلا التـوحيـد كما قال تعـالى : «ولا يشفعـون إلا لمن ارتضى»، فالشفـاعـة حق، ولا تطلب إلا من الله كما قال تعـالى : «وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا»، وقال تعالى : ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذا من الظالمين».

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء، وصاحب المقام المحمود، وءادم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع إلا باذنه، ولا يشفع ابتداء بل يأتي فيخر لله ساجدا فيحمد انعامه بمحامد نعمه أياما فيقول له : ارفع رأسك وسل تعط : واشفع تشفع ثم يحد له حدائد يدخلهم الجنة، فكيف بغيره من الانبياء والاولياء ؟، وهذا الذي ذكـرنـاه لا يخالف فيـه أحـد من المسلمـين، قد أجمـع عليـه السـلف الصـالـح من الصحابة والتابعين والايمة الاربعة وغيرهم، ممن سلك سبيلهم ودرج على منـاهجهم، ومـا حدث من سؤال الانبياء والاولياء من الشفاعة بعد موتهم، وتعظيم قبـورهم، ببنـاء القبـاب عليهـا، وإسراجها والصلاة عندها، واتخاذها أعيادا وجعل الصدقة والنذر لها، فكل ذلـك من حوادث الامـور التي أخـبر بوقـوعها صلى الله عليه وسلم وحذر أمته منها، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تقوم السـاعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد أقوام من أمتي الاوثان، وهو صلى الله عليـه وسلم حمى حمايـة الـدين وحمى جانب التـوحيـد أعظم حمايـة وسـم كل طريق موصـل إلى الشرك فنهى أن يجصص القبر ويبني عليه كما ثبت في صحيح مسلم من طريق جابر، وثبت فيه لفظ أنه بعث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وأمره الا يدع قبرا مشرفا الا سواه ولا عاليا الا طمسه. ولذا قال غير واحد من العلماء، يجب هدم القباب المبنية على القبور لانها اسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل الامـر إلى أن قاتلونـا وكفـرونـا، واستحلوا دمـاءنا، وأمورنا، حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعـو النـاس إليـه ونقـاتلوهم عليـه بعـد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، واجماع السـلف الصـالـح من الائمـة، ممثلين قولـه تعـالى «وقـاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»، فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان، دعوناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى : «لقد أرسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» إلى ايقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج بيت الله الحرام، ونامر بالمعروف وننهى عن المنكر، كما قال تعالى : «الدين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأمـروا بالمعـروف ونهـو عن المنكـر ولله عاقبـة الامـور»، فهـذا الذي نعتقده وندين لله به، فمن عمل ذلك فهو أخونا مسلم، له مالنـا، وعليـه ما علينـا، ونعتقـد أيضـا أن أمـة محمـد صلى الله عليـه وسلم المتبعين للسـنة لا تجتمع على ضلالة، وأنه لا تزل طائفة من أمته على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، انتهى.

وإذا كان رد قاضي تونس عمر بن قاسم باسم علماء القطر التونسي سلبيـا على الـدعـوة الـوهـابية فإن التونسيين لم يكن لهم في الأمر غير هذا الاختيـار في وقت كانت بلادهم تخضـع لمراقبـة العثـمانيـين. لذلـك نجد جواب التونسيين يتسم بحدة بالغة ومؤداه :

1- أن الوهابيين تسلطوا على المسلمين بغير حق، واستحلوا دماءهم

2- أن المسلم إذا زار أضرحة الأولياء فهو لا يعبدهم ولا يشرك بالله شيئا

3- أن عمر توسل بالعباس عم الرسول في صلاة الاستسقاء لصلاحه وقرابته من الرسول (ص) فلا يمكن والحالة هذه أن يكفر عمر.

4- أهل السنة يثبتون الشفاعة لغير الأنبياء فأحرى للانبياء.

5- إذا كانت الأرض ملكا للمسلمين فلا حرج عليهم أن يبنوا بها دورا أو مساجدا وقبابا أو مقامات.

أما الجواب المغربي فتبناه السلطان رسميا لا لانه يمكن أن يكون قد توصل مباشرة بمذكرة الوهابيين، ولكن بوصفه أمير المؤمنين في منطقة حكمه. وحيث إن مولاي سليمان عالم فإن الجواب الذي حرر بأمره صدر عن معرفة مسبقة بالاتجاه السلفي للوهابيين، وحيث إن مولاي سليمان تأثر بسلفية والده محمد الثالث وأن اتجاهه يتقارب أصلا مع الاتجاه الوهابي في محاربة البدع فقد كان رده تحبيذا لخطة الوهابيين دون أن يتقيد بحرفيتها. وهكذا أوعز إلى الفقيه الكاتب حمدون بن الحاج بتحرير الجواب، على أن يتوجه به وفد رسمي من مستوى عال، وأن يسلم الجواب مباشرة إلى العاهل السعودي لأن الملك المغربي يخاطب نظيره، وفي ذلك إيحاء بأن لكل منهما مسؤولية في تحديد الاختيارات المذهبية الصالحة لبلاده وطرق تطبيقها لكن طرق الالتقاء موجودة ومتعددة.

وحمدون بن الحاج الذي حرر الرد الملكي وصفه أكنسوس بعالم الدنيا وإمام الملة، المحدث، المفسر، بحر العلوم المنقولة والمعقولة، القائم الصائم الذي نفع الله بعلومه وتآليفه جميع المسلمين (38).

وهذه الصفات تبرز مستوى الرجل علما وسلوكا، وذكرها أكنسوس ردا على الزياني الذي حمل حملة منكرة على حمدون بن الحاج لانه مدح الوهابيين في الرد الملكي بقصيدة مدح للعاهل السعودي بدل أن يذمه

38- أكنسوس، الجيش العرموم، ص 196

و«مذهبه الفاسد وبدعته الشنعاء» كما قال (39). ونقل الزياني شطرا مهما من هذه القصيدة (40).

ويرى أكنسوس أنه لا شيىء يبرر انتقادات الزياني. لأن حمدون بن الحاج إنما أجاب بأمر السلطان وعلى لسانه. أما الوفد الذي ذهب بالجواب فيرأسه الأمير إبراهيم نجل السلطان، ويرفقته عدد من العلماء، فيهم القاضي محمد بن ابراهيم الزداغي والقاضي العباس بن كيران، والفقيه الأمين بن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه محمد الساحلي والفقيه المؤقت عبد الخالق الأودبي. وتكلم باسم الوفد محمد بن ابراهيم الزداغي قاضي مراكش وذلك حسب أكنسوس (41)، واتصل الوفد بابن سعود حيث سلمه خطاب العاهل المغربي، وجرى حوار بين الملك السعودي ومحمد الزداغي أكد ابن سعود خلاله أن الوهابيين متشبثون بالسنة النبوية ويقولون بما يقول به مالك بشأن استواء الذات الالهية على العرش: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة» ونفى أن يكون لدى السلطة السعودية ممانعة في زيارة المسلمين لقبر الرسول والأولياء لمن يميزون بين آداب الزيارة ونقيضها وأن المنع تقرر في حق الجماهير الشعبية التي تشرك الزيارة بالعبودية وتطلب من الأموات ما لا يطلب إلا من الخالق.

وقد اعتبر الناصري قرار الوهابيين بشأن زيارة الأولياء وجيها لوجاهة سببه، كما ذكر أن الشيخ التيجاني نهى أصحابه عن زيارة الأولياء لنفس السبب (42).

وتأكد الوفد المغربي حسب أكنسوس أنه لم يشاهد من العاهل السعودي وأنصاره ما يخالف الشريعة. وأن السلطة قائمة على تطبيق أركان الدين وتصحيح الانحرافات وتنقية الحرمين من القاذورات، كما أن استقبال الأمير المغربي ومرافقيه اتسم بالتكريم والتقدير، وكان الحوار بشأن المذهب الوهابي صريحا ومباشرا.

ويظهر من كلام الناصري أن مولاي سليمان إنما اتخذ قراره بإلغاء المواسم على إثر تعرفه على الاجراءات الوهابية بهذا الشأن. ومن جهة

39- زياني، م. س. ص 393، 396

40- م. س. ص. 388

41- أكنسوس. جيش، ص 196

42- ناصري، 8، 123

أخرى فقد نقل نصا إضافيا يرتبط بموسم مولاي سليمان ولم ينقله الزياني في الترجمانة، ويتناول على الخصوص النهي عن الابتهال بالسبعة رجال عند أهل مراكش. وبشأنهم كتب ابن الموواز قاضي مراكش رسالة في التنويه بمناقبهم، وهي كرد متأخر على خصوم السبعة رجال (ت. ابن المواز هذا سنة 1318/1900 م)

إن مولاي سليمان لم يذهب بعيدا في محاربة الطوائف بالرغم من أنه منع عليها إقامة المواسم وحتى حضور المساجد، كما أنه لم يهدم قبابا ولا أضرحة، فقد ظلت سلفيته مرتبطة بتعاليم المذهب المالكي، ولكنه كالوهابيين حاول أن يضع حدا للتوسل بالأموات وتقديس الأشخاص إلى حد العبادة، وبالمقابل فلم يمنع التوسل بالرسول ولا إحياء ذكرى مولده، فقد كانت سلفيته تقوم على مراعاة المذهب المالكي من جهة، ومراعاة العاطفة الدينية العميقة التي يكنها الجمهور المغربي المسلم لشخص الرسول (ص) من جهة ثانية.

ويظهر أن جماعة كبيرة من الفقهاء اقتنعت بصواب الاجراءات الوهابية وضرورة تطبيق ما يماثلها أو يقاربها بالمغرب ، فالناصري ارتضى موقف مولاي سليمان، ومثله أكنسوس (إلى حد) ، وحمدون بن الحاج، فضلا عن الفقهاء الذين رافقوا الأمير إبراهيم إلى الحج ، أما الزياني فقد حمل بشدة على الوهابيين ومذهبهم، فهو الدبلوماسي الذي تردد على القسطنطينية يحمل رغبة المغرب في التعاون مع العثمانيين، وحيث إن العثمانيين حاربوا الوهابيين فقد ظل الزياني على وفائه للقضية العثمانية. ومن أجل ذلك حمل على الطائفة التيجانية التي نهى شيخها عن زيارة الأولياء تقليدا للوهابيين (43)، وهكذا فبقطع النظر عن الميدان السياسي ، لابد أن تؤخذ التهجمات على شيخ التيجانية بشأن العقيدة، بما ينبغي من التحفظ.

ومن الذين ناهضوا المذهب الوهابي ، أحمد بن عبد السلام بناني (ت. 1234/1818) وكتب بهذا الشأن مصنفا بعنوان «الفيوضات الوهبية في الرد على الطائفة الوهابية (44)». وهكذا كان هناك معارضون

43- زياني، م.س. ص 390
44- ابن سودة، دليل 1، 84 . 2، 494

للمذهب الذي امتد تأثيره إلى المغرب، وكانت هذه المعارضة على مرأى من السلطة المغربية العليا وحتى في بعض الأوساط المنتمية إليها. وواضح أنـه لا يوجـد نص رسمي يعلن تأييـد المذهب الوهابي أو تبنيه، بل الذي نجـده هو اتخـاذ إجـراءات محددة شبيهـة بالتي اتخـذها الوهابيون، توازيها عمليـة إحيـاء المختصـرات التي يرتبـط عدد منها بالمذهب المالكي بعد أن سادت في أواخـر عهـد محمـد الثـالث الأفكـار السلفيـة المرتبطة بالحديث النبـوي أي المستنـدة إليـه مباشرة كأصل مكمل وشارح للقرآن الكريم، ولـذلـك لا مجال لتأويـل السلفية المغربية في عهد هذين السلطانين خارج نطـاقهـا الـذي تحددث معـالمـه من خلال البرامج والمراسيم والمواقف التي اتخذتها السلطة وجماعة الفقهاء

وإذا كان أكنســوس قد سايـر مولاي سليـمان بشأن تحبيـذ المـوقف الـوهـابي فإنـه من جهـة أخرى اعتبر الوهابيين غلاة في المذهب الحنبلي، ورأى أن محمد ابن عبد الوهاب يشبه في ذلك ابن تيمية وابن حزم، كما أن الـوهـابيـين يخالفون الأشعرية في المعتقد، وعندما كتب حمدون بن الحاج باسم السلطان المغربي فهو لم يزد على أن مدح العاهل السعودي الوهابي «بأفعـالـه الحسنـة الظـاهرة من تأمين الحجاز وتنظيفه وغير ذلك مما لا ينكر حسنه» (45)

وهذا الموقف المدافع عن مولاي سليمان مع رمي الوهابيين بالغلو، وهي صفـة ربـما اشـترك فيهـا جل المـالكيين تجاه الوهابيين حتى مع وجود آخـرين محبـذين، جعـل أحـد الحجـازيـين وهو حنفي، يتولى الرد على أكنسوس في مذكرة دافع فيها عن المذهب الوهابي. واسم صاحب المذكرة علي بن طاهـر الـوثـري المدني (ت. 1322 / 1904)، وعنوان رسالته: «ما أبرزته الأقدار في نصرة ذوي المناقب والأسرار» (46)

إن كل التيـارات الفكـريـة والمـذهبيـة والسيـاسيـة بمغرب ما قبل الحـمايـة، انطلقت بشكل أو بآخر من الاسلام أو انتسبت إليه، وهذا كان شأن كل التيارات المذهبية في عموم أرجاء العالم الاسلامي باستثناء فكرة القـوميـة العـربيـة التي أيـدتهـا ونشطتهـا الدولة البريطانية لمناهضة التيار الاسلامي وهو أخطر مدى من حيث الاطار الجغرافي والمبنى العقائدي.

45- أكنسـوس، جيش، ص 197 - 198
46- ابن سودة، م، س 2، 472

وصحيح أنه كان بالمغرب أيضا، ولفترة دقيقة ومحدودة تيار عربي كان للمجموعة المعقلية الصحراوية دور فيه، وأن المؤسسين الأولين للدولة العلوية عندما وجدوا المجموعة القبلية من العرب بجوارهم مهملة في ظل الحكم التركي، وأن النفوذ على القسم الأكبر من المغرب بصحرائه الجنوبية والغربية قد تقاسمه الحسونيون والدلائيون، نشطوا قبل كل شيء في زعزعة ثم تدمير النفوذ المجزأ داخل المغرب، وفي الوقت ذاته أقضوا مضاجع الأتراك بغارات متوالية ومعمقة داخل الجزائر. إن هذه النزعة العربية يفسرها جيدا الاعتماد على العناصر المعقلية من تافيلالت وموريطانيا وسوس، والتي جمعها مصطلح الأوداية، وكان الاعتماد منصبا عليها لوقت طويل إلى جانب المجموعة الزنجية وأعقابها.

لكن هذا التيار العربي لم يعد شعارا للدولة بعد فترة من تأسيسها بالرغم من أزمة الأطلس التي أذكتها نكبة الزاوية الدلائية ووجود فراغ كبير في البدائل التي حلت محلها، ولو حملت الدولة هذا الشعار رسميا ودعائيا بعد الفترة المذكورة لاستحال عليها أن تقوى على الثبات كما أن من حسن حظ المجتمع المغربي بكل مجموعاته أنه ارتبط بالوحدة الاسلامية التي ظل قبسها مشعا على المدن والسهول والجبال والصحاري على الرغم من الضربات القاسية التي تتلقاها بين الفترة والأخرى وهي ضربات كالتي يتلقاها سطح ماء لا يلبث أن يستوي.

كل التيارات المذهبية والسياسية ارتبطت بالدين عبر الكتلة الاسلامية، فعبد الرحمن الكواكبي السوري حارب الاستبداد لأن المشرق كان يعيش في ظل القوانين العسكرية للولاة الأتراك، ودعا إلى تخويل المجتمع الاسلامي حقه في حرية التعبير وفي الحكم الديمقراطي المبني على تعاليم الاسلام، وقام الوهابيون باسم العودة إلى السلفية، ودعا جمال الدين الأفغاني إلى اقتباس علوم الغرب مع المحافظة على نقاء العقيدة الاسلامية، فهو مثقف ثقافة إسلامية وحديثة ودرس عدة لغات أوروبية، وهو أيضا دعا إلى تزويد الحكومات والشعوب الاسلامية بدساتير تحدد القوانين والواجبات وسلطة الأمة والدولة. والوهابيون وجدوا شعب الجزيرة العربية وبعض الأقطار المجاورة قد تحولت عن عبادة الله إلى استمداد الرحمة والنجاح في الدارين من سكان الأضرحة، وفي مصر ارتبطت التيارات في عمومها بمناهضة الاستعمار وتغلغل النفوذ الأجنبي

مع صحوة إسلامية قوية أذكاها الأزهريون انطلاقا من محمد عبده ورشيد رضـا وتـلاميـذهما. وفي الجـزائر نشطت حركة الزوايا بالرغم من مناهضة الحكـام لها وقـام الأمـير عبـد القادر الجزائري منطلقا في حكومته وفي أدق خطواته من تعاليم الاسلام على مذهب مالك.

وفي السودان انطلقت حركة المهدي في إطار وطني مرتبط بالاسلام لمقاومة الاستعمار الانجليزي وتصحيح الانحرافات العقائدية.

وفي تونس قامت حركة الشباب التونسي بمجرّد أن حل الاستعمار بتونس، على أسس وطنية دينية، وهذا بالرغم من أن هذه الحركة استقت الكثير من مبـادئهـا من الايـديـولوجية اللائكية للمستعمر (47)، وهذه الحـركـة التي هي حزب حقيقي لم تنـاد باقصـاء الـوجـود الفـرنسي ولا باستقـلال البـلاد (48) وبـالمقابل، نشأت حركة جديدة من أعيان تونس ومثقفيهـا تدعـو إلى بعث إسـلامي متجـدد مع تحديـد النفوذ الفرنسي، ووقف الـزيتـونيون بحذر وكبرياء يناهضون كل المؤثرات الغربية، ثم قام الخلدونيـون أخـيرا بدور بالغ الأهمية في تجديد شباب اللغة العربية والفكر الاسـلامي مع الأخـذ بالثقـافـة الغـربيـة وبعض الأفكـار الغربية التي لا يناهضها الاسلام أو التي تسير بموازاته.

والحق أن المغـرب خلال قرنـين ونصف عرف جل التيـارات التي عرفهـا العـالم الاسـلامي موزعة بين أقطاره، لكن مع اختلاف في الشكل والمـراحـل والـوسائل وحتى في درجة الوعي، وكل هذه التيارات، وبدون استثناء تحركت باسم الدين، ولكن، لو احتكمت كلها إلى الدين بشكل عادل، لما خلا أكثرها من مآخذ.

على أن أهم دعـوة حقيقيـة في ميـدان الاصـلاح الاجتماعي هي الدعوة إلى إصلاح التعليم وتنظيم براجه وتحديد أهدافه، وذلك لأن كل محاولات الاصـلاح الأخـرى كانت تفتقـر إلى بنيات اجتماعية واعية، ولا سبيـل إلى توعيـة سليمـة بغـير تعليم مبرمـج وصـالـح. ولما كانت قضية التعليم نفسهـا ترتبـط بتغيـير البنيـات السياسية للدولة فإن الفصل التالي سيتناولها بما يكفي من التفصيل.

---

47 – C. Sammut, L'impérialisme capitaliste français et le nationalisme tunisien, Revue d'histoire maghrébine, n 1/1974 Tunis, p.65

48 – Op. Cit, p. 64

الفصل الثالث

الفكر السياسي

حينما نطلق مصطلح الفكر السياسي بالنسبة للفترة التي تعالجها هذه الدراسة فإننا على العموم نتجه إلى مايقابل الأيديولوجيا الآن، مع فارق الزمن والشكل، فهو قبل كل شيء فكر النخبة كأي أيديولوجيا حديثة حتى ولو اتجهت إلى البنيات الاجتماعية دون البنيات الحاكمة. لان الذين يرسمون الفكر ينظرون بشكل شمولي وفي أبعد مدى زمني ومكاني، وعلى العموم يقدمون وسائل العمل، وبهذا الاعتبار يمكن أن يكون واضحا لدى القارىء أن فئة العلماء والمثقفين بالمغرب هي قبل غيرها وضعت معالم الفكر السياسي لهذا الجزء من إفريقيا كما هو الشأن أيضا في أقطار أخرى بالنسبة للقرون الثلاثة قبل القرن العشرين.

غير أن صناع الفكر السياسي بالمغرب، وبقطع النظر عن الأسبقية الزمنية، هم :

1ـ المقاومة الشعبية
2ـ التيار المخزني
3ـ تيار العلماء والمثقفين
4ـ الصحافة

فالمقاومة الشعبية تمثل الفكر الشعبي الذي اشتركت فيه عناصر الجهاد البحري (اعتراض السفن الأجنبية المعادية للمغاربة والجماعة الاسلامية والاستيلاء عليها وحجز ركابها) وهذه المقاومة امتداد لنشاط قديم يرجع إلى عدة قرون وبالاخص إلى أوائل القرن 11 / 17 م بعد طرد بقايا المسلمين من إسبانيا، كما اشترك فيه سكان السواحل لاسيما الشمال، وفيهم ريفيون وغيرهم، وهذه المقاومة دعمتها الدولة العلوية

انطلاقا من مولاي إسمعيل، ولم تختف بالرغم من قرار مولاي سليمان بوقفها إلى أواخر القرن 19 م، وليس لهذه الحركة من فلسفة سوى محاولة إضعاف الطرف الأوروبي الذي هو في نظر هذه الحركة كافر معاد للاسلام كما أن حركة الجهاد البحري ساهمت إلى حد كبير في عرقلة نشاط السفن الاستعمارية التي تتحرك باسم الكشوف وتزويد دول البحر المتوسط بالبضائع، وبالطبع فإن سفن المجاهدين كانت تتحرك من جنوب حوض البحر المتوسط كله. ومن ثم فحركة الجهاد البحري التي قاد قسما كبيرا منها الموريسكوس لم يكن وراءها نخبة تحركها، فهي مدفوعة من جهة بدافع الانتقام، ومن جهة أخرى بدافع الكسب المادي الذي هو لفائدتها وفائدة خزينة الدولة التي تتعامل معها أو توجهها.

وحركة الجهاد البحري هي التي اتخذتها الدول الأوروبية ذريعة لضرب موانىء الشمال الافريقي ومبررا لقرارها بالغاء القرصنة في مؤتمر فينا (9 يونيو 1815) ومؤتمر إيكس لاشابيل سنة 1818.

وكان الشق الثاني من المقاومة الشعبية هو الذي كونته حركة التضامن مع الجزائر في حربها ضد التدخل الفرنسي فانضمت الألوف من المغاربة إلى الأمير عبد القادر داخل الجزائر ثم في منطقة الريف، كما أن المخزن تولى مجابهة الفرنسيين في إيسلي ومعه آلاف المتطوعين.

ثم كان الشق الثالث في حرب تطوان، والشق الرابع في حركة الأطلس والشاوية والشمال ضد تغلغل النفوذ الأجنبي ثم إقرار الحمايتين الاسبانية والفرنسية، وكل هذا مع نضال مستميت على الصعيد الشعبي والحكومي في محاولة استرجاع سبتة ومليلية، وعملية تحرير الثغور الأخرى والتي كللت بالنجاح.

ففي كل هذه الصيغ من المقاومة الشعبية لا تبدو لنا إلا أصوات متقطعة من الأدباء والشعراء لا يمكن أن يكون لها إلا ثقل محدود في صنع المقاومة نفسها فلا بد أن نبحث عن محركين آخرين لهم وزن أو دور بارز. وهؤلاء هم الصلحاء وبعض شيوخ الطرق. ودور الشيخ ماء العينين وزاويته في مقاومة الزحف الفرنسي والاسباني على الصحراء أشهر من أن يحتاج إلى تذكير، وكذلك كانت حركة الشيخ الكتاني ذات تأثير قوي في اندلاع المقاومة المسلحة بالأطلس، والطيب البوعزاوي من شيوخ الطريقة الشرقاوية نهض بعبء المقاومة في الشاوية.

والمقاومة الشعبية ضد الأجنبي استهدفت في جميع صورها الحيلولة دون تمكين العدو من أن يسيطر بشكل ما على خيرات البلاد أو ترابها أو سياستها الحكومية. وفيما عدا حركة الجهاد البحري التي لم يكن للتصور الديني فيها إلا أثر ضعيف بالقياس إلى التصور الاقتصادي والنفساني (الشهامة والانتقام) فإن كل شرائح المقاومة الأخرى كان للاعتبار الديني فيها أثر يختلف عمقا، وكلما اقتربت حركة المقاومة من عهد الحماية ظهر التأثير الوطني أكثر، أي الدفاع عن التراب لا عن الدين والمسلمين فحسب، فالفرنسيون الذين احتلوا الجزائر فرضوا على المغرب أكثر مما كان الأتراك، أن ينحبس داخل تراب حددوه بأنفسهم وأصبح للايالة الشريفة معنى فرض هذا الاحتلال إطاره، ومع ذلك فإن المخزن يخاطب المغاربة كمسلمين ويتكلم عن الأوروبيين كنصارى، وهذا هو اصطلاح الجماهير أيضا، فإلى فترة متأخرة من الحماية الفرنسية نفسها كان المغربي يعتبر العالم الاسلامي كله وطنا له، ولم تكن هذه الفكرة مما أوحت به مؤتمرات أو خطب أو حملات إعلامية لأن الأفكار السياسية التي انتقلت من خارج العالم الاسلامي لم يكن لها أثر في معظمه، بما في ذلك الأفكار القومية المحلية، فحيث يخيم ظل الخلافة العثمانية، لا توجد راية وطنية ولا حدود داخلية أو جوازات سفر. والخلافة العثمانية وكل العالم الاسلامي يواجه عدوا واحدا (غير مسلم)، ومن ثم فالأندونيسي والتركي والمغربي مسلمون وهم في مواجهة عدو كافر ويجب أن يتعاطفوا ويدافع كل منهم عن مصلحة الآخر بنفس الحماس.

والمقاومة الشعبية كانت تحركها أيضا في حالات كثيرة، دوافع اقتصادية إلى جانب العوامل الدينية، وهذا شيء طبيعي، فبالنسبة للمغربي المسلم لا يخرج الاقتصاد عن الدين، فما هو إلا جزء منه، فسواء أدافع أولا وأخيرا عن قمح بلاده حتى لا يتصرف فيه الأجنبي على حسابه أو دافع عن حريمه فهو يستجيب لداع ديني وهذا ما ينساه الذين يفرضون الفكر المادي بشكل منهجي على صراعات الشعوب من غير تمييز في عمودية الزمن والأسس التي قامت عليها حضارة كل منها.

وأخيرا هناك المعارضة الداخلية التي قد تتخذ اتجاها شعبيا ضد سياسة المخزن، وهذه تتضح أسباب نشأتها ومواقفها حسب الظروف المباشرة والبعيدة كما يرتبط اتجاهها بمواقف المخزن نفسه.

التيار المخزني

الفكر السياسي للمخزن تحدده الملابسات والظروف، ويجد تعبيره في الظهائر والمراسيم والاستشارات التي يجريها مع الفقهاء وبعض قدماء الساسة الذين عملوا في إطاره، ونادرا ما يتبلور هذا الفكر في برنامج متكامل يختص بجانب معين من الحياة، ولكن المكاسب المحققة والأخطاء المرتكبة تتضح في التطبيق والممارسة.

والتيار المخزني يبرزه جانبان، أحدهما الطرف الحاكم في مستوى أعلى، والثاني الطرف السائر في ركابه علماء وموظفين وزوايا متعاملة. ففي المستوى الأعلى حاول المخزن في أحسن الظروف أن يستند في آن واحد على قوة الجيش ونصرة الفقهاء وشيوخ القبائل وأعيان المدن وأرباب الزوايا ليضمن ولاء الأمة وإجماعها حوله. وعلى العموم فالقرارات تتخذ من أعلى وقد يكون الضغط الشعبي هو الذي أدى إليها مثلما هو الشأن في التراجع عن بعض المكوس وتغيير بعض الولاة وتقرير بعض الحروب كحرب تطوان مثلا أو محاولة استرجاع سبتة ومليلية.

وعندما يستشير المخزن العلماء فمعنى هذا أنه يستشير أكثر السكان تمثيلا للأمة، لأنهم في آرائهم وأحكامهم يستندون إلى نصوص الشريعة وهم في كثير من الأحيان يرفضون المسايرة أو يتملصون بالاختفاء إلى أن تمر الزوبعة. ولكنهم قد يسايرون أيضا أو يصمتون، وفي هذه الحالة قد تقرر الفآت الشعبية بنفسها ما يمكنها أن تعمله. إن الروح الوطنية والدينية كانت صفة مبدئية، بل وعميقة بالنسبة لعدد من الملوك. وهذه الروح هي التي أملت توحيد الوطن تحت سلطة غير فسيفسائية، وهي التي سهلت التفاف المقاومة الشعبية من أجل تحرير الثغور وأملت مساعدة الجزائر في محنتها مع الاستعمار ووضعت يد المخزن في يد القبائل التي جاهدت بإخلاص ضد المستعمر، وهي التي جعلت المغاربة يغامرون في حرب إيسلي وتطوان لكن من غير استعداد ملائم ولا تعرف على طرائق العدو واستعداده ومكامن ضعفه. وبالمقابل، فالفكر المخزني الذي حاول أن يركز السلطات كلها في مستوى واحد عجز كليا عن تحقيق الكثير مما كان بإمكانه أن يحققه في ميادين التنظيم والاصلاح كما هو الشأن في تنظيم العدل القضائي والاجتماعي وتنظيم السلم الوظيفي والتنمية الاقتصادية وضمان الأمن وإنشاء نظام تعليمي ملائم.

أما التيار المخزني المساير، وبالأصح المنفذ فهو يرتبط بقرارات السلطة العليا ما لم تعارض مصالحه فيميل بدوره إلى التآمر وتعطيل المصالح وقد تتخذ بعض أطرافه طريق المواجهة بالتعامل مع فآت الرفض. وقد تكون أسباب المواجهة ذات مساس بمصلحة البلاد أو تقاليدها ومبادئها. فعندما يتعاون زعماء الأطلس مع أهل فاس وزعماء درقاوة ضد حكم مولاي سليمان ويحاولون إقصاءه لينصبوا عاهلا آخر (إبراهيم بن اليزيد) يسير شطر كبير من الأمة في نفس الاتجاه، وذلك أن مصالح الدرقاويين كمتفقرة وقع تهديدها على إثر الاجراءات التي اتخذها مولاي سليمان وسبق الحديث عنها في الفصل الثاني، والفاسيون يشكون انحراف الولاة، والأطلس المتوسط نفض يده من السلطة الرسمية بعد الأحداث التي ذهب ضحيتها عدد كبير من آيت وامالوا على يد جيش البخاري وأنصار السلطان، وكل هذه الحوادث وقعت فيما بين 1818 م 1820 م.

ولأول مرة تكون هناك تضامن بربري حقيقي ضد المجموعة العربية، بعد أن مرت أحداث مشابهة على إثر تخريب الزاوية الدلائية. لكن الاتجاه البربري وحتى العربي لم يتخذ أي منهما منظورا فلسفيا ولا سياسيا بعيد الأمد، ولولا ذلك لتعذر توجيه المقاومة ضد النفوذ الأجنبي، بل إن وجود السلطة الحاكمة يصبح نفسه مهددا.

ويتبلور التيار المخزني مرة أخرى في التعامل مع أحد أقوى الأطراف ذات الوزن السياسي والتمثيلي وهو تيار العلماء والمثقفين. ومن خلال التعامل مع هذا التيار الذي كثيرا ما تصوره الكتابات غير العربية مجرد إطار للبورجوازية المتهالكة على الوظائف والتمسح بأذيال المخزن تبرز تطورات الأزمة السياسية التي شهدها المغرب خلال قرنين ونصف بقدر ما تبرز مواقف العلماء والمثقفين من الأزمة ونداءاتهم للتغيير.

تيار العلماء والمثقفين

لم يكن بوسع السلطة أن تستغني عن الفقهاء في مجالات الحكم والادارة والرأي والتدبير وضمان ولاء الأمة. فالفقهاء والعلماء عامة، حاضرون في كل مكان، فهم يقومون بالتدريس والوعظ والارشاد، وهم

في القضـاء والتـوثيق وعلى رأس الادارات ذات الصبغة الدينية . وهم في أعلى سلم الفـآت التي تستشـار لبيعـة ملك أوعزل آخـر أو ترشيح لولاية العهـد . كما يستشـارون بالضـرورة فيما يهم الأمـة من قرارات تمس حياة الأمة في الاقتصاد والمالية وحتى في الشؤون الحربية ، وهم حاضرون وتحت تصـرف كل الفـآت الاجتماعيـة للرد على استفسـاراتهـا بشأن نوازلهـا ومشكلاتها اليومية في الأسرة والمعاملات التجارية والعلاقات الشخصية . وبكلمـة مختصـرة ، فالعلماء تتجـاذبهم السلطـة والأمة وهم بين من كرس ولاءه للسلطـة وبـين من نذر نفسـه لمصلحـة الأمة ومن حاول التوفيق بين المصلحتـين ، أو انعـزل للعبـادة أو العمل الحر بعيدا عن الصراعات التي تجري حوله .

والعلماء هم الـذين غلب عليهم العلم بالشـريعـة ، والمثقفـون يشملون هؤلاء وغـيرهم ممن لهم ميـول أخـرى في مجال المعـرفـة . وعندما تنشب الصـراعـات فقـد يحدث أن يتوزع هؤلاء وأولئك شيعا بين الأمراء وأدعياء الملك ، وتبقى الكلمة الأولى والأخيرة لعلماء فاس ومراكش ، فمن ضمن ولاء هذين كانت فرص حظـوظـه في استقطـاب ولاء الأمة أكثر من فرص أولئـك الـذين اعتمـدوا على مراكز القوى في جهات أخرى . وهذا جرت به التقـاليـد لا عن عفـويـة ، ولكن لقـوة المـركـزين المـذكورين في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فمع فاس ينجذب الشمال والمغـرب الشـرقي وتافيلالت والأطلس المتوسط ، ومع مراكش تميل سوس والأطلس الكبـير والصغـير ودرعـة وشطر من السهول الأطلسية ، ثم هناك أوضـــاع محليـــة قد تبعـــد هذا الاقليم أو ذاك عن محور فاس أو مراكش ، وحينئـذ فإن كفـة التوجيه تميل غالبا إلى قوات سياسية غير العلماء ويحصل كثيرا أن تشذ سوس بتأثير علمائها ، وذلك أن العقلية المصمودية لها منظور إلى العمل السياسي أكثر صفاء ومثقفوها لا يغيب عن ذهنهم دور المنطقة استراتيجيا واقتصاديا واجتماعيا .

ولم يكن العلماء والمثقفـــون يقصـــون عن ولايـة المـدن والأقـاليم ، فبعضهم شغـل منـاصب رئيسية كأبي القاسم الزياني عامل سجلماسة في عهـد مولاي سليـمان والفقيـه أحمد الخضر السلاوي عامل تطوان في عهد الحسن الأول . وبعضهم كانت لهم طمـــوحـــات أذكتهـــا المــلابســـات والظروف فغلبتهم شهوة السلطة على شخصيتهم كمثقفين . وهكذا عين

أحد فقهاء تطوان وهو أديب أيضا عاملا على تطوان في عهد مولاي إسمعيل بعد أن اشتغل كاتبا إلى جانبه مدة. وكان هذا الفقيه الاديب هو عمر لوقاش الذي كان بينه وبين قائد المقاومة بالهبط أحمد الريفي الذي اسهم في تحرير عدد من الثغور منافسة أدت إلى هجوم الريفي على تطوان بغتة، وتمكن لوقاش من سحق الهجوم، وكان ذلك في عهد مولاي أحمد الذهبي والظروف بالمغرب في غاية الفوضى وعدم الاستقرار، فانتهز لوقاش الفرصة ودعا لنفسه بالمنطقة إلى أن عزله السلطان مولاي عبد الله فيما بعد. وكتب عبد العزيز الموفق الثعالبي (من الجزائر) مذكرة مطولة في خمس وأربعين ورقة عن انتفاضة لوقاش، وسماها «تنبيه ذوي الألباب ليحذروا من تدليس لوكس (لوقاش) الكذاب (1)» وكتبت هذه المذكرة سنة 1146/1733 م.

وبدون شك لم تكن هذه الأحداث لمجرد منافسة بين شخصين، بل هي أيضا صراع بين الارستوقراطية الحضرية وقوة الجماهير الشعبية الكادحة بالمنطقة المجاورة، لكن الشمال يصبح كتلة موحدة عندما يكون العدو مشتركا، وبالأخص إذا كان أجنبيا.

وخلافا لبعض الأحكام المرتجلة بشأن الفقهاء من حيث اتهامهم بالانسياق الكلي مع إدارة المخزن، فإن عدم الاستقرار السياسي وحده كاف لتكدير حياتهم وتعريضهم للخطر بشكل أو بآخر، وهذا إلى جانب جرأة الكثيرين منهم وما أدوه من ثمن لهذه الجرأة. فالعلماء والمثقفون الملتزمون يرون أنهم حتى ولو عملوا في خدمة المخزن فهم صوت للأمة يعبر عن مطامحها وحقوقها. وأول محنة شهدتها مجموعة العلماء كانت بسبب قضية تمليك العبيد والتي أثارها أحد الفقهاء بالذات.

وكان الفقيه محمد بن قاسم عليليش المراكشي قد أشار على مولاي إسمعيل بتمليك الحراطين ضمن عملية إعادة تجميع بقايا أعقاب الزنوج الذين كون منهم المنصور الذهبي بعض الفرق الرئيسية من الجيش، وحسب الضعيف فإن مولاي إسمعيل عقد (سنة 1108هـ) مجلسا ضم جملة من الفقهاء كمحمد بن المشاط والحسن بن رحال ومحمد المسناوي

1ـ ناصري، استقصا، 7، 115. م. عبد الله عنان، فهارس الخزانة الملكية، 1، 108

وعبـد السـلام جسـوس وعليليش صاحب فكرة تمليك الحراطين، وحيث إن الفقهاء لم يقتنعوا بالفكرة فيما عدا صاحبها فإن السلطان خرج غاضبا من المجلس وبدأت محنة الفقهاء عندئذ (2)

ونقـل النـاصـري عن أكنسـوس (3) أن المماليك الأرقاء الذين تم جلبهم شراء لم يكونوا موضع جدل، وإنما كان الجدل بشأن أهل الديوان المجلوبين من عدة قبـائـل، وانحصـر الجدل بشأن إجبارهم على الخدمة العسكـريـة وحصـل السلطـان على جواز ذلك من علماء المغرب والمشرق بعد استفسارهم.

وواضح أن رأي أكنسوس يناقض بعضه بعضا، فإذا وقع الجدل بشأن أهل الديوان المجلوبين من القبائل فما معنى إجماع علماء المغرب والمشرق بجـواز جبرهم على الجنـدية ما لم يكن الخلاف حول تمليكهم؟

وحسب أكنسـوس نقـلا عن النـاصري في نفس الموضوع فقد وقع تمييز الأرقاء القدامى بواسطة المسنين العارفين. وقال أكنسوس، إن الجند كانـوا عنـد مولاي إسمعيـل على ثلاث مراتب: 1ـ خالص الـرقبـة 2ـ خالص الحرية 3ـ واسطة بينهما.

ويمكن أن نفهم أن المرتبة الأخيرة تتكون من الحراطين المولدين من أب (حـر) وأم زنجيـة. وربـما كان العكس ممكنـا أيضـا. فيبقى موضوع الحـراطـين هو سبب محنـة الفقهـاء، وكان كذلك فعلا. ومن الوثائق بهذا الشأن ما كتبـه مولاي إسمعيـل إلى الشيـخ محمـد بن عبد القادر الفاسي يخبره فيه برغبته في شراء الوصفاء الذين فيهم «من النجدة والقابلية والصبر ما ليس في غيرهم من الأحـرار» (4). ويقـول هذا الخطـاب أيضا: «وفي هذا الشـراء والحمـد لله كما لا يخفى عن سيـادتكم سر كبـير» ثم يشكـو الخطـاب من تملص العلماء من المـوافقـة على رغبـة العـاهـل أو امتناعهم صراحـة عن تزكيـة قضيـة شراء الحراطين ويطالبهم بأن ياتوا بحل لمشكل التجنيد ولو بفتوى تبيح تركه.

2ـ الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة

3ـ استقصا، 7، 88

4ـ Mohamed El-Fassi, lettres inédites de Moulay Ismaël, in Hesperis, 1962, Rabat, pp 48-50

وهناك وثيقة أخرى صريحة بشأن البحث بالذات عن حراطين فاس والـذين كان أسـلافهم خاضعـين للرق شراء فتنـاسـوا أصـولهم كما تقول الـوثيقـة وانتسبوا إلى الحضر. كما أن الوثيقة تتحدث عن عامل فاس عبد الله الروسي والفقيه عليليش بوصفهما مسؤولين عن عملية البحث عن الحراطين (5)

وتلقى الشيـخ محمـد بن عبـد القـادر بعد هذا جملة من الخطابات تعاتبه وتدعوه بلهجة تجمع بين الحدة والتبجيل والاستخفاف ليقول كلمة صريحة بشأن تمليك الحراطين وينتهي عن سرد أقوال الأئمة لأنه لم يقل في ردوده على استفسـارات السلطـان شيئـا. وهـو مع جلالـة قدره كعـالم لا يجحد في معارفه يسأله أحد هذه الخطابات : «أين هؤلاء التلاميذ والطلبة الـذين جنـوا ثمارهـا (أي ثمار علومـه)» بل ينفي الخطاب أن يكون الشيخ الفـاسي قد برز في فنـون المعـرفـة أحد على يديه أوعلى غيره من المدعين للعلم والمتفقهين في الدين (6).

وهذا مع أن الشيخ ابن عبد القادر كان من الطبقة التي تتعامل مع المخـزن ولكن عنـدما واجهته أزمة الضمير احتار ككل زملائه تقريبا ممن لم يتفقـوا مع رأي عليليش الـذي اختـاره العاهل. ويتحدث الضعيف عن التـوبيخـات التي تلقـاهـا العلماء والقـاضي بردلـة والتي امتـدت من سنة 1108 إلـى 1112 ثم عادت محنـة الـفـقـهـاء بشكـل أخطـر سنـة 1120 / 1708 م (7). وذلـك أن عامـل فاس عبـد الله الـروسي ألـزم علماء فاس أن يوافقوا بخطوطهم على تمليك الحراطين، ومن رفض قبض عليه، وبين الرافضين الشيخ محمد عبد السلام جسوس الذي قبض عليه مع أولاده واستصفيت أمـوالـه ثم قيـد وطيف به في أسواق فاس والسكان رجالا ونساء يلقون المال والحلي حوله ليفدي نفسه فيذهب كل ذلك إلى جيـوب المـوكلين به، وظـل على ذلك سنة بعد أن بيعت كتبه وأملاكه وما يملك أولاده وأسـرتـه. وحسب الزياني في البستان الظريف فقد سرح في نفس السنة، والحقيقة أنه قتل خنقا على يد القائد الروسي وكتب قبل

5ـ Op. Cit, pp. 55-56

6ـ Op. Cit, pp. 62 p 65

7ـ الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، (م.خ.ع. الرباط) ص، 79، 81ـ82

إعدامه يتبرأ من أي مسؤولية بشأن قضية الحراطين وأنه لم يفعل إلا ما تنص عليه الشريعة (8) وكان قتله سنة 1121 حسب الضعيف. وكان أولاده أيضا رهن الاعتقال.

وليس في النصوص المتداولة ما يدل على موافقين على فكرة عليليش طواعية أو اقتناعا، فإن السلطة المحلية بفاس لم تفتح مجالا للعلماء حتى يعبروا عن وجهة نظرهم بكل حرية، وبدون شك كان عليليش وراء الحملة إلا رهابية ضدهم، وهذا في الوقت الذي كان إخوانهم بالجزائر بين مقربين يعفون من الضرائب ويحصلون على تشجيعات وإغراءات، وآخرين كانت تضطهدهم سلطة البايات وتعذبهم أو تعدمهم (9) حتى إن أغلبهم هاجروا إلى المغرب في عهد مولاي إسمعيل، وقيل إن سعيد المنداسي منهم حرض العاهل المغربي على محاربة الأتراك (10). وقد أحدث البايات محاكم للتفتيش كانت تلاحق العلماء والمثقفين. وكان ممن اعتقلتهم في مرحلة متأخرة محيي الدين وولده الأمير عبد القادر حيث سجنا بوهران (11)، وبعد هذه الأحداث وقبلها سقط عدد كبير من العلماء شهداء في الحرب ضد الأسبان (12).

وكان لبايات تونس نصيبهم أيضا في امتحان بعض العلماء، ومن نماذج المحنة ما تعرض له الفقيه أحمد الخراط الصفاقصي على يد على بن حسين باي وكان الخراط معروفا بجرأته على تغيير المنكر بنفسه، وانتهى به الأمر إلى السجن والضيق إلى أن تدخل الأمير المغربي علي بن السلطان محمد الثالث، في مروره بتونس، لدى السلطات الحاكمة، بناء على التماس من نجل العالم المذكور، وهو الشاعر إبراهيم الخراط فأطلق سراحه (13).

وكانت حلية العالم مهما كانت صفته المهنية أن يقال عنه إنه لا يخشى في الحق لومة لائم، أولا يخشى في الله لومة لائم. وموت عالم يحظى بشعبية كبيرة، يتجلى فيه تعاطف الأمة مع الراحل مثلما كان الأمر في

8ـ م. س. ص 81 ـ 82. زياني، بستال، ص 43. أكنسوس، جيش ص 86ـ87. الناصري 7، 94
9ـ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، مقدمة الشيخ البوعبدلي، ص 55ـ56
10ـ م. س. ص 56
11ـ م. س. ص 49
12ـ م. س. ص 33
13ـ عبد الوهاب بنمنصور أعلام المغرب العربي، 1، 380

حياته، فمحمد المسناوي بن أحمد الدلائي (ت. 1136/1723) خرج أهل فاس بجنازته رجالا ونساء وصبيانا «وكادت أكباد الناس أن تنفلق على فقده بكاء، كبيرا وصغيرا، أميرا ومامورا، وأخذ الناس نعشه قطعا، تبركا به.» (14).

وكذلك قيل عن محمد بن المدني جنون من قضاة مراكش (1302/1884م) إن السكان حزنوا كلهم لفقده وأنه لم يتخلف أحد من طبقات الناس بفاس عن حضور جنازته (15). والحقيقة أن هذا الوداع كان تعبيرا عن تعاطف عميق مع شخصية مرت بمحنة قاسية. وقال عنه أحمد الناصري : (16) :

«كان رحمه الله فقيها عالما متضلعا قوالا بالحق صادعا به، لا يهاب في ذلك كبيرا ولا صغيرا، ولقد امتحن في ذلك من قبل السلطان فلم يفل ذلك من غربه ولم يوه من صرامته ولا حده».

وقال عباس المراكشي إنه كان (17) :

«ناهيا عن الطمع، يصدع بما يظهر أنه الحق، ولا يبالي بعال أو سافل، شديدا على أهل البدع والمنكرات، كثير التعريض بأهل عصره وأفعالهم... ويشير للولاة وظلمهم بالتلويح والتصريح، وامتحن في ذلك وسجن وأسيىء في حقه...»

ولم يقبل المدني جنون القضاء بمراكش إلا بعد طول امتناع ولم يطل به أكثر من ثمانية أشهر ورفض تزكية الشهود إلا بشهادة مكتوبة من قاضيهم السابق ثم عاد للتدريس بفاس.

وكان السلطان محمد الثالث يعاني صعوبات في التعامل مع أهل الرباط وسلا، فلما كانت سنة 1200/1785 توجه السلطان المذكور إلى الرباط فاستقبل عددا من الفقهاء : محمد بن القاسم السجلماسي، ومحمد الغربي، وعبد الرحمن السرايري من الرباط، والفقيه حركات والفقيه ابن أحمد من سلا، فعزوه في ولده، غير أنه وبخهم بعدم الفائدة

14ـ مراكشي، إعلام، 6، 29
15ـ م.س. 7، 57
16ـ استقصا، 9، 178
17ـ مراكشي، م.س، 7، 55

وقلة الـذين وسب العـدول وأهـل الفتوى واتهمهم بشهادة الزور، ومدح الشيخ الدردير المصري الذي قبل صلته (18).

وهكـذا فإذا كان في الفقهـاء من يتخـذون مواقف معـارضـة فإنهم يؤدون ثمن صراحتهم عنـــدمـا ترى السلطـة نفـوذهـا يتقلص أو تكـون المعارضة في غير اتجاه السلطة.

ومعـــارضـــة الفقهـاء قد تؤدي بهم إلى المـواجهـة فيـما بينهم وبـين المؤيـدين، فعندما تعرض جيش مولاي سليمان للهزائم بالأطلس عارضه عدد من العلماء وأفتــوا بخلعـه، وأيـده آخـرون، وأمـام تأزم الـوضــع، انسحب مولاي سليـمان من فاس مع منـاصـريـه، وقـد كتب أبو القاسم الـزيـاني بهذا الشأن مذكـرة ضمنهـا أسماء المعارضين والمؤيدين وحمل فيها بشدة على المعارضين وعدهم سفهاء (19).

وشبيه بمعارضة عدد من علماء فاس لمولاي سليمان ما حدث منهم تجاه خلفـه مولاي عبـد الـرحمن في ظروف شبيهـة بالتي وقعت أيام مولاي سليمان، أي ثورة البربر واندلاع الفتنة بفاس. وقد كتب الزياني عن هذا المـوضـوع مذكـرة بعنوان: تكميل الترجمانة في خلافة مولاي عبد الرحمان (20) أو الترجمانة بدولة مولاي عبد الرحمن.

لقـد رأينـا المعـارضـة السيـاسيـة في وسـط العلماء والمثقفـين تتسم بمميزات هامة:

1ـ تتسم بطـابعهـا الداخلي، فهي على العموم لا تتدخل كثيرا في السياسة الخارجية.

2ـ أنها قد تتفق في اتجاه واحد عندما لا تسعفها النصوص الشرعية بما يوافق فكرة السلطة.

3ـ أن هناك حالات من الاكراه البدني يتعرض لها عدد من المثقفين بالرغم من أنها تكون حالات منعزلة في الغالب ولا تشمل الوطن كله.

4ـ ان مدينـــة فاس اختص علماؤهـا بحصـة الأسـد من المـواقف المضادة التي تتخذها تجاه السلطة.

18ـ ضعيف، تاريخ، ص 199

19ـ محمد عبد الله عنان، فهارس الخزانة الملكية، ج1، 97، 410

20ـ ن.م. ص 105

5- أن أغلبية الفقهاء البارزين في عموم المملكة لا يلتزمون بخط المخزن أو السلطة، لان هذا يضعف من ثقة الأمة فيهم ويخالف مسؤوليتهم في تغيير المنكر

6- أن قليلا من حالات الانتقام سجلت بشأن المعارضين لبيعة سلطان استطاع في النهاية أن يفرض نفسه، وإن كان العزل من الوظيف إجراء معتادا.

العلماء واشتداد الأزمة

إن مجموع القوات الحية التي تكونها المقاومة الشعبية والعلماء والمثقفون والحرفيون وأغلب الزوايا الرئيسية وكل الخلايا الشعبية التي تتأثر بشكل ما بسياسة الدولة تشترك في توجيه الأحداث كل حسب ظروفه وإمكاناته، وهي أيضا تضغط بثقلها على سياسة الدولة في كل الميادين بما فيها السياسة الخارجية، فهناك تفاعل بين هذه الأطراف يمتد طردا، أو يتقلص عكسا، وغير صحيح أن العلماء لم يكونوا يتدخلون في السياسة حتى طلعت سنة 1900 كما يرى بورك (21)، فإذا كانت الطبقة المثقفة أكثر اهتماما بالسياسة الداخلية فلأن هناك فآت من الشعب تجابه القوات الأجنبية في نطاق الجهاد البحري، وفآت أخرى تكدر حياة الأوروبيين الذين تكالبوا على التراب، ثم إن كثيرين من المثقفين كتبوا عن أخطار الحماية الأجنبية. والمثقفون كغيرهم يحضرون الحرب كما هو الشأن في حرب استرداد الثغور وحرب تطوان

كما أن معظم العلاقات الدبلوماسية يمثل فيها فقهاء إما مستشارين أو محررين أو رؤساء بعثات.

وفي السياسة العامة للبلاد يظل الفقهاء والمثقفون حاضرين ابتداء من البيعة التي يمكن أن تختلف بشأنها كلمتهم ولكن البيعة مهما تعددت لا يمكن إقصاء الفقهاء منها، وفضلا عن اجماع العلماء أو ما يشبه الاجماع في عدم الموافقة على تمليك الحراطين وهي عملية سياسية ودينية معا، فإن الفقهاء والمثقفين يقولون كلمتهم في تنظيم الجيش وفي قضايا المكس والضرائب وينشرون مذكرات عن الانحرافات الادارية والبدع المنتشرة

21- إدموند بورك، العلماء المغاربة في 1860 - 1912، مجلة البحث العلمي، ع 31/1980 ص 119

ويدلون بآراء عن أساليب الحكم انطلاقا من اليوسي ومن أيام مولاي إسمعيل بالذات. ورأينا بعضهم لم يتحفظ في الدفاع عن الأولياء وزيارة أضرحتهم وفيهم موظفون في مستويات عليا كابن مريدة قاضي مراكش معاصر مولاي سليمان الذي منع المواسم وندد بالتوسل بالأولياء وكابن المواز قاضي مراكش أيضا والذي دافع عن زيارة السبعة رجال وكان معاصرا لمولاي عبد الحفيظ خليفة مراكش. وعندما استولى السلطان مولاي عبد الرحمن على قصبة الشراردة سنة 1244 / 1828 أفتى معظم العلماء بعدم إعدام سكانها البالغ عددهم ألفين، فنزل السلطان عند رأيهم (22).

ولم يكن غريبا أن يكون في المثقفين تجار وملاكو عقارات وهم دائما قلة بالنسبة للأثرياء من غيرهم، فلا شيء في الدين يحرم الكسب المشروع ما لم بتفاحش على حساب المستضعفين. وكثيرون من المثقفين كانوا يفضلون العمل خارج مناصب الدولة ولو في مهن متواضعة كنسخ الكتب. وليس كل من اشتغل لدى الدولة مدجنا، وليس من اشتغل خارجها حر الفكر بالضرورة. والنموذج العالي للالتزام هو من يكون صاحبه تحت رحمة الآخرين ثم يصدع بالحق ويعبر عن رأيه بصدق فلا يخشى في الحق لومة لائم، وكان المخزن يحترم هؤلاء العلماء والمثقفين الذين لا ينافقونه بالرغم من استثناءات كالتي سبق عرضها.

غير أن الأزمة المغربية بدأت تعرف مرحلتها القصوى منذ عهد مولاي الحسن. وفي هذه الفترة رفع المثقفون عقيرتهم مطالبين بالغاء الحمايات الأجنبية ووضعت مشكلة الضرائب، بل إن العلماء بفاس ضموا صوتهم إلى سائر الفآت الاجتماعية بعد ثورة الدباغين وطالبوا مولاي الحسن بعد تنصيبه، بأن يسهر على ضمان الوحدة الوطنية بدلا من انتظار انفصامها لأن هناك عدوا مشتركا يتحين الفرصة لتحطيم البلاد وإذلالها : «أما علمنا أن من ورائنا عدوا يشتهي مواطىء أقدامنا وتنكيس أعلامنا تقضي أخوة الاسلام ومناصرته ومعاضته ومواصلته، أن لا يكون لجميعنا طموح إلا إليه، ولا تمالؤ إلا عليه ؟» (23).

22ـ ناصري استقصا، 9، 20

23ـ م. س. ص 133

لقد كانت كل الهيئآت بفاس وعلى رأسها العلماء واعية بعمق الأزمة التي يعاني منها المغرب بسبب وجود الاحتلال الفرنسي للجزائر وتهديد توات، ولبقايا أصداء حرب تطوان حيث كان الموظفون الأسبان يواصلون اقتطاع تعويضات الحرب بالمراسي المغربية وعلى مشهد من سلطاتها.

وقد تحمل المخزن الحسني مسؤوليته بشكل إيجابي في قضية توات التي كان لبعض الخيانات المحلية بالصحراء الشرقية دور في استيلاء الجيش الفرنسي عليها بعد ذلك كما أن انجلترا أبرمت مع فرنسا معاهدة سنة 1890/1308 تطلق الأولى بموجبها يد الطرف الفرنسي في الصحراء الشرقية، ومن ثم فإن الكلمة الأولى في مواجهة التهديد الفرنسي كانت للجيش المغربي ولسكان المنطقة، ولم يكن العلماء مؤهلين لاستعمال المدفع، بل إن مسيرة شعبية كان يمكن أن تتحول إلى كارثة بسبب سوء التنظيم كما حدث في إيسلي وتطوان، ولكن العلماء كان من واجبهم أن يرفعوا صوتهم بالدعوة إلى التنظيم والتغيير، وهذا ما فعله بعضهم كالكردودي والمشرفي الذي تناول سياسة الحكم ودعا إلى تنظيم الجيش كما سيتبين ذلك.

على أن الحسن الأول كان في مستوى المسؤولية دبلوماسيا وفكرا، كما دلت على ذلك مفاوضاته واهتمامه المتواصل بإرسال البعثات الطلابية وتكوين المهندسين والتقنيين. ومن الطريف أن إدموندبورك بدل أن ينوه بالجهود القيمة التي بذلت في هذه المرحلة بالذات يتحدث عن «سياسة السلطان عبد العزيز الاصلاحية والديناميكية، وسياسته الدينية الجريئة التي باتت تهدد مصالح العلماء التقليدية».

وهكذا فسياسة عبد العزيز الشاب الحدث والذي كان في حكومته أميون ويخضع لخبراء إنجلترا يلهونه بآلات اللهو واللعب أذكى وأكثر ديناميكية من سلفه لأنه اعتمد على خبراء فرنسيين لتدريب الجيش ودون أن يسمح لهم بتجاوز حدودهم. وأفكار العلماء وقيمتهم لا تصبح موضوعية في نظر بورك إلا منذ 1900 م عندما يواجهون التدخل الفرنسي بصلابة! وقبل ذلك لا يبحثون إلا عن امتيازاتهم (24).

24- إدموندبوك، م. س. ص 133 و 131

وقد نقل عباس المراكشي (25) عن بعض التراجم الذاتية أن العالم محمد بن الحسين الجنوي أغدق عليه السلطان محمد الثالث أموالا كبيرة ثم دعاه مرة إلى مراكش محاولا أن يسايره العالم في بعض إجراءاته المذهبية فلزم العالم رأيه وكان متشددا وتوفي سنة 1200 / 1785 .

وكان محمد المكي بن مريدة السرغيني عالما صوفيا وكتب عن البدع متخذا اتجاه السلطان مولاي سليمان، وعلى إثر وشاية من عامل مراكش نفي هذا العالم إلى فاس وألحق به أهله في ظروف سيئة حتى توفي بها (26).

وإذا كانت الأزمة المغربية تعود بعض جذورها إلى ما قبل الحسن الأول فإن عصره قد شهد الكثير من مخلفات المراحل الماضية بالاضافة إلى ما جد من تطورات خطيرة :

1ـ استفحال الحمايات الأجنبية (القنصلية)
2ـ مواصلة الأسبان تقاضي ديونهم مع مشاطرة السلطة الوطنية حق المراقبة (مراقبة الواردات والصادرات)
3ـ قضية توات والتهديد الفرنسي
4ـ قضية الوجود الأنجليزي بطرفاية والتهديد الاسباني للصحراء الغربية وسوس.
5ـ مشكلة المكوس
6ـ اضطرابات الأطلس وسوس

وبالنسبة للحمايات الأجنبية كتب عنها في أوائل عهد مولاي الحسن، العالم المراكشي محمد بن إبراهيم السباعي (ت. 1332 / 1913) مذكرة بعنوان : (كشف الستور عن حقيقة كفر أهل بسبور). وذلك أن من حصل على (الحماية) أي الجنسية الأجنبية يحمل جواز سفرها وكتب في نفس الموضوع الشيخ جعفر بن إدريس الكتاني (27) (ت. 1303/1885).

25ـ مراكشي ، إعلام ، 6، 108
26ـ ن. م. ص 187
27ـ مراكشي، إعلام، 7، 201. ابن سودة، دليل، 2، 445. واسم كتاب الكتاني : الدواهي المدهية في الفرق المحمية

وكـان السبـاعي ينكـر على الادارة المخـزنيـة فسـادهـا واشتغـال المسؤولـين فيهـا بنهب أمـوال الأمـة ولم يراع في ذلـك وزيـرا ولا كاتبـا من البـلاط، ومن أجـل ذلـك تعـرض للسجن مرارا ورحـل إلى فاس مدة. وكـان يرى أن العـاهـل لا تصـل إليه أمور الأمة وتظلماتها على حقيقتها. ومن أجـل ذلـك كتب مؤلفـا سماه: (سيف النصـر لدفـع الايهـام، وذكر موجب محبـة ذريـة مولانا هشام (28)، ووضع ترجمة لمولاي الحسن وبأمر منه سماها (البستان الجامع...) (29).

ونجـد بصـمات الفقهـاء بارزة فيـما اتخذه الحسن الأول من قرارات تتعلق بالمكـوس وإلغـائهـا، وفي أجـوبتهم على الاستفتـاء الـذي أجراه السلطـان بشأن تسهيـل تنمية التبادل التجاري مع الخارج (30) وتحريم الأعشاب المخدرة وتقنين جلبها بالنسبة للأوروبيين (31).

ولما كان السلطان المغربي أميرا للمؤمنين بالنسبة لشعبه فإن الحسن الأول، شأن أسـلافـه أيضـا، وجـه مذكـرة إلى الأمـة والـولاة سنة 1300 / 1882 يأمـر فيهـا بالمعـروف وينهى عن المنكـر، ومن خلال هذه المـذكـرة أو الألـوكـة (message) نلمس بعض القضـايـا الاجتـماعيـة والسيـاسيـة التي أخـذت باهتـمام المصلحين وعلى رأسهم العاهل، وكان توجيـه الألـوكـة بمنـاسبـة نهايـة القـرن 13 هـ. فبعـد أن تنـاول الجـانب العقائدي باختصار وذكر الأمة بأركان الاسلام وطرق ممارستها تطرق إلى الجوانب التالية:

1ـ واجبـات الـوالي أو العامل الذي عليه أن يبدأ بتطهير نفسه قبل من أنيطت به مسؤوليتهم. وعليه أن يقرب المستقيمين دينا وخلقا ويتجنب بطـانـة السـوء ويسهـر على تطبيق العدل ويتلافى الجور والظلم وأن يحفظ حقوق أهل الذمة ويحميهم.

2ـ الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر في أوساط الأمة. ومن المنكر تملك الأحـرار (شـراء الأحـراء وتملكهم حتى وهم مسلمون!) وقد كانت الأسـر الفقـيرة ببعض الشعـوب الافريقية تبيع أبناءها ويتولى النخاسون عملية (تسويقهم).

28ـ مراكشي، م. س. ص 193
29ـ ن. م. ص 201
30 ـ استقصا، 9، 184 ـ 192
31 ـ Coufourier, Archives marocaines, 8 / 190, p. 395

3- تعاطي المسكرات والزنا
4- التعامل بالربا، وقد كان اليهود هم الذين أدخلوا الربا إلى البلاد ثم ظهرت المصارف كما هو معلوم.
5- مسؤولية الولاة في نشر التعليم بجميع القرى و«الدواوير» وذلك بالزام أهلها بانتداب معلمين لهذه الغاية، وتعهد الطرق وحفظ الأمن (32) وتفقد الفقراء خصوصا الذين مع شدة حاجتهم لا ترضى نفوسهم بسؤال الآخرين.

وحول كل هذه النقط آيات وأحاديث في الترغيب والترهيب والاخبار والتقرير.

وتبين الألوكة بشكل يكاد يكون مباشرا، عن انحطاط الادارة الاقليمية وانحطاط مستوى التعليم بالبوادي مع انعدام الأمن وانتشار الظلم، ثم دور الربا في المعاملات التجارية وانتشار الخمر وجملة من الرذائل الأخرى، وكل هذا بالرغم من الروح الاصلاحية التي كانت تقود الحسن الأول في مختلف توجهاته. والحق أنه كان يجب تغيير الكثير من بنيات التسيير وإحداث أنظمة متكاملة وتكوين جديد للاطارات على مختلف المستويات ليمكن تطبيق التوجيهات الملكية وإرشادات العلماء بما يضمن نموا متوازنا وشاملا.

وإذا كانت اتفاقية مدريد (1298 / 1880) قد قننت الحماية الأجنبية شكليا فإنها لم تعمل على إلغائها، بل سوت بين الدول الأجنبية في امتيازاتها وأضيفت فصول مهينة للمغرب في تحديد الضرائب بالنسبة للأجانب. ويبدو أن الدبلوماسية الوطنية قد حصلت بالرغم من ذلك على أقصى ما يمكن أن تحصل عليه في ظروف كانت أطراف الاستغلال فيها متعددة.

وتمت بيعة مولاي عبد العزيز سنة 1311/1894 بوصية من والده وسلفه مولاي الحسن، وكان في سن الثالثة عشرة، فأصبح تسيير الدولة من اختصاص الحاجب الذي سمى نفسه صدرا أعظم وأقصى الأميرين محمد وعمر عن كل تدخل في شؤون الحكم. وأثناء غياب القواد عند

32- رسالة الحسن الأول إلى الأمة / وزارة الأوقاف، الرباط، جمادى الثانية 1399 / مايو 1979 م

تنصيب عبد العزيز بفاس أخذت الأزمة اتجاها أخطر ثم تعاقبت الأحداث التي حولت استقرار الأوضاع إلى ما يشبه المستحيل :

1ـ ساءت الأوضاع الاقتصادية بسبب الاعفاءات الضرائبية التي يتمتع بها العلماء والأشراف والزوايا ولتحكم أطراف أجنبية في التسويق مع تمتعها بامتيازات تفرضها هي . وساءت الأوضاع السياسية والاجتماعية باندلاع الثورة في الشاوية والحوز ودكالة والغرب وسوس ، وظهر عدد من القواد الاقطاعيين الذين استبدوا بالسلطة في أقاليمهم ومدوا نفوذهم خارجها وقاموا بغارات واعتداءات ضد السكان .

2ـ اندلعت ثورة بوحمارة التي امتدت من 1320 / 1902 إلى عهد مولاي حفيظ سنة 1327 / 1909 وواجهتها حكومة ضعيفة ، وتطلب سحق الثورة أموالا وجهودا بشرية كبيرة واقترض المغرب لأجلها من الخارج ولعبت فيها اليد الأجنبية وخاصة الأسبان دورا لا ينكر.

3 ـ اندلعت ثورة الريسوني بالشمال بعد أن جرد المخزن حملات لردعه وبدأت ثورته من عهد مولاي الحسن . وكان الريسوني قد اتهم بقطع الطرق والاعتداء على القوافل، ثم عارض نظام مولاي عبد العزيز.

4ـ بدأت الأشتباكات مع الأسبان الذين أنشأوا بالداخلة مركزا تجاريا أخذ اتجاها حربيا منذ عهد الحسن الأول، ثم عقدت اتفاقات بين فرنسا ودول أوروبية أخرى بشأن اقتسام السيادة على التراب الافريقي بما فيه المغرب . وفي السنوات الأخيرة من عهد عبد العزيز نشطت المقاومة الصحراوية ضد النفوذين الاسباني والفرنسي بالصحراء الغربية وشنقيط (موريطانيا) بزعامة الشيخ ماء العينين ومساعدة المخزن المادية والبشرية مع تعيين ولاة جدد بظهائر سلطانية ، أما الصحراء الشرقية فقد استولت فرنسا على توات 1318 / 1900 وبشار 1321 / 1903 .

5ـ أمضى المغرب ميثاق الجزيرة الخضراء في 7 أبريل 1906 وهو يضع نظاما جديدا للشرطة بإشراف ضباط فرنسيين وأسبان ويجعل استيراد الأسلحة تحت مراقبتهما ويحدث بنكا للدولة تهيمن عليه دول أوروبية والنزاع بشأنه يرفع إلى محكمة لوزان ، ويحدث لجنة أغلب أعضائها أجانب ، لتحديد رسوم الجمارك كما يبسط الميثاق يد الدول الأوروبية المعنية على الأشغال العمومية المزمع إنجازها من خطوط حديدية وموانىء وغيرها .

وباجملة فإن هذا الميثاق عبارة عن حماية للسيادة الأجنبية بالمغرب تولتها الدولة المغربية الضعيفة، ثم عوض سنة 1912 بميثاق حماية أجنبية لما تبقى من ظلال السيادة الوطنية، وفي كلتا الحالين كانت تسعة أعشار المكاسب للطرف الأجنبي(33).

وخلال فترة طويلة من عهد السلطان عبد العزيز كان هناك عدد كبير من العلماء الذين وقفوا إلى جانبه حماية للوحدة الوطنية كما هو الشأن خلال ثورة بوحمارة حيث نشر اثنان وعشرون عالما من فاس وهم أبرز علماء المغرب، ما سموه ب (تذكرة نافعة ونصيحة جامعة مضمونها أن الامام الشرعي بالمغرب الأقصى هو السلطان الحالي - مولاي عبد العزيز - والتحذير من الاغترار بأباطيل الثائر الخارج عليه)، وكان بين الموقعين عليها عبد الله بن الهاشمي بن خضراء قاضي فاس، وأحمد بناني قاضي الرصيف ومحمد بن عبد الكبير الكتاني، الخ (34).. وحررت هذه المذكرة في أول صفر 1321/1904.

وكان من الذين ساندوا السياسة الضريبية لهذا السلطان، المفضل السوسي شيخ الجماعة بمكناس ومحمد العراقي من قضاة فاس (35)، وهذا من أوائل الذين زكوا بيعة السلطان المذكور، وكتب عنه تأليفا خاصا (36) ثم كان على رأس فئة العلماء الذين أفتوا بخلعه استجابة لاستفتاء من ممثلي سكان فاس التي كانت تستقطب في هذه الفترة محاور السياسة الداخلية والخارجية ويتعرف أهلها عن كثب على تحركات ممثلي الدول الأجنبية ودسائسهم وضغوطهم.

وكانت مبررات الخلع أكثر من واحد، فإمضاء ميثاق الجزيرة الخضراء سنة 1906 أعطى أكبر فرصة قانونية لتحطيم السيادة الوطنية، وجود مستشارين وخبراء عسكريين أوروبيين يخططون مع الحكومة العتيقة سياسة المخزن التي يفرضها هؤلاء. ثم إن احتلال وجدة في مارس 1907م والدار البيضاء في غشت 1907م فتح عيون السكان على فشل سياسة المخزن العزيزي حتى إن الذين أمضوا وثيقة خلع عبد العزيز فورا بعد الاستفتاء المذكور لم يكونوا في الواقع سوى الطرف النهائي لعملية

33- فيما يتعلق بتفاصيل الأزمة وتطوارتها السياسية وتحليل المعاهدات التي تمس السيادة المغربية يراجع الجزء الثالث من «المغرب عبر التاريخ»، الفصل 7 من القسم الأول.

34- ابن سودة دليل 1، 142. محمد الباقر، ترجمة السيخ محمد الكتاني، ص 179

35- مراكشي، إعلام، 7، 258، بورك، مجلة البحث العلمي. ع 31، 1400/1980 ص 128

36- ابن سودة، دليل 1، 150

الخلع التي تتطلب نصا شرعيا والا فهناك أطراف شعبية وقيادية متعددة يدخل فيها الحرفيون والتجار وغيرهم. واستندت وثيقة الخلع على الأسباب التي ذكرت في الفتوى والتي كانت جوابا على استفسار من خمسة وعشرين شخصا يمثلون دوائر فاس الثلاث: الأندلس والعدوة واللمطيين وحضر معهم عدد كبير من ناخبيهم. وارتكز الاستفسار والمطالبة بالخلع على المبررات التفصيلية التالية (37):

1ـ الاحتلال الأجنبي لتوات وفجيج وعيون بني مظهر ووجدة والدار البيضاء
2ـ إبدال الزكاة بالترتيب
3ـ إحداث مصرف للدولة يتعامل بالربا ويصرف أموالا اقترضت في غير مصالحها
4ـ فقر الخزينة
5ـ مساعدة جيش الاحتلال بالدار البيضاء بقوات حكومية لردع مقاومة أهل الشاوية.
6ـ وقوع الأمة تحت النفوذ الأجنبي.

وقد أردفت هذه الوثيقة بوثيقة أخرى تسجل أخطاء السلطان بكيفية مباشرة وهي الأخطاء المذكورة بإضافة نزع سلاح السكان وهم في حالة مقاومة للعدو، ثم سجلت هذه الوثيقة ما حل بالبلاد من الفوضى وتراجع أغلبية السكان عن موالاة السلطان الذي يطالبون بخلعه، وأمضى هذه الوثيقة أكثر من مائة شخص (38).

وفي جواب العلماء نص هؤلاء على وجوب خلع مولاي عبد العزيز بعد إثبات المبررات. وممن أمضوا هذه الوثيقة عدد من الذين سبق أن وقعوا على بيعته كمحمد العراقي وعبد السلام الهواري وأحمد بن الجيلالي المغاري (39).

37ـ محمد الباقر، م.س. ص 195
38ـ م.س. ص 196
39ـ م.س. ص 197

وكتب محمد بن ابراهيم السباعي من علماء مراكش مذكرة مطولة عن مبررات خلع مولاي عبد العزيز استنادا إلى مسؤولية العاهل كإمام للأمة، وإلى المطالب الشعبية بهذا الشأن وما سجل على العاهل من تصرفات تتعارض مع مصلحة الأمة. ووجد مولاي عبد العزيز في الصحف التي كانت تصدر بطنجة وتمولها أو تشجعها أطراف أجنبية نصيرا مدويا باسمه ولصالحه. وكتب الصحفي اللبناني فرج الله نمور مذكرة في 60 صفحة بالعربية طبعت بطنجة في الدفاع عن موقف مولاي عبد العزيز وحقوقه في (أريكة السلطنة المغربية) (40) لكن هذه المذكرة التي نشرت قبل تنازل مولاي عبد العزيز نهائيا بأربعة أشهر لم يكن لها ولا للمواجهة المسلحة التي قادها هو نفسه ضد خصومه وعلى رأسهم أخوه ومنافسه مولاي حفيظ، أي تأثير في إطفاء عضب الجماهير الشعبية التي طعنت في مقوماتها وانتهكت حرماتها.

وحيث إن عددا غير قليل من المثقفين والعلماء كمحمد الكتاني والكردودي والمشرفي كانوا في أفضل مستوى وطني من حيث الوعي السياسي والانفتاح الفكري فإن عبد العزيز أضاع فرصة ثمينة لانقاذ البلاد بعد الاستماع إلى أكثر ما يمكن من آرائهم، بل إن الفقيه عبد الله ابن سعيد الموظف السامي بنيابة طنجة قدم إلى العاهل مشروعا إصلاحيا كان يمكن استغلاله وتوسيع آفاقه دون أن يلقى هذا المشروع منه استجابة. وكان الشيخ الكتاني يرى أن بنسعيد من ذوي الغيرة الوطنية والدينية والكفاءة السياسية وأنه كان من أهم العناصر التي يجب انتدابها لمؤتمر الجزيرة الخضراء مع شخصيات أخرى لم يرض عنها دركيو البلاط (41)، وبدلا من ذلك رجع الوفد المعين بميثاق طبخ طبقا للوصفة الاستعمارية.

ومع إعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ في 6 رجب 1325 / 16 غشت بمراكش، وفاتح حجة 1325 بدأت صعوبات جديدة غير متوقعة. فإن هذه البيعة لم تتم بفاس والجهات المجاورة لها إلا على أساس قيام مولاي عبد الحفيظ بتنفيذ شروط معينة وقع عليها علماء وغيرهم وهي

40- ابن سودة، دليل، 1، 150
41- محمد الباقر، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 187

شروط تحدد التـزامـات السلطـان في الظـروف الحـرجـة التي كان يجتازها المغرب، كما تمثل مبادىء إصلاحية في غاية الأهمية. وعندما حل السلطان بمكنـاس استقبـل وفدا من كبار فقهاء فاس وأعلن امتعاضه من الشروط المشـار إليهـا والتي اعتبرها تضييقا على حريته في التصرف. فتنصل الوفد من مسؤوليـة تحريـر الشروط وأكد أنها من عمل الشيخ محمد الكتاني. ثم صرح السلطـان بأنـه لا يستطيـع تنظيم حركـة جهاد ضد الاحتلال نظرا لفـراغ الخـزينة، وبذلك انتقض أحد أسس البيعة. وفي الوقت الذي أمر فيـه مولاي حفيـظ بتـوقف المقـاومـة بالشـاويـة انصـرف فقهاء فاس إلى مدينتهم، وليس صحيحا أن الفقهاء استكانوا عندئذ إلى إرادة السلطان فكـل الـذي حصل أن الأمور بفاس خرجت من يد النخبة المثقفة لتصبح هذه النخبة طرفا ضمن الكتلة الضخمة التي تكونها الجماهير الشعبية بكل حيثيـاتهـا. وقـد تطـورت الأحـداث بسـرعـة وعنف منـذ أوائـل 1327/1909، حيث رفض الجيش الفـرنسي الانسحـاب من الـدار البيضاء وضواحيها، وفي الشمال نشأت حركة مقاومة مسلحة ضد الأسبان بإشراف أمزيان وقصد منع هؤلاء من استغلال المناجم التي سبق أن تخلى لهم عنهـا بوحمـارة. وبـذلـك كانت الحـركة الجديدة تصحيحا للانحراف الـذي قاد من قبـل حركـة بوحمارة، وفي نونبر 1911 توصلت ألمانيا وفرنسا إلى اتفـاق سري يسمـح لفـرنسـا ببسط حمايتها على المغرب ويؤكد عدم تدخل ألمانيا في الاتفاقيات التي عقدت بين فرنسا وإسبانيا، وذلك مقابل ضمانـات اقتصـاديـة لألمـانيـا بالمغـرب، وتنازلات ترابية لصالحها بإفريقيا الغربية. وعلى الفور بدأ الضغط على السلطان ليقبل مبدأ الحماية وشروطها.

وكـان الـرأي العـام بفـاس يتتبـع عن كثب تحركات الدبلوماسيين الفرنسيين ولم تعد مسألة الحماية أمرا خفيا لان الصحف تناولتها ورددتها. وبـذلـك تحول التـذمر إلى حركة تمرد وثورة شملت تدريجيا مختلف جهات المملكة ورفض حوز مراكش السير في ركاب مولاي حفيظ. وعندما دعى الجيش الفـرنسي ليقـر الأمن بفـاس والأطلس الهائج عند إقرار الحماية في 11 ربيع الثاني 1330/30 مارس 1912 م أصبح مولاي حفيظ معزولا في قصره. وبلغ الضغط الشعبي ذروته حتى أعلن السلطان بعد أسابيع،

تنازله عن الملك لأخيه مولاي يوسف (42). وواضح هنا أن مولاي عبد الحفيظ تخلى عنه العلماء كليا وفي معظمهم بكيفية علنية، لأن صوتهم أساسي لتثبيت بيعته والدخول في حوار مع الأمة، أما وقد تخلوا عنه وأصبحت السلطة في يد جيش الاحتلال، فإن المواجهة الشعبية تأخذ بطبيعة الحال اتجاها جديدا يسود فيه صوت البندقية، وكلما تقادم العهد وخفت صوتها برز صوت القلم واللسان ليحرك الهمم ويخاطب العدو والخارج بصوت الحوار والقانون والتحرك السياسي.

وقد لاحظ «سموت» (43) أن إقرار الحماية بتونس لم يثر غضبا شعبيا حيث إن تونس كانت تحتفظ بمظاهر الاستقلال وأن نظام البايات لم تحل محله الادارة الفرنسية، وأن طرائق الحياة التونسية لم يغيرها الاستقرار الفرنسي بالبلاد. والحقيقة أن ما حصل بتونس كان عكس ما حصل بالمغرب من حيث إن النخبة المثقفة بتونس برز نشاطها السياسي بعد إقرار الحماية، بينما نظيرتها بالمغرب تحركت قبل الحماية ثم إن المغرب كان يشهد ضغوطا أجنبية عديدة وقوات احتلال قبل الحماية كانت تطوقه برا وبحرا من جهاته الأربع، فالوضع في جميع الجبهات ومختلف المستويات كان أسوأ بالمغرب منه في تونس، فمن الطبيعي أن يكون رد الفعل على حسب ما تحمله كل قطر من ضغط.

الأفكار والمجالات الاصلاحية

انفرد اليوسي أبو علي الحسن ين مسعود (ت. 1102/1690) بأنه كان أول داعية للاصلاح السياسي في العصر العلوي مثلما برز كأول مفكر في هذا العصر عالج الانحرافات الدينية والاجتماعية. وشملت الأفكار الاصلاحية ومجالاتها حتى إقرار الحماية، كل الميادين التي تهم حياة الأمة ومؤسسات الحكم، وحتى الشؤون الاقتصادية والمالية ووضعية التعليم. وفيما يلي عرض لهذه المجالات مع نظرة تحليلية بقدر الامكان:

1ـ السياسة العامة والحكم والشورى

تتمحور الاتجاهات الاصلاحية حول شيئين: اـ أفكار ومبادىء عامة ـ ب ـ مشاريع إصلاحية.

42ـ كتب مولاي عبد الحفيظ مذكرات غبرتامة عن الأزمة المغربية التي أرجع أصولها إلى السلطان مولاي عبد الله (خ. ملكية، رقم 2621/ الرباط)

43ـ C. Sammut, in Revue d'histoire maghrébine, pp 151 - 152, n 2

وجل الذين عبروا عن آراء ومبادىء إصلاحية سياسية هم من ذوي الثقافة الواسعة المعمقة، ولهم جرأة في التعبير عن أفكارهم واطلاع دقيق على سير الأوضاع ببلادهم وخارجها. ولم تكن هذه الأفكار الاصلاحية وليدة القرن التاسع عشر للميلاد ولا هي انتظرت التغلغل الأوروبي إلى داخل البلاد وفي كل المستويات لتنبت بذرتها وتنمو، فقد رأينا اليوسي أول داعية للاصلاح وخاطب السلطان بغاية الصراحة، بل بجرأة نادرة، لكن ما يلفت النظر هو أن مولاي إسمعيل الذي قضى شطرا كبيرا من حياته في ردع الثورات الأهلية وردد الاوروبيون في تقاريرهم مالقوه أو مواطنوهم في سجونه حتى بالغوا في قذفه شخصيا كان هو الذي يبادر إلى الاسترشاد بآراء فقهاء لهم مكانتهم كاليحمدي ومحمد بن عبد القادر الفاسي ومفكر كبير هو أبو علي اليوسي. فمولاي إسمعيل هو الذي كان على حد تعبير اليوسي يتشوف إلى الموعظة والنصح والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح. ومن أجل ذلك كتب اليوسي رسالته التي ضمنها ثلاث نقط : ا ـ جباية الزكوات وتوزيعها بكيفية شرعية في كلتا الحالين ـ ب ـ إعلان الجهاد وشحن الثغور بالأسلحة والرجال ـ ج ـ إقرار العدل الشامل برد الحقوق إلى أهلها وإنصاف المظلوم من الظالم.

ومعنى هذا أن مذكرة اليوسي التي اشتملت على خمس صفحات، اتجهت إلى الجانب الاقتصادي الذي يمس الحياة اليومية لافراد الأمة، والجانب الجهادي الذي يرمي إلى تحرير الثغور أو ما تبقى منها ثم الجانب القضائي الذي هو باب واسع للاصلاح، لان به يردع جبابرة الولاة ويحصل اليتيم على حقه ويأمن المواطن على نفسه وماله.

وفي كل هذه النقط البارزة يضع اليوسي الواقع كما هو، ثم يقترح الاصلاح الذي يتفق مع نصوص الشريعة. وهكذا يسجل أن «جباة المملكة قد جروا ذيول الظلم على الرعية، فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ، ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا، فأما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه».

لأجل ذلك اقترح اليوسي أن يتفقد السلطان الجباة ويكف أيديهم عن الظلم وأن لا يغتر بمن يلقون إليه أن الأمور تسير على ما يرام.

واقترح أن يشجع أهل الفضل والخيروالدين ليكونوا له أنصارا. وأن ينفق على المصالح العامة حتى تطمئن الأمة إلى أن أموالها تنفق في وجوهها.

وسجل اليوسي أن الموانىء أو الثغور البحرية قد أهملت صيانتها وحراستها ولذلك وجب شحنها بالسلاح والمجاهدين وإعفاء هؤلاء من التكاليف الضريبية وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه وأن يولي على المناطق الساحلية ذوي الروح الجهادية، «لا من همته في بطنه والاتكاء على أريكته».

واعتبر اليوسي الولاة وبطانتهم جائرين، وحيث إنهم كذلك، فلا ينتظر من الظالم أن يرفع الظلم. وفي هذا المجال يرى اليوسي أن السلطان يتحمل مسؤولية كبرى في إشاعة العدل قبل غيره. وأورد الآية الكريمة: «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر» فعندما تختل أحوال الأمة وينبعث بها من يحركونها ضد السلطة فذلك لأن المسؤول الأول في الدولة قد أخل بهذه الأمور الأربعة (أي الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

وأخيرا نصح اليوسي العاهل أن لا يستمع إلى أهل الأهواء وأن يعتمد على الفقهاء الثقات مادامت السلطة العليا تسترشد بنصوص الشريعة، وذكر أسماء بعض الفقهاء ممن يمكن أن يعتمد عليهم العاهل «كسيدي محمد بن الحسن وسيدي أحمد بن سعيد، وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم»

هذه كانت خطوط الاصلاح كما يراها اليوسي فقد بدأها بتحذير السلطان من الجور والطغيان قبل أن يتطرق للمحاور الرئيسية المذكورة، ثم ختم كما بدأ، بحض العاهل على العدل، وذلك لأن العدل في الاسلام يمثل مبدأ أساسيا في الحكم وفي التعامل على نطاق الأمة (44).

وبدون شك كانت مذكرة اليوسي متداولة معروفة لا سيما بين الأوساط السياسية والمثقفة، وقد وصفها أكنسوس ثم الناصري بعده بالمشهورة، وحيث إن اليوسي يعترف في بدايتها بما للعاهل عليه من (البر

44- أكنسوس، الجيش العرموم، ص 78 الناصري، الاستقصاء، 7، 82

والاحسان والفضل والامتنان والتوقير والاحترام الخ) وأن اليوسي في هذه الامتيازات مثله كغيره من عشرات العلماء دون أن يفقدوا صفة الغيرة الوطنية والدينية على المواطنين ولمصلحة الدولة نفسها فإن الانعامات على العلماء لا تفقدهم بالضرورة هذه الغيرة والوقوف إلى جانب المصلحة العليا حتى ولو خسروا هذه الامتيازات وإن لم يكونوا جميعا على صعيد واحد في إحساسهم الوطني والديني .

وتميز القرن الثاني عشر / 18 م في مجمله بأن الدعوة الاصلاحية انصبت خلاله على الجانب الديني والاجتماعي، فمن جهة، هناك زوايا قوية كان لها نفوذ سياسي أو ثروات واسعة، ومن جهة ثانية ظهرت الدعوة السلفية من قمة الحكم على يد السلطان محمد الثالث وكذلك شمل الاصلاح جوانب أخرى مهمة كالقضاء الذي كان موضع مراسيم ومسطرة خاصة حددها العاهل. وفي الواقع يصبح القرن الثالث عشر (19 م) مرحلة أوسع للدعوة الاصلاحية في كل المجالات وبخاصة في الميدان الديني كما سبق توضيح ذلك. وخلال هذا القرن برزت شخصية إبراهيم التادلي وهو ذو تكوين علمي واسع وشامل. وكانت له رحلات إلى المشرق واجتمع في بيروت بمحمد عبده كما اجتمع في غيرها بالشيخ عليش والشيخ أحمد دحلان وغيرهم، بالاضافة إلى تنقلاته في أوروبا. وكان من دعاة إبطال المكس في عهد مولاي الحسن، وقيل إنه سعى في توحيد السياسة المغربية والعثمانية في مجالات مهمة، وحرر مع أعيان الرباط مذكرة بذلك قدمها إلى السلطات العثمانية، وكانت التحركات الأوروبية بالمغرب تناهض كل تعاون بين العثمانيين والمغرب، بما في ذلك قيام الاتراك بالتدريب العسكري للمغاربة .

فنحن وإن كنا هناك أمام مواقف دون أن نتعرف مباشرة على أفكار التادلي (45)، فمما لا ريب فيه أنه كان يوجد بالمغرب عدد كبير من أنصار التعاون المغربي العثماني الذي ساهم فيه المخزن بنصيب لا يستهان به، خصوصا منذ عهد السلطان محمد الثالث وانتهاء بمولاي عبد الحفيظ الذي حاول أن يستغني عن المدربين الأوروبيين ويستبدل بهم أتراكا

45- بنمنصور، أعلام المغرب العربي، 1، 172

واستنكـر المشـرفي في «الحلل البهية» (46) الاصلاحات التي رجع المنبهي بها بعـد سفـارته إلى انجلترا (1317/1900) وضمنها الاصلاح الضـريبي (الـترتيب) وإنشاء سكة حديدية وبريدوما إلى ذلك، ورأى أن الجـماهـير الشعبيـة ستصـدمهـا هذه المظـاهر الحضارية التي لم تألفها وأنها بحـاجـة إلى التدرج حتى تألف وتستأنس خصوصا وأن الذين سيقومون بالاشراف على التنفيذ هم أجانب ولا يقبل المغاربة أن يكون لهؤلاء تدبير أمـورهم (ولا يحتـاجـون لأجنبي يمازجهم ويخالطهم ويطلع على عوراتهم بوسيلة الاضطرار إليه).

والـواقـع أن الغضب من التغلغـل الأوربي اكتسح نفوس الشعب بكـل فآتـه، خصـوصا بعد أن طمى سيل الحمايات الأجنبية التي ارتفعت أصـوات المثقفـين ضدهـا في أول عهـد مولاي الحسن ومـا بعـده. ورأى الشيخ محمد الكتاني في الحمايات الأجنبية عصيانا للأمر القرآني بهذا الشأن : «. . لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء.»

وعـالـج الكتاني أسباب انحطاط الأمة الاسلامية عامة فرد بعضها إلى إهمال النبغـاء في المجتمـع الاسـلامي وعـدم تشجيعهم، وإلى عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوقف المسلمين عن استخدام العقل في الأحكام.

ودعـا الكتـاني إلى مقـاطعـة الشاي الذي كان المغاربة ينفقون فيه قسما كبيرا من مواردهم واعتبر أن هذه المقاطعة الاقتصادية وسيلة للتقليل من موارد العـــدو، وأن الأمـوال التي تصرف فيه يجب أن تصرف على التجهيز العسكري.

واتهـمت جريـــدة السعـــادة في عدد 14 محرم 1326/16 يبرايـــر 1907 الشيخ الكتاني بأنه حمل على الحمايات الأجنبية ودعا في تجمع كبير بالقرويين إلى القبض على بعض العناصر الجزائرية التي كانت تعمل في خدمة الطرف الفرنسي بالمغرب وإلى حمل اليهود على التنازل عن أموالهم للاستعـانـة بها على الجهـاد «حيث إنهم كانـوا وما زالوا السبب في إدخال الأجانب إلينا في كل زمن وحال (47).

46ـ المشرفي محمد الغريسي، الحلل البهية، م.خ.ع. الرباط، ص 420
47ـ محمد الباقر، الشيخ محمد الكتاني، ص 31، 34، 36، 93، 202

ولاحـظ الناصري باستغراب كيف أن بعض الوفود الأوروبية التي حضرت لتهنئة مولاي عبد العزيز بتنصيبه ملكا قد أقامت أزيد من أربعة أشهـر بفـاس تتجسس الأخبـار وتطلع على العورات حتى يظهر لها منفذ وتمكنها فرصة (48).

وسجل المؤرخ محمد بن علي الدكالي خلاصة مذاكرة (49) راجت بينـه وبـين العـالم أبي بكـر حركـات سنـة 1328 / 1910 حول النفـوذ الأجنبي والسياسة الواجب اتباعها إزاءه. وحيث إن الأوضاع التي تناولها الـرجـلان تنطبق كليـا وبشكـل غريب على أوضاع عدد كبير من الأقطار المتخلفـة بعـد مرور ثلاثـة أربـاع قرن على هذا التـاريخ، فضلا عن أن المـذاكـرة تتجـه إلى أصول الداء في ظل الاعتماد على السند الأجنبي فلا بأس بنقل كلام ابن علي بعد تقديمه لشخصية العالم المذكور :

«. . كما تفـاوضنـا في حال الاسـلام مع دول الأجـانب، هل لهذا الـداء الملم بجسمـه دواء، فجعلنا معا، سلبا وإيجابا، حتى قر القرار على أن الـدواء كان ممكنـا لهذا القطـر (المغـرب)، لكن فات الابـان، حتى استحكم الداء وصار معضلا، فتداركه لا يمكن كما ينبغي، وإنما الممكن الآن تخفيف الألم تدريجا بمعـالجـة أطبـاء مهـرة، حتى لا يسـرع العطب للجسم، عسى أن يتـدارك بالشفـاء، وذلـك بأن تدار الأعـمال المحكومة ببروزها للعيان، وصدورها ف يهذا الابان وبعده، بيد الدولة ويد رجالها تحت سيطـرتهـا، لا بيـد الأجـانب، والأهالي ينظرون من وراء ستر، فإن ذلـك حجـر، ولا موجب له، إنـما الأجـانب عملة ومشـيرون فيـما تعـين حضـورهم فيـه، والـدولة مباشرة أمورها بيد رجالها، وخلاف هذا عطب سريع بالجسم لمهواة التلف، لاسيما وقواه المالية يمتصها الدين الأجنبي، وقـواه العسكـريـة منـوطـة بلفـائف وعصـابات تمنعها من التصرف كيف شاءت. فإذا كانت القوتان بهذه المثابة، والطبيب أجنبي يدبر البدن على خلاف ما يريد منه المريض، فالعطب لا محالة لاحق بالجسم عاجلا أو آجلا. . .».

48 ـ استقصا، 9، 207.
49 ـ ورقة من كتاب ابن علي الدكالي : أدواح البستان. وأصل الورقة بيد القاضي المرحوم محمد زنيبر من سلا.

وبموازاة الأفكار الاصلاحية لهذا العهد، والتي عبر عنها الخواص خارج الاطار الرسمي كانت الأفكار تتجه في أواخر العهد العزيزي إلى إنشاء مجلس شورى يرجع السلطان إلى آرائه ويكون له حق تقرير التدابير التي تهم المصالح المشتركة للأمة، خصوصا بعد أن تقدمت فرنسا سنة 1905م بمطالب مهينة لسيادة البلاد. وهكذا أدت الرغبة الشعبية إلى إنشاء مجلس الأعيان الذي درس في هذه السنة بالذات مشاريع الاتفاقيات التي أبرمت بين فرنسا من جهة، وكل من انجلترا وإيطاليا وإسبانيا من جهة أخرى، ثم رفض هذه المشاريع وصوت على ملتمس يدعو العاهل إلى العمل على عقد مؤتمر دولي لبحث أوضاع المغرب تجاه الدول الأجنبية ووضع حد للامتيازات الفرنسية. وبناء على ذلك انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1096 م (50)، وحيث إن ممثلي المغرب بالمؤتمر صادقوا على ميثاق المؤتمر وأن مجلس الأعيان رفضه فقد أدى تناقض الموقفين الرسمي والشعبي إلى إعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ بمراكش وخلع مولاي عبد العزيز بعد ذلك بفاس.

وفي مشروع الدستور الذي قدم لمولاي عبد العزيز إثر مؤتمر الجزيرة اقترح إنشاء مجلس للأمة يتركب من مجلسين، مجلس الشورى (أو الملة) والمجلس الأعلى أو مجلس الأعيان، والأول مجلس وطني ينتخب لخمس سنوات والثاني نصفه بالتعيين ويرأسه العاهل. ويتولى مجلس الأمة إصدار التشريعات والقوانين الوطنية ويقرر الميزانية ويراقب القضاء والأوقاف والمعاهد.

أما مشروع دستور 1908 فيعد تطورا كبيرا في صلاحيات السلطة التشريعية وبموجبه أنشىء مجلس للأمة من شطرين، منتدى الشورى ومجلس الشرفاء، ويجتمع المجلسان كل على حدة في وقت واحد. ونص على أن كل عضو حر في إبداء آرائه وانتقاداته حتى في حق الوزير الأكبر وأن «كل مسألة عامة النفع أو الضرر، من مسائل الدولة الداخلية والخارجية لا يكون لها اعتبار ما لم يقررها مجلس الأمة أولا ثم مجلس الشرفاء». وبهذا البند جمع الدستور السلطات كلها في يد هذا المجلس

Allal El Fassi, Mémoire sur le régime représentatif au Maroc, pp. 11 - 12 - 50

علما بأن للعاهل حق تعيين عدد من الممثلين في مجلس الشرفاء الذي هو هيئة موازية لمجلس الأمة على غرار نظام الازدواج البرلماني في بعض الأقطار الغربية حاليا.

واشترطت وثيقة بيعة مولاي حفيظ بفاس أن يقوم ممثلو الأمة بتقرير ما يتعلق بالسياسة الخارجية : «إذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب في أمور سلمية أو تجارية فلا يبرم (أي العاهل) أمرا منها إلا بعد الصدع به للأمة حتى يقع الرضى منها بما لا يقدح في دينها ولا في عوائدها ولا في استقلال سلطانها.»

2ـ الميدان المالي والاقتصادي

كانت مذكرة اليوسي أول تعبير في دائرة الأوساط المثقفة عن ضرورة الاهتمام بالنظام الجبائي من حيث استخلاصه ومراقبة المسؤولين عنه. وفي ميدان سك العملة فقد أدخل المخزن عليها تغييرات متوالية لا مجال لذكرها هنا (51) ولما تولى السلطان محمد الثالث وجد مكوسا موظفة على الأسواق فاستفتى فقهاء فاس بشأنها فوضعوا له مذكرة تبرر توظيف هذه المكوس عند الحاجة إليها في الانفاق على المصالح العامة، خصوصا في الميدان الأمني والعسكري، وكان ممن أفتوا بذلك الشيخ التاودي ومحمد ابن قاسم جسوس وعمر الفاسي وعبد الرحمن المنجرة ومحمد بن عبد الصادق الطرابلسي (52). وبذلك كان هذا أول إصلاح خارج عن الجبايات الشرعية، يقنن بنص شرعي كذلك، وأسقطت المكوس جملة في عهد مولاي سليمان لتعود تدريجيا بعده.

وعلى إثر معاهدة مدريد 1880 تقرر إحداث ضريبة الترتيب على الفلاحة ولكن المخزن لم يلبث أن تراجع عنها خشية التدخل الأجنبي في الشؤون الضرائبية لصالح الأوروبيين المقيمين بالمغرب. وحيث إن مولاي الحسن كان يرى أن الخزينة تفتقر إلى المال بسبب تعويضات حرب تطوان فقد أقر المكوس بسائر أنحاء المملكة، بالرغم من ثورة الدباغين بفاس سنة 1290/1873

51ـ يراجع كتاب المغرب عبر التاريخ، ج، 3 للمؤلف (فصل 5، قسم 2)
52ـ الناصري، استقصا، 8، 7

وفي 1303 / 1885 ، أي بعد أن تم تسديد تعويضات حرب تطوان بسنة وجه العاهل استفتاء إلى الأمة بشأن تسريح وسق بعض الاشياء الممنوع تصديرها بناء على طلب ممثلي الدول الأجنبية الذين التمسوا أيضا تخفيضات جمركية ، وكان الاستفتاء عاما قرىء نصه بالمسجد وتواردت أجوبة الفقهاء ومنهم أحمد بن خالد الناصري (53) الذي أفتى بجواز التسويق نظرا لما تتوفر عليه البلاد من فائض فيما منع من حبوب ومواش (وكان العاهل قد رفع المكوس عن الأبواب بعد إتمام تسديد تعويضات حرب تطوان مباشرة) . ورأى الناصري أن السياسة تقتضي مداراة الأطراف القوية المعادية لأن المسلمين كما قال على غاية من الضعف والاختلال ، لاسيما وأن الصادرات تباع بأثمان مهمة للأجانب ، والتعامل التجاري عملية سلمية ، فإذا دعا العدو إلى السلم لايجاب بالحرب ، واستدل بآيات قرآنية منها : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . وأغرب من هذا أن الناصري يرى أن المغرب فضلا عن كونه غير متكافىء مع العدو من حيث العدة والعدد ، فإن سكانه قد (بعد عهدهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الأعداء ومكائدهات ، وإنما همهم مأكولهم ومشروبهم وملبوسهم) فكيف يحسن مواجهة الأعداء بالحرب والحالة هذه؟ . وبعد أن أسهب الناصري في ضرورة التعامل السلمي ونبذ فكرة المواجهة مع العدو، فوض القرار النهائي للعاهل حتى يعمل لما فيه خير الأمة .

وبعد أن كان في فآت الشعب من يميل إلى المواجهة ، حسم العاهل المشكل بتسريح وسق القمح والشعير لثلاث سنين وحط من الصاكة (أعشار الجمرك) مبلغ الربع لفائدة الأوروبيين المصدرين .

وفي 1304 / 1886 استفتى العاهل العلماء في حكم التجارة في المخدرات وقال بشأنها (54) : (وكان أسلافنا قدسهم الله اجتهدوا في قطعها وحسم مادتها بكل ما أمكنهم ، وأفضى بهم الحال إلى إحراقها مرارا ، ولما رأوا تمالؤ الرعاع والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ، ارتكبوا فيها ما يحصل بالتضييق على مستعمليها وتمنع منهم فلا يلحقها إلا من عنده ما يشتريها به وهم في أولئك الرعاع قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من النفع الكثير . .)

53- م . س . ج 9 ، 184

54- م . س . ص 193

وقد طلب العاهل من الفقهاء أن يبدوا رأيهم في إباحة أو منع المخدرات من الأعشاب وهي موضوع المذكرة. وكانت عشبة التبغ قد دخلت لأول مرة على يد عناصر سودانية في عهد أحمد المنصور الذهبي ثم أثار استعمالها جدلا كبيرا بين الفقهاء، وإلى هذا العهد يعزى انتشار عشبة الحشيش التي كانت مع التبغ موضوع المذكرة الحسنية، وكانت ترد كميات كبيرة منها من الأقطار الأوروبية وتعشر مع الواردات المباحة. وحيث إنها شاعت في كل الأوساط فإن العاهل لم يشأ أن يتخذ إجراء منفردا فرجع إلى علماء فاس الذين افتوا بتحريمها ومنع ترويجها. وحيث إننا لا نتوفر على جواب هؤلاء العلماء بنصه فيمكن هنا إيجاز رأي الناصري أيضا وهو في صورة جواب إلى أحد أصدقائه من هؤلاء العلماء على ما يظهر:

اـ لا يعقل أن تصادر السلطة العليا الأعشاب المخدرة لتتولى هي بيعها بأثمان باهظة لمن يستطيعون أداءها ـ ب ـ بناء على الشروط المبرمة مع ممثلي الدول الأوروبية سنة 1273 / 1856 فإن الأوروبيين يسمح لهم باستيراد ما يحتاجونه لاستهلاكهم الخاص كالخمر، والمواطنون الأوربيون لهم من التحجير والحرية، والتخصيص والتعميم في مسائل التجارة، ما لأهل البلاد ـ ج ـ ينبغي لأمير المؤمنين أن يطهر التراب الوطني من الأعشاب المفسدة جملة ويكون ذلك بالتدريج كما فعل الرسول (ص) في تحريم الخمر على العرب، بحيث تنظم حملة توعية تشرح مفاسد الأعشاب ومعايبها، وتردف الحملة بأخرى قلمية يساهم فيها الفقهاء والأدباء والشعراء، وأخيرا ياتي بعد نحو أربعة أشهرا أو أكثر دور القضاة فيتفقدون الشهود (الموثقين) وأئمة المساجد ويمنعون من استعمل الأعشاب الممنوعة من مزاولة مهمته. وتتوالى الحملة القلمية والتوعية إلى حين إصدار منع نهائي عن طريق السلطات المحلية. ويلجأ بعد هذا المنع إلى وسائل الردع والاكراه البدني عند الاقتضاء (55).

ونزل مولاي الحسن عند فتوى الفقهاء فحرم الأعشاب المذكورة وقصر جلبها على الأوروبيين، وعلى ميناء طنجة مع تعشيرها وتحديدها في القدر الكافي لاستهلاكهم.

55ـ م. س. ص 193ـ199

أما رفع المكوس عن الأبواب فكان على العموم من تأثير الضغط الشعبي، ويظهر أن العلماء أيضا لم يكونوا راضين عنها. وكان أكثرهم صراحة في ذلك العالم المشارك إبراهيم التادلي الذي كان لا يلقى مسؤولا مخزنيا أو يستقبله في بيته إلا ويعبر عن ضرورة وضع حد للمكوس. وفعلا أبطلت بظهير ملكي في ثاني ربيع الأول (56). 1303 / 1885.

والحق أن المالية المغربية كانت تعاني من نزيف متزايد بسبب الاعفاءات من التكاليف المخزنية التي شملت أفرادا وأسرا وحتى قبائل أحيانا وزوايا ومحتمين بالحماية الأجنبية (57). ولم ترتفع أصوات جهورية ضد هذا الاستغلال الشنيع الذي دخل في غمرته حتى علماء ومثقفون، بل إن وثيقة بيعة مولاي حفيظ بفاس طالبت بصراحة بأن يحافظ العلماء والشرفاء على امتيازاتهم الضرائبية. على أن المشاريع الاصلاحية اللاحقة تلافت هذه الطبقية بجرأة وإنصاف وإن لم يكتب لها التطبيق.

ومن أهم الأفكار التي سجلها المفكرون المتأخرون ما عبر عنه المؤرخ العالم محمد السليماني في «اللسان المعرب» (58) والذي ألفه سنة 1326 / 1908، فقد رأى أن العملة الوطنية التي يذهب بها التجار المغاربة إلى أوروبا ليجلبوا بها بضائع أوروبية انها تستنزف نقود بلادهم من حيث لا يشعرون، وأن التجارة الحقيقية هي تصدير المنتجات الوطنية إلى أوروبا مقابل الحصول على عملتها الذهبية. ثم إن على المغاربة أن يشجعوا منتجات بلادهم بدل ما تلقيه المصانع الأجنبية من منسوجات وغيرها. ولكي يتم تنفيذ هذه الفكرة عمليا، يجب أن تنطلق من الطبقة المترفة التي إذا اقتصرت على مصنوعات بلادها وزهدت في مصنوعات الأجانب، فإن (العامة) أي الجماهير الشعبية تقتدي بها. وعلى الدولة أن تساعد الصناع بالتخفيف من تكاليفهم حتى يزداد نشاطهم في الابتكار والانتاج ويكون لهم من الاحترام ما يليق بأمثالهم.

وفي سنة 1319 / 1901 حاول المخزن أن يعود إلى نظام الترتيب بإيحاء من الانجليز، فشمل كل ما تنتجه الأرض من دواب وحبوب

56ـ جراري، من أعلام الفكر، 2، 254. بنمنصور، أعلام المغرب العربي، 1، 172ـ173

57ـ بعض النماذج في فهرس وثائق المعرض السادس لجائزة الحسن الثاني / الرباط، ص 13، 14

58ـ سليماني، اللسان المعرب، ص 156ـ157

غذائيـة وأشجـار مثمرة وغير مثمرة، وألغيت الزكاة والعشور دفعة واحدة، وحمل الجميع على دفع الضريبة الجديدة بما في ذلك الشرفاء وسائر. . . . المحظـوظـين السـابقـين. وحيث إن المخـزن لم يلجأ إلى التـدرج في هذا الاصلاح الضرائبي كما هو الشأن في كثير من القرارات الضرائبية المرتجلة، فقـد توقف الشعب في عامتـه عن أداء الضـريبـة بما في ذلـك الـولاة، ومعظمهم لم يكن له راتب رسمي، وهذا ما ألجأ المغرب إلى الاقتراض، ودفـع إلى عقـد مؤتمـر الجـزيرة الخضراء الذي أحدث بنك الدولة، وهذا البنـك مارس نشـاطـه فعلا في النهاية وظل التمثيل الوطني فيه رمزيا حتى إلغاء الحماية سنة 1956 م

وفي نفس السنــة التي أقـر فيهـا الـترتيب ساهم عدد من المثقفـين والمسؤولين الرسميين بناء على رغبة السلطان مولاي عبد العزيز في الادلاء بمقترحات إصلاحية، ومنهم عبد الله بنسعيد الذي دعا إلى مسح شامل لأقـاليم المملكـة ومـا تحتـوي عليه من أراض مغروسة وغير مغروسة حتى تكـون نسبـة الجبـايـة حسب نوع الـتربـة والغلة. ولعله أول من دعا إلى تعميم الضريبة على المغاربة جميعا دون اعتبار لحيثياتهم، على أن تكون الجبـايـة من الأراضي مقصـورة على الزكوات الشرعية، وعلى العقارات الأخـرى من دور وفنـادق وحوانيت وغيرها باعتبار نسبة كرائها. وحيث إن ضريبـة الـترتيب أقـرت لتكـون معممـة وأن أداءهـا نقدا فإن مولاي عبد العزيز لا يبعد أن يكون قد استند إلى رأي بنسعيد فضلا عن الانجليز. غير أن «تـرتيب» بنسعيـد يبقى مطـابقـا لتعـاليم الاسلام في الوقت الذي ألغى «الترتيب» المخزني الزكوات والأعشار وعوضها بضرائب موحدة.

ودعا مشروع بنسعيد إلى نوع من الثورية في الاصلاح الزراعي، وذلـك بأن يتم حرث كل الاراضي الصـالحـة للزراعـة، ومن لم يتـوفر من المواطنين على مال لذلك، فإن المخزن يزوده بالبذور ودواب الحرث بثمن تزاد عليـه نسبـة الـربع أو 30 في المائة ويرد الجميع في السنة القابلة أو التي بعدها حسب الصابة أو انعدامها.

وطـالـب مشـروع الـدستـور الـذي تقـدم به محرر مجهول بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء بالغاء المكوس بجميع أنواعها وإلغاء إجبار القبائل على ضيافة الجيش المار بأرضها واعتبر هذا المشروع أن واردات الاوقاف بعد

ضبطهـا وإنشـاء مجلس خاص بها خاضـع لرقـابـة مجلس الملة يمكن أن تسـاهم بفعـاليـة في تنفيـذ الاصلاحات التي تقدمت بها الدول الأوروبية وأن تجربـة ضبـط ميـزانيـة أوقـاف فاس وحدها لسنة تكفي لاعطاء دليل ملموس على أهمية هذه الميزانية، وذلك تلافيا للاقتراض من الدول الاجنبية.

ودعت وثيقـة البيعـة الحفيظيـة بفـاس إلى (رفع ما أضر بالأمة من الشـروط الحـادثـة في الجـزيرات (الجزيرة الخضراء)، حيث لم توافق الأمة عليهـا ولا سلمتهـا ولا رضيت بأمـانة من كان يباشرها ولا علم لها بتسليم شيء منهـا) وإلى رفـع المكـوس وعدم عقد معاهدة تجارية أوسياسية مع الخارج إلا برضى ومشورة ممثلي الأمة.

وأخـيرا، فإن مشـروع أكتـوبـر 1908 يعمم التكاليف المالية على الجميع وفي وقت واحد وبحسب قدرة كل مستحق، ولا يسوغ للحكومة إنفـاق شيء من ميـزانية الدولة إلا بعد مصادقة منتدى الشورى. وتتولى لجنة من المنتدى تفتيش الادارات المخزنية في عموم المملكة بصفة مستمرة.

ومع كل هذه المبادرات الجدية، فلا نعلم أن شخصا أو هيئة تولت إعداد مشروع فريد أو ملحق بمشروع الاصلاحات العامة بشأن ميزانية الـدولـة من حيث تحديـد مختلف الايـرادات المحتملة ووجوه إنفاقها على الصعيـد الـوطني وذلـك باستثنـاء اقـتراحـات قدمها المشروع الدستوري للعهـد العـزيـزي بشأن الجيش خاصة، وهذا مع كون المخزن يتوفر على دفـاتـر حسـابات يسلمها الأمناء رأسا إلى القصر الملكي. وعلى ضوئها، وبـاعتبـار الاصـلاحـات المقـترحة وتعميم الضرائب بكيفية تدريجية على المحظـوظـين كان يمكن تحديـد الايـرادات لكـل سنـة مقـدمـا كما تحدد المصاريف عن طريق لجان عمل متنقلة، غير أن مثل هذه الأمور الأساسية توقفت على تدخل الجيش الأجنبي وإقرار الحماية.

3ـ الجيش والتجهيز العسكري

عرفنـا فيـما سبق من هذا الفصـل (ضمن عنـوان : تيـار العلماء والمثقفـين) ما أثـارته قضية تنظيم الجيش، وبالذات تمليك العبيد وإدخال

عنصر الحراطين ضمنهم في عهد مولاي إسمعيل من قلق ومحنة للعلماء الذين رفضوا مقترحات عليليش، وهي مقترحات تبناها العاهل نفسه، ويظهر أن العلماء عجزوا عن تقديم بدائل لهذه المقترحات مع أن السلطان طالبهم بها غيرما مرة.

وكان أبو علي اليوسي أحد أوائل الفقهاء والمفكرين الذين اهتدوا إلى أهمية تنظيم الجيش وقيمته في حماية الثغور والاسهام في عمليات الجهاد في عرض البحر وفي استرجاع الثغور المغتصبة، وسبقت الاشارة إلى آرائه في هذا المجال.

وإذا كان مولاي إسمعيل قد اعتمد قبل كل شيء على العناصر الزنجية والمنحدرة منها بالاضافة إلى المجموعات العربية التي تكونها فرق الأودايا، مع استخدام تقنيين أوروبيين من الأسرى في التقنيات العسكرية فإن محمد الثالث الذي ارتبط بعلاقات جيدة مع العثمانين، استقدم أفواجا متوالية من الأتراك كما استعان بالاعلاج وسمح للقبائل التي توجد على مقربة من العدو بحمل السلاح وقوى الأسطول البحري بعدة قطع (59).

وبوفاة محمد الثالث ينشأ عهد جديد من الاضطرابات ويبدأ الطرف الأجنبي انطلاقا من الأسبان عملية الايقاع بين أدعياء العرش وإمداد بعضهم بالسلاح للوقوف ضد السلطة المركزية. وعمليا ظهر العجز العسكري للمغرب في معركة إيسلي وبصورة أسوأ في حرب تطوان. وخلال هذه الفترة بالذات بدأت ترتفع أصوات المطالبة بالاصلاح العسكري، أي في أواسط القرن 19م تقريبا. وكان من بين دعاة إعادة النظر في تنظيم الجيش، ابن عزوز (60) الذي كتب حول هذا الموضوع مذكرة سنة 1265 / 1848 م إلى السلطان مولاي عبد الرحمن يشير عليه بالقيام بتعبئة عامة للشعب، يشارك فيها النجارون والخياطون والسراجون وأصحاب الأفران وغيرهم كل منهم في نطاق اختصاصه، وبالعمل مدة معلومة لصالح الجيش، ويرى أن يقوم أهل البادية بتجميع

59- يراجع كتاب المغرب عبر التاريخ، ج 3، للمؤلف (قسم 2، فصل 2) عن النظام العسكري والحربي
60- هذه الرسالة في عشر ورقات بالخزانة العامة بالرباط، رقم 1623

الـزرع والمـواشي لصـالـح الجيش، وأن تعـاقب القبـائل الثائرة بتحويل خدمتها للجيش وأن لا يترك لها إلا ما يسد ضرورياتها.

وهذا هو موجز الفصل الأول من مذكرة ابن عزوز الذي سماه (أي الفصل الأول) بالتهييىء لجمع العسكر.

وأما الفصل الثاني فسماه : القانون الأكبر المشتمل على مكايد جمع العسكر، وموضوعه: استخدام الوسائل المرنة والقوية لحشد الجيش. وقد ارتأى أن يكـون التجنيـد الاجبـاري للشبـاب حسب الظـروف المكـانية والمستوى الاجتماعي :

أـ مراكش، يؤخـذ أولادهـا إلى الصويرة لتعليمهم بعد استحضار آبـائهم وإيهـامهم بأن الغـرض من جمع أبنائهم هو التبرك بهم (ومعلوم أن المجتمـع المغـربي كان يتميز بحضور الأطفال في بعض المناسبات كصلاة الاستسقـاء وذلـك أيضـا من شعائر الاسلام، والتماس العفو عن قبيلة أو جهة تعرضت لعملية ردع عسكري الخ . . .)

ب ـ أهل فاس يدعى أغنياؤهم وتسجل عناوينهم ثم يرافقون إلى دورهم حيث يتم كبسهـا وإخـراج ما بها من صناديق الأموال، ويترك لهم عشـرهـا كما يستـولي المخـزن على بغـالهم لجر المـدافـع، وكـل ذلك مع توبيخهم على إسرافهم وحبهم للمال.

ج ـ أهـــل البـــوادي والمـدن الأخـرى يتم تجميـع عزابهم بالقـوة، ويـــوسمـون بالكي حتى يكـونـوا مثـلا للشعب، فإذا رأى النـاس ذلـك (بأعينهم تسكن روعتهم ويصبرون على ما نزل بهم). . .

ويقدم الكاتب نصائح عملية في نظره، حول توزيع الحراس لحشد الجيش والخدمة العسكرية وما إلى ذلك.

وآراء الكاتب كما تقدم، تتسم بالروح المكيافيلية وطابع القهر، وتـرجـع بأسـاليب التجنيـد إلى عهـد الاغـريق والـرومان وتعقد مشكل التجنيـد بدل أن تحله، ولكن بعض أفكـار ابن عزوز لا تخلو من مزايـا وروح عمليـة، وبـالأخص تعبئة الحرفيين جميعا، وهي عملية تشبه تعبئة المصانع في ظروف الحرب ولمصلحة الجيش.

ومن دعاة إعادة تنظيم الجيش أحمد المرنيسي (ت 1277/1860)

وكتب مذكرة بهذا الشأن تضمنتها الخزانة الزيدانية بمكناس (61) ثم كتب محمد الكردودي مذكرة في تنظيم الجيش على الطرق الحديثة، وطبعت بالمطبعة الحجرية بفاس سنة 1303 / 1885 وعنوان هذه المذكرة المطولة : (كشف الغمة في بيان أن حرب النظام واجب على هذه الأمة) وهي أكثر المصنفات تداولا في هذا الموضوع.

وارتبطت هذه الكتابات والدعوات الاصلاحية عن الجيش بحرب إيسلي وذيول حرب تطوان وتحرير الثغور والتخوم الوطنية.

أما مشروع بنسعيد فاقترح إلزام الموسرين بشراء الخيل لاولادهم وأن يعمم التدريب العسكري على جميع الأولاد كل جمعة لسائر فآت الشعب، واقترح إنشاء صناعة عسكرية وتوفير مقادير كافية من السلاح.

ودعا المشروع الدستوري الذي قدمه مجهول لمولاي عبد العزيز إلى إجبارية التدريب العسكري يوميا على كل الشباب البالغ عشرين إلى أربعين بمدة ساعتين على أن تهيأ مؤسسة لتكوين المكونين قصد الاستغناء عن الضباط الأوروبيين، على أن يتم بهذه الطريقة تكوين مليون جندي ويتم تكوين الضباط وترقيتهم بانتظام من درجة لأخرى بعد العمل مدة في كل منها.

ووضع المشروع تقديرا لمخصصات الضباط وألقى عليهم مسؤولية حفظ الأمن بالمدن من غير أن يقترح تأسيس شرطه.

أما وثيقة البيعة الحفيظية بفاس فاشترطت أن تكون أولوية الأوليات في صرف الجبايات والمدخرات المالية لصالح التجهيز الحربي لان الدفاع عن الوطن وسكانه أهم ما تنفق فيه هذه الأموال.

ونص مشروع دستور العهد الحفيظي لسنة 1908 على أن السلطان يتولى القيادة العليا للجيش وله أن يشهر الحرب ويعقد الصلح. ونصت المادة التاسعة والخمسون على إنشاء وزارة للحرب ضمن الوزارات الخمس المقررة. أما المادة الثانية والتسعون فتلزم منتدى الشورى في سنته الأولى بانشاء قوانين خاصة بالجيش إلى جانب اهتماماته التشريعية الأخرى حسب هذه المادة.

61- ابن سودة، دليل 2، 447

وبهذه الصفة كان دستور 1908 أكثر تحفظا في إصدار تشريعات أو توصيات إصلاحية مسبقة بشأن الجيش حتى يخضع تنظيمه لقوانين مضبوطة وفي إطار لجنة مختصة تسهر على هذا العمل داخل سنة على الأكثر.

4- القضاء والقوانين

كانت أول مبادرة للاصلاح القضائي من جانب السلطة العليا، وذلك أن العاهل فرض على قضاة المغرب، والغالب أنهم قضاة البوادي، تدريبا مطولا داخل مشور فاس الجديد. وهذه العملية التي قام بها مولاي إسمعيل سنة 1682/1094 وإن اتسمت بشيء من القسوة لأن القضاة وضعوا في حالة اعتقال حسب تعبير القادري (62) فهي سبق عجيب إلى إعادة تسليك الاطارات العليا لان هذه العملية لم تصبح متعارفة إلا في القرن الحالي.

والمغرب كان بحاجة إلى إصلاح جذري في الميدان القضائي مثلما في غيره، فإن عامة الذين أرخوا للفترة التي تعالجها هذه الدراسة تحدثوا عن مظالم الولاة، وهي مظالم نشأت عن تقليص السلطة القضائية منذ عهد الوطاسيين وتحويل أكثر اختصاصاتها في الأحكام والعقوبات إلى السلطات الادارية. والمصادر والوثائق تتحدث عن جور الولاة أكثر مما تشير إلى انعدام النزاهة لدى القضاة.

وقد حمل اليوسي بشدة في مذكرته إلى مولاي إسمعيل على ولاة الجور وسجل تعسفاتهم في الميدان المالي وحذر العاهل من عواقب ذلك على الدولة نفسها وقال: (63).

«إن الجور يثبت معه الملك ولا يستقيم، وأن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر. وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص، لما كانوا عليه من العدل في الرعية، استصلاحا لدنياهم، فكيف بمن يرجو صلاح الدين والدنيا؟».

62- استقصا، 7، 66

63- م.س. ص 85

ونتيجـة لانحطاط الوضعية القضائية واستفحال نفوذ الولاة وزعماء القبائل وضياع حقوق المتقاضين في غمرة الاضطرابات التي شملت عامة البلاد بعد وفاة مولاي إسمعيل، فإن السلطان محمد الثالث حدد مسطرة جديـدة للقضـاء والتقـاضي والافتـاء وجعـل من السلطة الادارية سلطة تنفيذية في خدمة القضاء وكان من الظهائر والمراسيم التي أصدرها : (64).

ا ـ ظهـير يلزم القضـاة بتسجيل الأحكام وتزويد كل من المحكوم له والمحكوم عليه بنسخة من الحكم. وهدد القضاة بالعزل في حالة عدم التنفيذ.

ب ـ ظهـير يحدد درجـات الأحكـام التي حصرت في خمس : المتفق عليـه، والمشهـور أو الـراجـح، ومـا تسـاوى فيه الاثبات والنفي، وحكم الأقلية وهو المرجوح، وما أثبته واحد أو اثنان ونفاه الباقي وهو الشاذ.

وحـدد الظهـير أسـماء فقهـاء المذهب الذين يرجع إليهم ابتداء من مالك ومن يليه. ثم هدد بالعقوبة من ألغى حق الضعيف وحكم لغيره أو حكم بالشاذ.

ج ـ مرسـوم من سبعـة فصـول تتناول تباعا : حقوق المرأة ومعاملة المعدم، وطريقة رد الدين، وحكم المفلس أو المتظاهر بالافلاس، والزوج إذا ضرب زوجته، وتسجيل الأشياء المرهونة لدى القاضي، وإجراء بحث قضائي حول العقارات الخاصة قبل تفويتها.

كما عالـج المـرسـوم نفسه في مسألة ملحقة، الفتوى بحكم مشهور بعد أن حكم القاضي بحكم مشهور، فيلغى حكم المفتي الذي عليه أن يمتنـع مقـدما من هذه الازدواجية في الحكم فإن أفتى قصد تعطيل حكم مشهور عوقب.

ومن أطـرف التشـريعـات ما خصص للفصـل في قضـايـا الدواب المتنازع عليها وهي مسألة اعترف المرسوم الصادر بشأنها أنها من الصعوبة بمكان.

64ـ عباس المراكشي، إعلام، 6، 120 ـ 128. ويراجع النظام القضائي في المغرب عبر التاريخ، ج 3 للمؤلف

وبوفاة محمد الثالث يدخل الميدان التشريعي والقضائي في طور جديد يمارس فيه عدد من الولاة والشيوخ مظالمهم من جديد ويفقد القضاء مزيدا من حرمته تدريجيا بسبب الامتبازات الأجنبية والحمايات الأجنبية التي أدخلت القناصل كطرف قضائي أصبح معه الطرف الاداري والقضاء الوطني خاضعا لما يريده أويحكم به القنصل. وجاءت مذكرة الحسن الأول إلى الأمة في نهاية القرن الثالث عشر / 19 م لتحث الولاة على العدل. وتتخذ المذكرة أسلوب النصيحة والوعظ تجاه الولاة وتحذرهم من الجور وعواقبه في الآخرة، وهي لا تشير إلى إصلاح تشريعي مرتقب، مع أنها توجه تعليمات محددة فيما يخص نشر التعليم، فقد كان العاهل مكتوف الأيدي حتى بعد تطبيق معاهدة مدريد 1880 م لان الحمايات الأجنبية بدل أن تختفي أعطيت قوة القانون بتدويلها وظل القضاء المغربي عاجزا أمامها، كما أن الحسن الأول وجه اهتمامه إلى أولويات معينة : تكوين الاطارات العسكرية والتقنية وتصحيح الوضع المالي والسهر على حماية الأمن والثغور والتخوم.

ومن جهة أخرى فإن ما حدث من فوضى في المستوى الاداري الذي لم يتغير هيكله قبل أجيال متطاولة لم يسلم منه المستوى القضائي الذي برهن عن ضعفه وعدم خلوه من الجور، ما قام به السلطان محمد الثالث من إصلاحات مسطرية. كما أن مشروع بنسعيد اقترح أن يكون إلى جانب كل قاض أربعة مستشارين من الفقهاء البارزين وكاتبان للضبط، على أن لا يبرم القاضي أمرا إلا بمشورة الفقهاء الأربعة، وأن يوقع على كل الأحكام والاجراءات، وكذا الفقهاء في نهاية اليوم. ويخصص للفصل أربع ساعات معلومة من كل يوم ومعروفة لدى المتقاضين، وفي كل شهر يوجه نسخة من المحاضر إلى الجهات المختصة بالقصر الملكي. واقترح المشروع إحداث مؤسسة عليا لمراجعة القضايا والطعون، ومراقبة المحاضر الواردة من الأقاليم، ويسجل قضاة المؤسسة بدورهم محاضرهم الخاصة.

ونص مشروع دستور العهد العزيزي على تدوين الأحكام الفقهية طبقا لمذهب مالك مع الاقتصار على قول واحد وإلغاء الخلافات وأن يقوم القضاة بالحكم بناء على هذه المدونة، ولا يجوز أن يحكموا في مسألة طارئة بغير إذن مجلس الأمة الذي يتوفر على لجنة تشريعية لشؤون

الأحكـام القضـائيـة. أما الطعون في الأحكام فترفع هي أيضا إلى مجلس الأمة حسب المادة الثامنة. ومن جار في حكمه من القضاة طرد من منصبه نهائيـا مع عقـوبـات جزائيـة يتعـرض لها. ونصت المـادة التاسعة من هذا المشروع على إنشاء مؤسسة لتكوين أطر الشرطة وتزويدها بمدونة خاصة تستمـد من قوانـين شرطـة الـدولـة العثـمانية ومصر وتونس وإيران وتكون مطابقة للشريعة الاسلامية.

واشترطت وثيقة البيعة الحفيظية بفاس أن يكف العمال عن التدخل في الشؤون الشـرعيـة وخططهـا بالنظـر لما يمارسه كبار المسؤولين من ضغط على القضاة إرضاء لشهواتهم الخاصة.

ومن الاصلاحات التي اقترحها مشروع دستور 1908 م أن القضاة وأهل الفتوى والعدول يعينهم قاضي القضاة بموافقة مجلس الشرفاء (مادة 66). وحيث إن المشـروع اعتـبر ضمنيـا أن القضاء والشؤون العدلية من المهمات التي لا علاقة لها بالميدان السياسي فقد أبعد من الحكومة منصب وزيـر العـدل، وتـرك أمـر القضـاء بيد مجلس الامة وقاضي القضاة الذي يعينه السلطان، وهو من الشخصيات الرسمية القليلة التي يحق لها حضور جلسـات مجلس الأمـة الذي ينعقد في جلسات مغلقة غير علنية. ونصت المادة الثانية والتسعون على أن يهتم منتدى الشورى وهو أحد شقي مجلس الأمـة (والشق الثـاني هو مجلس الشـرفاء) بإعداد قوانين موحدة للمحاكم القضائية والعدل.

5- التعليم (65)

ترمي تدخـلات المخـزن في قضايا التعليم إلى تركه خاضعا لتأطير يتكيف قبـل كل شيء مع السيـاسـة الـدينيـة للدولة، وأبرز مراحل هذه التـدخـلات تبـدأ من عهد السلطان محمد الثالث وتغيب تقريبا في العهد العـزيـزي لتعـود بشكـل ما في العهـد الحفيظي. وأبـرز مرحلة إصلاحية بالنسبـة للتعليم الحـديث هي مرحلة توجيـه البعثات الطلابية والتكوينية التي يمثلهـا على الخصـوص عهد الحسن الأول. وقد كانت لهذا العاهل مبادرة أخرى هي دعوة جميع العمال والولاة إلى إلزام جميع القرى والمداشر

65- تعالج هذه النقطة، الأفكار الاصلاحية لا المنجزات التاريخية التي تناولها الفصل الأول.

والـدواويـر بأن يتعاقد كل منها مع معلم لتربية أبنائهم وتعليمه وتعويدهم على أداء الصلوات الخمس. وهـذا الأمـر الذي صدر في خطاب العاهل المـذكـور إلى الأمـة آخـر القرن 13 الهجري لا نعلم مدى تنفيذه عمليا، ولكنـه يبـين عن اهتمام أكيد بتوعية المواطنين ابتداء من وقتها المناسب وهو الطفـولـة، ومن موضـوعها المناسب وهو التربية والتعليم، ومع ذلك، فإن ترك التعليم بمؤسساته وطرقه العتيقة لم يعد يحقق أي هدف إيجابي.

وهكذا فإن السلطات الرسمية لم تهتد إلى أن كل إصلاح أو إنجاز تستفيد منه عامة الأمة لاجل غير محدد يتوقف بالذات على تطوير التعليم شكـلا ومضمـونـا وبنيـات، وابتـداء من مرحلة الطفـولة. فلو أن سياسة المخـزن اتجهت على الصعيـد الداخلي إلى هذه المرحلة ثم إلى ما بعدها بموازاة سياسة تكوين الاطارات العلمية والتقنية بالخارج لكانت طفرة المغرب عظيمة بعد ربع قرن على أكبر تقدير، سواء في الميدان الاجتماعي أو الاقتصـادي فضـلا عن تطـويـر دائـرة الوعي السياسي الذي لا يقتصر على كراهة النفوذ الأجنبي بل يشمل توعية المواطن بمسؤوليته في كل المجالات.

ومن دعـاة إصـلاح التعليم، محمد المشرفي الذي رأى أنه بدلا من إدخال السكة الحديدية والتلغراف إلى المغرب كان على الدول الأوروبية المهتمـة، أن تنصـح المغـرب بإدخـال العلوم الـريـاضية وبناء المؤسسات التعليمية لنشر هذه العلوم في المدن والقرى (فتكتسب الدولة حينئذ رجالا يدفعـون عنهـا بما علمـوه من العلوم الرياضية) ولا يحتاجون لأجنبي يحشر أنفه في شؤونهم ويطلع على أسرارهم (66).

ونص مشروع بنسعيد في الفصل الأول منه على (إحداث مدارس لتعليم مهـمات جديـدة يتـوقف نفوذ النجاح عليها وعلى معرفتها) ومعنى هذا أنه يدعو إلى إحداث مدارس عصرية متطورة وذات مردود.

ويـرى بنسعيـد في مقـدمـة هذا الفصـل أن المعارف المتداولة لدى الآخـرين إنـما أخذت من أصول إسلامية، ويجب استرجاعها إلى المغرب كقطـر إسـلامي، لكن مع ضمان الأمن السيـاسي وإقـرار العـدل بين المواطنين وتوفير الموارد المالية.

66ـ مشرفي، حلل، ص 421

ولما كانت اليابان حديثة عهد بالتطور الحضاري والعلمي الحديث، فإن مشروع دستور عهد مولاي عبد العزيز لفت النظر إلى ما كانت عليه هذه الأمة قبل ثلاثين سنة من عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء حيث بلغت من الانحطاط درجة جعلت مجموعة من الدول الغربية القريبة والبعيدة كالولايات المتحدة وروسيا وفرنسا تنتزع منها امتيازات كالتي فرضتها حرب تطوان على المغرب وفي الجمارك بالذات وفي وقت متقارب. وبعد عقد من السنين تفجرت عزيمة الحكام والأمة اليابانية فدرسوا علوم الغرب وما لبثوا أن قهروا في ميدان الحرب كلا من الصين وروسيا. وذلك أنهم أكثروا من البعثات العلمية إلى أوروبا ونقلوا بصفة مباشرة وسائلها الحضارية والحربية ونشروا التعليم وطوروه في جميع المراحل.

غير أن مشروع دستور العهد العزيزي ربط تطوير التعليم وإعادة تنظيمه بمؤسسة الأوقاف التي اقترح أن يكون لها مجلس يشرف في نفس الوقت على المعاهد. ويظهر أن صاحب المشروع رأى أن يرتبط تسيير التعليم وتمويله مباشرة بالأمة حتى يكون ذلك عن طواعية وموضوع تنافس، ولأن ميزانية الدولة كانت عاجزة بالمرة عن أي تحملات بهذا الصدد. ولا يقدم هذا المشروع شيئا يستحق الذكر عن شكل التعليم المطلوب ومراحله، ولكن بالمقابل ينشىء إدارة أو هيئة خاصة تابعة للأوقاف يرأسها شيخ العلماء (قاعدة رقم 27)، ومهمته أن ينظر في أوقاف العلماء وشؤون المدارس ومناصب التدريس. ويوضح البند (أو القاعدة) رقم 29 طريقة مراقبة التعليم وضبطه. وتنص بنود أخرى على إنشاء مؤسسة للفنون العسكرية وما يتعلق بالتدريس فيها وبأطرها. والحقيقة أن هذا المشروع فقير في أفكاره ومقترحاته بشأن التعليم، وبالأخص ما يتعلق بالمبادىء الاساسية.

وبالمقابل فإن مشروع 1908 م يعد في قمة الهرم بالنسبة للأفكار الاصلاحية التي سبقته، فالمادة الخامسة عشرة منه تنص على أن التعليم الابتدائي إلزامي على قدر مساعدة الأحوال. والواقع أن دستور 1962 (فصل 13) لم يكن فيه تطور كبير بالنسبة لهذا الجانب حيث اعتبر هذا الدستور التربية والشغل حقا للجميع، لكن إلى غاية العقد التاسع من

القرن العشرين (م) ليس هناك إمكانيات مادية أو مخططات لتطبيق هذا البند بالذات كما هو.

كذلك نص مشروع دستور 1908 على إنشاء وزراة للمعارف، وهذه أول مرة يلتفت فيها إصلاح وطني مقترح إلى تخصيص التعليم بوزارة. وتميز المشروع باهتمام استثنائي بقضايا التعليم التي خصص لها ثمانية بنود أو مواد. وحيث إن الحكومة عاجزة عن أن تتولى وحدها عملية نشر المدارس في جميع أنحاء البلاد فقد نص على ضرورة تكاثف الحكومة ومنتدى الشورى وعموم الأمة لهذا الغرض. وقسم التعليم إلى مراحل ثلاث، ابتدائية وثانوية وعليا، على أن يقتصر التعليم العالي في فترة مؤقتة على كلية القرويين مع تحسين وضعيتها ماديا ومعنويا وتلقيحها بالعلوم الحديثة. واعتبرت المادة الخامسة والثمانون التعليم الابتدائي من السادسة إلزاميا وعلى الحكومة أن تتدخل لدى الأولياء بالقوة لتحقيق ذلك، على أن يكون تعليم البنات لفترة عن طريق التوعية والترغيب. وجعل المشروع التعليم مجانيا تشترك فيه ميزانية الدولة والاوقاف والخواص. ولضمان الأطر الضرورية تدخل المشروع لتخويل الأجانب حق التدريس بالمغرب، بقطع النظر عن جنسياتهم وأديانهم ومع حيازتهم شهادات المؤسسات المشهورة، وسمح للمواطنين والأجانب معا بفتح مؤسسات تعليمية، على أن لا تكون المؤسسات الأجنبية خاضعة لرقابة وزارة المعارف. وهذه النقطة بالذات ترفع كل شك في أن يكون محرر هذا الدستور مغربيا بقطع النظر عن قيمته الكبرى كمشروع دستوري إصلاحي شامل.

ومن أهم المقترحات الاصلاحية بشأن التعليم، ما نشره المؤرخ الأديب محمد السليماني في كتابه : (اللسان المعرب)، قبيل شهور من إقرار الحماية الفرنسية (67) والحقيقة أن هذا المثقف، قدم أفكارا ومقترحات ووسائل تنفيذ. وهو مثل جميع الذين ادلوا بآراء إصلاحية من معاصرية، ربط المعرفة بالدين وقال إن العلم والدين كتوأمين متلاصقين، فصلهما يؤدي إلى هلاكهما معا، ثم رأى أنه يجب أن تربى الفكرة الوطنية لا الجهوية أو المحلية في نفوس أطفال المدارس، وأن تؤسس المدارس

67ـ السليماني، اللسان المعرب، ص 162 ـ 167

الابتدائية في كل حومة وقرية، والثانوية بكل عمالة والعليا بأمهات المدن. والمكتب القرآني أول مرحلة تربوية في سن الطفل المتعلم وفيها يعود على طرق التعامل والتخاطب وفي المدرسة الابتدائية يلقن مبادىء اللغة والانسانيات والطبيعيات والحساب بالاضافة إلى مبادىء حفظ الصحة والاقتصاد ومسك الدفاتر والتدبير المنزلي وغيرها، ومدة الدراسة أربع سنوات تتخللها امتحانات دورية ثم نهائية تؤهله للدخول إلى المدرسة الثانوية التي يقضي بها أربع سنوات يتلقى فيها بتوسع ما درسه في الابتدائي باضافة علوم أخرى كالهيأة والتقويم والمراصد والجبر والهندسة. ويشعرنا السليماني هنا بكيفية غير مباشرة بافتقار الأمة إلى مؤقتين للمساجد ولابد لهم من دراسة الهيأة والتقويم. ويضيف السليماني إلى هذه المواد : الحديث رواية ودراية والبيان والمنطق والأصول. .

أما الجامعة ففروعها، بحسب الحاجة والامكان : الفنون العسكرية وتكوين القضاة والمحامين والمدرسين والولاة والدبلوماسيين والمهندسين في مختلف الفروع، والأطباء والجراحين والكيماويين والنباتيين وغيرهم من الاطارات الضرورية.

وحيث إن كل ذلك يحتاج إلى تجهيزات ومكونين يأتون من الخارج فضلا عن المكونين المغاربة، فإن الكاتب يقترح إضافة قدر محدود على الجبايات السنوية لا يضر بالمواطنين لمجابهة النفقات، على أن تتولى الدولة شؤون المؤسسات التعليمية ومراقبتها.

ومن أهم أفكار السليماني ما يتعلق بلغة التلقين ونشر المعارف العلمية، وهو مشكل لم يحله العرب بشكل عملي مرض حيث تخبطوا فيه ولا زالوا مدة تناهز قرنا. وهكذا يبرز الكاتب اتجاه معاصريه بهذا الشأن، فقسمهم إلى فريقين، أحدهما يقول : إذا ترجمنا العلم فقد نقلناه إلينا وأما إذا تعلمنا اللغات الأجنبية العلمية فقد نقلنا أفرادا منا إلى العلم، وفريق يقول بأن يدرس أبناء الأمة لغة علمية أجنبية لان الذي ينقل العلم أي يترجمه يكون حاله مع العلم كراكب الجمل وراكب القطار السريع فإن بدآ من نقطة واحدة لا يلبثان أن يفترقا فيسبق العلم النقل ويبقى الناقل أبدا ذيلاله. ويخلص السليماني من المشكل في نظره بإنشاء مؤسسة من العلماء تتولى نقل المصطلحات العلمية الحديثة إلى العربية،

وهـذا ما فعلتـه المجـامـع بعـد السليـماني، لكن هل حل مشكل المستوى العلمي على الصعيد الوطني في البلاد العربية ؟ الا يبقى المؤطر الأجنبي أو استكـمال التكـوين بالخـارج أو اللجـوء إلى لغـة الآخـرين وكتـاباتهم وأبحـاثهم وتكنـولـوجيتهم، ذلـك القطار السريع الذي لا يلحقه الجمل العـربي أبـدا؟ . ومـع ذلك فإن أفكار السليماني واهتماماته تقدمية بالنسبة لعصره ومعاصريه.

6ـ الصحافة

صدرت الجـرائـد الأولى بالمغرب لأول مرة بسبتة ثم بتطوان . ففي سبتـة أصـدر الاسبـان باللغـة الاسبـانيـة جريـدة المتحرر الافريقي سنة 1236/1820 ثم جريـدة الصـدى الـدستـوري سنـة 1237/1821 (68) . وفي تطوان بالاسبانية أيضا، صدرت جريدة صدى تطوان بفاتح مارس 1860 ، ثم مخبر تطوان في نفس السنة (69) .

وبـالنسبـة لطنجـة يرى محرر وسلسلة مدن المغـرب وقبائله أن أول جريـدة صدرت بها كانت أيضـا إسبـانية وهي الصدى الموريطاني وكانت نصف أسبوعية (70) .

وحسب كتـاب «الصحـافـة المغـربيـة» (71) كانت جريـدة «عين طنجـة» بالفـرنسيـة أول ما ظهـر بها من صحف سنـة 1245/1834 ثم ظهرت صحف أخرى بالاسبانية والانجليزية والفرنسية .

أما الصحافة العربية فانطلقت لاول مرة من طنجة في عهد مولاي الحسن باسم جريـدة المغرب سنة 1307/1889 ، ثم ظهرت «السعادة» على يد البعثـة الـدبلومـاسيـة الفـرنسية في محرم 1321/1903 (72)، وإظهار الحق 1322 / 1904 والصباح وهي سياسية ثقافية تجارية يسهر على تحريرهـا وديع كرم اللبنـاني ويمـولها ابن حيون ظهـرت سنـة 1326 / 1908، كما ظهرت في نفس السنة جريدة لسان المغرب التي

68ـ زين العابدين الكتاني، الصحافة المغربية، 1، 83

69ـ م . س . ص 89 . محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، ص 194

70ـ Résidence Général, Villes et tribus, Tanger, p 280

71ـ زين العابدين الكتاني، الصحافة المغربة، 1، 91، 92

72ـ ابن سودة، دليل، 2، 487

أشرف على تحريرها وإدارتها الأخوان اللبنانيان فرج الله نمور وأرتور نمور (73) وكـان للبنـانيـين السبق في إصـدار عدد من الصحف والمجلات بالأقطار العربية كمصر وتونس والمغرب.

وفي فاس تولى الشيـخ محمـد بن عبد الكبير الكتاني إصدار جريدة «الطـاعـون» (74) « سنـة 1324 ه وكـانت تطبـع بالمطبعة الحجرية وقد تولت إثـارة الافكـار الـوطنيـة ومنـاهضة التغلغل الاستعماري والرد على الجـرائـد الاستعـماريـة التي كانت تتحـدث في طنجـة باسم الأطـراف الأجنبيـة، وكـانت جريـدة السعـادة أكثر ترديدا لحملات التشهير بالحركة الوطنية التي كان الكتاني من أبرز قادتها (75) وبالمقابل، فإن جريدة لسان المغـرب خدمت الاتجـاه الـوطني وساهمت بشكل إيجابي في توعية الشباب المغـربي بقضيـة بلاده التي عقدتها المناورات الأجنبية والاتفاقيات السرية والعلنية. ومما نشرته هذه الصحيفة بشأن الاصلاح (76):

«بـما أن الـوقت قد دعا إلى الاصلاح، والشبيبة المغربية قد هللت قلوبهـا وانشـرحت صدورهـا، وجلالة سلطاننا الجديد عبد الحفيظ يعرف لزومـه (واجبـاتـه) فنحن لا نالـو جهـدا في المنـاداة بطلب الاصلاح على صفحات الجرائد من جلالته...»

ثم قالت لسان المغرب: «والذي نرجو منه أولا وقبل كل شيء هو فتـح المـدارس ونشر المعارف، وأن يكون التعليم الابتدائي اجباريا، وأن يولي ذوي الكفـاءة والاستحقـاق والأهليـة، ويقـرب إليـه ذوي العقـول الراجحة والأفكار الحرة..».

وطـالبت الصحيفـة بعـد هذا بتزويد الأمة بدستور ومجلس للنواب ويعطيها حرية العمل والفكر لتقتدي بالدول المتحضرة.

وهـذا المقـال يسـايـر حذو النعـل بالنعل، الاصلاح الذي اقترحه دستور 1908 م والذي نشرته (لسان المغرب بالذات).

73- زين العابدين الكتاني، م. س ص 96-98

74- ن. م ص 107

75- محمد الباقر الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 185-188

76- م. س. ص 205

وبالرغم من حركة الصحافة العربية والأجنبية بالمغرب ووصول عدد من جرائد ومجلات المشرق إلى هذه البلاد بانتظام، فإن الدوائر المخزنية لم تكن توليها اهتماما يذكر، وليس لديها مصلحة تعنى بالاطلاع عليها وتقديم ملخصات عما يهم السلطة العليا منها، فدوائر المخزن كانت غير عابئة بما يتردد من مقالات في الجرائد بانحطاط الأمة ودواليب التسيير بها، بينما كانت الحركة الوطنية والمتعاطفون معها يتتبعونها ويكتب فيها بعضهم بما في ذلك جريدة السعادة التي كانت تفتح صدرها للدعوات الاصلاحية التي لا تهم سياستها الخاصة. وهكذا كتب عباس الكردودي (77) أحد كبار الموظفين من بين دعاة الاصلاح يندد بغفلة الصدر الأعظم (المدني بن محمد الجلاوي) وبطانته، مقالا فيما يلي فقراته الأخيرة:

«هذه الجرائد التي هي لسان جميع الامم وأول مصلح في العالم وأول رابط بعضه ببعض والعاهل الآكبر في كفاءة الامم من سكرتها بالمناداة على تحسين المستحسن واستهجان المستهجن ظهرت في هذا المغرب هذه ما يزيد على السبع سنوات وهي تنادي بملء فيها بالحقيقة : تشيد بوجوب الاجتماع، تقرر ما ينفع حالا واستقبالا، تلقي لكل حادثة درسا مفيدا، وتؤيد ذلك بالادلة المحسوسة مما لا ينكره عاقل أو متحامق، وترشدنا وتنصحنا، ويجب على كل منا أمعان النظر في قولها، وما كان منه نافعا فعلناه، إلى الآن لم تحز أدنى اعتبار من الطبقة التي تريد أن تدير دفة السياسة بالمغرب في الداخلية والخارجية المكتنف بالضواري، بل تقرر في دار ندوتها محاربة كل ذلك، ولا إخال إلا أنها تظن أن بذلك تدوم سلطتها، فلا وربك لا يكون هذا قط، لان انعكاس الحقائق وقلب الاعيان أمر متعذر، وما زالت الطبيعة التي أوجدها الله في النار هي الاحراق، وفي الماء هي الري، وجعل السبب وسيلة لمسبب، بل الذي تعطيه الحالة والمتوقع هو الخراب والدمار حسب طبيعة الكون، ولله في خلقه شؤون.

قل بالله عليك أيها القارىء المتأمل كيف يرجى صلاح هؤلاء أصحاب السلطة والحل والعقد فيها وهم على ما هم عليه من الكذب والغش وخيانة عباد الله ووطنهم ودينهم ومستنصحهم، ولكن سياتي يوم تجزى فيه كل نفس بما كسبت وعند عالم الغيب يجتمع الخصوم.

وليعلم مولانا الوزير أن هذه الخطة لا تأتي بخير أصلا، إذ عهدنا به أنه محب الاصلاح يهوى العدل، يرتقب أن تكون على يده مزايا لوطنه العزيز، ويتنبه بأن الوقت وقت يقظة لا نوم، وترك الحبل على الغارب لا معنى له، وتفضيل الراحة والدعة والسكون والرفاهية وعدم المبالاة بعباد الله عاقبته وخيمة، والزمان كشاف، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن الله لسميع الدعاء.»

77ـ مراكشي، إعلام، 7، 241 ـ 244. وعباس الكردودي توفي سنة 1352 / 1933 (الجراري، من أعلام الفكر، 2، 446)، وهو نجل الفقيه المصلح أحمد الكردودي صاحب : الدر المنضد (ترجمته في الاعلام 2 للمراكشي)

ومن الظواهر التي برزت في هذا العصر، الرد على بعض الصحفيين الذين يكتبون عن قضايا المغرب، بواسطة مذكرات مطبوعة، كما فعل محمد عبد الحي الكتاني الذي نشر بطريق المطبعة الحجرية بفاس مذكرة بعنوان : مفاكهة ذوي النبل والاجادة في الرد على جريدة السعادة، وذلك سنة 1907 م. وفي نفس السنة، وبطريق المطبعة الحجرية أيضا نشر محمد العابد بن سودة مذكرة بعنوان : سنان القلم لتنبيه وديع كرم، وكان وديع كرم إذ ذاك رئيس تحرير السعادة (78).

والواقع أن دور الصحافة العربية والأجنبية بالمغرب قبل الحماية جدير بدراسة شاملة تضبط محتوياتها واتجاهاتها ومدى تأثيرها على الرأي العام الوطني. وبدون شك فإن من شأن هذه الدراسة أن تضيف معلومات وتكشف عن ثغرات ظلت حتى يومنا هذا مجهولة، وبخاصة فيما يرجع إلى دور الأطراف الأجنبية المتواصلة على السيادة الوطنية، وكذا دور الأطراف الاصلاحية والمعارضة في الداخل لسياسة المخزن.

عرض تحليلي للمشاريع الاصلاحية والدستورية

راجت فكرة إنشاء دستور لأول مرة بالمغرب في أوائل القرن 19 م عندما اتصل بالسلطان مولاي سليمان مغامر إسباني اسمه دومينيكو بديع ليبليش، وكان على اطلاع واسع بشتى المعارف واللغات، وعمل جاسوسا لحكومة إسبانيا ولنابليون بونابرت (79). ودخل إلى المغرب بوصفه لاجئا من سوريا. وانتحل لقب علي باي العباسي زاعما أنه من سلالة الخلفاء العباسيين.

وقد نشرت مجلة (هسبريس) الصادرة عن جامعة الرباط بالفرنسية (80) أربع وثائق عن العلاقات المغربية الفرنسية في هذه الحقبة (1794-1810م) ضمنها واحدة هي عبارة عن رسالة وجهها علي باي بتاريخ 14 مايو 1808 إلى نابليون، بعد شهور من افتضاح أمره وطرده من المغرب. وفي هذه الوثيقة كشف الجاسوس الاسباني عن كونه أستأذن حكومة بلاده

78- ابن سودة، دليل 2، 482 و 493

79- راجع المغرب عبر التاريخ للمؤلف، ج 3، قسم 2، فصل 3، ضمن العنوان الفرعي من هذا الفصل : الأمن وحمايته.

80 - Mme Hosotte Reynaud. in Hespéris. 1960. Fasc. III.PP. 565 - 558

في عرض فكـرة إنشـاء دستور للمملكة المغربية على مولاي سليمان، وأن علماء فاس رحبـوا بالمشـروع أو بفكـرتـه على الأصح ورأوا أن العاهل قد ارتكب «إثـما» برفضـه وضـع هذا المشروع الذي كان الغرض منه حسب نص الـوثيقـة نفسها : (فتح الموانىء التي أقفلها تعصب مولاي سليمان، وكـذا حريـة التجارة وتخويل ضمانات للمجنسين والأجانب بالبلاد وإغاثة إسبانيا التي تهلك جوعا بينما تطفح مخازن المغرب حبوبا الخ . . .)

وواضـح أن إسبـانيـا كانت تتوقع مرونة أكثر في استغلال الثروات المغـربيـة ومـوانىء المغـرب من طريق مجلس استشاري أو حكومة مغربية يسهـل التعـامـل معهـا في ظل سلطـاتهـا الـدستـورية أو هيئة من الخبراء الأجـانب. وهـذا جهل عجيب بحقيقة الوعي الشعبي بالمغرب كما أكدته أحداث الشاوية وغيرها.

وفي الـوقت الـذي كان المغـرب في حالـة انتظار ظهور أول مشروع دستور مغربي (في أوائل القرن 20 م) كانت تونس قد تخطت هذه المرحلة بأزيـد من أربعـين سنـة حيث ظهـر الميثـاق الأسـاسي الـذي وضع سنة 1277 / 1860 (81) وبمـوجبـه ضمنت الممتلكـات الخاصة والحريات العامة والمساواة أمام القانون بين جميع المواطنين بصرف النظر عن انتمائهم الديني وأنشىء المجلس الأعلى من 60 ممثلا وطنيا لدراسة الميزانية ومراقبة الايـرادات والنفقـات وأنشئت حكـومـة ومجلس استشاري خاص بالباي وعممت الضرائب على الجميع وأنشىء التجنيد الاجباري.

وبصـرف النظـر عن إيقاف العمل بهذا الدستور بعد أربع سنوات وأن المجلس الأعلى كان معينا، فقد ارتفعت أصوات الأعيان فيه بشكل وضعت فيه نفقات الدولة على المشرحة وتوجهت إلى معارضة التفاحش الضـرائبي. وهـو على أي حال تطـور مهم في الحياة الدستورية من حيث الممارسة، بالنسبة للمغرب الكبير.

وكـان من عجـائب أوضـاع تونس أنها شهدت بعد إقرار الحماية بها نشـاطـا كبـيرا في حركـة التعليم اللائكي بعيدا عن تدخل الرهبان الذين كانـوا في مجال التعليم الأوروبي بالمغـرب أكـبر حظـا من الـلائكيـين بعد

---

81 - B. Slama, l'insurrection de 1864 en Tunisie, pp 3-4

الحماية مباشرة وذلك من حيث إقبال الجالية الأوروبية. وحيث إن أصحاب المهن الحرة من حرفيين متوسطين وأرباب شركات وفلاحين كانوا ذوي نفوذ كبير بالبلاد فإن الحماية الفرنسية ما لبثت أن أنشأت من أجلهم مؤتمرا استشاريا كان مع هذا خاضعا لتوجيهات الاقامة العامة. وهكذا فإن تونس قد حظيت سواء في عهد استقلالها قبل 1880 أو بعد إقرار الحماية الفرنسية بالسبق إلى ممارسة الحياة الدستورية بشكل ما وإن كان المستفيد في ظل الحماية هو قبل كل شيء الطرف الأوروبي (82) الذي لم يلبث أن فرض نفسه بعد تكاثر الأوروبيين، على السلطات الحاكمة.

إن التذكير بالوضع الدستوري في تونس المستقلة والتي هي أقرب جار متطور بين الدول الاسلامية، يرينا مدى الفرق في الزمن والخطوات بين المغرب وتونس ومع اعتبار تعدد الأطماع الأجنبية بالنسبة للمغرب والتي شغلته عمليا، عن مراجعة أوضاعه الداخلية.

والآن، لنعد إلى المشاريع التي سبق تحديد جملة من نقط الالتقاء فيها لنتحدث عن ظروف إعدادها وذكر مميزات وعيوب كل منها :

1ـ مشروع بنسعيد

هو من المشاريع الاصلاحية الاولى في مغرب ما قبيل الحماية، والتي تتميز في جملتها بالشمولية مع اختلافات بينها، وكان السلطان مولاي عبد العزيز قد دعا عددا من الشخصيات إلى تزويده بآراء كتابية تتناول الاصلاحات المطلوبة. وكان عبد الله بنسعيد عضوا باللجنة السياسية بدار النيابة بطنجة، فتقدم بمشروعه في سنة 1319/1900 إلى وزير الخارجية عبد الكريم بنسليمان الذي تولى تقديمه مع غيره من المشاريع إلى العاهل. وحيث إن بنسعيد ضمن مشروعه فصلا يدعو إلى إقرار تلاوة دعاء معين بعموم المساجد والكتاتيب، فقد أثار بذلك انتقادا لاذعا من وزير الخارجية الذي قال عن المشروع : (إن فيه شيئا من التبوريك) أي التبرك ! ورد بنسعيد على ذلك بغضب : أين أسطولك يا سعادة الوزير بين الأساطيل ؟ وأين عساكرك وقوتك الحربية بين الدول الطامعة في أخذ بلادنا إن لم نستمدها من الله بطريق الالتجاء إليه والتوسل له بصبياننا وشيوخنا ؟

82ـ P. Soumille, Une thèse récente sur les Européens de Tunisie, in Revue d'hisoitre maghrébine, 3, 1975, Tunis

83ـ نسخة بالراقنة سلمها إلى المؤلف الفقيه السيد العربي بنسعيد نجل الفقيه عبد الله بنسعيد

وتضمن المشروع تسعة عشر فصلا أولها عبارة عن مدخل يدعو إلى إنشاء قوة اقتصادية وإلى نشر العدل والتعليم والتشبث بالرابطة الاسلامية واختيار ذوي الروح الوطنية والدينية لتحمل المسؤوليات المنتظر إحداثها.

ونص الفصل الثاني على تنظيم الايرادات المحلية في نطاق العمالات. أما الفصلان الثالث والرابع فيتناولان إنشاء بلدية وتمتيع أعضائها برواتب محترمة.

ونصت الفصول 5إلى 10 على مسح الأراضي والعقارات بالأقاليم ومساواة البوادي والحواضر في أداء الزكوات الشرعية على الغلال والمواشي وإحداث ضريبة على الملاك بحسب مبلغ كراء الرباع والدور والفنادق والحوانيت وتنظيم حسابات هذه الايرادات على الصعيد الاقليمي والمركزي.

والفصول 11 و12 و13 تضبط مقدار الوسق إلى الخارج وما يحفظ من المواد الأساسية للاستهلاك الداخلي.

والفصل 14 ينص على قراءة دعاء معين بالمساجد والكتاتيب.أما الفصلان 15 و16 فينصان على التنظيم الحربي والعسكري.

وخصص الفصلان 17 و18 للتنظيم القضائي في درجتيه المحلية والمركزية ويهتم الفصل 19 بالاصلاح الزراعي ونسبة مساعدة الدولة للفلاحين وطريقة استرداد السلفات.

2ـ مشروع دستور 1324/1906 (84)

سماه الأستاذ علال الفاسي مذكرة، ولكن يمكن اعتباره أيضا مشروع دستور لأنه بالاضافة إلى عدد من الأفكار المبدئية التي أدلى بها نص على أمور هي عادة من صميم الدستور، كإنشاء مجلس للأمة ومجلس وهيئات أخرى ذات مسؤولية وطنية ويخلط أحيانا بين المبادىء والضوابط والأوضاع كما هي، وهذا ما جعل الأستاذ المرحوم علال الفاسي يسميه مذكرة.

84 ـ علال الفاسي، حفريات عن الحركة الدستورية، مطبعة الرسالة، الرباط

ونص المشروع لا يعرف محرره على وجه التحقيق حتى الآن، وإن كان الأستاذ علال يرجح أنه مغربي. إلا أن مراجعة جديدة للنص تكشف عن النفس الشرقي وبالأخص العثماني في محتواه :

ا- من حيث المصطلحات، نجد على سبيل المثال : مجلس الملة وأمير الاي وكاتب الاي وهي مصطلحات تركية.

ب - من حيث المبادىء والأفكار يستمدها من الدستور العثماني ومسطرة القضاء العثماني ويتحدث عن إنشاء مجلس الاسلام ورئيسه شيخ العلماء لادارة شؤون الأوقاف التي شغلت شطرا مهما من المشروع على غرار الاهتمام الذي كان يوليه العثمانيون لهذا المجال، كما أن مصطلح شيخ العلماء كان رائجا لدى العثمانيين. وعلى العموم فهويمثل بين الفترة والأخرى بما يجري لدى (الدولة العالية) وذكر في باب تنظيم الجيش أنه شاهد البرنس (الأمير) عبد القادر بن السلطان عبد الحميد وهو ضابط بدرجة قائد مائة وليس بينه وبين الضباط من أقرانه تمييز.

ج - إن أسلوب النص كتب بعربية هي أقرب إلى ترجمة ركيكة صاحبها يفكر بأساليب لغة أخرى، وفي جميع الأحوال فعشرات التراكيب في النص لا تستعمل من لدن المغاربة في الحقبة التي كتب فيها. ومن ذلك : محتوى المادة 11 بكاملها وعبارة : تصير همة المامورين في إبراز ما ينفع الدولة وعموم الرعية ولو يصرفوا على هذه البغية جميع ما يملكونه. وعبارة : وأما القياد اللازمة إلى هذا العسكر فيصير ترتيب معاش كاف لهم. وعبارة : يتداول مع مجلس الملة بما يلزم إجراءه بفضلة واردات الأحباس في كل شيىء يلزم للملة. وعبارة : يلزم الناظر في كل سنة أن يرفع دفترا إلى هيئة الفعل الخيري (علما بأن المغاربة كانوا يستعلمون لفظ كناش بكثرة، بدل دفتر) الخ..

أما طريقة ترتيب المشروع فكما يلي :

1- مدخل

بـ نص دستور يتضمن اثنتي عشرة مادة

ج - اقتراحات عن تنظيم الجيش وسمى هذا الجانب بالمشروع الثاني لأن الأول هو مشروع الدستور.

د ـ اقتراحات بشأن تنظيم الأوقاف والمعاهد وتمويل الاصلاحات المنتظرة من الأوقاف. وسمى هذا الباب بالمشروع الثالث.

ونوه المدخل بقيمة التعاون والتناصر والاتحاد وأعطى مثل اليابان في كل ذلك. ثم حث على إقامة نظام عسكري قوي وإنشاء مؤسسات تعليمية وبث روح المنافسة لدى المواطنين. وعاد مرة أخرى إلى مثال اليابان وما كانت عليه من جمود ثم تحولت إلى دولة صناعية عظيمة في حقبة محدودة. ونوه بإيران التي أنشأت مجلسا نيابيا ومدونة شرعية وقوانين تضبط أعمال الدولة والأمة. ورأى صاحب المشروع أن لا مناص من تنفيذ المغرب للمعاهدات التي التزم بها حتى ميثاق الجزيرة، لكن بشرط أن تتكفل الدولة المغربية نفسها بالتنفيذ ولا تستدين من الأجانب.

وختم المدخل بتحديد وسائل الاصلاح كما يراها، وهي : تكوين مجلس للامة وتكوين جيش ضخم، وإعداد الوسائل المالية.

ومجلس الأمة يتركب من شقين، مجلس الشورى أو الملة وينتخب لخمس سنوات. ومن شروط أعضائه أن لا يكونوا أميين وأن يلموا بمتن خليل دراسة وفهما، وهذا الشرط بالذات مع كونه صارما فهو يربط انتخاب العضو بمعرفته للمذهب المالكي بشكل كاف ويركز هذه المعرفة في نص موحد، وذلك لان المغرب يدين بالمذهب المذكور ولمتن خليل دور كبير من الوجهة التاريخية.

أما الشق الثاني فهو مجلس الأعيان الذي يرأسه السلطان ويعينه هو نفسه من الأمراء وكبار رجال الدولة، وله أن يراجع قرارات مجلس الشورى وينقحها، ومجلس الأمة في جميع الأحوال له صلاحيات كاملة في تقرير المعاهدات والميزانية ومراقبة العمال والأمناء والاجراءات التشريعية.

ونصت المادة الخامسة إلى المادة العاشرة على تنظيم القضاء وقوانينه. أما المادة 11 فتحدد طريقة الحصول على التمويل الضروري للاصلاحات ويرجع فيه إلى مساعدة الأمة واكتتاباتها عند الاقتضاء.

أما المادة 12 فتلغي المكوس والهدايا والسخرة وإلزام القبائل بضيافة الجيش.

ونص مشروع تنظيم الجيش على ضرورة الاستغناء عن الأجانب في تدريب الجيش وإحداث نظام للتجنيد الاجباري ونظام لترقية الضباط وتحديد رواتبهم.

أما المشروع الثالث فينشأ بموجبه مجلس الاسلام أو الاحباس وهو مجلس مركزي يتكون من خمسة علماء أحدهم رئيس هو شيخ العلماء والثاني نقيب الأشراف والثالث ناظر عام للأوقاف والرابع شيخ الفقراء ويهتم بالضعفاء والزوايا والشؤون الصحية،والخامس أمين. ويتولى هذا المجلس ضبط الأحباس على الصعيد الوطني وتقديم حساباتها إلى مجلس الأمة، كما يشرف على المعاهد وشؤون التعليم.

وينشىء المشروع الثالث نظاما للعمل الاجباري على القادرين من الفقراء وتتولى الأوقاف وأموال الصدقات مصروف العاجزين من الفقراء والذين لا يجدون شغلا.

3ـ وثيقة البيعة الحفيظية بفاس

هذه الوثيقة التي نشرها المرحوم عبد الرحمن بن زيدان في كتابه: إتحاف أعلام الناس (85) هي نص أعده جماعة من علماء فاس بإشراف أحمد بن المواز وبإضافة شروط كانت حسب محمد الباقر، من إملاء الشيخ محمد الكتاني (86) ومضمنها:

أ ـ إقرار العدل
ب ـ تحسين وضعية التعلم
ج ـ إلغاء الشروط الضارة بمصلحة الأمة، والتي تضمنها ميثاق الجزيرة
د ـ العمل على استرجاع ما اغتصب أو احتل من التراب الوطني
ه ـ الكف عن استشارة الأجانب فيما يخص مصالح الأمة
و ـ الاستشارة مع ممثلي الأمة في إبرام المعاهدات والاتفاقيات
ز ـ رفع المكوس

85ـ ابن زيدان إتحاف، 1، 449
86ـ محمد الباقر، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 200

ح - الاهتمام بتصحيح الاوضاع الدينية وإعادة الأحباس إلى حرمتها

ط - كف العمال عن التدخل في الخطط الشرعية (القضاء، الفتوى، الخ)

ي - إقرار الامتيازات الضرائبية والمعنوية التي كان يتمتع بها الأشراف والعلماء وأرباب الزوايا.

4- مشروع دستور 1908

لا يعرف على التحقيق من هم محررو هذا المشروع أو الذين كانوا وراء إعداده، وإن كان المرحوم علال الفاسي قد ذكر أن الذين ساهموا في تقديمه إلى مولاي عبد الحفيظ كانوا ثلة قليلة (87). ويعود الفضل في نشر المشروع إلى جريدة لسان المغرب التي كان يصدرها بطنجة الأخوان اللبنانيان نمور، ونشر تباعا، ابتداء من العدد 56 في أكتوبر 1910، وأكبر الظن أن تحرير المشروع وصيغته أو جزءا منها كان من عمل عناصر شرقية، والأرجح أن تكون لبنانية، فالروح الدينية تقتصر على المبادىء العامة في المدخل، ثم تختفي في تفاصيل البنود على عكس مختلف المشاريع الأخرى، وهو يفتح الباب في بعض بنوده للأجانب بقطع النظر عن جنسياتهم وأديانهم، ثم إنه بالرغم من وجود نخبة مثقفة وذات وعي عميق بمظاهر التطور الفكري والحضاري فلم يكن بينها من يحرر بأسلوب كأسلوب المشروع الذي نلمس فيه روح الدساتير الأوروبية وملامح الأسلوب الصحافي مع الاطلاع على القوانين ومعرفة مواطن الضعف في أوضاع المخزن.

ويتركب المشروع من ثلاث وتسعين مادة، إحدى عشرة منها تتناول الدولة ودينها الرسمي ثم اختصاصات السلطان ومقامه. وجاء في المادة الأولى : (يطلق على جميع الأقطار المراكشية اسم الدولة المغربية الشريفة). والحقيقة أن اليد اللبنانية تبدأ من هذه المادة بالذات، فقد كان الشرق العربي حتى مطلع استقلال المغرب بعد فترة الحماية يدعو القطر

87- علال الفاسي، حفريات، ص 23

88- نشر كاملا في كتاب (دفاع عن الديموقراطية للأستاذ عبد الكريم غلاب)

المغـربي بمراكش. واشتغل اللبنانيون بالصحافة والسياسة بالمشرق طولا وعرضاً. وأثرهم في هذا المجال سبقت الاشارة إليه.

ومن المادة 12 إلى 34 يتناول المشروع حقوق المواطن وإبراز جانب المساواة والعدل فيها.

ومن المـادة الخـامسـة والثـلاثـين إلى السـادسـة والخمسين يتناول المشروع منتدى الشورى الذي ينقسم إلى هيئتين : مجلس الأمة ومجلس الشرفاء. وهو يعطي صلاحيات واسعة للمجلسين ويلزم أعضاءهما بالعمل خلال أحد عشر شهرا من السنة. وجلساتهما غير علنية بل مغلقة. و أخـرج المشـروع الأميـين من حق عضـويـة مجلس الأمـة، وكذلك منع المحميـين منهـا. والمـادة الخمسون تعد تقدما كبيرا بالنسبة للعصر، حيث منعت الجمـع بين الـوظيف المخـوني وعضـويـة مجلس الأمـة. أما مجلس الشـرفـاء فهـوينتخب، أوعلى الأصـح يعـين من أمـراء الأسـرة المـالكة والشـرفـاء والعلماء وكبـار الضباط ولأعيان. وعضويته دائمة، ودوره شبيه بدور مجلس الشيوخ في فرنسا مثلا.

وخصصت المـــادة 57 إلى 66 لكبـار المسؤولـين في المخـزن حيث نصت إحدى المواد على إنشاء وزارات جديدة تخلف القديمة. وأعطيت الحكـومـة صلاحيـة تغيـين عمال الأقـاليم والقبـائل على أن يبقى لمنتدى الشـــورى حق الاعــتراض على تعيـــين من لم يره صالحـــا. ونص على ضمانـات مشـرفـة لسائر الموظفين بما في ذلك حق التقاعد وعدم العزل إلا لضرورة وتعيين المعزول في وظيف مماثل أو أعلى أو تقعيده.

وعـالجت المـواد السابعة و الستون إلى 74 مراقبة مالية الدولة على يد منتدى الشورى وتحديد اللائحة المدنية ورواتب الوزراء وكبار المسؤولين

وحيث إن الحـمايـة القنصلية كانت الشغل الشاغل للأمة والمخزن فقـد حظيت باهتـمام المشـروع الذي خصها بثمان مواد من 75 إلى 82، وقـد ضيق نطـاقها جدا وأخضعها في نفس الوقت لمعاهدة مدريد ولتدخل المخزن وقراره باستثناء المحميين قبل الدستور.

واهتم المشروع بقضايا التعليم في المواد 83 إلى 90 وجعل التعليم الابتـدائي اجبـاريـا ونص على إنشـاء تعليم ابتدائي وثانوي وعال وقصر

العـالي على القـرويـين مع تحديثهـا وتجهيـزها عصريا، ونص على إنشاء مؤسسات تعليمية للبنات، كما نص على مجانية التعليم عموما وتمويله من خزينـة الـدولـة والأوقاف وأموال الأمة خصوصا الأغنياء. وفسح المشروع المجـال للأجـانب مطلقا في إنشاء المدارس، وجعل هذه المدارس الخاصة سواء أكانت من إنشاء أهل البلاد أو من الأجانب خارجة عن مراقبة وزارة المعارف.

وأضيف إلى المشـروع ملحق من ثلاث مواد حيث نصت أولاهـا على سيـادة منتـدى الشـورى من حيث الـرأي والعمل بقراراته، والثانية على التزام منتدى الشورى في سنته الأولى بإحداث قوانين لكل الوزارات والادارات. ونصت المـادة الأخـيرة على أن لمنتدى الشورى وحده، الحق في إبطـال مادة من الـدستـور أو تنقيحها، على أن يصادق السلطان على قراره بهذا الشأن.

كانت كل مشـاريـع الاصلاح تمليها الأوضاع الداخلية وبالأخص المـاليـة والاقتصـاديـة، كما تمليهـا الضغوط الخارجية على المخزن، وهي ضغـوط تصطـدم بصـلابـة المخزن والأمة، دون أن يتحرك المخزن لعمل حاسم يدرأ هذه الضغوط.

إن مشـروع بنسعيـد يتسم باهتمامه المطلق بالنطاق الاقليمي، أي بإصـلاح إداري وسيـاسي يتجه إلى الأقاليم دون أن يترك الجانب الوطني وبالرغم من بساطة أفكاره فيما يخص إصلاح الجيش والتعليم فهو من جهة أخـرى يقـدم مقـترحـات جيـدة في تحسين الوضع المالي والاقتصادي بينما تطالب وثيقة البيعة الحفيظية بإقرار امتيازات الأشراف والعلماء والزوايا في الميدان الضرائبي، ولذلك تنقص هذه الوثيقة، الروح الثورية التي تحطم مظاهر الطبقية، بل تنقصها روح العدل التي نص عليها الاسلام نفسه.

وكل المشاريع تتفق على ضرورة إصلاح مالي شامل. وبدون شك فإن مشـروع دستـور 1908 يمثـل تطورا كبيرا في هذا المجال بينما يلتفت دستـور 1906 إلى الأوقـاف بالدرجة الأولى كمورد رئيسي. وتميز دستور 1908 بأنه وضع قضية الحماية القنصلية في قلب اهتماماته. وتهيمن الروح الدينية على مجموع المشاريع مع محدوديتها في دستور 1908.

كذلـك تميـز دستور 1908 بأنه أنشأ لاول مرة نظام رواتب وتقاعد بالنسبـة للمـوظفـين، واهتم الجميـع بمقـام العلماء والشـرفاء والأعيان، ووضـع دستـور 1906 و 1908 هؤلاء في موضع ممثلي الأمة المنتخبين أي أن مجلس الشـرفـاء أو الأعيـان يدقق وينظر في نفس القوانين التي يناقشها المنتخبـون. وازدواجيـة المجلس كانت عرفـا سائدا لدى الغرب، ومجلس الأعيـان أو الشـرفاء له نظير في بريطانيا، وما من شك في أن الذين وضعوا المشروعين راعوا الظروف السائدة في المجتمع حيث يحظى أرباب الزوايا وزعـماء القبـائل والعلماء بحرمة قد تصل إلى حد الوصاية على الجماعات التي ترتبط بهم.

إن كل المشـاريـع تمنح ممثلي الأمة المؤهلين وليس الأطراف المخزنية حق التعبير عن مطالبها والدفاع عن هذه المطالب. والأمة هنا ليست تلك الكتـل التي تتعـارض مصـالحها أحيانا. إنها التي يضمها بجميع حيثياتها تراب واحد. وهذا التراب في كل المشاريع لا يخضع لحدود مرسومة مسبقا بل لعرف متداول : البيعة وظهائر التوقير خاصة بالنسبة لسكان التخوم. وفي جميع الأحوال فالأمة مسلمة أو خاضعة لحكم موحد ضمنيا أو تصريحا لكن سيادة السلطان تتقلص في مختلف المشاريع حتى تصبح محدودة جدا في دستور 1908، بل إن المادة الثامنة تجعل (حضرة السلطان غير مسؤول بأمـر من أمـور الـدولـة لا داخليـا ولا خارجيـا) وبالمقابل تعطيه المادة 11 صلاحيـات منهـا إبـرام المعـاهـدات مع الـدول، وهذا الجانب يدخل في الـدسـاتـير العصـريـة ضمن صلاحيـات الـبرلمـان. وهذه المادة تقول إن السلطـان هو الـذي يمثـل الأمة والدولة معا أمام الدول الأجنبية، ومعنى هذا أنه يرسم السياسة الخارجية للبلاد، وهذا تناقض واضح مع المادة 8. ونلاحظ أن مشروع 1906 نص على أن لمجلس الأمة صلاحيات مطلقة في إبرام المعاهدات.

نص مشروع بنسعيد

الفصل الأول

إنـه يمكن تلافي حالـة الايـالـة الشـريفـة بدوام العدل والاستقامة وعقد السلم مع جيمع الاجانب لأمد كاف والاخذ بالاستعداد من جديد على منوال ياتي بيانه :

إن المعارف لدينا أسرع رجوعا وأجدر عرفانا بجميع أنواعها في أقرب زمان وأسرع مدة، لانها منا أخذت، وإلينا تعود أشوق ما يكون، لكن مع اطمئنان في السياسة وعدل الرعية وإشعارها بمستقبلها مع الأجانب وتوفير الجبايات لافتقار الاستعداد الجديد إلى مدخول له بال، به صلاح تلك الحال، بعون الله.

إن الاسباب المعينة بفضل الله كثيرة منها حسن التربية وضعف العوائد وجودة الدولة حفظها الله.

وإن رابطة الاسلام أعلى الله مناره من أقوى الروابط وأعلى الاسباب وأمتن الحصون على منع سواها سن النفوذ في سياستها وحجرها للغير عن سومها بسوء، وكلما زادت قوة علت سطوتها، وارتقى نفوذها وما بالعهد من قدم، انظر دولة مولاي محمد بن عبد الله قدس الله روحه :

1) في اختيار أناس ذوي مروءة ودين متين وأمانة نفوس وسلامة صدور، وشجاعة قلوب قصاراهم رفع الدين وأهله، غافلين عن نفع أنفسهم وعن جاههم بقصد القيام بالوظائف التي يحدث تجديدها أو تجعلهم إعانة لذوي الأعمال المكلفين حينه مع إعطائهم الكفاية وتوعدهم على الجناية بالعقوبة وأن طرأ عارض بدلوا.

2- وإحداث مدارس لتعليم مهمات جديدة يتوقف نفوذ النجاح عليها وعلى معرفتها وذلك من الاستعدادات المأمور بها.

الفصل الثاني

عامل كل ايالة يدفع له كناش لضبط كيفية تصرفه مشتملا على ما ياتي في أموره التي من جملتها ما دفعه كل واحد من الرعية معلما عليها بخطة أو طابعه في ورقة من كناش مقتطع.

الفصل الثالث

يكون بكل بلدة مجلس مؤلف من أهل العلم والمروءة والجد والديانة والمعرفة بقصد النظر في مصالح البلد كالاوقاف والاسعار وغيرها، ويرجع إليه كذلك فيما عسى يصدر من العامل لرعيته سواء عامل البلدة أو غيرها من العمال المجاورين لها، وإذا أثبت عنده جور العامل على الرعية بعد البحث التام، يكتب له فيه فإن أنصف فذاك وإلا فيطلع به شريف علم مولانا المنصور.

الفصل الرابع

انتخاب أماثل الناس وأفاضلهم المجربين للامور الذين تطمئن بهم النفس للقيام بهذا الوظيف ويعين لهم من الأجور ما يكفيهم الكفاية التامة ويقوم برفاهيتهم على ما ينبغي لينقطع تشوفهم لمد اليد مطلقا وكذلك ترتب لجميع خدام الحضرة وكرائها الراتب المعتبر الكافي.

الفصل الخامس

تحد إيالة كل عامل ويحصى جميع ما اشتملت عليها من الأراضي والأجنان وما في معناها بفلاحين وتاجرين وعدلين من الحاضرة وأربعة من مهرة تلك الايالة بمحضر عاملها أو نائبه ويتخذ لذلك كناشا يشتمل على جميع تلك الاراضي بحدودها وكيلها ليكون العطاء على نسبة مقاديرها في الاراضي البيضاء وعلى نسبة ما تساويه الغلة في ذات الاشجار.

الفصل السادس

عند تمام الكناش على الوجه المطلوب يدفع لعامل الايالة بعدما يوجه نظيره الشريف الا عتاب معلما بعلامة عدلين والعامل.

الفصل السابع

ما تنتجه تلك الاراضي من الغلال ذات الزكاة الشرعية يحاز من أربابها على الوجه الشرعي ويصرف في مصرفه الشرعي وكذلك الماشية ذات الحوافر فيكون مقدرا بقدر سنوي لكل رأس من البوادي والحواضر على السواء.

الفصل الثامن

الرباع والدور والفنادق والحوانيت، وما في معناها يعين لها تاجران وعارفان وعدلان مع العامل أو نائبه لتقويم كرائها ويكون العطاء على نسبة كرائها لا على ثمن رقابتها، خفيفا، لان أهل الحاضرة ليسوا كغيرهم من البادية في الضرورية والصوائر.

الفصل التاسع

يكون العطاء عاما على جميع الايالة شريفها ومشروفها والاعيان وغيرهم.

الفصل العاشر

يتخذ بالاعتاب الشريفة كناش بتفصيل الايالة السعيدة وتقسم أقسامها وبيان أرض كل عامل ومساحتها وما اشتملت عليه من القطع ليكون أصلا وحجة يرجع إليه.

الفصل الحادي عشر

إذا حصل الا من للرعية تقع لا محالة في الاخذ والعطاء فتنمو سائر أنواع التجارة وأسبابها وتسري سريان الماء في العود،

ويسوغ إذ ذاك للمخزن أعزه الله تسريح بعض الامور الممنوعة الوسق لاجل معلوم عند الاستغناء وعند ذلك يتضاعف مدخول المراسي السعيدة وغيرها ويعمر بيت المال السعيد عمره الله ووفره بوجود مولانا أعزه الله ونصره.

الفصل الثاني عشر

إذا فتح الله تعالى وظهرت النتيجة وأراد المخزن أعزه الله وسق عدد من الامور الممنوعة الوسق مثل إناث البقر والغنم وذكرانها والقمح والشعير والخيل والبغال فتسرح لوقت معلوم ويعين القدر المسرح من كل مرسى ويكون نصف العدد المسرح لاهل الايالة والنصف الآخر للاجانب ويسقط لهم على التساوي ويكون ذلك لاجل محدود.

الفصل الثالث عشر

إذا أراد سيدنا نصره الله بيع شيء مما ذكر في الفصل قبله سقط هذا العدد من القدر المسرح ويباع النصف للرعية والنصف للاجانب كذلك.

الفصل الرابع عشر

ترتب قراءة الدعاء الناصرية يا من إلى رحمته المفر ومن إليه يلجأ المضطر في جميع مساجد الايالة بادية وحاضرة بعد قراءة الحزب ويكون يعطى لمعلمي الصبيان على قراءتها كل يوم مرة بجميع المكاتب قدر يسير من الاحباس أو بيت المال لكل معلم لان الأطفال قليلو الذنوب وينظر الله تعالى إلى عباده العصاة بسببهم فلا شك أنه يستجاب دعاؤهم ويكفي الله الامة شر الأشرار بسببهم وكذلك يترتب في كل مدينة من المدن في أربعة محلات منها الحزب الكبير واللطيف والوسط والشفاء ويرتب خراج شهري.

الفصل الخامس عشر

ترتيب العسكر السعيد وجعل المؤونة الكافية له وجعل حرابة من مهرة المسلمين وأن ياذن سيدنا أيده الله لجميع من بايالته بتعلم العلوم العسكرية ويامر بتدريب الاولاد على الرعاية وركوب الخيل ويامر الموسرين بشراء الخيل لاولادهم عوض البغال وكل من في الخدمة المخزنية يكون يركب الخيل دون البغال إلا لضرورة ويكون من جملة تعليم الاولاد تعليم الرماية والحرب مرة في الجمعة بادية وحاضرة أغنياء وفقراء ويومر كل موسر بشراء فرس يكون عنده سواء ركبه أو لا.

الفصل السادس عشر

ان يتخذ المخزن عددا وافرا من السلاح الجديد من أول درجة وما يكفيه من القرطوش يكون مدخرا بخزائنه السعيدة والاولى هو السعي في الاقتدار على صنعه بالايالة السعيدة حذر التعذر.

الفصل السابع عشر

أن يكـون مع كل قاض من القضـاة في كل محل أربعـة من أعيـان الفقهاء وكاتبان بقصد كتابة جميع الدعاوي التي تروج باللفظ في كناش ولا يبرم أمرا ولا يمضيه إلا بمشاورة الفقهاء المذكورين وجميع ما كتب في اليوم يضع عليه . علامتـه والعلماء معـه خطـوط يدهم ويكـون يجلس للفصـل هومن معـه أربـع سـاعـات في اليوم ، وتكون معينة تلك السوائع للخاص والعام ، وفي كل شهر يوجه نسخة مما دار في مجلسه لشريف الا عتاب إذ بذلك تنضبط الاحكام ويقل الجور بل يضمحل بحول الله .

الفصل الثامن عشر

يكون بالاعتاب الشريفة قاض عالم كبير محتك ومعه عدد من أعيان العلماء بقصد مراجعة القضايا التي ترفع للحضرة الشريفة ومراجعة الكنانيش التي ترد من الأفاق ويكتبون [illegible] ينبغي يحمل خدمتهم في الحضرة الشريفة ويعلمونه .

الفصل التاسع عشر

إن يصدر الامر الشريف لجميع الايالة بأن لا يتركوا أرضا تصلح للحراثة خالية من الحرث فمن كانت له أرض يحرثهـا من مالـه إن كان له مال ، ومن لم يكن له مال فإن سيـدنـا أيـده الله يعطيـه من زرعه يزرع به بلده ومن العذائر السعيدة الثيران التي تكفيه للحرث بثمن مزيد فيه نحو 25 ٪ خمسة وعشرون في المائة أو 30 ثلاثين في المائة ، ويمهله إلى السنة القابلة إن كانت الصابة وإلا فإلى السنة التي بعدها ويضع رسم البلد رهنا أو يعطي ضامنا . وهذا ما فتح الله تعالى به مع فرط استعجال وعسى أن يمن سبحانه بغيره ويكون بمهمة مولانا محمود العواقب في الحال والمال .

ونرجو الله ببركة مولانا وبركة جده عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أن يحصل نجاح الدولة العالية وفلاحها وعناية الله تحرس الصروح وتغدو باعلام النصر والنجاح وتروح . وكتبه خادم الاعتاب الشريفة :

محمد عبد الله بنسعيد كان الله له .

نص مشروع دستور 1324 / 1906

وسائل الاصلاح في المغرب

مقدمة : اننا نحتاج لحفظ استقلالنا واستغنائنا عن الاجانب السعي وراء ثلاثة أمور :

الأول : تشكيل مجلس الامة الذي يحل جميع المسائل بما يرضي الله تعالى والرعية ويقنع الاجانب لان الاجانب عندهم مجلس للامة مقدس ومعمول به في داخلية البلاد إذا كان مؤسسا على أصوات مضبوطة مقبولة كما هو

عليه العمل في بلادهم غير أن أصول مواد قوانينهم موافقة العقول عليها مع ما يوافق أحوال البلاد بحسب التجربة وأما أصول مواد قوانيننا نكون على وفق ما اتت به الشريعة المطهرة كما هو جار عليه العمل في مجلس أمة دولة الايران فإذا وفق الله سيدنا نصره الله تعالى إلى إجراء هذا العمل المبرور يحرر المخزن الشريف إلى معتمدى الدولة في طنجة ما معناه لما كانت جل أهل المغرب لا يفقهون المصلحة المرتبة على تنظيم البوليس وغيره من الاصلاحات ومقصودنا نشر العدالة في أفراد الرعية أمرنا بتشكيل مجلس الامة وطلبنا النواب من كل قبيلة وبلد لاجل اقناعهم وتحوير قانون للحكومة بما يوافق طبيعة البلاد بمعرفتهم فنطلب منكم أن ترسلوا لنا قانون البوليس والبنك لاجل فحصه بمجلس الملة وتحوير بعض مواده التي لا توافق طبيعة البلاد إلى ما يوافق لينتشر التمدن في بلادنا حسب رغبتكم وبذلك تحسن المواصلات ويزول التعدى من الجهال.

الثاني : الشروع في تشكيل عسكر جرار على وجه منتظم من دون تكاليف المخزن بمصروف أفراده مدة الاقامة حتى نتمكن من توقف مداخلة الاجانب في بلادنا.

الثالث : يلزم لنا وجود مال داخلي يتيسر به إجراء ما تطلبه أوربا من الاصلاح مثل الدبيش وغيره لانه لا يتم عز الملوك إلا بالشريعة ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا مال إلا بالعمارة ولا عمارة إلاة بالعدل ولا عدل إلا باصلاح العمال ولا تصلح العمال إلا باستقامة الوزراء ورأس الكل تفقد الملك أحوال رعيته بنفسه.

نظام مجالس الامة

بيان كيفية تشكيل مجلس الامة وأصول أعماله والفوائد التي تنتج عنه

مجلس الامة هو مجلس الشورى الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : «وشاورهم في الامر» وقد مدح الله سلفنا الصالح بقوله «وأمرهم شورى بينهم».

وأما أصول أعماله تقريبا اثنا عشر مادة ويصير الزيادة والنقص في هذه المواد حسبما يقتضيه الوقت وما تتفق عليه آراء الاعضاء ويستحسنه سيدنا نصره الله تعالى.

أصل المادة الاولى : يطلب من كل قبيلة وبلد أن ينتخبوا عنهم واحدا ليكون نائبا عنهم في كل ما يقرره ويرضاه مجلس الامة خمس سنوات ثم ينتخب غيره بشرط أن يكون متصفا بخمسة أمور :

الاول : أن يكون سنه ما بين الثلاثين والستين.

الثاني : أن يكون يحسن الكتابة والأعمال الأربعة في الحساب وهم الجمع والطرح والضرب والتقسيم.

الثالث : أن يكون قد قرأ متن خليل ويفهم معناه.

الرابع : أن يكون عنده واردات من أملاكه تكفيه مصروف سنته.

الخامس : أن لا يكون قد حكم عليه في دعوة.

ومنه ينتخب رئيسا عليهم.

المجلس الاعلى (الاعيان)

المادة 2 : ثم يشكل مجلس أعلى منه برياسة أمير المؤمنين أعزه الله عشرون عضوا منهم خمسة من أبناء الاسرة المالكة الراشدين وخمسة ممن امتاز بأمر خطير بخدمتهم للدولة والباقي ينتخب من مجلس الملة.

المادة 3 : جميع المسائل تعرض على مجلس الامة وبعد قراءتها جهرا يسأل من أقلهم إلى أكبرهم رتبة عن رأيه في تلك المسألة فإن اختلفوا يعمل برأي الأكثر ويكون استناد الاعضاء عند اختلاف رأيهم على ما يفهموه من الكتاب والسنة ومصلحة البلاد. ويجب على كل فرد أن ينتصر لما يتفق عليه مجلس الامة ولو بغلبة الرأي ولا يجوز لمن كان مخالفا لرأي الاكثر أن ينتصر لرأيه بل يكون منتصرا لما تم عليه رأى الأكثر وبعد تنقيحها في المجلس ترفع لمجلس الاعيان وبعد تنقيحها فيه يصدر أمر سيدنا نصره الله تعالى بالعمل بها.

المادة 4 : مجلس الامة يقرر الاحكام على قول واحد مع حفظ معاهدات الاجانب وتقدير خدمة الوزراء والعمال مع ترتيب مؤونتهم وتقرير الاموال التي تطلب من الرعية وكيفية تحصيلها حسب الشريعة الاسلامية ولا يجوز العفو عن أحد من الرعية عن ذلك لانه حق من حقوق الله تعالى تدفع إلى العامل ليصرف في مصارفه وتقرير المصاريف اللازمة للحكومة وتنظيم قانون تعليم الرعية الحركات العسكرية ومراقبة أعمال العمال ومحاكمة العمال فيما بينهم ومحاسبة الامناء وتقرير كل عمل يلزم عمله في الحكومة.

تدوين القانون الاسلامي

المادة 5 : وأول عمل يبدأ به انتخاب أربعة من أفاضل العلماء الذين سبق لهم خدمة في القضاء وكانوا متصفين بالاستقامة مع أربعة آخرين يكونون بالغاية القصوى من العلم بشرط أن يكونوا عالمين بأحوال الوقت ويكلفون بتأليف كتاب مقتصر فيه على قول واحد من مذهب الامام مالك رضي الله عنه بعبارة سهلة يفهمها العالم والجاهل كما فعلت الدولة العثمانية كتاب مجلة الاحكام العدلية وبعد اتمامه يعرض لمجلس الملة ثم على المجلس الاعلى وبعد الاتفاق على مواده ولو بغلبة الرأي يصدر أمر سيدنا نصره الله تعالى بالعمل فيه لدى جميع القضاة.

المادة 6 : تحفظ معاهدات الاجانب في مجلس الامة وعلى موجبها وتحويرها يعمل ذيلا لكتاب الاحكام ثم يأمر سيدنا نصره الله تعالى بالعمل به.

المادة 7 : لا يجوز للقضاة أن يحكموا بخلاف كتاب الاحكام وذيله الذي صدره لهم مجلس الامة وإذا طرأت مسألة عليهم لم تكن موجودة في ذلك الكتاب يستفهموا عنها من مجلس الملة وتلحق في كتاب الاحكام.

مراقبة القضاء

المادة 8 : للمحكوم عليه أن يستأنف دعواه في مجلس الامة ويكون استئنافه عبارة عن الشكاية على القاضي بكونه تعدى في حكمه فحينئذ ينظر في أصل الدعوى التي حكم فيها ومطابقة حكمه على كتاب الاحكام فإن ظهر أن

القاضي كان متعديا في حكمة يطرد من وظيفته ولا يوظف بعد ذلك ابدا تعد تقرير ما يلزم عليه من الجزاء حتى يصير مثالا لغيره من الحكام والا فيحبس ذلك المستأنف من سنة إلى خمس سنوات حتى لا يتعدى أحد من الرعية على الحكام وكذلك يجرى في كل قضية ترفع من الرعية على مطلق عامل سواء كان وزيرا أو قائدا أو أمينا أو غير ذلك.

المادة 9 : بعد الاطلاع على قانون بوليس الدولة على الاخص قانون الدولة العلية العثمانية ومصر وتونس ودولة الايران يشكل قانونا له بما يوافق الشرع ومصلحة البلاد ثم تفتح مدرسة يعلم فيها شبان الطلبة هذا القانون والفنون التي تلزم البوليس من الخط والحساب والجغرافية وحقوق الدولة ومعاهداتها وبعد أداء امتحانهم يستخدموا فيه حتى يكونوا على بصيرة في الحكم والسير على الاخص إذا كان الضباط من فرنسا واسبانيا حسب معاهدة الجزيرة والا فيكونوا ءالة في ايديهم يديرونهم كيف شاءوا.

المادة 10 : تستأنف في مجلس الملة دعاوى البوليس كما تقدم في المادة الثامنة.

تمويل المشروعات

المادة 11 : إذا لزم إنشاء أو إحداث فبريكة أو فتح مدارس لتعليم أولاد الامة ولم يكن مالا زائدا من الوارد لاجل القيام به يصير المشورة بذلك في مجلس الملة أما أن يعمل من اعانة تطلب من الرعية أو تشوف الرعية بعمل جمعية خيرية من تراث الرعية يقومون بادارتها بعد تحوير قانونها في مجلس الملة والمجلس الاعلى واصدار أمر سيدنا نصره الله تعالى بذلك مع مراقبة الحكومة على حركاتهم.

الغاء المكس والسخرة والضيافة

المادة 12 : يجب لغو جميع الاموال التي تطلب بل توخذ من الرعية خلاف ما قررته الشريعة الاسلامية كمثل المكوس والهدية والسخرة ولغو الزام القبائل لضيافة ما يمر عليهم من العسكر أو أحد رجال المخزن الا عن طيب نفسهم.

المعشرات في ديوانات المراسي فمطلوب أخذها سياسة وشرعا ولا يظن أن في ترك ذلك يصير نقصا في واردات الحكومة بل حينئذ تتيقن الرعية من نوايا سيدنا نصره الله في إحياء الشريعة المطهرة فتتحد الكلمة على . محبته وتفديه بمالها وروحها وتؤدي حقوق الله الواجبة عليها للمخزن بالتمام.

فوائد الحياة النيابية

وأما الفوائد التي تنتج بتشكيل مجلس الملة :

أولا نشر عدالة جلالة السلطان نصره الله تعالى على جميع الرعية وينتفى الظلم عنهم فيتحصل سيدنا نصره الله على رضاء الله ويكتب في حسناته ما وعدنا النبي صلى الله علين وسلم «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من

عمل بها إلى يوم القيامة» وبذلك يصبر سيدنا أعزه الله أفضل ولي في هذا الوقت فيمده الله تعالى بامداداته الظاهرة والباطنة بقوله تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب» وتتفق الرعية على محبته والتفاني في صدق خدمته ورضائه في كل ما يأمرهم به.

الفائدة الثانية: تصير همة المامورين في ابراز ما ينفع الدولة وعموم الرعية ولو يصرفوا على هذه البغية جميع ما يملكونه لانهم بذلك يكافئون من طرف السلطان نصره الله تعالى بالمقامات العالية ومن الرعية بالحرمة وتنعدم منهم حب جلب المنافع لانفسهم فقط للمراقبة عليهم وحصول الجزاء عليهم من السلطان نصره الله تعالى ومن الرعية بالبغض والكراهية.

الفائدة الثالثة: تكثر واردات الحكومة للقواعد التي يجريها مجلس الملة في ضبطها أولا بانتخاب تولية الكفء المستحق ثانيا لتقرير ما يستسلمه من الرعية ثالثا لا يستسلم شيئا حتى يعطى للمستلم منه وصلا وأما الحالة الحاضرة ثلثي واردات الحكومة ضائع لاننا نرى القائد ولأمين بعد ما يتولى ببرهة جزئية يبنى القصور العظيمة ويملك الاراضي الجسيمة بعدما دفع على تحصيل وظيفته مالا عظيما فبالطبع كان ذلك كله من مال الحكومة اختلسه بسبب ما دفعه للذي كان واسطة في ولايته.

الفائدة الرابعة: لما تنتشر هذه الفضائل عن سيدنا نصره الله تعالى ترجع جميع القبائل الخارجة عن طاعته وتنقاد لاوامره ويقبضون على جميع من خرج عن طاعته لان الملة الاسلامية تخضع غاية الخضوع للشريعة المطهرة.

الفائدة الخامسة: جميع المسلمين المجاورين لمملكة سيدنا نصره الله تعالى يكونون عونا له عند اللزوم لان الطبيعة والعدالة تجذبهم وبذلك تخشى الحكومة المجاورة لمملكته من معاداته وحينئذ نسلم من مداخلتهم.

الفائدة السادسة: تتسع دائرة الصنائع في مملكة سيدنا نصره الله تعالى وتعمر الاراضي فتكثر واردات الحكومة يوما فيوما وغير ذلك من الفوائد التي لا تحصى وبذلك تزداد هيبة سيدنا نصره الله تعالى وتخشى صولته ملوك الارض.

تنظيم الجيش
بيان المشروع الثاني في كيفية تشكيل عسكر جرار على وجه منتظم من دون تكليف المخزن بمصروف أفراده مدة الاقامة

من المعلوم أن الملة الاسلامية لا تنقاد غاية الانقياد إلا للمواد الشرعية فكما أن الجهاد في سبيل الله تعالى والاستعداد له فرض على كل مسلم كذلك الموصل له وهو تعليم حركاته وسكناته فيصير تعليم الرعية عموما على كل من بلغ سنة عشرون عاما إلى أربعين عاما كل يوم ساعيين وعلى ذلك يصدر أمر سيدنا أعزه الله بغلق جميع الحوانيت كل يوم من الساعة الثالثة بعد الظهر ثم تخرج حومة بحدتها للتعليم في كل بلدة وقرية وقبيلة تحت قيادة القياد الخارجين من المدرسة المعدة لذلك حتى نستغنى عن الضباط الانكليزية والافرنساوية لان حالتهم في الصداقة مع المسلمين

كصـداقـة قصـير مع الـزبـاء مع أننـا في أول الامـر نخدمهم في تعليم الحركة العسكرية والفنون الحربية للطلبة الذين نؤهلهم ليكونوا ضباطا فيتيسر لسيدنا نصره الله تعالى مليون من العساكر من دون مصروف مدة التعليم والاقامة وأما وقت لزوم تسفـيرهم للمـدافعـة عن أوطـانهم أوتربيـة أحـد الخارجين عن الطاعة يقوم المخزن بتقديم الطعام لهم مع اعطـاء لكـل واحـد منهم أربعـة ريال مصروفا لعياله في الشهر ويلتزم كل واحد بثمن المكحلة والكسوة العسكرية التي يلبسـها حالة التعليم وكل عشرة يتكلفون بثمن قبة والذي يتعسر عليه دفع ذلك فورا على الاخص أصحاب الحرب يصـير تقسيـط ذلـك عليهم بنظر قائدهم وأما الفقراء فينضمون ضمن العساكر الخيالية والطبجية الذي يتكفل المخزن بتنظيمه وتربيته والقيام بمصارفه وأما القياد اللازمة إلى هذا العسكر فيصير ترتيب معاش كاف لهم وكما أنهم يقومون بتعليم العساكر وترتيبها يقومون أيضا بحفظ المدينة والطرقات ويقومون بأشغال الحكومة كما نوضحه مثلا يمكن على هذا الترتيب المذكور أن يخرج من مدينة فاس اثنين وثلاثين الف عسكري يحتاج لهم خمسة وسبعين قائد فأولا يجمع من شبـان الطلبـة من كل حومـة هذا القـدر ويصير تعليمهم على غاية الانتظام بواسطة الحرابة وبعد تعليمهم تعطى لهم الوظائف حسب اقتدارهم واستحقاقهم ويصير ترقيهم بحسب الدرجة يعنى لا يمكن أن يصير أحد منهم باشا قبل أن يتـولى خليفـة قائـد المـائـة ثم قائـد المائة ثم خليفة قائد الرمى وهكذا حتى تمر عليه جميع الخدمات واني منذ شاهدت الـبرنس عبـد القـادر أفنـدي ابن مولانا السلطان عبد الحميد قائد مائة يمشي مع العساكر من دون تمييز بينه وبين قياد المائة الاخرين وأن قائد الرمى والقائم مقام يمشيان أمامه. وأما ما يلزمهم من المؤونة في كل يوم :

ريال		عدد	مؤونة اليوم الواحد	المحكوم
15	فريق باشا	2	15	32 000
20	لوا باشا	2	10	16 000
28	أمير الاي	4	07	08 000
20	كاتب الاي	4	05	00 000
40	قائم مقام	8	05	04 000
96	قائد الرمى	32	03	01 000
64	خليفة قائد الرمى	32	02	00 000
64	كاتب ألف	32	02	00 000
480	قائد مائة	1/2 320	01	00 100
827		435		

فهـذه ثمانـمائـة وسبعة وعشرين ريالا يومي حصل بهم انتظام اثنين وثلاثين ألف عسكري وإن قيادهم البالغين أربعمائة وخمسة وثلاثون كما انهم يعلمون العساكر المذكورة يعمل لهم قانونا في مجلس الملة بحركات خدمتهم في حفظ البلاد وجباية أموال الحكومة وغير ذلك لانه يلزم لكل حومة ستة منهم يخدم كل واحد في النهار أربع ساعات وفي الليل كذلك الحفظ الحومة والحوانيت التي عليهم مراقبة نظافتها وما يتحصل بها ويقبضوا على كل من يمر عليهم في الليل

من أهل الشبه مع كتابة كل شيء يشاهدوه مخالفا إلى رئيسهم قائد الرمي لانه في كل خمسة حومات يعمل محلا لجلوس قائد الرمي وخليفته وكاتبه لاجل مراقبة الاعمال المذكورة وفصل الدعاوي الصغيرة وأما الدعاوي الكبيرة ترفع إلى عامل المدينة وكذلك يرفع إليه قائد الرمي ما رفع إليه قياد المائة من الحوادث وهو يرفع ذلك إلى سيدنا نصره الله تعالى فحينئذ لا يخفى عليه شيء في مملكته وبهذا تيسر للدولة المغربية عمل بوليس منظم موافق للشريعة المطهرة ولا تأباه الرعية ولا يمكن توجه اعتراض عليه من الاجانب كذا كان سيره على وجه الاستقامة.

لا خوف من الاصلاح

فإن قيل أن الحكومة لا تأمن تسليح الرعية خوفا من اتفاقهم فنقول لا خوف من هذا الوهم ما دامت العدالة سائرة في البلاد حسبما قدره مجلس الملة واحكامه معمول بها على الرئيس والمرؤوس من دون تمييز كما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الكرام فيصير الكل طائعين خاضعين لجلالة السلطان نصره الله تعالى على الاخص عند اعفاء الرعية من كل رسم مخالف للشريعة المطهرة فتضحى بلاد سيدنا نصره الله تعالى خالية من الفتن لان جميعها لا تتحدث إلا بدعوى التعدى على الاحكام الشرعية وعدم الانصاف في الرعية مع أننا لو حسبنا الواردات التي تجمع خالفة للاحكام الشرعية والمصاريف التي تصرف على تعليم العساكر اللازم تعليمها مع تسليحها لوفر الربح للمخزن مع أن جل مصروف الدول هو مصروفا للعساكر مع أن الحكومة حينئذ تجتهد في ترتيب عساكير الطوابجية والخيالية وانتظامها والقيام باطعامهم وعمل قشلة لسكانهم مع تربية دوابهم كما هو جار عند الدول والدولة العالية العثمانية فبهذا الترتيب تحفظ البلاد ويعم الامن ونسلم من اعتراضات الاجانب مع هيبتهم لجلالة سيدنا نصره الله تعالى.

تمويل داخلي من الاوقاف

المشروع الثالث في كيفية مال داخلي يتيسر فيه إجراء ما تطلبه أوربا من الاصلاح في بلاد سيدنا نصره الله تعالى مع موافقة ذلك للاحكام الشرعية ومع الحصول على اغناء الفقراء بالمملكة الشريفة

يشكل مجلس يسمى بمجلس الاسلام أو الاحباس في العاصمة محتو على خمسة من العلماء الاول رئيس المجلس ويسمى بشيخ العلماء والثاني نقيب على الاشراف والثالث نظير على الاحباس والرابع شيخ الفقراء والخامس أمين ولكل واحد من هؤلاء عدلان يقومان بالكتابة فهذا المجلس يؤسس أعمال الاحباس والاجتهاد في عمارتها وضبط وارداتها ومنصرفاتها وفضلتها في المملكة الشريفة وفي كل سنة يرفع هذا المجلس جميع الاحباس إلى مجلس الملة للنظر فيه وهكذا إلى الاعلى ثم إلى سيدنا نصره الله تعالى وإن هذا المجلس يتداول مع مجلس الملة بما يلزم إجراءه بفضلة واردات الاحباس في كل شيء يلزم للملة والدولة مقدما بذلك الاهم فالاهم تحت متابعة خمسين قاعدة موافقة

للشريعة المطهرة فإذا كان مثلا يحتاج إلى عمل للدبيش مع ربط الشروط اللازمة بين هذا المجلس ومجلس الملة في هذا العمل وبعد اتفاقية يلحق هذا العمل لناظر مسجد القرويين مثلا فيقوم المسجد المذكور بهذا العمل من فضلة وارداته ويستدين جميع فضلات المساجد لتتميم هذا العمل وبعد اتمامه تضاف واردات هذا العمل إلى واردات مسجد القرويين ثم يقوم بوفاء ما استدانه من وارداته إلى المساجد ومثل ذلك يلحق عمل تنوير الكهرباء مثلا لمسجد آخر وهكذا يجرى العمل في كل شيء تحتاجه الملة والدولة من سكك حديد وتشييد معامل للصنائع مثل فبريكات وغيرها ولا يستبعد حصول ذلك لانه يوجد في دولة المغرب أكثر من خمسة آلاف ما بين مسجد وزاوية ومدرسة وكل واحد مما ذكر يحصل به فضلة على الاقل خمسون ريالا فيكون المجتمع في السنة فضلة الجميع مائتين وخمسين ألف ريال وبالطبع تزيد أضعافا مضاعفة عند الاجتهاد بتعمير محلة الاحباس وضبط أوقافها وحفظ وارداتها لانه يعمل في كل بلد ولدى قائد أو قائدين مجلس فرع بهذا المجلس الكبير على نمطه يقوم بمراقبة ما لديه من أوقاف المساجد وغيرها وزيادة ثورتها ومحاسبة نظارها مع مراقبة أعمالهم ثم يرفع بتفصيل ما لديه إلى المجلس الكبير كما يأتي شرحه في القواعد وكل مسجد أو فعل خيري يجعل له هيئة مستقلة للنظر إلى أوقاف ذلك المسجد أو الفعل الخيري حسب شرط واقفه من البداءة بتعميره وتعمير أوقافه والسعي وراء تحسينها مع النظر إلى الاوقاف الآئلة إليه من تعميرها وحصر مستحقيها وترفع هذه الهيئة حسابها في كل شهر مفصلا إلى فرع مجلس الاحباس كما يأتي شرحه في القواعد فإذا جرى العمل على هذا الوجه المذكر تتحسن واردات الاحباس فتكثر الفضلة فيزداد ثروة فتكون ذخيرة عند احتياج المدافعة عن الاوطان وهذا مجلس أوقاف مصر متوفر لديه أكثر من عشرين مليون جنيها لما ضبطت وارداته ومنصرفاته وان سيدنا نصره الله تعالى إذا استحسن أن يجرب سنة في ضبط أحباس مدينة فاس على هذا النمط المذكور فيظهر له نتيجة ما حررنا ولدينا بحمده تعالى تدابير شرعية غير هذا في إجراء الاصلاح الذي تطلبه أوروبا من دون احتياج إلى الاستدانة منهم ولا ضرر على الرعية وأما قولنا إغناء الفقراء فيعلم من القاعدة الاثنين والاربعين ولعمري أنها لخطة يلزم الانتباه إليها أولا لشدة أعتناء الله تعالى بهذه المسألة أباح للعامل على الصدقة وعلى الفقراء بالزامهم عدم الطلب عند وجود القوت الضروري أخذ نفقته من مال الصدقة وان كان غنيا وثانيا مجارة للاجانب فإنك لا تجد عندهم فقيرا يطلب في الاسواق حتى اليهود الذين هم ذمة لسيدنا نصره الله تعالى مؤسيسن قواعد للفقراء كما هو مشاهدا فيليق بالمسلمين أن يتركوا هذه المسألة مع وجود واردات كافية للفقراء مستولية عليها أيادي الظلمة ويكون المسلمون بهمة أقل من همة اليهود لا والله وعلى الاخص في زمن سيدنا نصره الله الساعى في ترقى أحوال المسلمين وأيده بروح منه.

مجالس الاوقاف والمعاهد

بيان القواعد لاساس هذه الاعمال :

القاعدة الاولى : يصير تشكيل مجلس في كل بلدة ولدى كل قائد أو قائدين من عمال القبائل يحتوي على خمسة من العلماء الاول رئيسهم ويسمى بشيخ العلماء والثاني للاشراف والثالث مامور على الاحباس والرابع شيخ للفقراء والخامس أمين ولكل واحد من هؤلاء عدلان يقومان بالكتابة.

القاعدة 2 : تتعين أيام الاجتماع في الجمعة ووقتها للبحث عن تعلقات الأوقاف من تحسينها وعمارتها ومراجعة حسابها وعن ما يلزم توظيفه فيه وفي متفرعاته (راجع القاعدة الثالثة).

القاعدة 3 : لا يتوظف في هذا المجلس ولا في متفرعاته من وظيفة الامامة والخطابة وتولية المساجد وغيرها إلا أن يكون من العلماء وعنده الشهادة باقتداره.

القاعدة 4 : يتعين معاش كافي لكل مستخدم في هذا المجلس ومتفرعاته حسب استعداد وظيفته لاجل أن يصير المستخدم مكتفيا ومنقطعا على خدمته.

القاعدة 5 : لا يعزل المتوظف في هذا المجلس ومتفرعاته الا بخيانة أو اهمال الوظيفة.

القاعدة 6 : يلزم المستخدم أن يباشر وظيفته بنفسه ولا يجوز له أن يوكل إلا إذا طرأ عليه عذر شرعي مع الاستيذان والا يعد مهملا في وظيفته.

القاعدة 7 : من أهمل وظيفته ثلاثة أيام يعزل عزلا موبدا.

القاعدة 8 : كل من يدعي على مأمور من هذا المجلس ومتفرعاته من خيانة أو اهمال الوظيفة يلزم إلزاما جبريا على اثبات ما ادعاه (راجع القاعدة السابعة) والا يحبس ذلك المفتري إلى ثلاث سنين.

القاعدة 9 : من قبل خدمة ولم يحسن الادارة في مصروفه من معاشه وارداته فانه يعزل عزلا مؤبدا.

القاعدة 10 : يلزم على كل مستخدم أن يحرر حساب نفسه من داخل وخارج وما بقى عنده ويرفعه إلى رئيسه.

القاعدة 11 : يلزم أن يوجد في هذا المجلس أربعة قيود، القيد الاول قيد السجلات بأن يسجل فيه جميع الوقفيات، والقيد الثاني يحرر فيه حساب كل مسجد وفعل خيري من وارداته ومنصرفاته المقررة وغير المقررة والفضلة التي بقيت وحساب كل وقف آيل إلى ذلك بحدائه مبينا فيه وارداته ومنصرفاته المقررة وغير المقررة وعدد مستحقية، والقيد الثالث يبين فيه الرسم كل مستخدم في هذا المجلس ومتفرعاته مع بيان ثروته وترجمة ماله وحسابه، والقيد الرابع قيد الدعاوي (راجع القاعدة الثامنة).

القاعدة 12 : تلتزم العدول بعد كتابة الوقفية أن يسجله في المجلس وفي هيئة الفعل الخيري الآئل إليه هذا الوقف وبعد ذلك يسلمه لصاحبه.

القاعدة 13 : إذا أقيمت دعوى على وقف يلتزم ناظر فعل الخيري الأئل إليه هذا الوقف أن يذهب مع متولى الوقف المدعى عليه لمشاهدته الدعوى والحكم ورفعه ذلك إلى المجلس وكذلك إذا ادعى متولى وقف على أحد.

القاعدة 14 : يلتزم المجلس في كل سنة أن يحرر دفترا مبينا فيه واردات كل مسجد أو فعل خيري ومنصرفاته المقررة أو غير المقررة وفضلته وبحدائه واردات الاوقاف الأئلة إليه ومنصرفاته المقررة وغير المقررة وعدد مستحقية وحسابات المستخدمين فيه وفي متفرعاته ويرفع ذلك إلى مجلس الاسلام.

القواعد المتعلقة في كل مسجد أو فعل خيري

القاعدة 15 : يصير لكل مسجد أو فعل خيري هيئة متركبة من الخطيب والمدرس وهما الكاتبان وناظر المسجد أو الفعل الخيري.

القاعدة 16 : يلزم لكل هيئة ثلاثة قيود، القيد الاول قيد السجلات يسجل فيه وقفية المسجد أو الفعل الخيري ووقفية الاوقاف الأئلة إليه، والثاني يحرر فيه حسابات ذلك من داخل ومنصرف، والثالث يحرر فيه حسابات الاوقاف الأئلة إليه.

القاعدة 17 : يلتزم في كل مسجد بأشهر التصديق من الهيئة على دفتر الحساب ورفعه إلى مدير الاوقاف للتصديق عليه وفي كل سنة ترفع الهيئة إلى المجلس دفترا مبينا فيه وارداته ومنصرفاته المقررة وغير المقررة وفضلته والدين الذي عليه وحسابات الاوقاف الأئلة إليه من وارداته ومنصرفاته وعدد المستحقين فيه وحسابات المستخدمين في ذلك الفعل الخيري والآئل إليه.

القاعدة 18 : إذا لزم للمسجد أو الفعل الخيري عمارة أوقافها ولم توجد غلة تفي بذلك يرفع ذلك إلى المسجد للاستدانة له من فضله مسجد آخر ثم ترجع إليه عند توفر الغلة.

القواعد المتعلقة في الاوقاف

القاعدة 19 : يلزم كل متولى وقف أن يرفع شرط الواقف إلى المجلس وإلى هيئة الفعل الخيري الأئل إليه ذلك الوقف لتسجيله فيها (راجع القاعدة التاسعة).

القاعدة 20 : من لم يرفع شرط واقفه يعد غاصبا ومهملا ويلتزم في محاسبته من يوم استيلائه على الوقف مع تضمينه لكل ما قرب فيه بسبب اهماله شروط واقفه من عدم براءته بعمارة الوقف (راجع القاعدة السابعة).

القاعدة 21 : يلزم مراعاة شرط الواقف.

القاعدة 22 : لا يجوز لناظر الوقف أن يصرف شيئا للمستحقين والوقف محتاج للعمارة والا يعد غاصبا ومهملا (راجع القاعدة السابعة).

القاعدة 23 : إذا قرب الوقف ولم توجد غلة تفي بتعميرها يستدان له من هيئة الفعل الخيري الذي يؤول إليه ذلك الوقف ويؤخر الصرف إلى المستحقين حتى يسدد دينه.

القاعدة 24 : يلزم ناظر الوقف ان يشرع في عمارة الوقف إذا حدث به شيء والا يعد خائنا ومهملا.

القاعدة 25 : يلتزم الساكن في أماكن الوقف إذا حدث فيها شيء يوجب العمارة أو التصليح أن يعلم الناظر.

القاعدة 26 : يلزم الناظر في كل سنة أن يرفع دفترا إلى هيئة الفعل الخيري الذي يؤول إليه ذلك الوقف مبينا فيه واردات وقفه ومنصرفاته وتعيين مستحقية.

القواعد المتعلقة بشيخ العلماء

القاعدة 27 : شيخ العلماء هو ناظر على أوقاف العلماء والمدارس ومواضع التدريس.

القاعدة 28 : يجرى في أوقاف العلماء والاشراف وأوقاف الحرمين الشريفين وأوقاف الفقراء ما يجري في أوقاف المساجد.

القاعدة 29 : يلزم شيخ العلماء أن يحرر أربعة دفاتر، الاولى يحرر فيه أسماء العلماء الموجودين في بلدته ومحلات اشتغالهم، والثاني يحرر فيه المدارس المعدة إلى الطلبة والمخصصات لها وما تكفي تلك المخصصات من الطلبة ويحرر مواضع التدريس التي لم توجد لها مخصصة لطلبتها، والثالث يحرر فيه أسماء الطلبة وتعيينه في المدارس وموضع التدريس، والرابع في درجة الطلبة التي يرفعونها المعلمون شهريا.

القاعدة 30 : يتعين مدرسة من المدارس التي لطلبتها مخصصات لقراءة الفنون العسكرية بها بعد استحضار الكتب المؤلفة في الفنون الحربية وترجمتها باللسان العربي على الاخص الكتب التي تقرأ في مصر في المدارس العسكرية.

القاعدة 31 : لا يغير في دفتر العلماء من لم يكن حائزا على مرتبة التدريس ويكون مشتغلا بالافادة.

القاعدة 32 : تنقسم المدارس ومواضع التدريس إلى قسمين إما أن يكون لطلبته مخصصة أم لا ويتعين لكلا القسمين قراءة كتب مخصوصة ويصير نقل الطالب حسب استعداده إلى تلك المدارس.

القاعدة 33 : يقدم الفقراء في المدارس وموضع التدريس التي لطلبتها مخصصة.

القاعدة 34 : يلزم على مدرس المدارس ومواضع التدريس أن يمتحن طلبته في رأس كل شهر ويعطى الطلبة نمرة حسب استعدادهم ويرفع بذلك لشيخ العلماء.

القاعدة 35 : في كل سنة يجرى امتحان المدارس ومواضع التدريس بحضور المجلس والاعيان وبحسب استعداد الطلبة يصير نقله إلى مدرسة أعلى فإذا تم طلبه في المدرسة الثانية يعطى شهادة في بلوغ درجة التدريس وحينئذ يجوز استخدامه في المجلس ومتفرعاته.

القاعدة 36 : ينتخب ممن حاز على رتبة التدريس للدخول في المدرسة التي خصصت لقراءة الفنون العسكرية.

القاعدة 37 : بعد استيفاء قراءة الفنون الحربية وأدائه الامتحان بذلك يعين خليفة قائد المائة وبعد ذلك يترقى حسب استعماله.

نقابة الاشراف

القواعد المتعلقة بنقيب الاشراف :

القاعدة 38 : هو ناظر على أوقاف الاشراف (راجع القاعدة الخامسة عشر والثامن والعشرون).

القاعدة 39 : يلزم نقيب الاشراف أن يحرر دفترا في أسماء الاشراف الموجودين في بلدته.

القاعدة 40 : لا يقيد في دفتر الاشراف الا من ثبت نسبة من جهة آبائه ثبوتا خليقيا مع متابعة جميع طرائق التحرى.

القواعد المتعلقة في ممّور الاوقاف

القاعدة 41 : هو ناظر على جميع الاوقاف وناظر خاص على أوقاف الحرمين الشريفين (راجع القاعدة الخامسة عشر والثامن والعشرون).

أوقاف الفقراء

القواعد المتعلقة بشيخ الفقراء

القاعدة 42 : هو ناظر على أوقاف الفقراء والزوايا والمارستان على الاوقاف الموقوفة على عابر السبيل والغزوة وعلى تعمير الجسور وعلى الاسبلة وعلى الربيعة الموجودة في مقابر الاولياء رضوان الله عليهم أجمعين (راجع القاعدة الثامن والعشرون).

القاعدة 43 : يلزم أن يجرى حساب كل واحد مما ذكر في القاعدة الثاني والاربعين على حدته.

القاعدة 44 : يلزم أن يحرر دفترا مبينا فيه جميع الزوايا والمدارس ومواضع التدريس التي لطلبتها مخصصات ومخصصاتها وما تكفى من الفقراء والمارستان وما يسع من المرضى.

تشغيل القادرين جبرا

القاعدة 45 : يلزم أن يعاين الفقراء ويقسمهم على ثلاثة أقسام، عاجز عن الاشغال مرة واحدة لكبره أو بتعطيل في أعضائه، والثاني عاجز بسبب مرض فيه، والثالث القادر على الاشغال، وبموجب ذلك يحرر دفترا مع بيان اسمائهم وأعمارهم وقابليتهم للصنائع.

القاعدة 46 : أما القسم الاول فيصير وضعه في المحلات التي بها تعيينات دائمة، والقسم الثاني يصير وضعه في المارستان مدة مرضه، والقسم الثالث يشغل جبرا لنظر شيخ الفقراء.

القاعدة 47 : القادر على الاشغال إذا لم يحصل شغلا يصرف عليه في اليوم الذي لم يحصل فيه شغل بشرط أن يكون غير ممتنع عن أي شغل يوضع فيه.

القاعدة 48 : أول ما يصرف على الفقراء من مال الصدقة والوصية من المحلات التي بها تعيينات دائما ثم من واردات أوقافهم ثم من ربيعة الاولياء رضوان الله عليهم أجمعين ثم من كان قابلا للتعليم يوضع في المدارس ومواضع التدريس التي لطلبتها تعيينات فإن لم يف ذلك فيصبر حينئذ التدين بجميع ما يكفيهم من الاغنياء.

القاعدة 49 : يقدر المصروف الضروري الكافي لكل يوم للعاجز عن الاشغال والقادر الذي لم يحصل شغلا مع اعطاء كل واحد منهم كسوتان كسوة للصيف والاخرى للبرد ويلحق بذلك القادر الذي لم يبق عنده فضلة لاجل كسوته من أجرة اشغاله في تلك السنة.

القاعدة 50 : إذا كان على انسان كفارة يمين أو غيرها أو عنده صدقة فليخبر بذلك شيخ الفقراء وعن قدرها وهو يخصص له ويتناول ذلك وكذلك يخصص فقراء يتناولون مرتبتهم من الوصى الذي عنده وصية إلى الفقراء إلى نفاذها والفقير الذي يتناول مصروفه مما ذكر لا يعطى له من صندوق شيخ الفقراء مدة لتناوله من ذلك.

الخاتمة

خاتمة اللازم على كل عاقل أن لا يتهاون بقبول النصيحة وأن كانت ممن لا يعبأ به بل يقدرها حق قدرها ويتدبرها حق تدبرها على الاخص إذا كانت موافقة للمواقف وللشريعة الغراء لقوله صلى الله عليه وسلم الحكمة ضالة المومن يلتقطها حيث وجدها نسأله تعالى أن يبصرنا في عيوبنا ويرزقنا إصلاح أحوالنا ويلهمنا رشدنا ويجمع كلمتنا بحكمة أمير المومنين وحامي حمى الدين وابن سيد المرسلين اللهم أيده بما أيدت به رسللك وأنبياءك وخلفاءك وملأ بدعوتة أرضك وبدعائه سماءك واجعل عليك توكله واعتماده وفي سبيلك جهاد واجتهاد اللهم واصلح الرعية والرعاة ومن هم بالمعروف آمرون وفي الخير سعاة وعم والدنيا ومشايخنا ومن أحسن إلينا برحمة منك وغفران واجعل النبي صلى الله عليه وسلم شفيعا لنا حتى ندخل مع السابقين فراديس الجنان وصلى الله على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين آمين يا رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وانتهى وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.

نص مشروع دستور 1326/ 1908

كيان الدولة ومقام السلطان

المادة الاولى ـ يطلق على جميع الاقطار المراكشية اسم الدولة المغربية الشريفة.

المادة الثانية ـ الدولة الشريفة مستقلة استقلالا كليا.

المادة الثالثة ـ إن عاصمة الدولة الشريفة الرسمية هي مدينة فاس لا غير، وليس بهذه العاصمة امتياز بشيء عن سائر مدن السلطنة.

المادة الرابعة ـ إن دين الدولة الشريفة هو الدين الاسلامي والمذهب الشرعي فيها هو المذهب المالكي.

المادة الخامسة ـ تحترم سائر الاديان المعروفة بلا فرق، ويحق لاصحابها أن يقيموا شعائر معتقداتهم حسب عوائدهم بكل حرية، ضمن دائرة مراعاة الاداب العمومية :

المادة السادسة ـ يلقب السلطان بإمام المسلمين وحامي حوزة الدين.

المادة السابعة ـ يجب على كل فرد من أبناء السلطنة الطاعة للامام الشريف، والاحترام لذاته، لانه وارث البركة الكريمة.

المادة الثامنة ـ أن حضرة السلطان غير مسؤول بامر من أمور الدولة، لا داخليا ولا خارجيا.

المادة التاسعة ـ يجب الاحترام لكل واحد من احاد الاسرة السلطانية والمحافظة على أموالهم واملاكهم الشخصية.

المادة العاشرة ـ ان وراثة الامامة عائدة بحسب العوائد القديمة للارشد من أقرب ذوي القربى.

المادة الحادية عشرة ـ باسم السلطان تضرب النقود وتخطب الخطب، وله قيادة الجيش الكبرى واشهار الحرب وعقد الصلح، وابرام المعاهدات مع الدول، وبمصادقته وامضائه تعتبر تقارير مجلس الوزارة وتقارير منتدى الشورى وتنفذ احكامها. وبمصادقته وامضائه يعين موظفو الدولة كبارا وصغارا أو يعزلون، وله المكافأة واعطاء النياشين والمجازاة، وله العفو عن المحكوم عليهم بالموت أو تبديل الحكم وتخفيفه، وهو الذي يمثل الأمة والدولة معا أمام الدول الأجنبية.

حقوق المواطن

المادة الثانية عشرة ـ يطلق لقب مغربي على كل واحد من أبناء الدولة الشريفة سواء كان مسلما أو غير مسلم.

المادة الثالثة عشر ـ يحق لكل مغربي أن يتمتع بحريته الشخصية بشرط أن لا يضر غيره ولا يمس حرية غيره.

المادة الرابعة عشرة ـ ان الحرية الشخصية تقوم بأن يعمل كل واحد ما يشاء، ويتكلم بما يشاء، ويكتب ما يشاء، مع مراعاة الاداب العمومية.

المادة الخامسة عشرة ـ ان التعليم الابتدائي إلزامي على قدر مساعدة الأحوال.

المادة السادسة عشرة ـ المطبوعات حرة مع مراعاة الاداب العمومية.

المادة السابعة عشرة ـ إن جميع المسلمين متساوون في الحقوق أمام وظائف المخزن التي تعطى بحسب الكفاءة الشخصية، وليس بواسطة الوسطاء والنافذي الكلمة بالاموال.

المادة الثامنة عشرة ـ لا يجوز أن يتولى أمي وظيفة من وظائف المخزن على الاطلاق. فعلى الموظف أن يكون عارفا اللغة العربية قراءة وكتابة حق المعرفة.

المادة التاسعة عشرة ـ إن تكاليف الدولة المالية توضع على كل فرد من أفراد الأمة بحسب ماليته واقتداره.

المادة العشرون ـ إن الفقراء والعواجز والعميان والذين لا عمل لهم يتعيشون منه يعفون من كل تكليف وضريبة على الاطلاق. وكذلك خدام بيوت الله والمساجد والزوايا والذين يعيشون من الاوقاف.

المادة الحادية والعشرون ـ ان موظفي المخزن من كبيرهم إلى صغيرهم هم كسائر الناس تلزمهم الضرائب والتكاليف المالية.

المادة الثانية والعشرون ـ لا يجوز ابدا طرح ضرائب وتكاليف مالية على جهة من السلطنة دون جهة، ولا على مدينة، ولا على قبيلة دون قبيلة، وانما يجب أن تكون التكاليف عامة على جميع الامة في كل نواحي السلطنة في وقت واحد.

المادة الثالثة والعشرون ـ كل مغربي آمن على ماله وملكه، فلا يسوغ لهيئة الحكومة أن تأخذ من أحد ملكه إلا إذا كان ضروريا للمنفعة العامة. وذلك يكون بعد قرار منتدى الشورى ومصادقة السلطان كتابة، ويدفع لصاحب الملك ثمنه الحقيقي سلفا، (أي مسبّقا).

المادة الرابعة والعشرون ـ لا يسوغ أن يحجر مال أحد أو ملكه أو شيء مما له لسبب من الاسباب الا بعد قرار منتدى الشورى ومصادقة السلطان كتابة.

المادة الخامسة والعشرون ـ لا يسوغ لهيئة الحكومة أن تدخل جبرا مسكن أحد من الناس لسبب من الاسباب الا بعد قرار منتدى الشورى وموافقة السلطان كتابة.

المادة السادسة والعشرون ـ لا يسوغ أن يجبر أحد على الذهاب إلى فاس أو إلى غيرها من البلدان لسبب من الاسباب الا بعد قرار منتدى الشورى ومصادقة السلطان كتابة.

المادة السابعة والعشرون ـ قد ابطل الضرب بالعصى والجلد بالسياط والتشهيروالتعذيب باي آلة من الات التعذيب وكل نوع من أنواع الادنى، وكل صنع يستهجنه طبع المدنية ابطالا قطعيا من السلطنة جيعا.

المادة الثامنة والعشرون ـ قد ابطل التسخيروالتكاليف المالية وسواها غير المقررة من منتدى الشورى ابطالا كليا من السلطنة جيعا.

المادة التاسعة والعشرون ـ لا يسوغ ان يحكم على مجرم بالقتل أوبالسجن المؤبد بدون قرار منتدى الشورى ومصادقة السلطان كتابة.

المادة الثلاثون ـ لا يجوز أبدا أن تقطع رؤوس العصاة الذين سقطوا في قتال مع عساكر المخزن وتحمل إلى فاس او غيرها وتعلق على الاسوار كالعادة المعروفة، فكل قائد فعل ذلك يكون مسؤولا أمام منتدى الشورى والسلطان.

المادة الحادية والثلاثون ـ لا يسوغ لعساكر المخزن عند مقاتلة قبيلة من القبائل أن ينهبوا مواشي القبيلة ودوابها واشياءها ويقتسموها بينهم حسب العادة المعروفة. فكل قائد ياتي ذلك يكون مسؤولا أمام منتدى الشورى والسلطان.

المادة الثانية والثلاثون ـ لا يسوغ أبدا قتل الاسرى والجرحى أوتجريدهم من ثيابهم وارسالهم كالعادة المعروفة، فكل قائد فعل ذلك يكون مسؤولا أمام منتدى الشورى والسلطان.

المادة الثالثة والثلاثون ـ كل واحد من موظفي المخزن كبارا وصغارا أومن غيرهم من ابناء السلطنة ياتي أمرا مما منعه في المواد المذكورة (المادة 23 و24 و25 و26 و27 و28 و29 و30 و31 و32) يكون مسؤولا أمام منتدى الشورى والسلطان.

المادة الرابعة والثلاثون ـ يحق لكل فرد من أفراد التبعة المغربية على الاطلاق أن يقدم شكوى على أي موظف كان من موظفي المخزن أوغيرهم من أبناء البلاد إن ناله منه ظلم أو أذى أوراى في اعماله وتصرفه شيئا مما يخالف نصوص احدى مواد الدستور إلى منتدى الشورى، وعلى منتدى الشورى أن ينظر في شكوى الشاكي بلا امهال ولا اهمال وينتصر للحق والعدل على كل حال.

منتدى الشورى (مجلس الامة ومجلس الشرفاء)

المادة الخامسة والثلاثون ـ ان منتدى الشورى يؤلف من هيئتين تسمى الهيئة الاولى مجلس الامة والاخرى مجلس الشرفاء.

المادة السادسة والثلاثون ـ ان هذين المجلسين يفتحان لمباشرة اشغالهما في وقت واحد بموجب أمر سلطاني، وذلك في الحادي والعشرون من شهر شوال من كل سنة. ويغلقان أبوابهما في اليوم التاسع من شعبان من كل سنة ولهما عطلتان في سنة أيضا، مدة كل منهما خمسة عشر يوما. وهما عطلة المولد الكريم وعطلة عيد النحر.

المادة السابعة والثلاثون ـ يفتح منتدى الشورى في حضور السلطان شخصيا أو في حضور الوزير الاكبر واعضاء المجلسين المذكورين. فيتلى الكتاب السلطاني المؤذن بمباشرة الاشغال.

المادة الثامنة والثلاثون ـ يجب على كل عضو من اعضاء هذين المجلسين ان يقسم يمين الامانة في حضرة السلطان وهيئة الوزارة وقاضي القضاء وسائر الاعضاء فيضع يمينه على القرآن الكريم ويعاهد الله أن يكون أمينا للدولة والامة، وأمينا للدستور، وأمينا لكل أمر اوئتمن عليه، فيحسب بعد ذلك عضوا عاملا رسميا.

المادة التاسعة والثلاثون ـ كل عضو من اعضاء منتدى الشورى حر في إظهار آرائه لا خوف عليه من المخزن ورجاله على الاطلاق. ولا يقيد بامر من الامور. ولا يساء به الظن ولا يتهم بتهمة لكونه قال ما شاء ان يقول، ولو أنه انتقد على الوزير الاكبر وكل الوزراء، ولكن ان بدا منه امر يخل بنظام المجلس أو يضر بالدولة تجري معاملته على موجب المادة الاتية :

المادة الاربعون ـ إذا اتهم أحد الاعضاء من بعض اعضاء المجلسين بتهمة خيانة للامة أو بمحاولة ابطال الدستور أو بالرشوة وثبتت عليه التهمة بموجب قرار الاكثرية من المجلسين، فيسقط من عضوية المجلس ويجازى حسب افعاله.

المادة الحادية والاربعون ـ يشرع المجلس باعماله ان كان نصف اعضائه حاضرين، وتقرر الأمور بأكثرية الاصوات (أي الاراء) وتصح اكثرية بزيادة صوت واحد. فإذا تساوت الاصوات يحسب للرئيس صوتان ويحكم بالاكثرية من جانبه.

المادة الثانية والاربعون ـ ينبغي للمجلس أن يراعي الاقد م فالاقدم في رؤية المسائل وتقريرها، ولكن إذا تعارض أمران مهم واهم فيقدم الاهم. فكل مسألة عامة النفع أو الضرر من مسائل الدولة الداخلية والخارجية لا يكون لها اعتبار ما لم يقررها مجلس الامة أولا ثم مجلس الشرفاء.

المادة الثالثة والاربعون ـ يقتضي أن تكون مفاوضات مجلس الامة والشرفاء خصوصية لا عمومية أي غير علنية، فلا يجوز لاحد ان يشهدها الا حضرة السلطان والوزراء وخلائفهم وقاضي القضاة وخليفته أو من يكون بيده اذن خاص من حضرة السلطان يقدم لرئيس المجلس قبل الحضور بيوم واحد.

إن كيفية اعمال المجلس الداخلية ونظام اموره مقررة في قانون خاص.

المادة الرابعة والاربعون ـ يجب على كل من ينتخب نائبا في مجلس الامة أن يكون مستوفيا الشروط الاتية :

أولا ـ ان يكون عارفا اللغة العربية قراءة وكتابة حق المعرفة.

ثانيا ـ أن يكون من تبعة الدولة المغربية.

ثالثا ـ ان يكون غير مرتبط بخدمة دولة أجنبية بوجه من الوجوه.

رابعا ـ أن يكون فوق الثامنة والعشرين من العمر.

خامسا ـ أن يكون غير مستخدم عند رجل آخر براتب معاشي

سادسا ـ ان يكون غير محكوم عليه بالافلاس أو بالسجن لسرقة أو قتل أو غير ذلك من الجنايات .

سابعا ـ أن يكون مشهودا له بين قومه بحسن السلوك والاستقامة والنزاهة ومحترما من كل عارفيه .

المادة الخامسة والاربعون ـ يجري الانتخاب مرة واحدة بعد كل أربع سنوات، ويجوز تجديد انتخاب النائب .

المادة السادسة والاربعون ـ ان كل عضو من اعضاء المجلسين يعتبر نائبا عن الامة جميعها، وليس عن القوم الذين انتخبوه فقط .

المادة السابعة والاربعون ـ يجب على اهالي كل بلدة أو قبيلة أن ينتخبوا نائبهم من نفس بلدتهم .

المادة الثامنة والاربعون ـ اذا انقطع النائب عن الحضور إلى المجلس مدة طويلة لسبب مرض ملازم أو لضرورة قصوى لا تدفع، أو ان استعصى أو توفى فينتخب منتخبوه غيره .

المادة التاسعة والاربعون ـ ان عدد اعضاء مجلس الامة يكون على نسبة نائب واحد عن نحو عشرين ألف رجل من السكان. وكيفية الانتخاب مقررة في محلها .

المادة الخمسون ـ لا يجوز لنائب أن يشغل وظيفتين في وقت واحد، اي يشغل وظيفة النيابة ووظيفة أخرى من وظائف المخزن. فإذا اتخذ وظيفة أخرى سقط من النيابة. ولكن ان انتدبه منتدى الشورى للقيام بوظيفة مؤقتة مثل ارسالية تفتيش عن أمر، أو الذهاب لالقاء الصلح بين فريقين متقاتلين أو الشخوص إلى خارج السلطنة بمهمة دولية ففي مثل هذا الحال جاز له الجمع بين وظيفتين ولا يسقط من عضوية النيابة .

المادة الحادية والخمسون ـ ان عدد اعضاء مجلس الشرفاء مع رئيسهم هو خمسة وعشرون عضوا لا غير، ينتخب منهم السلطان الرئيس وستة اعضاء، وينتخب مجلس الامة مع هيئة الوزراء وجماعة العلماء بقية الاعضاء أي ثمانية عشر عضوا .

المادة الثانية والخمسون ـ اعضاء مجلس الشرفاء من أكابر رجال الدولة الذين امتازوا بحسن صفاتهم وعلو هممهم وصدق خدمتهم للبلاد، فاكتسبوا ثقة الامة واحترامها، وينتخبون من اعضاء الاسرة السلطانية ومن رؤوس الشرفاء ورؤساء العلماء والفقهاء ومشاهير قواد العساكر واعيان القبائل وزعمائها وامثالهم، بيد انه يشترط على العضو في هذا المجلس ان يكون فوق الخامسة والاربعين من العمر .

المادة الثالثة والخمسون ـ يدوم عضو مجلس الشرفاء في وظيفته ما دام حيا، ولا يجوز أن يعتزل وظيفته الا برضاه أو بسبب الطعن في السن أو مثل ذلك. ولكن ان دعت الضرورة إلى توليته منصبا آخر مهما، وذلك لا يكون الا برضاه ايضا، ففي هذا الحال يفقد العضوية لوجوب انتخاب عضو آخر مكانه .

المادة الرابعة والخمسون ـ ان وظيفة مجلس الشرفاء هي أن ينظر ادق النظر ويبحث ادق البحث في التقارير واللوائح التي يصدرها مجلس الامة حتى إذا رأى فيها شيئا مغايرا لاحدى الشرائط الست الاتية يرفض تلك اللائحة أو

التقرير رفضا قطعيا، مع اظهار الاسباب الداعية إلى ذلك، أو أنه يرجعها إلى مجلس الامة، مع ملاحظة وجوب اصلاح وتصحيح ما لزم له الاصلاح والتصحيح والشرائط الست التي يراعيها مجلس الشرفاء ويراقبها هي هذه :

الشرط الاول ـ ان لا يكون هناك شيء مما يمس اساس الدين وجوهره أو يخالف نصا من القرآن الكريم.

الشرط الثاني ـ ان لا يمس استقلال السلطنة.

الشرط الثالث ـ ان لا يضر حقوق السلطان.

الشرط الرابع ـ ان لا يجحف بحقوق الامة أو يضر بالعامة والفقير خاصة

الشرط الخامس ـ ان لا يمس الحرية والدستور والاداب العمومية.

الشرط السادس ـ ان لا يسبب اضرارا وخسائر لبيت مال المسلمين وأملاك الدولة

المادة الخامسة والخمسون ـ ان رأى مجلس الشرفاء تقارير مجلس الامة صالحة وموافقة لكل الشرائط المذكورة فيصادق عليها، ثم يقدمها لحضرة السلطان بواسطة هيئة الوزارة، فيوافق السلطان عليها كتابة، ويعمل بها من تاريخ المصادقة السلطانية.

المادة السادسة والخمسون ـ إذا رفض مجلس الشرفاء تقريرا من تقارير مجلس الامة مرتين فعلى مجلس الامة ان لا يقدم ذلك التقرير ثالثة الا بعد مرور ستة شهور من تاريخ الرفض الاخير. وذلك بعد ان يصلح من الملاحظات ما استوجب الاصلاح.

كبار المسؤولين في المخزن

المادة السابعة والخمسون ـ السلطان يعين الوزير الاكبر وقاضي قضاة فاس ونائبي طنجة ومراكش وخليفة له. ومقر هذا الخليفة في العاصمة، وليس من المقتضى أن يكون ولي العهد ولا من الاسرة المالكة.

المادة الثامنة والخمسون ـ للوزير الاكبر أن ينتخب سائر الوزراء الخمسة ويعرض اسماءهم على منتدى الشورى، فإن قر الرأي عليهم يعرضون على الجناب الشريف ويصادق على تعيينهم.

المادة التاسعة والخمسون ـ يطلق على العلاف لقب وزير الحرب، وعلى أمين الامناء وزير المالية، وعلى وزير البحر وزير الخارجية، وعلى وزير الشكايات وزير الداخلية، وعلى ذلك تؤلف هيئة الوزارة من ستة أعضاء لا غيرهم : الوزير الاكبر ووزير المعارف، وهؤلاء الاربعة الوزراء المذكورون.

المادة الستون ـ ان عزل الوزير الاكبر من منصبه أو اعتزاله هو من تلقاء نفسه عزلت معه سائر الوزراء وسقطت الوزارة، وأما ان عزل الوزراء جميعهم فلا يعزل الوزير الاكبر ولا تسقط وزارته.

المادة الحادية والستون ـ كل وزير ينظر في الامور المتعلقة بوزارته الداخلة في دائرة وظيفته، فإذا عرض أمر لا دخل له في احدى الوزارات فيحول إلى نظر الوزير الاكبر، وكل وزير مسؤول شخصيا بما يتعلق بأمور وزارته. أما الوزير الاكبر فهو مسؤول بكل اجراءات جماعة الوزراء.

المادة الثانية والستون ـ لكل وزير حق ان ينتخب خليفته فإن عزل عزل الخليفة معه . أما بقية الوزراء فلا يعزلون بعزل رئيسهم :

المادة الثالثة والستون ـ لهيئة الوزارة أن تنتخب عمال بلدان السلطنة وقبائلها، غير أنه يحق لمنتدى الشورى أن يعارض في تعيين عامل لم يره جديرا بالوظيفة، ويعمل برأي المنتدى على كل حال.

المادة الرابعة والستون ـ كل موظف من موظفي الحكومة الدائمين كالكتاب والامناء والعمال والقضاة وأمثالهم يبقى في وظيفته أو خدمته ما دام في مكنته القيام بعبئها، ولا يجوز أبدا عزل أحد منهم الا لسبب موجب للعزل كعدم الصدق في الخدمة وقلة الامانة أو الكفاءة، وهذا إذا لم يستعف هو من تلقاء نفسه ولكن إن ألجأت الضرورة لمصلحة الدولة إلى عزل أحد من وظيفته فيجب والحالة هذه تعيينه في وظيفة أخرى مماثلة أو أعلى، أو إعطاؤه راتب التقاعد إن كان قد قضى ثلثي المدة المعينة لراتب التقاعد.

المادة الخامسة والستون ـ كل موظف في وظائف المخزن قضى مدة ثلاثين سنة متواصلة في خدمة الدولة حق له أن يعتزل الخدمة، ويأخذ راتب التقاعد بقية حياته، وهو مقدار نصف راتب وظيفته الاخيرة.

المادة السادسة والستون ـ إن القضاة وأهل الفتوى والعدول يعينهم قاضي القضاة بموافقة مجلس الشرفاء أما المحتسبون وأمناء الاستفادة فتعينهم هيئة الوزارة وحدها.

مراقبة مالية الدولة ورواتب كبار المسؤولين

المادة السابعة والستون ـ يجب على وزارة المالية أن تسلم إلى منتدى الشورى في خاتمة كل شهر لائحة دخل الدولة وخرجها مفصلة تفصيلا جزئيا مصادقا عليها من الوزير الاكبر.

المادة الثامنة والستون ـ لا يسوغ لهيئة الوزارة أن تنفق شيئا من مال الدولة في أي سبيل كان ما لم يصادق عليه منتدى الشورى.

المادة التاسعة والستون ـ يعين مجلس الامة من اعضائه هيئة للتفتيش مؤلفة من ستة اعضاء ورئيس، تنقسم إلى قسمين، يتجول كل قسم منها في نواحي السلطنة وبلدانها بصفة دائمة للبحث في كل أمور الادارات المخزنية، فيزور كل بلدة وقبيلة مرة في كل أربعين يوما على الاقل، ويبعث بتقارير إلى الرئيس الذي يكون مقامه في نفس مجلس الامة، ولهؤلاء المفتشين ان يسمعوا كل شكوى من افراد الشعب، ويقبلوا كتب التظلم ومعاريض الاحوال.

المادة السبعون ـ يحق لهيئة التفتيش ان توقف أيا من الموظفين عن وظيفته أن بدا لها أصوبية ذلك لوجود خلل في اعماله، ويستثنى من هذا الامر نائبا طنجة ومراكش. ويباح لها أن تضع في مكان الموظف الذي كفت يده عن العمل من يقوم مقامه موقتا، ريثما يأتي جواب منتدى الشورى في أمره.

المـادة الحـاديـة والسبعـون ـ يعين منتدى الشورى في جلساته الاولى مبلغ المال الواجب سنويا لنفقات الحضرة السلطانية، ويراعى في هذا الامر ضروريات الوظيفة السامية وكمالياتها ومقتضى القيام اللائق بالمقام.

المـادة الثـانيـة والسبعـون ـ ان رواتب كبار الموظفين الشهرية تكون على هذا المنوال : ريالا مخزنيا 500 للوزير الاكبر ـ 250 لخليفته ـ 300 للوزير ـ 150 لخليفته ـ 350 لكل من نائبي طنجة ومراكش ـ 250 للعامل ـ رتبة أولى ـ 200 للعامل ـ رتبة ثانية ـ 350 لرئيس مجلس الامة ـ 200 لخليفتة ـ 150 للعضو في مجلس الامة ـ 150 للامين.

وأما رواتب بقية مستخدمي الحكومة فيعينها منتدى الشورى في جلساته الاولى.

المادة الثالثة والسبعون ـ يخصص لكل وزير علاوة على راتبه مبلغ معين سنويا للقيام بحق تكاليف المنصب. وكذا يعطى نائب الامة مائتي ريال سنويا فضلا عن راتبه، وذلك لنفقة السفر، ومثل هذه القيمة تعطى للامين أيضا.

المـادة الـرابعـة والسبعـون ـ ليس للعضـوية في مجلس الشرفاء راتب لكونها شرفية، وانما ان حسن لدى الجناب العالي ان يهدى اعضاء ذلك المجلس هدايا نقدية أو غير نقدية في خاتمة كل سنة فله الامر بذلك.

الحماية القنصلية

المادة الخامسة والسبعون ـ لا يسوغ لاحد من أبناء الدولة المغربية أن يتخذ حماية دولة من الدول الا في الحالات الاستثنائية المذكورة في المادة التاسعة والسبعين.

المادة السادسة والسبعون ـ كل شخص يتحامى بدولة من الدول سرا بدون أن يعلم المخزن ويأخذ رخصة في الحماية لا تعتبر حماية، ويجرى عليه الجزاء المرتب على ذلك في قانون الجزاء

المـادة السـابعـة والسبعـون ـ لا يجوز لاحـد من أبناء السلطنة المغربية المتخذ حماية دولة من الدول ان يدخل في الوظائف المخزنية.

المـادة الثـامنـة والسبعـون ـ كل موظف في احـدى وظائف الدولة اتخذ سرا حماية دولة من الدول ثم ظهر انه من المحتمين يعزل للحال من وظيفة دون ان تعتبر حمايته، ويجري عليه الجزاء المرتب على ذلك في قانون الجزاء.

المادة التاسعة والسبعون ـ تجوز الحماية بدولة من الدول في الحالات الاستثنائية التي هي :

أولا ـ أن يكون الرجل موظفا أو مستخدما في دار قنصلية دولة أو في احدى الادارات أو المحلات الاجنبية الرسمية مثل كاتب أو مخزني أو بواب وما شاكل ذلك.

ثانيا ـ ان يكون ساكنا خارج المغرب سكنى دائمة تقضي عليه بان يتجنس بجنسية الدولة المستوطن فيها.

ثالثا ـ ان تكون له صلات ومصالح مع الاجانب توجب عليه ان يتخذ الحماية. ومع هذه الحالات الثلاث لا تعتبر حمايته ما لم تقررها هيئة الوزارة ويصادق عليها السلطان.

المادة الثمانون ـ يجب على طالب الحماية أن يقدم كتابا إلى هيئة الوزارة يبين فيه الاسباب الملجئة إلى الحماية، وعلى هيئة الوزارة ان تفحص مطلبه. فاذا وجد مناسبا يعطى رخصة الحماية مصادقا عليها من السلطان.

المادة الحادية والثمانون ـ كل محتم قديما (اي قبل اعلان الدستور) بدولة من الدول يبقى على حمايته وعلى الحكومة ان تعامله معاملة تبعة تلك الدولة المتحامي بها بدون فرق ولا تميز.

المادة الثانية والثمانون ـ كل من رجع من المتحامين إلى تبعة الدولة المغربية يقبل رجوعه ويحق له ان يتمتع كسائر ابناء الامة بكل حقوقه الشخصية والمدنية.

التعليم

المادة الثالثة والثمانون ـ على وزارة المعارف ان تنشىء مدارس في بلدان السلطنة جميعا وبين قبائلها، وذلك بمساعدة الحكومة ومنتدى الشورى والامة نفسها، وتكون هذه المدارس الوطنية تحت مراقبتها مباشرة.

المادة الرابعة والثمانون ـ ان المدارس الوطنية ثلاث رتب :

1) المدارس الابتدائية ـ وهي ضرورية في كل بلدة وقبيلة، كبيرة وصغيرة، للذكور والاناث، وهذه المدارس تكون مقصورة على بث الاداب وتهذيب الاخلاق وتعليم القراءة والكتابة باللغة العربية واصول الدين ومبادىء العلوم الاخرى الضرورية التي تفصل في قانون المدارس المغربي.

2) المدارس الثانوية ـ وهذه لازمة للذكور فقط في البلدان الكبرى لا غير. وتدريس العلوم فيها يكون بالطرق الحديثة والكتب العصرية بحسب قانون المدارس.

3) المدارس العليا أو الكليات ـ لا يقتضي ان يكون في السلطنة في بدء الامر الا كلية واحدة وهي جامع القرويين. غير انه من الواجب اجراء تحسين واصلاح في كل شؤون هذه الجامعة المادية والمعنوية، وادخال تدريس العلوم اللازمة للعصر فيها ووضع قانون تجري عليه بموجبه.

المادة الخامسة والثمانون ـ ان من واجبات وزارة المعارف ان تجبر الاباء بقوة الحكومة اجبارا على ارسال اولادهم الذكور إلى المدارس الابتدائية من سن السادسة، وكل والد خالف هذا القانون يكون تحت طائلة الجزاء. أما المدارس الثانوية فالدخول فيها اختياري.

المادة السادسة والثمانون ـ ان مدارس البنات تكون في أول الامر ابتدائية والذهاب اليها بالتحريض والترغيب، وليس بالوسائط الاجبارية.

المادة السابعة والثمانون ـ على وزارة المعارف ان تهتم بانشاء المدارس الصناعية والزراعية بعد خمسة اعوام من فتح المدارس العلمية.

المادة الثامنة والثمانون ـ ان التعليم في المدارس جميعها مجان اي بلا عوض، والنفقات اللازمة للمدارس ينظر فيها منتدى الشورى ويقررها، فيأخذ بعضها من خزينة الدولة، وبعضها من ريع الاوقاف واملاك الدولة، وبعضها من الامة وخصوصا من الاغنياء.

المادة التاسعة والثمانون ـ يجب ان ينتخب المعلمون الاكفاء من ابناء العلم الوطنيين المتنورين ومن الغرباء الحائزين على شهادة المدارس المشهورة بقطع النظر عما هم عليه من الجنسيات والاديان.

المادة التسعون ـ لكل واحد من الراغبين في نشر العلم سواء كان وطنيا أو أجنبيا أن ينشيء مدرسة أو مدارس لتعليم العلوم أو الصنائع أو غيرها. وهذه المدارس الاجنبية لا تكون تحت مراقبة وزارة المعارف، ويحق للاباء ان يرسلوا أولادهم إليها.

ملحق حول اختصاصات منتدى الشورى

المادة الحادية والتسعون ـ ان رأي منتدى الشورى هو فوق كل رأي، ويقتضي العمل بحكمه في كل حال. وله المراقبة على الادارات والدوائر المخزنية بلا استثناء.

المادة الثانية والتسعون ـ يهتم منتدى الشورى فس سنته الاولى بسن وتنظيم قوانين لكل ادارة من الادارات الحكومية : للوزارات وللمحاكم في القصبات، ولدار النيابة، وللمحاكم القضائية والعدول، ولامانة الاستفادة، وللحسبة ولامانة الديوانات، وللعسكرية، وللمدارس، وللضرائب والجبايات، وغيرها، فيكون لكل من هذه الادارات والامور المخزنية قانون خاص بها تسير بموجبه وتعمل بمقتضاه

المادة الثالثة والتسعون ـ لا يسوغ لاحد ان يبطل مادة من مواد هذا الدستور الاساسي ولا يوقف العمل بها لاي سبب كان على الاطلاق ولا ان يغير منه شيئا أو ينقحه، أو يزيد عليه مادة أو ينقص مادة، ماعدا منتدى الشورى الذي له وحده ان يفعل ذلك، فان رأى منتدى الشورى ان ياتي شيئا مما ذكر لمقتضيات الاحوال ولمصلحة الدولة والامة فيكون ذلك بقرار مجلس الامة ومجلس الشرفاء وبحكم الاكثرية، ولا يعمل بذلك القرار الا من تاريخ المصادقة السلطانية عليه.

القسم الثاني

فنون المعرفة

الفصل الأول

الإنسانيات والأدب

التاريخ

انصب التـاريـخ كله تقريبا على المغرب، وهو يهتم قبل كل شيء بالاحـداث السيـاسيـة وبـالاشخـاص ولا يخلو من عناية ببعض المدن أو الجهـات، فهـو تاريخ إقليمي أو محلي أو مسجل لنشاط الملوك والصراعات الـداخليـة. والغـريب عن المغرب، وحتى المغربي غير المتخصص يحكم على ماضي المغـرب بالعقم والسلبيـة المطلقـة إذا التفت إلى كتـابـات مؤرخي الفـترة التي نحن بصـددهـا من حيث منظورها الكلي. والمؤرخون الـرئيسيـون هم موظفـون رسميـون، وفيما عدا مؤلف «الاستقصا» الذي لكتـابـه مميزات خاصة فالآخرون يكتبون التاريخ لحساب الدولة عادة كما هو الشأن في الزياني وأكنسوس، لكن التقارير الدبلوماسية والرحلات التي دونهـا المـواطنـون عن الشـرق والغرب تساهم في إغناء التاريخ العام، أو على الاقـل في توضيـح المنظـور المغـربي للصور الحضارية والاجتماعية في أفقها الاوسع.

وليس هنـاك متخصصـون في التـاريـخ ما لم نحسب المؤرخـين الرسميين وفي الاطار الوطني والزمني الذي يعايشونه أو الذي يرتبط مباشرة بعصرهم. وحينما يكتب أي مؤرخ أو مساهم في تدوين التاريخ فهو يرتبط بأشخـاص بعينهم، لان هؤلاء الأشخـاص يملكـون نصيبـا ما من القدسية، فهم ملوك أو اشراف أو صلحاء أو أساتذة، ولا بد أن سلوكهم يجد تبريـرا حتـى في حال سلبيتـه، من جانـب المؤرخ، ما عدا بعض الاستثنـاءات التي سيأتي ذكـرهـا. وهؤلاء الخـواص هم الـذين يحركون الأحـداث في نظـر المؤرخ، وهم الـذين يخططـون مجراهـا ومرساها وليس

للمحيط الاجتماعي والجذور العميقة الا حظ تافه وعرضي إذا ذكر. وفي الغالب هناك تعاطف مسبق مع هؤلاء الذين يكتب عنهم المؤرخ، وهذا التعاطف يسود مختلف الكتابات وينعكس عليها كقوة دافعة لا تضبطها قوة موازية للتحليل والنقد الهادىء والالتفات إلى الكتل البشرية التي تفرض نفسها على الزمن والمكان والافراد.

ويظهر أن أهم الموضوعات التي أثارت اهتمام المؤلفين والقراء في ميدان التاريخ خارج نطاق المجتمع المغربي هوما يتعلق بصدر الاسلام، وخاصة شخصية الرسول (ص) وسيرته. وممن كتبوا في هذا المجال أحمد ابن محمد بن عطية (ت 1129 / 1716) صاحب : التفكير والاعتبار في تاريخ المصطفى وبعض أصحابه الاخيار، وأصله بالخزانة السودية بفاس، وعامر بن الحسن الهكسيمي الذي ألف عن صفات الرسول والخلفاء الراشدين. وتوجد نسخة منه بالخزانة الملكية بالرباط، والامير عبد السلام شقيق مولاي سليمان وقد كتب مناهل الصفا في أربعة أجزاء عن سيرة الرسول (ص) كما في إعلام المراكشي.

وفي مذكرة من ثمان وعشرين ورقة تناول عبد الله بن محمد بن الطاهر بن حمو في المواهب الغزيرة في ذكر ما للوزيرة الصديقية (خ. م. رقم 1886) جملة من أخبار النساء، وبخاصة سيرة عائشة زوج الرسول (ص).

وبصرف النظر عن الرحلات التي عنيت بالمدن والبقاع المقدسة نجد وصفا خصص لهذه الاماكن في مذكرات على حدة كما هو الشأن في «قرة العين في أوصاف الحرمين» لمحمد المحجوبي (خ. م. رقم 2630)

ونالت بعض المدن المغربية نصيبا من اهتمام المشتغلين بالتاريخ وذلك لظروف سياسية غالبا حيث يكون لهذه المدن اسهام يتفاوت أهمية في صنع الاحداث السياسية أو التأثر بها. وهناك أيضا الاهتمام بدورها الفكري، وفي مقدمة المدن نجد كلامن سجلماسة وفاس. وسجلماسة أصبح يطلق على منطقتها اسم تافيلالت، لكن الاسم التاريخي للمدينة لم يندثر. وبوصفها مهدا للدولة العلوية كتب عنها محمد بن العربي بن جار وصفا في 75 ورقة تناول على الخصوص خططها وانطلاقة الدولة العلوية منها (خ. م. رقم 4492). وهناك مذكرة مشابهة لم يذكر مؤلفها

(خ . م رقم 2630)، كما وضعت لائحــة مهمــة عن فقهــاء الأشـراف والطلبة من أنجال مولاي علي الشريف بسجلماسة (خ . م . رقم 107)

ووضـع أبـو القـاسم الزياني أرجوزة عن حكام فاس وقضاتها حتى عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام (خ . م . 2348) كما كتب محمد بن علي الـدكـالي مذكـرة بعنـوان ضوء النـبراس في محاسن مدينة فاس، أتمها سنة 1308 / 1890 وذكرها اين سودة في الجزء الأول من دليله.

وهناك بعض التقاييد عن أحداث سبتة ومليلية تناولها معايشوها كما هو الشأن في تقييد عن مناوشات حدود سبتة والتي أدت إلى حرب تطوان وصـاحبـه هو محمد السقاط التاودي (خ . م . 3086) وتقييد آخر لمجهول عن المنـاوشـات مع الاسبـان حول حصن مليليـة في عهـد مولاي رشيـد ومولاي إسماعيل (خ . م . 2873)

ومـا ألف عن مكنـاس كتـاب النفحـات الوردية لاحمد الكنكسي الجبلي من شخصيات القرن 13 / 19 وذكره ابن سودة في دليله نقلا عن الاتحاف ج 1 لعبد الرحمن بن زيدان الذي تحدث أيضا عن كتاب تناول تأسيس تطـوان وبعض شخصيـاتهـا وعنـوانـه نزهـة الاخـوان وسلوة الاحزان. . (دليل 1، 62).

وخصص محمد المكي بن ناصر الدرعي (1158 / 1738) لدرعة ورجالاتها جملة من المصنفات تميط اللثام عن ماضي هذه المنطقة خاصة في الميـدان الفكـري والـديني ككتـابه الدرر المرصعة في أعيان درعة، والذي سبق لمؤلف هذه الـدراسـة أن رجـع إليـه في (المغـرب عبر التـاريـخ) وفي (السيـاسـة والمجتمع في العصر السعدي)، وكطلعة الدعة في أخبار درعة وغيرهما (عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة مغربية، 2، 134).

وكتـب محمـد بن أبي القـاسم المـراكشي معاصر السلطان محمد بن عبـد الله مذكـرة عن فتـح البريجة (الجديدة) سماها الحلل البهيجة في فتح الـبريجـة، وتـوجـد إحـدى نسخهـا المخطـوطـة بالخزانة العامة بالرباط. ومعلوماتها على العموم سطحية لكن لا تخلو من فائدة.

كذلـك كتب إبـراهيم المـاسي (قرن 13 ه) أخبار ماسة بها في ذلك مدارسهـا وخـزائنهـا ومثقفـوهـا. ونقل نص الكتاب دوكاستري في وثائقه السعدية (دليل 1، 29).

وتميـز العهـد بوضـع سلسلة من عشـرات الـدراسـات الخـاصـة بالانساب وما يرتبط بها من شجرات الأنساب. ومعظمها تثبيت وتوضيح لأنسـاب الأسـرة العلويـة وغـيرهـا كالأدارسـة والكتـانيـين والعمـرانيين والعلميين. وقد تتناول بعض الدراسات أشراف مناطق معينة كسجلماسة أو اسر بعينها كآل أمغار وأنجال مولاي علي الشريف الوزاني.

وحيث إن تخصيص الأشراف بامتيازات معنوية وإعفاءات ضرائبية يرجع إلى عصر بني مرين على الأقل، وان السعديين ألغى بعضهم هذه الامتيازات في أوائل نظامهم ثم تفاحشت منذ بداية الحكم العلوي، فإن مولاي إسـماعيـل دعـا نقيب الأشـراف علي بن عبـد السلام العلمي إلى وضـع ديـوان يصحـح فيـه أنسـاب الأشـراف بالاعتـماد على معلومـات الجهـات المختصـة بالقبـائـل والمنـاطق في عمـوم المملكة، وتم وضع هذا الـديـوان سنـة 1123/1711 (1) لتحـديـد المستفيدين من الامتيازات والتشـريفـات. ولهـذا ألغى السلطـان محمد بن عبد الله هذه الامتيازات وصحـح من جديـد لائحة الأشراف معتمدا على الديوان الذي وضع في عهـد مولاي إسـماعيـل وعلى المعلومـات الجـديـدة التي دونها الاداريون والمختصـون، غير أن الضرائب والزكوات الخاصة بالأشراف عهد بها إلى أشياخ من بينهم.

وهكذا نجد كتب الأنساب تتكاثر على الخصوص في القرن 12 / 18 ويظهـر أن عددا منهـا وضـع بأمـر بعض الملوك كما هو الشأن في (فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير) والذي أنجز بأمر محمد ابن عبـد الله على يد محمـد بن عبـد الصـادق بن ريسـون (2) (ت. 1236/1820). ولم يختص الأشـراف وحـدهـم بهذه الـدواويـن بل وضعت دراسات عن أنساب أسر بارزة من غيرهم (3).

1- ابن سودة، دليـل 1، 99-10 . م.ع. الله عنـان، فهـارس، 1، 176. (وبـالنسبـة لهذا المرجع فقد أسند وضع ديوان مماثل إلى شخصيتين أخريين).

2- م.ع. الله عنان، فهارس، 1، 248 و370

3- انظر دليل مؤرخ المغرب لابن سودة ج 1، من ص 74 إلى 121

وألـفـت كتـب كثـيرة عن الطبقـات تختلف من الشمـوليـة إلى التخصص في طبقـة معينـة كالصـوفية والادباء. وعلى العموم فالصلحاء يأخـذون بنصيب كبـير من هذه المؤلفـات، ومنهـا حسبـما ورد في فهـارس الخزانة الملكية ودليل ابن سودة :

1- ازهار البستان في طبقات الأعيان، لاحمد بن عجيبة، وصل منه الجـزء الأول الـذي يوجـد بالخـزانـة الملكية بالرباط نسختان منه ويتناول أعيان المذهب المالكي ومشاهير اللغويين والمفسرين والمحدثين.

2- الاكليـل والتـاج لمحمـد بن الطيب القادري وهوذيل أومختصر للذيل الذي وضعه أحمد بابا لكتاب الديباج لابن فرحون في أعيان مذهب مالك.

3- الأنيس المطـرب فيمن لقيتـه من أدبـاء المغـرب لمحمـد الطيب العلمي (1134/1721) وهـو يترجم لجملة من الادباء الذين عاصرهم العلمي بالمغرب، ويسجل بعض آثارهم

4- الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس لمحمد ابن عيوش الملقب بالشراط، وتم تأليفه سنة 1099 ه

5- الأنيس المطـرب فيمن لقيتـه من أدبـاء المغرب لمحمد الصميلي (1170/1756) هو ضليع في اللغة والادب.

6- بشارة الزائرين لداوود الرسموكي (1180/1767) تناول فيه علماء بعض جهات سوس وجهات أخرى كدرعة وسجلماسة.

7- تاريـخ في مشـاهـير علماء المـالكيـة، نقل ابن سودة عن المختار السوسي أنه يوجد بسوس كما ذكر عدة كتب في الطبقات عن سوس.

8- طبقـات المقـرئـين لمحمـد بن عبـد السلام الفاسي (ويظهر أنه ضاع أثره)

9- نشـر المثـاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب القـادري الـذي له مؤلفـات أخـرى في الـتراجم والـوفيـات. ونشر المثاني مشهور وسبق طبعه على الحجر. وسلسلة الطبقات طويلة ذكر ابن سودة (4) عددا كبـيرا منهـا ونختمهـا على الخصـوص بكتاب البدور الضاوية الذي

4- ابن سودة، م، س، ابتداء من ص 244

ألفـه عن أهـل الزاوية الدلائية علي بن محمد العكاري (1179/1764) وهـو من الكتب النـادرة التي عاصـر مؤلفوها الدلائيين أو كانوا قريبين من عصـرهم. وألف عبـد الـودود بن عمـر التـازي في نفس الموضوع: نزهة الأخبـار المـرضيـين في 30 ورقـة، ومنـه بعض النسـخ ب خ ع. بالرباط وأخرى كتبت سنة 1230 ب خ م (رقم 3772).

ووضعت تراجم فرديـة عن الصلحـاء والملوك والـوزراء. ومؤسسو الطـرق أكثـر النـاس حظـا من هذه الـتراجم. وقـد تحمـل الترجمة عنوان (منـاقب الشيـخ فلان) كمنـاقب الشيـخ الحضيكي ومنـاقب الشيخ عبد القادر الجيلاني الخ . . . والحق أن ما وضع من تراجم الصلحاء ومناقبهم إذا كان لا يغني التـاريـخ السيـاسي بشيء يستحق الـذكر الا نادرا فهي تسهم في إثـراء التـاريـخ الاجتـماعي بشكل مفيد. وهي بالنسبة للشعب نماذج حقيقيـة للحيـاة الفاضلة وصور بارزة للمجاهدة والتعالي عن الشره والفســاد الـذي غرق فيـه آخـرون من النـاس، بالـرغم مما تزخـر به من كرامات وخوارق يصعب تصديق الكثير منها. ويعد الشيخ الجزولي محمد بن عبـد الـرحمن بن أبي بكـر بن سليـمان من أكثـر الصلحـاء نصيبـا من الـتراجم. وقـد تأتي ترجمته منفردة أو في كتاب طبقات (5)، وكذا الشيخ أحمـد التيجـاني وآخـرون (6). وقليـل من هذه التراجم وضعها أفراد من عائله الصلحـاء أنفسهم وأقـل منهـا التراجم الذاتية (7). كذلك اتجهت العناية إلى ترجمة بعض السيدات الصالحات، ومن عناوين هذه التراجم:

منـاقب السيـدة مريم بنت مسعـود السملالي لأحمد الأدوزي معاصرها (ت. 1168/1754)، وكشف الأسى بمحاسن الصالحات من النساء لأحمد اليحمدي الفحصي، ومنه نسخة بالقرويين رقم 596 (دليل ابن سودة)

وممن تخصصـوا في الـتراجم والطبقات عبد السلام القادري ونجله القـادري الـذي كتب عدة تراجم غير نشـر المثـاني، والوزير أحمد بن عبد

5ـ عنان، فهارس، 1، 109، 231، 291، 324

6ـم.س.ص.، 60، 93، 119، 136، 230، 236، 285، 294ـ297، 322. ابـن سودة، دلـيـل، 1، 178ـ242. عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة، 3، 140

7ـ دليل، 1، 195، 230

الوهاب الغساني وله تراجم منفردة لكل من المهدي الفاسي وعبد السلام القادري ومحمد المسناوي وغيرهم. وتوجد نسخ من بعض مؤلفاته بالخزانة العامة أو الملكية بالرباط.

وحيث إن عدوى الأراجيز بلغت ذروتها في هذا العصر فإن التاريخ وملحقاته لم يسلم من هذه المنظومات التي كان هدفها تسهيل استيعاب المعلومات على الطلاب حتى صارت الأراجيز هي نفسها هدفا وإن لم يكن حفظها يخلو من فائدة. وهكذا نجد الفقيه الوزير ابن إدريس يخصص ارجوزة لصلحاء مكناس، مثلما نجد الأراجيز عند غيره تشمل الأنساب والأحداث السياسية وما إلى ذلك.

وعندما نلقي نظرة على لائحة التراجم التي ترتبط بشكل ما بالجانب السياسي نجد شخصيات الأسرة العلوية الحاكمة على رأس اهتمامات الكتاب. كذلك نجد بعض التراجم عن الأدارسة وخاصة تلك التي وضعها أفراد منهم أو متعاطفون معهم، ونجد في مقدمتها :

1ـ الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب إدريس بن إدريس لأحمد ابن عبد الحي الحلبي (8) نزيل فاس (ت. 1120/1708). وطبع على الحجر بفاس 1300/1882

2ـ المشرب النفيس في ترجمة مولانا إدريس بن ادريس لعبد الكبير بن محمد الكتاني (1333/1914).

النبذة اليسيرة النافعة التي هي لأخبار السلالة الكتانية، لابن جعفر محمد بن إدريس الكتاني (1345 / 1926).

وارتبطت الكتابة عن الأدارسة وخاصة الكتانيين بتوقيت محدد، فهناك من جهة، الحركة الواسعة التي شملت أنساب الأشراف خلال القرن 12/18، بعد ظهورها قبله، ثم الدور السياسي والطرقي للكتانيين قبيل الحماية وبعيدها.

وبين ملوك الدولة العلوية قبل الحماية اختص مولاي الحسن بأكبر عدد من التراجم، في الوقت الذي لم يخصص لجده الكبير مولاي إسماعيل

8ـ عنان، فهارس، 1، 159. مراكشي، إعلام 2، 332. 8، 168. ابن سودة، دليل، 1، 149

الا عدد أقل. وبدون شك فإن مولاي الحسن كان أكثر انفتاحا على الآخرين وأشد رغبة في أن يتعرف على أصداء قراراته ومواقفه من خلال ما يكتب عنه. ومن التراجم الملكية :

1ـ روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف لمحمد الصغير اليفرني المتوفى في أواسط القرن 12 / 18م. واليفرني هذا هو صاحب نزهة الحادي الذي يعد من المصادر الأساسية عن السعديين. أما روضة التعريف فكانت نسختها الأصلية بخزانة قاضي مراكش العباس ابن إبراهيم (صاحب الاعلام) (9). ونشرته المطبعة الملكية (1962/1382).

2ـ الدرة المكنونة الغالية في وصف أهل الدولة العلوية العالية للعربي بن عبد السلام السجلماسي (77 ورقة) ويتناول أوائل الدولة العلوية خصوصا مولاي إسماعيل (خ.م. رقم 1439) (10).

3ـ تاريخ خلافة مولانا أحمد الذهبي (ابن مولاي إسماعيل). ذكره ابن سودة في دليله ج 1 دون أن يتحقق من مؤلفه، وكان ضمن كتب الخزانة الملكية بفاس ولم تورده فهارس الخزانة الملكية (ج1) بهذا العنوان على الأقل.

4ـ اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار للأمير عبد السلام في ترجمة والده السلطان محمد بن عبد الله. وكان أصله بالخزانة الملكية بفاس (11).

5ـتأليف للأمير الحسين في ترجمة والده السلطان محمد بن عبد الله (12). ذكره الضعيف، واستقى من معلوماته.

6ـ التاج الاكليل في مآثر السلطان الجليل لأبي القاسم الزياني في ترجمة مولاي سليمان (خ.ع. الرباط رقم 241) (13).

9ـ ابن سودة، دليل، 1، 152ـ153

10ـ عنان. م.س. ص 168

11ـ ابن سودة، م.س. ص 129

12ـ ن.م.ص. 140

13ـ ن.م.ص. 133

7ـ جمهـرة التيجـان لنفس المؤلف (45 ورقـة) ويجمع بين التعريف بالأدارسـة والعلويـين وشخصيـة مولاي سليـمان العلميـة وسيرته الخاصة (خ.م. رقم 6778) (14). وكذلك اهتم بالجانب الثقافي من شخصية مولاي سليمان محمد التهامي بن المكي بن رحمون (ت. 1263/1848) وهذا الكتيب في 37 ورقة (خ.م. رقم 561) (15).

8ـ إعـراب الابتسام عن دولة ابن هشام، لادريس الجعيدي من كتاب القصر الملكي في عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام، ألفه في ترجمة هذا السلطان (16).

9ـ عقد الجمان في شمائل السلطان المولى عبد الرحمن لأبي القاسم الزياني، من كتب الخزانة الملكية بفاس، ويتميز الكتاب بمعلومات عن الوضع السياسي لهذا العهد، ومعلومات عن المسؤولين المخزنيين (17).

10ـ رشفة اللهفان (سبع ورقات) لمجهول، في نسب مولاي عبد الرحمن وفضائله (خ.م. رقم 5223) (18).

11ـ الـدر المنتخب المستحسن في بعض مآثـر أمـير المؤمنـين مولانا الحسن، لأحمـد بن محمـد بن حمدون بن الحـاج. أصله في عدة أجـزاء، يوجـد منهـا جزء في 220 ورقـة يتنـاول عهـد السلطان محمد بن عبد الله (خ.م. رقم 1920) (19).

12ـ الـدرر الجـوهـرية في مدح الخلافة الحسنية لنفس المؤلف، في جزأين : 249 و247 ورقة. وهو كتاب قصائد أمداح ومولديات ووثائق (خ.م. 512)

13ـ الـدرة السنيـة في ذكـر الدولة الحسنية (87 ورقة) لمحمد بن أحمد بن رحمون (خ.م. 481)

14ـ عنان. م. س. ص 332

15ـ م. س. ص 163

16ـ مراكشي، اعلام، 8، 142

17ـ ابن سودة، دليل 1، 171

18ـ عنان، فهارس، 1، 201

19ـ م. س. ص 158، عبـد العـزيـز بنعبد الله، موسوعة، 1، 65، وهو (أي الدر المنتخب) من مراجع المراكشي (إعلام 8، 342)

14ـ مطالع الحسن واتباع السنن وطلوع راية مولانا الحسن، لعلي ابن محمد السملالي (82 ورقة) ويتناول الجانب السياسي من عهد السلطان وبالأخص ما يتعلق بالاطلس المتوسط (خ. م. 81).

15ـ المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية (260 ورقة) لعبد السلام اللجائي، وهو يجمل تاريخ الأنظمة المغربية ثم يتوسع في عهد مولاي الحسن وسيرته (خ. م. 460)

16ـ نشاط الأذهان وتحفة الاخوان في استنباطات ومناقب مولانا الحسن للحاج طاهر العماري وهو تنويه بسيرة السلطان ومميزاته الذهنية (خ. م. 1707).

17 ـ حديقة الاسرار السنية في الطلعة الصحراوية الحسنية لعبد الله بن عبد السلام الفاسي (11 ورقة)، ويتناول رحلة السلطان إلى الصحراء الجنونية سنة 1310/1892 وقيامه بالاشراف على استخلاص الجباية (خ. م. 3772) (20).

18ـ سلوك الذهب. . . لعبد الله بن عبد السلام الفاسي (مطبعة حجرية بفاس 1325/1907)

19ـ الدرر الابريزية في المناقب العزيزية لأحمد بن الحاج السابق ذكره (181 ورقة) وهو شبيه في طريقته بالدرر الجوهرية لنفس المؤلف في ترجمة مولاي الحسن (خ. م. 4107) (21).

20ـ الذهب الابريز في محاسن السلطان مولانا عبد العزيز لمحمد ابن رشيد العراقي الحسيني. ألف حين بيعة مولاي عبد العزيز (22).

21ـ الدرر اللفظية في المملكة الحفيظية (29 ورقة)، ومؤلفه مجهول يظهر أنه من مكناس، حيث يتناول بيعة الوفد المكناسي للسلطان عبد الحفيظ وينوه بتعيين محمد بن عبد السلام الطاهري لنيابة الأحكام الشرعية بمكناس (خ. م. 3640) (23).

20ـ بالنسبة للارقام 12 إلى 17 ينظر: عنان. م.س. ص 162، 169، 288، 315، 352، 433

21ـ م.س. ص 161

22ـ ابن سودة، دليل 1، 155

23ـ عنان، فهارس، 1، 167

22ـ طلوع البدر السعيد بوزارة مولانا اليزيد، لعلي بن جلول الفاسي في ترجمة السلطان مولاي اليزيد بن محمد بن عبد الله (خ.ع. الرباط) (24).

إن أغلب هذه التراجم التي تحمل اسماء أحجار كريمة لا تصور حقيقة الأوضاع في عهد الذين خصصت لهم، ولا هي شاملة لمناحي الحياة العامة ولا الخاصة كما أنها بعيدة عن المنهجية التي نجدها لدى مؤلفين أوروبيين معاصرين. ولكنها تلقي أضواء على بعض الجوانب من الأوضاع السياسية، وبعضها غني بالوثائق التي هي في حد ذاتها ذات قيمة.

ومن تراجم الوزراء، ترجمة علي بن أحمد بن مصباح الزرويلي اليصلوتي للوزير اليحمدي بعنوان سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير أبي العباس اليحمدي (187 ورقة) وهو تعريف واف بهذه الشخصية التي كان لها دور كبير في توجيه سياسة مولاي إسماعيل ومع ذلك فالكتاب طافح بالقصائد وأبواب الأدب مع رسائل تلقاها الكاتب من الوزير (خ.م رقم 521) ومنه نسخ متعددة بنفس الخزانة.

وترجم أكنسوس للوزير محمد بن الطيب بن اليماني (ت 1286/1869) في كتاب بعنوان: حسام الانتصار في وزارة بني عشرين الانصار. طبع بمصر (25). وكتب أحد الشاميين ترجمة للصدر الأعظم أحمد بن موسى كما ترجم في نفس الكتاب لبعض علماء فاس والرباط (26). وكان المغرب مقصدا للعديد من الشاميين وبعضهم كانوا لاجئين به من الحكم العثماني.

وتساهم كتب الوفيات والحوادث في ضبط وفيات الأعلام الشخصية وإلقاء ومضات سريعة على بعض الحوادث التي كثيرا ما تهملها كتب التاريخ السياسي وهي مع ذلك ذات فائدة. ومن بين هذه المجموعة:

24ـ ابن سودة، م.س. ص 155
25ـ ن.م. ص 205
26ـ ن.م. ص 202

1ـ تذكـرة المحسنـين (أو المحبـين كما في بعض النسـخ) بوفيـات الأعيـان وحـوادث السنـين لعبـد الكبـير بن المجـذوب الفـاسي (27). ويتنـاول فترة متأخـرة من القـرن 12 وحـوالي ثلثي القـرن الثـالث عشـر للهجرة. ومنه نسخ بالخزانة العامة والخزانة الملكية بالرباط.

2ـ التقاط الدرر لمحمد بن الطيب القادري (146 ورقة) ويشمل القرن 11 ومعظم القرن الثاني عشر.

3ـ الاعـلام بمن عبر من أهـل القـرن الحـادي عشـر لعبد الله بن محمـد بن عبـد الـرحمن بن عبـد القـادر الفـاسي (ت. 1131/1718) ويـوجـد من الكتـاب حوادث النصف الأخـير من القـرن الحـادي عشـر (خ.م. 3737، الرباط). ويرى ابن سودة أن صاحب نشر المثاني جعله من مستنداته دون أن يذكره (28).

4ـ تحقيق الخـبر عمن مات من علماء القـرن الثـالث عشـر لعلي بن إدريس قصارة (ت. 1259/1843)

وتشغل الفهارس حيزا كبيرا من تراث العصر، وهي مصنفات تحدد لوائـح الكتب والمـواد التي تلقـاهـا مؤلفـوهـا وأسـماء الشيوخ الذين قاموا بتـدريسهـا. وقـد تشمـل معلومات أخرى تختلف أهمية كنصوص بعض الاجـازات وأسـماء المعـاهـد وربـما معلومات عن طرق التدريس وما إلى ذلك، وأغلب الفهارس يؤلفها أصحابها في سن متقدم حتى يتاح إضافة مزيد من الشيوخ وبالاخص المجيزين الذين لا تقف استجازتهم عند سن معـين. ولا تحمـل هذه المصنفـات بالضـرورة اسم فهـرس كما أن بينها ما خصص لغير مؤلفيها.

وبمـراجعـة دقيقـة للوائـح هذه الفهارس يتبين أن أخصب مرحلة لانتاجها هي القرن الثاني عشر (18 م) والثالث عشر (19 م). وبالمقابل نجـد عدد الفهـارس أقـل في القـرن الحادي عشر، ومن جهة أخرى فإن الشيوخ الفاسيين يمثلون أكبر عدد من المؤلفين في القرن الثاني عشر، بينما تتـوزع الانتـماءات المحليـة بين عدد كبير من هؤلاء خلال القرنين الحادي

27ـ مراكشي، إعلام 8، 157، وقد أورد ترجمة ابن المجذوب

28ـ ابن سودة، ص 247

عشر والثالث عشر. ولعوامل الاستقرار السياسي أو ضعفه، وكذلك دور مراكش ومراكز ثقافية أخرى أثر في هذا التنوع، دون أن يتوقف إشعاع فاس كمركز رئيسي.

وفيما يلي لائحة بعدد كبير من كتب الفهارس :

اـ القرن الحادي عشر (النصف الثاني منه) :

1ـ فهرست الحسن بن مسعود اليوسي 1102 ه (خ.م 1183) ولم يتممها المؤلف

2ـ فهرست عبد القادر بن علي بن يوسف 1096 وضعها نجله عبد الرحمن (خ.م. 6057)

3ـ أبو سالم العياشي عبد الله بن محمد 1090 : مسالك الهداية إلى معالم الرواية (خزانة ابن سودة بفاس وخ م)، وله فهرست صغرى (دليل ص 285)

4ـ محمد بن محمد ين سليمان الروداني 1094 : صلة السلف بموصول الخلف (خزانة محمد الحجوي/دليل 304)

ب ـ القرن الثاني عشر :

1ـ محمد بن العباس بن يس الجزولي : المواهب القدسية في أسانيد بعض المشايخ الصوفية (مراكش، إعلام، 6، 170) ودليل ص 303

2ـ عبد الرحمن بن إدريس المنجرة 1179 : فهرست (في كراستين) باسم الاسناد الخ.. دليل، ص 289، الخزانة السودية

4ـ محمد بن الطيب الشرقي الصميلي، 1170 : المواد المسلسلة من عيون الأسانيد المسلسلة (دليل ص 303)

5ـ أبو القاسم الحميري 1178 : التنبيه والاعلام بفضل العلم والاعلام (خ م 560 والخزانة السودية بفاس، دليل ص 319)

6ـ أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، 1175 : فهرست الهلالي (خ م 158، وسودية، دليل ص 318)

7ـ محمد التاودي بن سودة، 1209 : فهرس الشيخ التاودي (خ م 7172، وسودية مع ذيل عليها، دليل ص 321)

8ـ فهرست الشيخ محمد بن الحسن بناني 1194 (خ م 1189، وانظر فهارس هذه الخزانة ص 385 ج 1 ودليل ص 320)

9ـ ابن زاكور محمد بن قاسم 1120 ه : ازهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان. طبع بالجزائر 1319 ه. والمؤلف أديب منتج (دليل ص 287، بنعبد الله، موسوعة 1)

10ـ ابن عاشر أحمد بن عبد الرحمن الحافي 1163، صوفي وعالم : فهرست شيوخه بسلا وغيرها (قسم منها بخزانة الكتاني. دليل ص 318. بنعبد الله، م. س. 2)

11ـ أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي 1156 ه، فقيه عالم : فهرست شيوخه، ألفها بطلب من أحمد المكودي (خزانة الحجوي وإدريس بلماجي بفاس. دليل ص 317، بنعبد الله، موسوعة 2، 103).

12ـ محمد بن عبد الرحمن الفاسي 1134 ه عالم صوفي : المنح البادية والأسانيد العالية، 63 ورقة. الأصل بالخزانة الفاسية. (خ.م 5164، دليل ص 301)

13ـ عبد المالك بن محمد التجموعتي 1118 فهرست (خزانة فاسية، دليل 316)

14ـ محمد بن أحمد بن جلون 1136، فهرست شيوخه. حسب ابن سودة، استفاد منها سليمان الحوات في الروضة المقصودة (دليل ص 316)

15ـ علي بن محمد السقاط 1183، جمع بين التصوف والحديث : فهرست شيوخه (دليل ص 319)

16ـ إبراهيم بن علي الدرعي السباعي 1138، مشارك : الشموس المشرقة بأسانيد المغاربة والمشارقة (دليل 332)

ج ـ القرن الثالث عشر

1ـ محمد بن محمد الصادق بن ريسون العلمي، محدث صوفي، 1234 : فهرست شيوخه وضعها بطلب من أبي القاسم الزياني. (مراكشي، إعلام 6، 191)

2ـ محمد بن محمد التهامي بن عمرو الرباطي، فقيه أديب 1144 فهرست شيوخه (إعلام، 6، 227 ودليل ص 323)

3ـ محمد بن البصري المكناسي : اتحاف الهداية والسداد في 239 ورقة، منسوبا إلى محمد بن عبد الرحمن. وعبد الرحمن من أجداد المؤلف (خ م رقم 2115. بنعبد الله، موسوعة، 1، 48)، وتوفي المؤلف سنة 1276 ه.

4ـ ابن الحاج محمد الطالب حمدون 1274 ه، فقيه مشارك : روض البهار في ذكر شيوخنا الذين فضلهم أجلى من شمس النهار (أولاد الجابري بفاس. دليل، ص 298)

5ـ محمد بن عبد السلام الفاسي، 1214 ه، فهرست شيوخه نثرا ثم نظما. (خ. ملكية 1051، وانظر عنان، فهارس 1، 388. ابن سودة، دليل ص 321)

6ـ علي بن سليمان الدمناتي البوجمعاوي 1306 ه، فهرس مطبوع بمصر 1298 ه (دليل ص 287)

7ـ ابن أبي جيدة المعروف بمهيرز، محمد بن عبد الكريم الزرهوني الفاسي 1233 ه، بغية المرام فيمن أخذت عنه من الأعلام (دليل ص 293)

8ـ أبو الربيع سليمان بن محمد الحوات، 1232 ه، نسابة مشارك : ثمرة أنسي في التعريف بنفسي (أربعة كراريس، الخزانة الأحمدية ـ السودية ـ دليل ص 296).

9ـ عبد القادر بن أحمد الكوهن، 1253 ه، مشارك : إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والاسناد (خزانة أحمدية، دليل، ص 288. وحسب هذا المصدر تولى جمع هذه الفهرست تلميذه الكردودي بأمر من شيخه).

10ـ أبو القاسم الزياني 1249 ه، مؤرخ:جوهرة التيجان. . . خصصها لمولاي سليمان، وصفها محمد بن التهامي بن رحمون بأنها عديمة المثال غريبة الشكل (الخزانة الفاسية، دليل، ص 296)

11ـ يحيى البكري الجراري السوسي : ضوء المصباح في الاسانيد الصحاح (أربعة كراريس، خ أحمدية. دليل، ص 305)

12ـ محمد بن زروا الصفريوي، فهرست في نحو ثلاثة كراريس بعضها بخزانة الشيخ محمد إبراهيم الكتاني (دليل ص 323).

13ـ المهدي بن الطالب بن سودة 1294 ه : فهرست في نحو أربعة كراريس، خ أحمدية، دليل، ص 325

14ـ عبد الرحمن بن محمد البرنوسي الحمري، 1215 : سلسلة المشايخ (دليل ص 331)

15ـ العربي بن محمد الدمناتي، 1253 ه : سمط الجوهر في الأسانيد المتصلة بالفنون والأثر. (حسب الدليل ص 331، توجد أجزاء منها بخزانة الشيخ محمد إبراهيم الكتاني)

ولا يمكن استقصاء الفهارس التي وضعت خلال هذه الحقبة، ونذكر من أبرزها على سبيل الاشارة، فهارس ابن عجيبة ومحمد فتح الله بناني وعبد السلام القادري.

وهناك ما وضع خلال الثلث الأول من القرن 14ه أو من توفي أثناءه بعض كتاب الفهارس أو من وضعت عنهم كعبد الله الكامل ومحمد ابن القاسم القادري وأحمد بناني وإبراهيم التادلي الذي برز في عهد مولاي الحسن وسلفه، والبريبري وإبراهيم بن محمد العلوي وغيرهم، وأثناء هذه الفترة أنتج عبد الحي الكتاني عددا كبيرا من الفهارس أورد عناوينها صاحب الدليل.

حتى إذا انتقلنا إلى المؤلفات التي تمس التاريخ الوطني بشكل أوسع نجدها كلها تتخذ من سياسة المخزن محورا لاتجاهها. وبالرغم من أن مناهجها تتقارب من حيث اعتمادها على سرد الأحداث واهتمامها بالوقائع السياسية مع نقص كبير في الدقة وربط الأسباب حسب تمدد أفقها وتسلسل عمودها، فإن بعضها لا يخلو من أهمية فيما يخص الجانب النقدي فيها وإن كان محدودا في إطار وقائع ومواقف معينة.

وأنتج هذا العصر في الواقع عددا محدودا من الذين ساهموا في كتابة التاريخ الوطني بل السياسي الذي يهم المغرب، خاصة الفترة التي تتناولها هذه الدراسة. ويمكن وضع تصنيف لهذا التاريخ على أساس الروح العامة التي تطبعه والميولات الشخصية التي تبرز فيه تبعا لمواقف المؤلفين. وهكذا نجد هذا التاريخ :

1ـ مخزنيـا أو ملكيـا يعنى قبل كل شيىء، بنشاط الملوك وسياستهم الخاصة مع اتخاذ موقف التحبيذ في جل الأحوال. ويمثل هذا الصنف كل من الـزيـاني والأفـراني وأكنسوس. ولا يخلو هذا الصنف من روح نقدية أو غير مسايرة لاتجاه الدولة في حالات خاصة.

2ـ معتـدلا يرتبـط بالسيـاسة العامة ويحبذ ما يراه مستحقا للتحبيذ وينتقـد دون تهجم ما يراه مستحقـا للنقـد. ومن أبـرز نماذج هذه الفئـة الناصري والمشرفي

3ـ مستقـلا إلى حد، مع الالتفـات إلى دور الفـآت الشعبية التي هي أكبر عنصر في تنشيط الأحداث دون إهمال دور القيادة الرسمية. وأهم نماذج هذا الصنف الضعيف الرباطي.

4ـ تقـدميـا في شمـولية أفكاره وإلحاحه في إبراز العناصر الحضارية لدى العـالم المتقـدم ومواطن الضعف في المواقف السياسة وتعليلها منطقيا حسب الامكان. ويعد السليماني من أهم ممثلي هذه الفئة بقطع النظر عن حجم عمله التاريخي وكذا حجم أعمال غيره.

وإذا كان الأفـراني من أوائــل الـذين عاصـروا الحكم العلوي في مرحلتـين هامتـين من قوتـه وضعفـه (العصـر الاسماعيلي ومرحلة استبداد الجيش) فهو لم يقدم للتاريخ السياسي الذي عاصره شخصيا إلا قليلا مما كان بامكانه أن يقدمه. ففترة الحكم العلوي لم تشغل إلا حيزا محدودا من «نزهة الحادي» الذي يظل مقابل ذلك أحد المصادر ذات القيمة عن عهد السعـديـين بالاضـافة إلى معلوماته عن نضال المجاهد العياشي والحركة الـدلائيـة وحـركـة الجهـاد البحري. وكتب الافراني إلى ذلك (صفوة من انتشـر) وهـو مجموع تراجم لشخصيات مغربية متنوعة الاتجاهات، كما أن له أعـمالا أخـرى تنـاولهـا مترجمـوه كالقـادري في نشـر المثاني والمراكشي في الاعلام وابن المؤقت في السعادة الابدية. وتوفي محمد الصغير بن عبد الله الأفـراني أو اليفـراني المـراكشي سنـة 1151 / 1738، وسبق للمستشـرق هوداس الفـرنسي أن نشـر نزهـة الحادي بالفرنسية خلال عام 1888 م. ومما نشر للافراني: (روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف) و (صفوة من انتشر).

وكـذلـك يعد محمد بن أحمد الكنسوس (أو أكنسوس) من المؤرخين الذين التزموا خط الدولة كما هو واضح من كتابه : الجيش العرمرم الذي هو من مصادر الناصري في الاستقصا، ويبدأ بعرض لخلفاء وملوك الدولة الاسلامية قبل أن يدخل في معالجة أحداث المغرب في العهد العلوي من بدايته. وعلى العموم فهو يتبنى سوق الأحداث من غير ذكر مصادره غالبا الا ما ندر، ويـزكي أعـمال الـدولة. وفي عرض مقارنته بين الآثار المعمارية لمولاي إسـماعيـل وسلفـه البعيد أحمد المنصور الذهبي لا يرى غضاضة في الاستخفـاف بقصـر البـديع فهو عنده (كدار إبليس التي تباع في عاشوراء يلعب بها البنات . . .) ويربط الأحداث حسب تسلسلها الزمني، بل إن التسلسل الزمني هو مبدؤه قبل الأحداث نفسها مهما فقدت وحدة الزمان والمكـان شأن مؤرخين تقليديين آخرين. ولكننا نكشف فيه تفاصيل وافية عن بعض الجـوانب الأسـاسيـة مثـل تنظيمات الجيش. ولا يستنكف من الاحالة على بعض المصادر أحيانا وبينها بعض مؤلفات الزياني كالبستان (29) ولكنه كثيرا ما يرد على الزياني بالذات.

ويبـــذل أكنســـوس جهـــده في الـــدفـاع عن مواقف بعض الملوك وسيـــاستهم كما هو الشأن في قضيـة التجنيـد الاجبـاري في عهـد مولاي إسـماعيـل ومـوقف مولاي سليـمان بشأن المـذهب الـوهابي. ولا يخلو من استطـرادات تاريخيـة وأخـرى أدبيـة، وقـد ينقـل قصـائد برمتها أو بعض الـوثـائق التي توفـر عليها وبعضها كان متداولا على مستوى الامة كرسالة اليـوسي إلى السلطـان مولاي إسـماعيل. على أنه يمر ببعض الأحداث الهـامـة بشيء من السـرعة وعدم الموضوعية مثل النزاع بين مولاي اليزيد وهشـــام دون أن يحفـــل بالـدور التنشيطي للحـرب بينهـما والـذي قام به الاسبـان وكـانـوا يرون في سيـاسـة اليـزيـد ضررا بمصالحهم في المناطق المغتصبـة شمالا. إن كتـاب الجيش العـرمـوم لا يخلو من معلومـات قيمـة ومواقف واضحة لمؤلفه، ولكنه قاصر في عدد من الجوانب التي التفت إليها غيره كالضعيف مثلا.

وأكنســوس وصـف بسعـة الثقـافة فهو لغوي أديب حيسوبي فلكي عمـل كاتبـا في بلاط مولاي سليـمان الذي عينه بعد ذلك وزيرا، وتنكر له

29ـ أكنسوس، جيش، ص 76 و 83 (طن حجرية)

كبار المسؤولين بعد وفاة السلطان لكن مولاي اليزيد قربه. ويظهر ان أكنسوس كان صريحا في أقواله وأفعاله فكان له من أجل ذلك منافسون ومعادون وبينهم من كتب في الرد على آرائه ومواقفه كالمشرفي وأحمد البكاي، وتناولت الردود والرد عليها من جانبه قضية المذهب الوهابي والطريقة التيجانية والقادرية وغير ذلك، وتوفي سنة 1293 / 1877 ودفن بمقبرة السهبلي بمراكش. وكان السلطان مولاي عبد الرحمن قد عزله من منصب الوزارة ثم اشتغل بالفتوى والعدالة بعد ذلك مع عناية المخزن بوضعيته (30)

أما أبو القاسم الزياني فمؤرخ غزير الانتاج خصص معظم مؤلفاته ومذكراته لتاريخ المغرب وللحكم العلوي بالأخص، وأبو القاسم اسمه لا كنيته حسب ابن سودة في دليله وعباس المراكشي في الجزء الأول من الاعلام، فهو أبو القاسم بن أحمد بن إبراهيم الزياني، ولد بفاس 1147 / 1734، أي أنه ولد بعد وفاة مولاي إسماعيل بسنوات وعاصر الحقبة المضطربة التي امتدت بعده ثلاثة عقود وعاش أزيد من قرن شهد المغرب خلالها تقلبات كثيرة، ومن شيوخه بفاس، محمد بن الطيب القادري مؤلف نشر المثاني، والتاودي بن سودة ومحمد بناني وعبد القادر بوخريص، وحصل على ثقافة عامة جيدة في علوم الدين واللغة والأدب، وهاجر مع أسرته ووالده إلى الحجاز سنة 1169 هـ فحلوا بالمدينة ثم بمصر وعاد إثر ذلك إلى المغرب بعد تولية محمد الثالث، فعمل ببلاطه سنة 1200 حيث تولى أول سفارة عنه إلى اسطمبول. وتقلب بعد ذلك في المناصب وعينه مولاي سليمان عاملا على وجدة فنهب الاعراب قافلته قبل أن يباشر مهامه، فالتحق بالجزائر لاجئا ثم عاد ليوليه مولاي سليمان على التعاقب مناصب سامية كالوزارة والحجابة.

جال أبو القاسم بالمشرق وتعرف على بعض الأقطار الأوروبية واتصل بعدد كبير من المسؤولين في أقطار المشرق ولقي علماء وأدباء كعبد الرحمن الجبرتي بمصر واسماعيل العباسي بدمشق والشيخ عبد الله اليمني بالمدينة واسماعيل الجزاعي مفتي الحنفية بأنطاكية

30_ راجع حياته ومؤلفاته في الاعلام للمراكشي 7 ص 8. والموسوعة المغربية لعبد العزيز بنعبد الله ج 4، والاعلام للزركلي، 6، 244

ومن خلال مؤلفات الزياني نعرف أنه اطلع على عدد كبير من كتب التراث، بل انه تمكن من الاطلاع على بعض المصادر التي ربما كانت في حكم المفقودة الآن، ومنها ما قرأه بتلمسان واستفاد منه على طريقته أو بمنظوره، كتاريخ سليمان بن سابق المطماطي وتاريخ هاني بن يصدور القوصي وتاريخ كهلان الاوربي وغيرهم ممن أرخوا للبربر وكانوا نسابتهم.

وتعلق الزياني في فترة من تاريخ حياته بالغيبيات فدرس عنها ومارسها وتشبث بالخرافات والأوهام التي سادت عددا من مؤلفاته، وبالاخص الترجمانة الكبرى التي تناولت رحلاته إلى المشرق.

وكسائر المولعين بالاسفار والاتصالات الانسانية بين مثقفي المغرب الاسلامي نجد الزياني يجادل جلساءه ويدعي في كتاباته أنه هدم أباطيلهم، فهو يبدو ساخرا أو منتقدا لاي مذهب يعتقده خارجا عن السنة ولو كان هو خاطئا كسخريته من بعض فقهاء المعتزلة بالحجاز وانتقاده للمذهب الوهابي. وبالجملة فهو متعصب للمذهب المالكي بإصرار، حتى إنه كتب مذكرة جمع فيها بين الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة.

ومع أن ثقافة الزياني عامة و بالرغم من تنقلاته واتصالاته الفكرية على مستوى واسع، وتعرفه على مظاهر التطور الحضاري بمصر وتركيا فإنه نسب ابتكار طعام الكسكس إلى طبيب من جن سليمان. وقال عن المحيط الاطلسي أو البحر المظلم كما سماه إنه لا يعلم ما خلفه إلا الله تعالي ولا يقف بشر على تحقيق خبر. وقد كتب الزياني هذا في وقت كانت الولايات المتحدة قد أصبحت قوة دولية ذات شأن. وقال عن إحدى الجزر الاسيوية : ليس بها ذكر واحد الا النساء، يلقحن ويحملن من الريح بنساء مثلهن، إلى آخر خرافاته المنقولة أو المبتدعة (32).

وقد نكب الزياني أيام مولاي اليزيد لان الزياني وقف إلى جانب مولاي سليمان فلما وقع في قبضة اليزيد نكبه، وقال أكنسوس إن مولاي اليزيد ضربه حتى هلك (33) وهذا غير صحيح لان الزياني توفي بعد

31- زياني، ترجماته، ص 144

32- م.س. ص 283، 295، 305، الخ...

33- أكنسوس، جيش، ص 174

مهلك اليـزيـد بسنوات. وقد وصف الزياني نفسه هذه النكبة وصفا مؤثرا (34)، وكـان من سوء حظـه أن مولاي سليـمان بمجـرد توليته أراد أن يرد إليـه اعتبـاره، فعينـه عامـلا على وجدة فنكبه الاعراب ونهبوه قبل وصوله إليها فلجأ إلى الجزائر وتوالت عليه النعم والنكبات بعد ذلك.

وتوفي أبو القاسم الزياني بفاس يوم الاربعاء 4 رجب 1249 / 17 نونـبر 1833 ودفن بالـزاويـة النـاصـريـة بجوار الحرم الادريسي كما نقله عبـاس المـراكشي من تقـاييد بعض القضاة. وكتب الزياني جزءا مهما من ترجمته الذاتية في الترجمانة الكبرى بما في ذلك معلومات مفصلة عن دراسته وهجرته مع اسرته.

وهـو يكثـر من الاستطـرادات في مؤلفاته وقد يسجل بعض أشعاره مهـما طالـت أو نزلـت مستـوى. ولا يتردد في تسـجيـل دوره في بعض الاحـداث بعفـويـة وتـواضع، كما حمل بشدة على بعض الاتجاهات التي كان فيهـا لبعض ملوك المغـرب مواقف مرنـة متزنة كموقف مولاي سليمان من الوهابية والتيجانية، غير أنه سجل آراءه هذه بعد وفاة هذا العاهل.

على أن ما كتبه الزياني من كلام جاد، فيه الكثير من الحقائق التي لولا كتبـه لما وصلتنـا قط، أو هكـذا يحتمل، فقد كتب معلومات قيمة عن يهود الانـدلس الـذين اسلمـوا بعد استقرارهم بالمغرب منذ العصر المريني وأطلق عليهم اسم البلديين. ونقل بودن شك عن بعض المصادر الوطنية الأصليـة والتي فقـدت بعـده على ما يظهر، حقائق مهما كانت مقتضبة، عن عدد من المـدن الـبربـريـة التي حدد على الخصـوص، القبـائـل التي أسستها وأحيانا التي جددتها أوهدمتها كما نجد ذلك في الترجمانة الكبرى.

وهنـاك معلومـات هامة عن مجتمعات المغرب الاسلامي الكبير عبر التاريخ في الترجمان المعرب الذي هو واحد من المؤلفات النادرة التي كتبها مؤرخـون مغـاربـة في التـاريـخ الاسلامي العام، وهو على أي حال غني بالمعلومـات أحيـانـا عن المغـرب. وحيث إن الـزياني كتب عددا كبيرا من المصنفات الكبرى والصغرى عن العصر العلوي فإن كتاباته كثيرا ما يكرر بعضها بعضا لكن لأغلبها مميزات خاصة.

34ـ ترجمانة، ص 139

وبكلمـة مجملة، فإن لائحـة مؤلفـات الزياني تبين تنوع اهتمامات هذا المثقف الـذي لم تحطم النكبـات وهموم السنـين من عزائمـه فاستغـل فراغــه ليكتب ما كتب. وفي التـاريـخ بالـذات لا يخفي شخصيتـه وراء الآخـرين كما فعـل أكنسوس وسابقه الأفرني غالبا، فهويلتزم بالخط الذي يراه هو قويـا مهـما جلب على نفسـه من عداء أوغضب، وحتى لوكانت أفكاره ضيقة أو متعصبة. ولذلك فشخصية الزياني تظل في جميع الأحوال متميزة فلا هو صقر باستمرار ولا حمامة سلام لا تنقر.

وهـذه لائحـة بمؤلفـات الـزيـاني الـذي ينتمي إلى قبيلة معـروفة بالأطلس المتـوسـط وإن ولـد وعـاش قسطـا غيرقليـل من حياته كما مات بمدينة فاس، فقد ظل طيلة حياته متأثرا بحساسية الطبيعة الجبلية وعناد سكان الجبال وأنفتهم :

ا- في التاريخ

- الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب. خ، ع، الرباط
- الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبرا (مط، الرباط)
- قصة المهاجرين البلديين من أهل فاس (خزانة أحمدية، فاس. م كتاني بالخزانة العامة، الرباط).
- جمهرة التيجان في الملوك العلويين وأشياخ مولاي سليمان (خ. م. الرباط) والاصل ب خ. أ
- ألفيـة الـرمـوز لكشف ماخفي من الكنـوز (العصـر العلوي إلى مولاي عبد الرحمن).
- ألفيـة السلوك في وفيـات الملوك. منظـومة شرحها الزياني وتتعلق بملوك الاسلام (خ. أ، وم، ك)
- عقد الجمان في شمائل السلطان عبد الرحمن (خ. م. فاس) حسب دليل ابن سودة
- تكميل الترجمانة في خلافة مولانا عبد الرحمن (خ. م.)
- بغية الناظر والسامع... في تاريخ الدول الاسلامية والمغربية (خ. م)

ـ الـروضـة السليـمانيـة (العصـر العلوي مع نظـرة عن الـدول الاسـلاميـة) ويـوجـد ب . خ . ع . الرباط . الخزانة الزيدانية، مكناس . م . ك . خ . ع . مراكش

ـ البستان الظريف في دولة مولانا علي الشريف : خ . م / خ . ع . ، وهو أيضا يستعرض الدول الاسلامية ثم العلويين .

ـ التـاج والاكليـل في مآثر السلطان الجليل (خ . م / خ . ع / م . ك) ويتناول حكم السلطان مولاي سليمان .

ـ تاريخ الولاية المحمودة البدء والنهاية . (خ . ز . مكناس)

ـ تقييد في الشرفاء الشرفاء العلويين (خ . ابن الماحي الادريسي، فاس، والمنوني، الرباط)

ـ تحفة الحادي المغرب في رفع نسب شرفاء المغرب (خ . م . خ . أ ،) وعرضت نسخة لأحد الخواص بالمعرض السادس للوثائق والمخطوطات، وزارة الثقافة، الرباط

ـ تحفة النبهاء في التفريق بين السفهاء والفقهاء، وهي مذكرة تنتقد الذين عملوا على عزل مولاي سليمان سنة 1821م . (خ . أ . وانظر دليل، 1411)

ب ـ تراجم القضاة وشؤون القضاء والفتوى

ـ أرجوزة بعنوان : جمهرة من حكم بفاس وقضى في الدولة العلوية وجرى به القضاء (خ . م ، خ . فاسية . خ . أ)

ـ تكميل قضاة فاس على ما في جذوة الاقتباس (خ . م .)

ـ قصيـدة يطلب فيهـا الزياني من مولاي عبد الرحمن إباحة الفتوى بعد منعها (دليل 2 ، 427)

ج ـ في السياسة

ـ شرح الحـال والشكـوى للكبـير المتعـال، قصيدة تشرح وضعيته وتقـدم نصـائـح للسلطان مولاي سليمان، ويمكن إدراجها أيضا في باب الأدب (دليل 2 ، ص 430)

ـ مذكـرة في ذم باشـا فاس الطيب بن الـوديني في عهـد مولاي عبد الرحمن (دليل، 2 ، 447)

ـ رسـالـة السلوك فيما يجب على الملوك (قرويين)، وسماها بعضهم درة السلوك الخ.

د ـ في الجغرافيا

ـ الترجمانة الكبرى (سبق ذكرها) وتحتوي على أخطاء وخرافات كثيرة.
ـ رحلة الحذاق لرؤية البلدان والآفاق (خ. م، قرويين)
ـ إبـاحـة الأدبـاء والنحـاة في الجمـع بين الأخوات الثلاث. وهي رحلته الثالثة كما ذكر عباس المراكشي (إعلام ج 1)

هـ ـ في البدع

ـ الـدرة السنيـة الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الروافض والخوارج والمعتزلة والزنادقة (عباس المراكشي)
ـ كشف الأسرار في الرد على أهل البدع والأشرار
ـ نصيحة المغترين في بطلان التدبير للمعترين

و ـ فيما يتعلق بالسيمياء والكيمياء

ـ رشف الحميـا في علم السيميـا وبطـلان علم الكيميـاء (مقـدمة الترجمانة، لعبد الكريم الفيلالي، ص 36)
كشف أسـرار المحتـالـين الأشقيـاء الـذين يزعمـون علم الكيميا (عباس المراكشي، إعلام 1)
ـ تحفـة الاخـوان والأوليـا في ثبـوت صنـاعـة السيميا (بنمنصور، أعلام 2)

ز ـ في الادب

إضـافـة إلى بعض القصـائد السابق التنبيه عليها وتندرج أيضا في باب الأدب، يمكن أن نذكر هنا :
ـ مقامة في الاسرة الفاسية (خ. ع. ترجمانة ص 36)
ـ ديوان نثر وشعر (خ. م.)

- مقامة في ذم الرجال (بنمنصور، م. س) (35)

وكتب عن العصر العلوي أيضا، الضعيف محمد بن عبد السلام (المرابط) وكان معاصرا لابي القاسم الزياني. ازداد بالرباط 1165/1751 واشتهر باسم الضعيف الرباطي وكان متشبثا بمسقط رأسه إلى درجة انعكست بشكل طريف على كتابه الوحيد المتداول حتى الآن وهو المشهور بتاريخ الضعيف والذي يعرف أيضا بتاريخ الدولة السعيدة. وخصصه للعصر العلوي مباشرة دون ما سبقه. وهذا الكتاب يرتبط بأحداث السنوات وتسلسل الملوك دون اعتبار الوحدات الموضوعية. وهو في أغلب ما يعرضه أكثر تفاصيل من غيره لاسيما في المواجهات بين المغرب والأطراف المعادية ودور الأطراف الشعبية في الأحداث على اختلافها والاهتمام بمساهمة الضباط والقيادات الشعبية في المعارك واسترجاع الثغور وما إلى ذلك. ونادرا ما يعمد إلى إخفاء تصرفات الجيش الرسمي بعد استرجاع المراكز الثائرة أو الموالية لأمير مناهض. ويصبغ على الفقهاء في الغالب دورا طلائعيا ولا يتردد في تقديم تفاصيل عن تلكؤ الرباط وسلا في بيعة السلطان محمد الثالث وهو حينئذ شاهد عيان. ومعلوماته عن الأوضاع الاقتصادية لا تخلو من أهمية على الرغم من كونها ناقصة بشأن الاحتكارات الأوروبية ودورها في تخريب الاقتصاد الوطني. والضعيف يلتفت بصورة خاصة إلى الطبقة الضعيفة ويقدم نماذج كثيرة عن سوء الادارة الاقليمية وجشعها. والغريب أن الناصري وغيره ممن جاءوا بعد الضعيف لم يستفيدوا من كتابه وربما لم يطلعوا عليه، وقد ذكر ابن سودة في دليله أن النسخة الاصلية التي كتبها الضعيف نفسه توجد بالخزانة الأحمدية السودية بفاس، وأن كل النسخ الأخرى المتداولة بالمغرب أخذت عنها. وتوجد نسخة بالخزانة العامة ونسختان بالخزانة الملكية بالرباط. والمخطوط فيها لا يقل عن خمسمائة صفحة مع هوامش كثيرة.

35- يراجع عن الزياني : الاعلام لعباس المراكشي ج 1. عنان، فهارس، 1. ابن سودة، دليل. عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة مغربية ج 3، أبو القاسم الزياني. مقدمة الترجمانة الكبرى لعبد الكريم الفيلالي. عبد الوهاب بنمنصور، أعلام ج 1. مؤلفات الزياني خصوصا كتابه المذكور.

على أن أشهر مؤرخ في العصر العلوي قبل الحماية هو أحمد بن خالد الناصري الذي نال شهرته بفضل كتابه (الاستقصا). فقد لاحظ هذا المؤرخ انعدام كتاب يضم شتات تاريخ المغرب بعد تاريخ ابن خلدون وروض القرطاس. والحقيقة أن بعض مؤلفات الزياني كان يمكن أن تسد هذا الفراغ على ما يمكن أن يوخذ عليها. ومع ذلك فإن الاستقصا يضيف مدة تناهز تسعين سنة بل تزيد، وهي تفصل فيما بين أكثر مؤلفات الزياني وكتاب الاستقصا وتمس أحداثا بالغة الخطورة.

وقبل أن يصنف الناصري (الاستقصا) ألف كتاب كشف العرين عن ليوث بني مرين، ثم جمع ما أمكنه من تقارير ووثائق ضمتها الخزائن المخزنية، واستعان بالطاعنين في السن وبأكياس من الأوراق قدمها إليه باشا الجديدة محمد الجراري كما رجع إلى بعض القناصل وإلى بعض المراجع الأجنبية برتغالية وإنجليزية وإسبانية، وكل هذه المعلومات ذكرها نجلاه في مقدمة طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء. وفي الواقع لا نلمس أثر هذه المستندات العديدة في الاستقصا إلا بكيفية جزئية لا سيما بالنسبة للمراجع والوثائق الأجنبية التي كان الناصري يستفيد منها بطريقة مترجم وفي نقط قليلة.

كتب الناصري عرضا بين فيه فضل علم التاريخ وذكر نبذة من السيرة النبوية وسيرة الراشدين، ثم انتقل إلى أصول البربر ففتح الشمال الافريقي في الاسلام وعهد الولاة ثم الدول المغربية. ووقف عند وفاة مولاي الحسن 1311، ولم تطل حياة الناصري بعده حيث توفي سنة 1315 هـ وكان مولده سنة 1250

ينقل الناصري عن كتب تاريخية وجغرافية وعن بعض الرحلات، فنقل عن ابن حيان الاندلسي وابن خلدون وابن حزم وابن خلكان وصالح بن عبد الحليم والبكري وعبد الملك الوراق وابن الأثير وابن دحية والحميري صاحب الروض المعطار وابن الخطيب وابن مطروح القيسي وأبي سالم العياشي والافرني وأكنسوس والزياني وآخرين.

ومن جهة أخرى فقد ينقل عدة روايات في الموضوع الواحد عن مؤرخين متعددين وبأسلوبهم كما هو. ويختم كعادة بعض المؤرخين الاسلاميين أخبار كل دولة بأحداث لا يعدونها أو بعضها في محاورهم

التاريخية السياسية كسنوات القحط والزلازل ووفاة شخصية كبيرة وتشييد مجموعة من المباني العمومية.

وعلى العموم يذكر الصوفية وكرامات بعضهم وينتقد ما يراه مستوجبا للنقد، فقد انتقد على المرابطين إحراقهم كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ودافع عن عياض واعتبر اتهام الموحدين للمرابطين بالتجسيم سفسطة، ولكنه لم يدافع عن المنصور الموحدي في موقفه مع الايوبيين. وانتقد على مولاي عبد الله قسوته وسفكه للدماء البريئة وتدخل الزنوج في أمر السلطة.

وقد أخذ على الجيش تمرده وعدم رغبته في القتال خلال معارك إيسلي. وانتقد على المخزن ورجاله تهوين أمر العدو في حرب تطوان وتألم لانعدام الضبط والانطباط والعناية بالجيش الوطني، فالمحارب يبحث عن طعامه إذا جاع والقيادة لا سيطرة لها والجنود محاربون زراقات ووحدانا. وأوجز حكمه على نتائج حرب تطوان بقوله : إن هذه الحرب أزالت هيبة المغرب لدى الأجانب

ولم يفت الناصري أن يسجل أفكاره عن قضية الحريات العامة التي طالب بها يهود المغرب بتدخل من زعماء اليهود ببريطانيا، كما سخر من فكرة تحرير المرأة في ظل الأنظمة الغربية.

وبالرغم من أن كتاب الاستقصا يظل في أغلبه جمعا حرفيا لروايات مؤرخين وغيرهم فإن أهميته تبرز بالنسبة للعصر العلوي فيما يرجع إلى أوضاع الجيش وقضايا اغتصاب التراب الوطني والمواجهة مع الاستعمار في الثغور. وهذا فضلا عن كونه سهل المنال ويعوض القارىء عن الرجوع إلى عدد من المصادر التقليدية المعروفة، وان ظل فقيرا في أكثر من جانب، كنشاط الدبلوماسية الوطنية والأجنبية ونشاط عدد من الامارات المحلية التي كان لها دور بارز في توجيه الأحداث ولم يهتم الا بما يربطها بالدول الرئيسية كإمارة العياشي والدلائيين وحتى الوطاسيين. الخ... وعندما وصل إلى الفترة التي عاصرها هو بالذات، وبالاخص عهد مولاي الحسن، صار أقل تأنيا في ربط الأحداث وتوزيع المحاور. وربما لم يراجع هذه الفترة بعد تحريرها ولذلك يستفيد منها الباحث والقارىء بشيء من الصعوبة.

إن كتاب الاستقصا يظل بالرغم من كل نقد مرجعا ذا أهمية، وقد أدى خدمة جلى منذ نشره في ميدان البحث حتى يومنا هذا. وقد عني المستشرقون بترجمة فصوله تباعا. ولا يمكن اعتبار مؤلفه مؤرخا رسميا فكتابه قبل كل شيء، يتناول فترة المغرب الاسلامي كلها، ثم هو ينتقد سياسة المخزن في عصره بلباقة أحيانا وبمرارة واضحة أحيانا أخرى ولا يقدم الأحداث كأضواء ساطعة فحسب بل يتلمس ظلمات الأيام أيضا بشجاعة ونزاهة.

الرحلات

إن الرحلات تمثل كشكول معلومات تختلف قيمتها حسب هدف الرحلة وشخصية صاحبها. وعلى العموم فإن مؤرخي الأدب العربي التقليدي يدخلون الرحلات في ميدان الأدب. ولا عجب في ذلك إذا كان الأدب نوعا راقيا من التعبير حتى ولو كان شعبيا محضا. وفي جميع الأحوال يلتصق الأدب بالشخصية الانسانية موصوفة وواصفة. وهذا شأن الرحلات إلى حد كبير. غير أن الرحلات ذات قيمة تاريخية شبيهة إلى حد كبير بالقيمة التي تستحقها الجغرافيا التاريخية، الشاملة للجوانب الانسانية والاقتصادية والسياسية.

وللمغاربة باع في ميدان الرحلات خصوصا منذ القرن السابع / الثالث عشر م. وظلت أهدافها الأولى ولوقت طويل دينية قبل كل شيء، وهذه هي مرحلة الرحلات التي وصفها بعضهم بالحجازية لأن أصلها الرغبة في أداء فريضة الحج ووصف الأماكن المقدسة عموما، ولا تكاد تنفصل عن الاتصالات الثقافية والروحية، ولهذا السبب يبدو من الأفضل تسميتها بالرحلات الدينية. وفي العهد السعدي كانت هناك رحلات دبلوماسية وسياسية كرحلة التمجروتي إلى تركيا وكبعض الاسفار التي قام بها الحسن الوزان في أول قيام السعديين

وشهد العصر الذي هو موضوع هذه الدراسة توسعا في مختلف أنواع الرحلات وهكذا يمكننا أن نقسم أنواع الرحلات كما يلي :

1ـ الرحلات الدبلوماسية والسياسية

2ـ الرحلات السياحية، وهي إما دينية أو اجتماعية
3ـالرحلات المحلية وهي رحلات داخل التراب المغربي سواء أقام بها مواطنون أو غرباء
والرحلات الداخلية مساهمة لا تقدر بثمن، في التعريف بالاوضاع الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد أو جزء كبير منها، وهي تعويض لايستهان به، عن التقارير والوثائق الادارية التي ضاع القسم الأكبر منها لاسيما التي تهم فآت المجتمع وأفراده وقضاياه على العموم.

ومن هذا النوع : رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد، لمحمد بن إبراهيم الزرهوني كتبها في رحلة والده شيخ زاوية تسافت بواد نفيس إلى مكناس. وكانت هذه الزاوية قد تعرضت للهدم على إثر ثورة مصامدة المنطقة ضد المخزن سنة 1123 / 1720، وقد ترجم هذه الرحلة إلى الفرنسية الكولونيل جوستينار. وتوجد صورة لها بالخزانة العامة بالرباط (36).

وكتب محمد المكي الناصري الدرعي رحلة تصف تنقله من تمكروت إلى مراكش سنة 1149/1736. وتوجد نسخة منها بالخزانة الاحمدية.

كما كتب محمد بن عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري عن رحلته إلى المغرب : لسان المقال، وقد سبقت الاشارة إلى هذه الرحلة التي كانت سنة 1156 / 1743، وقد تميزت ببعض الملاحظات والانتقادات للأوساط التي خالطها المؤلف.

وخصص أبوراس المعسكري شطرا مهما للمغرب في كتابه : رحلتي ونحلتي في تعداد رحلتي. وكان ذلك سنة 1218 / 1803

ومن الرحلات المتأخرة لهذا العصر : الرحلة المرصعة ببديع اللآلىء في ترجمة الشريف المنيف سيدي محمد الخمال (الخ العنوان) ومؤلفها الأديب محمد الرايس المتوفى 1324 / 1906. أما الخمال فهو من أدارسة طنجة، وتمتد رحلته من فاس إلى طنجة سنة 1300 / 1882 (خ.ك.) (37).

36ـ ابن سودة، دليل، ص، 346
37ـ م.س. ص 355

ومن نوادر الـرحلات الداخلية رحلة كتبها محمد بن يحيى السوسي الولاتي وكانت سنة 1313 / 1893 قطع خلالها الصحراء الغربية وتوغل داخل المغرب (38).

أما رحلات السياحة الدينية فتكاد كلها تتوج بأداء فريضة الحج، ولـذلـك عرفت بالـرحـلات الحجازية، مع أنها تشمل جهات أخرى من الشـرق الاوسـط أيضا فضلا عن أقطار المغرب الاسلامي لاسيما الطريق السـاحـلي، ولـذلـك يكـون من الأفضل اعتبارها رحلات سياحة دينية، فأكثـرهـا يتعرض لزيارة أضرحة ومشاهد الصحابة والعلماء والأئمة فضلا عن الاتصـالات مع الأحيـاء من الفقهاء والصوفية والصالحين، فهي من هذه الناحية استمرار لرحلات العصر المريني.

ونجـد قسـما غير قليـل من رحلات ما قبل الحماية قد دونه مرافقون لأصحاب الرحلة أو تلقوه إملاء عنهم، وهي نفس الطريقة التي كتبت بها رحلة ابن بطـوطـة خلال العصـر المـريني. كذلـك نجـد أن قسما مهما من الرحلات الدبلوماسية كتبه موظفون رافقوا السفراء والمبعوثين الرئيسيين.

ومن جهة أخرى فبين رحالة العصر العلوي قبل الحماية كثيرون من سوس والصحـراء الجنـوبيـة. وبصـرف النظـر عن الاعتبـار الـديني فإن المشـاهـد العمرانية والحضارية قد تأخذ باهتمام حجاج هذه الأصقاع أكثر مما هو الشأن بالنسبة للراحل من مدن كبرى كمراكش وفاس.

والـرحـلات المتأخـرة تلتفت أكثـر إلى قضية الحجر الصحي سواء بالنسبة لبعض موانىء الشرق الاوسط كالاسكندرية أو بالنسبة للعائد عبر طنجة.

وجـل الـرحـلات الـرئيسيـة كتبت بأسلوب مقبـول قد تستأثـر به العاطفة أحيانا وقد يسمو إلى حد الروعة. وكثيرون من الرحالة يحرصون على لقاء الشخصيات المثقفة ويبحثون عن نوادر الكتب أو يعثرون على بعض نفائسها بالصدفة، والواقع أن الرحالة إذا كانوا يكررون معلومات متشـابهـة عن عدد من المـزارات والمشـاهـد فإن لكل منهم مميزات لا سيما بالنسبة للرحلات الأكبر حجما أو نطاقا.

38ـ ن. م. وص

ومن بين رحلات السياحة الدينية على كثرتها :

1- رحلة أبي سالم العياشي عبد الله بن محمد (ت. 1090 / 1679) والمعروفة بماء الموائد في مجلدين ، يصفان ثلاث رحلات حجازية تخللتها اتصالات علمية وزيارات للعلماء وجملة من أقطار المشرق، وطبعت بفاس 1316 / 1898 (عنان، فهارس، 1، 451. بنعبد الله، موسوعة، 3، 34)

2- رحلة أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (ت 1102 / 1690)، كتبها نجله محمد، وزار اليوسي خلالها أقطار المغرب ومصر في عودته وإيابه كما قام بأداء فريضة الحج ، وتتسم الرحلة بشيء من روح التشاؤم والنظرة السلبية عن سكان هذه الاقطار والرحلة في ذلك شبيهة برحلة العبدري المعروف بنقده اللاذع لعادات الناس وتصرفاتهم (فهارس 1 ، 438، مراكشي ، إعلام، 6، 5)

3- رحلة أحمد بن محمد بن داود الجزولي وهي حجازية وكانت أول رحلة له إلى الحج سنة 1096 / 1684 (خزانة تمكروت. دليل ابن سودة ص 370)

4- الرحلات الثلاث لاحمد بن محمد بن ناصر وهي في جزأين طبعا بفاس 1320 / 1902 وتوجد نسخ منها بالخزانة الملكية والخزانة العامة، وكل هذه الرحلات حجازية دينية (بنعبد الله، موسوعة، 2. 131، ابن سودة، دليل، ص 344، فهارس، 1 ، 447)

5- رحلة الاسحاقي محمد بن عبد القادر الجيلالي (ت 1150 / 1737) وهو من قبيلة آيت إسحق بحوض ملوية، وهو مثقف مشارك، والرحلة حجازية كتبها على إثر حجة قام بها مع الأميرة خناثة بنت بكار زوج مولاي إسماعيل سنة 1143 / 1730 (مراكشي ، إعلام 8، 453) ابن سودة، دليل، ص 346. بنعبد الله، موسوعة 4، 37)

6- بلوغ المرام، لعبد المجيد الزبادي من سوس، رحل إلى البقاع المقدسة سنة 1158 ه وكتب رحلته سنة 1161. (مراكشي ، إعلام، 2، 375، بلوغ المرام، خ.ع)

7- رحلة محمد ين عبد السلام الناصري الدرعي (ت 1239 / 1823) وهو أحد شيوخ الزاوية الناصرية. والرحلة في جزأين. بدأ سفره إلى الحجاز من تمكروت سنة 1196 ه ويقدم معلومات جغرافية

وثقـافيـة مفيـدة عن المنـاطق والمراكز التي مربها عبر الجنوب ثم عبر المغرب الكبير. وهو هنا أكثر إفادة من أغلب الذين ألفوا رحلات السياحة الدينية في هذا العصر.

وبـالاجمـال فالـرحلة في منتهى الأهميـة بالنسبـة للتـاريـخ الثقـافي للمنـاطق التي مرمنهـا المؤلف. وكان تأليفه للرحلة سنة 1199، وله رحلة ثانيـة عرفت بالـرحلة الصغـرى. والمؤلف من العلماء المشـاركين البارزين وتـوجـد رحلتـاه معا بالخزانة الملكية وأجزاء منهما بالقرويين والخزانة العامة (مـراكشي، أعلام، 6، 192. بنعبد الله، موسوعة، 2، 132. عنان، فهارس، 1، 443)

8ـ رحلة إبـراهيم السـوسي (ت 1199/1848) في مجلدين عثـر المـرحـوم محمـد المختار السوسي على نصفها بقرية سيدي داود بضواحي تزنيت (بنعبد الله، موسوعة، 1، 21).

9ـ الـرحلة الطنجـويـة، الممـزوجـة بالمناسك المالكية للحسن بن محمد الغسال الذي رحل إلى الحجاز من طنجة في 1315/1898 وكتب عن رحلتـه في أربـع وعشـرين ورقـة. وهو أحد المغاربة الذين حجوا عن طريق البـواخـر الحـديثـة في أوائـل القرن 14/20م، كما أنه من القلائل الـذين وصفـوا مالطة وكانت تحت الادارة العثمانية وقد تحدث الغسال عن وكيل المغرب ونائبه بمصر، وقال ان سكان جدة غالبهم من العرب والهنود ثم المغـاربـة. وعـومـل الحجاج في محجر أحد موانىء سيناء معاملة قاسية حسب ما ذكره الغسال. بينما عوملوا في محجر بيروت معاملة أفضل. وزار المؤلف مرسيليـا والجـزائر وجبل طارق في عودته، ودخل المغرب من طريق سبتة. والغسال أيضا صاحب رحلة دبلوماسية إلى انجلترا. وتوجد نسخ من رحلته بالرباط.

10ـ الرحلة السامية للاسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية. ذكر ابن سودة أن الموجود منها نحو سبعة كراريس، وهي لمحمد بن إدريس بن جعفـر الكتـاني وخصصهـا لرحلتـه الأولى سنة 1322ه، ولابن جعفر الكتاني مؤلفات كثيرة (دليل، ص 356. موسوعة بنعبد الله، 1، 61)

وهـذه الـلائحـة لا تمثـل الا نماذج من عدد كبير من الرحلات التي عرفت بالحجـازيـة والتي شملت في الـواقـع اتصـالات علميـة وزيـارات

لشخصيات دينية من الأحياء والأموات في أقطار المشرق، ولذلك كانت أحق أن تعتبر رحلات سياحة دينية لانها كذلك والحج جزء منها ولو كان هدفا لاصحابها.

والرحلات الدبلوماسية هي عبارة عن تقارير عن مهمات دبلوماسية أو عن البلاد التي زارها الوفد الدبلوماسي المعني أو عنهما معا. وغالبا ما تظل التقارير الدبلوماسية عملا سريا لا ينشر. وهكذا فأغلب ما تضمه هذه الرحلات الدبلوماسية معلومات عامة عن بروتوكول الاستقبالات بالاضافة إلى مشاهدات الدبلوماسيين في تنقلاتهم وخلال مقامهم ببعض المدن والعواصم.

ومن الرحلات الدبلوماسية :

1- رحلة ابن عائشة، وهي من أوائل الرحلات بالنسبة للعصر الذي تعالجه هذه الدراسة، وحسب ابن سودة نقلا عن الاغتباط لبوجندار فان كاتب الرحلة ربما كان هو محمد التركي الذي يوجد ضريحه بباب لعلو بالرباط. وابن عائشة من هذه المدينة، وكان من مجاهدي البحر قبل أن يسند إليه مولاي اسمعيل قيادة الاسطول الوطني، كما أسند إليه مهمة دبلوماسية بفرنسا.

وقد تعرفت الاوساط الاوروبية على شخصية عبد الله بن عائشة من خلال عمليات الجهاد البحري التي كان يقودها في عرض المحيط الاطلسي. وفي سنة 1680 وقع في أسر الأسطوال البريطاني وظل أسيرا مدة ثلاث سنوات حتى تدخل جاك دوق يورك أميرال البحرية البريطانية لدى أخيه الملك شارل الثاني فأطلق سراحه دون فدية، وبفضل نفوذ ابن عائشة عقدت صلات جيدة بين المغرب وبريطانيا في الميدان التجاري. وفي سنة 1685 تولى ابن عائشة باسم السلطان مولاي اسماعيل تقديم التهاني إلى العاهل الجديد جاك الذي تولى بعد أخيه شارل الثاني. وفي الوقت ذاته لم تؤد الجهود الدبلوماسية إلى تحسن العلاقات بين المغرب وباريز

وفي 1698 بلغت الأزمة أوجها بين فرنسا والمغرب بسبب عمليات اعتراض السفن الفرنسية، فحاصر الاسطوال الفرنسي سلا بحجة طرد

القراصنة من حوض أبي رقراق وشرع في مفاوضات بين الجانبين ثم عقدت هدنة بعث ابن عائشة على إثرها سفيرا إلى فرنسا لمتابعة المفاوضات، وكان إلى جانبه وفد هام من بين أعضائه محمد سوسان وضابط بحري كبير وترجمان فرنسي اسمه فابر. وسافر الوفد في باخرة ملكية فرنسية في أكتوبر 1698 من حوض ابي رقراق ورافقه القنصل الفرنسي جان بابتيست، ثم نزل ببريست حيث حاولت السلطات السياسية أن تفرض على السفير إمضاء مشروع معاهدة وهو ببريست فرفض ملحا في أن يستقبله العاهل لويس الرابع عشر أولا. وأخيرا تم تنفيذ رغبة السفير، فتحرك الوفد باتجاه باريز، وكان موضع ترحيب وفضول من لدن الشعب الفرنسي حيثما حل. وبلغ الفضول إلى حد ان سلطات الأمن شددت حمايتها للوفد. واستقبل ابن عائشة في فرساي من لدن لويس الرابع عشر بتقدير وترحاب، وبرهن السفير عن ثبات جنان وقوة شخصية لدى البلاط الفرنسي. وتحتفظ الخزانة الوطنية بباريز بوثيقة نادرة تبين تفاصيل دقيقة عن استقبال السفير في فرساي وخطبته وما تبادله من عبارات المجاملة مع العاهل.

ومع مقام ابن عائشة في باريز قريبا من ثلاثة أشهر وتعثر المفاوضات الطويلة خلالها بسبب رفضه لتنازلات متكررة من الطرف الفرنسي الذي رفض هو أيضا التخلي عن أهم بنود مشروعه بشأن الملاحة والتجارة وحركة الجهاد البحري وقضايا الأسرى، فإن ابن عائشة ومرافقيه استمتعوا بزيارتهم لعدد من المعالم الحضارية كالخزانة الوطنية ودار الأوبرا وغيرهما وعند عودته واصل ربط علاقاته مراسلة مع الذين تعرف عليهم وبينهم بعض مفاوضيه من الطرف الفرنسي ومنهم المركيز طورسي وشخصيات نسوية بارزة كالسيدة كامو منسون Camus Mennesson والتاجر الفرنسي الكبير جوردان الذي أغدق على ابن عائشة كثيرا من الهدايا للحصول على امتيازات تجارية بالمغرب، لكن أزمة العرش باسبانيا وضعت حدا لتوسعات جوردان في نشاطه التجاري بالمغرب كما لاحظ ذلك كايي (39) على أنه لا يوجد لحد الساعة فيما يظهر، النص الأصلي

39- يراجع عن ابن عائشة : De Castries, sources inédites (France)
Ferd Hoefer, Empire du Maroc, p 283. J. Caillé, la petite histoire du Maroc, 1,233-250. Hespéris, 1, fasc. 1960, p 49

العـربي لرحلة ابن عائشـة إلى باريـز والمنسـوب لمحمـد الـتركي حسب الأستاذ محمد الفاسي.

2ـ رحلة الـوزيـر في افتكـاك الأسير لمحمد بن عبد الواحد، الوزيز الغسـاني (40) المتـوفى 1119/1707، وهو أديب وكاتب وشاعر، تولى الـوزارة لمولاي اسـماعيـل الـذي أوفـده في مهمـة دبلومـاسيـة سنـة 1102/1690 إلى كارلـوس الثـاني ملك اسبـانيـا لمفاوضته بشأن تبادل الأسرى والمخطوطات العربية بالاسكوريال. وتتناول الرحلة التي نشرت وتـرجمت إلى الاسبـانية بتطوان 1939/1940 ظروف الفتح الاسلامي للأندلس ونبذة عن الأوضاع الحضارية والاجتماعية بإسبانيا.

3ـ نتيجـة الاجتهـاد في المهـادنـة والجهـاد لأحمد بن المهدي الغزال الفـاسي وهي عبـارة عن تقرير دبلوماسي ورحلة سياحية عن إسبانيا التي أوفده إليها السلطان محمد بن عبد الله للقاء كارلوس الثالث والعمل على افتـداء الأسـرى المسلمـين مغـاربـة وغـيرهم واسترجاع الكتب العربية. وكـانت رحلة السفـير سنـة 1179/1766 وأمره السلطان بتدوين كل ما شاهـده أو سمعـه أو لاحظـه. وانطلق المبعوث على رأس وفد مغربي من طنجة في مايو ثم من سبتة على إثر عاصفة شديدة اضطرته إلى التوقف بسبتـة. ويتحـدث في الصفحـات الأولى عن عمليـات سابقـة لتبـادل الأسـرى مع اسبـانيـا في عهـد محمـد الثالث كما يصف سبتة ثم عددا من مراكـز إسبـانيـا ابتـداء من الجـزيـرة الخضـراء. واتصل المبعوث بالعاهل الاسباني وزار الاسكوريال وعدة قطاعات هامة بالعاصمة ثم أخذ طريق العـودة مرورا بنهـر التـاج وطليطلة ومـرسية وغرناطة، وأبحر من قادس في بداية 1767، أي أن الرحلة استغرقت حوالي ثمانية أشهر.

ومما اهتم به الغـزال في الرحلة، مستشفى مدريد ومشاهدها بوجه عام ولفت نظـره على الخصـوص، التجهيـز العسكري والجانب المعماري والهنـدسي بالعـاصمة. ونجحت مهمة السفير فيما يخص معاملة الأسرى المسلمـين وزارهم في معتقـلاتهم، وأغلبهم كانـوا بقـرطـاج حيث كانـوا

40 ـ حسب الأستاذ الفاسي، مجلة البينة، الرباط جمادى 1/1382 موافق أكتوبر 1962 ومحمد بن عبد الوهاب عند عبد الله عنان، فهارس 1، 193.

يكـابـدون الجوع والحاجة إلى اللباس، وحصل على تحرير عشرات منهم (حوالي ثلثمائة في المجموع) بعد مفاوضات طويلة. ولم يحصل السفير على مخطـوطـات الاسكوريال. وأخذت الجوانب الأثرية والمعمارية شطرا كبيرا من اهتـمام الغـزال فوصف المـآثـر والمظـاهر المعمارية وصف خبير متذوق. وطبعت الـرحلة بتطـوان 1360 / 1941 م بعنـاية الفريد البستاني، ومنها نسخ خطية بالخزانة الملكية بالرباط والخزانة العامة بها أيضا (41).

وقد نحي الغزال عن عمله كوزير على إثر اكتشاف عدم احتياطه في تحرير (42) نص معاهدة مع الاسبان بشأن مليلية سنة 1184 ه، وظل عاطلا حتى كف بصره وتوفي ودفن بفاس 1191 / 1777

4 ـ الاكسير في فكاك الأسير للوزير محمد بن عثمان المكناسي (ت. 1213 / 1798) وهـو تقـريـر مطول عن سفارة هذا الوزير بأمر من محمد الثالث إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا. وصف السفير مشاهداته ذهابا وإيـابـا واهتم بوصف المدن والمآثر الاسلامية وعقد صلات ودو صداقة مع وزراء إسبـانيـا وعـدد من شخصيـاتهـا، وكـانت مهمته عقد معاهدة مع اسبـانيـا ومفـاوضة الحكومة الاسبانية بشأن تبادل الأسرى. وصحب معه مبلغـا كبـيرا من المال سلمه إليه العاهل المغربي لتوزيعه على الأسرى كما حاول عبثـا أن يحصـل باسم السلطان على كتب الاسكوريال التي كانت الحكـومـة والكنيسـة الاسبـانيتـان تعـدانها وقفا لا يجوز تفويته، وبالمقابل سلمت إليه كتب دينية أخرى من خارج الاسكوريال.

وكل من الغزال وابن عثمان قابله كارلوس الثالث بقصره الصيفي بأرنخويث وكانت هذه السفارة سنة 1193 / 1779، وقد نشر (الاكسير) بالمركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط بتحقيق ومقدمة الأستاذ محمد الفاسي.

وكـان لابن عثـمان سفـارة أخـرى عن مولاي اليـزيد إلى كارلوس الـرابـع، وقـد نشـر بالاو (بـاء مثلثـة) عددا من الـوثائق المتعلقة بها ومنها

41ـ الغزال، نتيجة الاجتهاد، خ.ع. الرباط، د 981. عنان، م.س. ص 328. بنعبد الله، موسوعة 3، 154.

J. Caillé, la petite histoire du Maroc, 2, 80

42ـ الزياني، بستان، ص 109

مراسلات ينوه فيها ابن عثمان بعناية كارلوس الرابع به، وأخرى يوصي فيها خيرا ببعض من اعتنوا به من الأسبان وذلك خلال 1206 هـ.

5- البدر السافر، لهدية المسافر إلى فكاك الأسرى من يد العدو الكافر، وهو تقرير لابن عثمان المكناسي عن سفارته سنة 1198/1782 في عهد محمد الثالث إلى مالطة ونابولي بشأن افتداء أسرى المسلمين بهما وقد توصل إلى افتداء مآت منهم ووصف كلا من مالطة ونابولي وأوضاعها ومشاهدهما. والحقيقة أن المؤلف قام بأكثر من سفارة إلى هذه المنطقة. ويوجد المخطوط الأصلي للمؤلف بالخزانة الأحمدية بفاس كما توجد نسخة بالخزانة الملكية بالرباط

6- إحراز المعلي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب. لابن عثمان المكناسي. والكتاب يمثل تقريرا دينيا وسياسيا، لأن المؤلف أسندت إليه في مطلع 1200/1786، مهمة تسليم هدايا إلى السلطان العثماني عبد الحميد والحرمين الشريفين. وهكذا طالت رحلة ابن عثمان ثلاث سنوات ووصف القسطنطينية التي لفتت معالمها العمرانية والدينية نظر سابقيه من الرحالة والسفراء كما وصف الشام ومقابلاته لعلمائها وزار القدس وأدى فريضة الحج (43). وتوجد نسخة من هذه الرحلة ب خ. م. / الرباط.

7- الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني وهي خليط من التاريخ والاساطير والأفكار الاجتماعية فضلا عن كونها تضم معلومات عن بعض أسفار المؤلف إلى المشرق وبخاصة مهمته الدبلوماسية بالقسطنطينية. وكانت أول رحلة له إلى الحجاز مع والده وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وذلك عام 1169، وكانت الثانية سنة 1200/1785 بأمر السلطان محمد بن عبد الله وهي التي قام فيها بمهمة عن السلطان في اسطمبول. ثم كانت رحلته الثالثة سنة 1206/1791 في عهد مولاي سليمان بعد أن لجأ إلى الجزائر وفي هذه الرحلة جدد زيارته بصفة شخصية لتركيا والشام ومصر وعاد إلى تلمسان ناويا الاستقرار بها فتلقى من مولاي سليمان رسالة رقيقة تدعوه إلى الرجوع إلى المغرب مع إعفائه من المهام المخزنية حسب رغبته.

43- راجع عن ابن عثمان: رحلاته المذكورة، وكذا: ابن سودة، دليل، ص، 333-335. عنان، فهارس 1، 22، 31، 72 محمد الفاسي، مقدمة الاكسير ومجلة البينة، الرباط، عدد مذكور.

على أن ما يهمنا بطبيعة الحال هو رحلته الدبلوماسية سنة 1200 هـ وهي رحلة بدأت بهدية قدمها السلطان محمد الثالث إلى معاصره العثماني عبد الحميد وتولى الزياني هذه المهمة على رأس وفد كبير ضمنه عشرون دبلوماسيا. وخلال مقام الوفد الذي استغرق بالقسطنطينية ثلاثة أشهر وعشرة أيام أعلنت موسكو الحرب على العثمانيين فعبر العاهل العثماني للسفير المغربي عن رغبته في أن يتلقى مساعدة مالية أو عسكرية من المغرب، فحبذ السفير الفكرة ونقلها إلى السلطان محمد بن عبد الله كما أوفد الخليفة عبد الحميد وفدا عنه إلى البلاط المغربي. وفعلا بعث المغرب بكميات كبيرة من المال والسلاح والعتاد في إرساليات متتابعة بما فيها مجموعة من السفن الحربية ذكر الزياني أسماء ربابنتها، وحسب سياق احداث كلام الزياني نفسه فقد كانت سفارته ناجحة فقد وجد نفسه في إسطمبول أقرب الدبلوماسيين المرافقين له إلى قلب السلطان العثماني وحاشيته (44).

8- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز لادريس بن محمد بن إدريس العمروي (ت 1296 / 1878)، ومؤلفها كان كاتبا في سلك الوظيفة المخزنية أيام مولاي عبد الرحمن ثم أيام محمد الرابع الذي أسند إليه سفارتين إحداهما إلى إسبانيا والثانية إلى فرنسا وهي المقصودة هنا وكانت سنة 1860، وبين المؤلف في مقدمة رحلته انه كلف بمهمة رسمية لدى (طاغية الفرنصيص) وهو نابليون الثالث، وكان سفر صاحب الرحلة في أوائل ملك السلطان محمد الرابع، وتطوان قد استهدفها العدوان الاسباني، والمغرب الشرقي يشهد توسعات الاحتلال الفرنسي بعد هزيمة إيسلي.

وقد وصف المبعوث المغربي تحركه مع مرافقيه من طنجة بدقة، ومدى العناية التي لقيها الوفد بالباخرة حتى وصوله إلى مرسيليا. وأعجب الدبلوماسي ابن إدريس بالثقافة العالية والمتنوعة التي لقيها لدى الترجمان الرسمي الذي خصص لمرافقة الوفد إلى باريز، وبدون شك كان الترجمان مستشرقا بارزا حسبما يتجلى من وصف ابن إدريس

44- زياني ترجمانة، ص 82-87 و 96-101 و 119-126 و 132. بستان ص 143 الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 194-195

· وصف صاحب الـرحلة كل مشاهداته بمرسيليا وبالاخص القطار والسكة الحديدية وانطباعاته عن الطريق الذي سلكه القطار حتى باريز. ووصف مؤسسـات الحكم بفـرنسا والتفت إلى الميدان العسكري فأطنب فيـه وتحـدث عن اتصالاته السياسية والشخصية . وهو لا يكشف بوضوح عن مهمتـه الـدبلوماسية هذه، ولكن يتبين من توجيه سفارة أخرى موازية إلى انجلترا ويقـودهـا محمـد الطـاهـر الفاسي ، ان المغرب كان يطمح في تدخـل فرنسـا وأنجلترا لدى الطـرف الاسبـاني بشأن قضيـة تطوان، فقد كانت السيـاسـة الفـرنسيـة تميل حتى ذلك الوقت ولفترة طويلة بعده إلى تزكيـة وضعيتهـا بالجـزائـر عن طريق الحوار الدبلوماسي مع المغرب الذي كان موقفـه متشـددا تجاه الـوجـود الفرنسي الذي كان ضباطه يتجاوزون الأسلوب الدبلوماسي . ومن جهة أخرى فإن الوثائق الفرنسية أكدت أن السفـير المغـربي تنـاول قضـايـا النزاع على الحدود الشرقية وعبر عن رغبة عاهل المغرب في أن تتدخل فرنسا لدى مدريد بشأن انسحابها من تطوان التي احتلتها منذ فبراير 1860

وهكـذا تظـل الـرحلة دبلومـاسية في هدفها من غير أن تكشف عن أسرار المهمة الحقيقية لصاحبها. وقد كان العمروي شخصية أدبية مرموقة وتبـين رحلتـه عن مميـزاته الأدبية ودقة ملاحظاته واهتماماته الحضارية شأن دبلوماسيين آخرين من المغاربة . وطبعت الرحلة سنة 1327 هـ بفاس (45)

9ـ رحلة الصفـار إلى فرنسـا ، لمحمد بن عبد الله بن عبد الكريم الصفـار، وهـو من تطـوان ، كان كاتبـا لدى عاملهـا ، ثم لدى السلطـان مولاي عبد الرحمن الذي استوزره على رأس قطاع جديد استحدث لأول مرة ، وهـو وزارة الشكـايـات (العدل) سنة 1270 / 1853 أي بعد بضع سنـوات من رحلتـه . وكـان وقت قيـامه بهذه الرحلة كاتبا بالقصر الملكي ورافق عامـل تطـوان الحـاج عبـد القـادر بن محمـد أشعـاش الذي أوفده العاهل سفيرا إلى فرنسا على رأس بعثة من أربعة عشر شخصا بالاضافة إلى مرافقـين فرنسيـين بينهم ضبـاط ومـوظفـون . وكـان عاهـل فرنسـا

45ـ تحفـة الملك العـزيـز بمملكة باريز. نشرها د. زكي مبارك بمجلة البحث العلمي بالرباط ابتداء من العدد 31 ، 1400 / 1980 ابن سودة، دليـل. ص 335 . محمـد الفـاسي ، مجلة البينـة الـربـاط، أكتوبر 1962 . جاك كايي . هسبريس ، 1 ، 1960 الرباط

حينذاك، لويس الثامن عشر. وتوجهت البعثة بحرا على ظهر باخرة حربية فرنسية في دجنبر 1845 لمفاوضة الطرف الفرنسي بشأن معاهدة 10 شتنبر 1844 التي أبرمت فيما يتعلق بنزاعات الحدود مع التراب الجزائري. ولقيت البعثة تكريما من المسؤولين وجرت مفاوضات بين السفير وجيزو وزير الخارجية. وقد عادت البعثة في مارس 1846 إلى المغرب عن طريق ميناء تطوان. ويرى جاك كايي أن البعثة ساهمت بشكل مفيد في إقرار العلاقات الطيبة بين المغرب وفرنسا.

تناول الصفار كل مشاهداته خلال أزيد من ثلاثة أشهر بفرنسا، ولفت نظره المخترعات الحديثة من قطار وتلغراف ومطبعة ومؤسسات تجارية وصناعية كما وصف طرق التعامل الاداري والتجاري والنقدي والنشاط الصحافي والمسرح والعادات البارىزية وغير ذلك، ووصف المقابلة الملكية للبعثة المغربية.

وتسهم هذه الرحلة في التعريف بالحضارة الغربية على غرار الرحلات التي سبقتها كرحلة ابن عائشة التي كتبها محمد التركي، ورحلة ابن عثمان إلى نابولي ومالطة (البدر السافر) ونتيجة الاجتهاد للغزال، ثم لحقتها رحلات أخرى بعد رحلة الصفار التي توجد مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط (رقم 113) ووضعت الأمريكية سوسان ميللر دراسة قيمة عنها كما قدمت عرضا عنها بالمؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته (بتونس)

ووصف عباس المراكشي الكاتب الصفار بأنه كان «من أهل العلم والتحصيل كثير البحث والاطلاع والتقييد». توفي سنة 1298 / 1880 ودفن بضريح يوسف بن علي بمراكش (46).

10 ـ التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية لأحمد بن محمد الكردودي (ت 1318 / 1900)، وكان موظفا بالبلاط الحسني بعد أن اشتغل عدلا. وهكذا عمل كاتبا إلى جانب وزير الشكايات محمد الصفار وعين عضوا في بعثات دبلوماسية منها البعثة التي

46ـ رحلة الصفار. خ.م. الرباط. عباس المراكشي، إعلام، 7، 34. محمد الفاسي، مجلة البينة، أكتوبر 1962.
J. Caillé, in Hespéris, 1, 1960, p, 65
Susan G. Miller, The voyage of Faquih As-Saffar, in Actes du premier Congrés d'hisoitre, T.2.307 Tunis, 1979

رأسها القائد عبد الصادق الريفي سنة 1302/1884 وكتب عنها رحلته هاته وتوجد نسخة خطية منها ب. خ. ع الرباط (د 1282) وأخرى ب. خ. م. (الرباط 1508) وطبعت بعناية الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور. وجهت البعثة إلى الفونسو الثاني عشر ملك إسبانيا. واهتم المؤلف كسلفه الغزال بالمآثر والمظاهر العمرانية كما لفت اهتمامه الشؤون العسكرية والحربية.

11 ـ رحلة إلى انجلترا للحسن بن محمد الغسال (ت. 1358/1939) وهو من مثقفي طنجة والمشاركين في المعارف الاسلامية. وقد سمى رحلته هذه، بتقييد الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الانجليزية.(47)
رافق الغسال السفير عبد الرحمن بن عبد الصادق إلى لندن في عهد السلطان مولاي عبد العزيز لحضور حفلة تنصيب الملك إدوارد السابع (1320/1902)

وكان ابتداء الرحلة في 17 ربيع الأول 1320، وكتبت في فاتح جمادى الثانية. وتشغل حوالي 16 صفحة (مخطوط خ. ع، الرباط د 1694، ورقات 25ـ41) ونشرها د. عبد الهادي التازي في البحث العلمي بالرباط 1979م.

انطلقت البعثة على ظهر باخرة حربية بريطانية. واستقبلها بجبل طارق وكيل المغرب هناك عبد السلام بوزيان ونائب حاكمه. ووصف الباخرة وتنظيماتها في المطعم والمشرب، ووصف ما لاحظه في لندن من وابور البر (الترامواي) الذي اندهش لسرعته، والعمارات الشاهقة التي قد تبلغ عشر طبقات، وزار حديقة الحيوانات وبعض المتاحف والمعامل الحربية، وحضر حفل عشاء عند وزير الخارجية. وحظي الوفد المغربي باستقبال من ولي العهد، وعاد الوفد عن طريق جبل طارق دون النزول به، وسجل الغسال عناية السفير باكرام ضباط ونوتية الباخرة التي سافر على متنها.

وتعد هذه الرحلة من أواخر ما حرر في عهد ما قبل الحماية الفرنسية. ولا يمثل هذا العرض للرحلات الا نماذج حيث تبقى اللائحة

47ـ راجع عن لائحة مؤلفات الغسال: العلم الثقافي، 27 نونبر 1981 (د. ع. العزيز التمسماني).

طويلة. ولكن ما عرض هنا يشمل على وجه التقريب كل المناطق التي زارها خواص أوموفدون رسميون، وعلى طول الفترة الممتدة من أوائل الحكم العلوي إلى اقتراب فرض الحماية الأجنبية

اللسانيات والمنطق

اعتنى الدارسون باللغة العربية نحوا وبيانا وبلاغة، واهتموا بأصول اللغة وفقهها إلى حد ما دون أن يفكروا في تجديد منهجية دراسة علوم اللغة وكتابتها ولا في استدراك ما يمكن استدراكه على المؤلفين السابقين الذين وقفت أبحاثهم غالبا عند مرويات وأعمال الباحثين خلال القرون الأربعة الهجرية الأولى حتى إن ما كتب في ميدان اللغة بعد هذه القرون في سائر العالم الاسلامي ظل في معظمه تكرارا وتمطيطا وحشدا لاستطرادات وروايات تشوش ذهن القارىء وتطيل وقته عبثا ليحصل على معنى لفظ وقد لا يجده.

وعلى العموم فإن أقطار المغرب الكبير إذا كانت قد أعطت الشيء الكثير في الفقهيات والتصوف والأدب، والجغرافيا وبعض العلوم الطبيعية فإن عطاءها ضعيف جدا فيما يتعلق بأصول اللغة ومادتها، وقد اكتفت هذه الأقطار على وجه العموم بالرجوع إلى أعمال المشارقة من غير تعمق ولا خروج عن الحد الادنى لما ينبغي معرفته للدارس في اللغة كآلة لا كعلم. وبالاجمال فهناك دارسون للغة كثيرون، وعلماء باحثون قليلون، ومؤلفون أقل. وقد اختفى الرجوع إلى سيبويه في هذا العصر من الدراسات العليا حيث لا عبرة بالحالات الخاصة.

وأهم ظاهرة تلفت النظر في هذا المجال أن قاموس الفيروز بادي احتل مكانا مميزا لدى الدارسين والباحثين. وهكذا وضع محمد بن الطيب الشرقي الصميلي (ت. 1170/1756) حاشية على هذا المعجم في أربعة أجزاء، وعليه اعتمد تلميذه الشهير الزبيدي أبو بكر مرتضى صاحب العروس بشرح القاموس. وكتب الصميلي حاشية أخرى على القاموس في جزأين كبيرين باسم إضاءة الراموس على إضاءة القاموس

(خ . م) وشرح في مجلدين منظومة ابن المرحل في فصيح تعلب (48) وقد طبعت وزارة الاوقاف بالرباط، إضاءة الراموس، بتحقيق المرحوم عبد السلام الفاسي ود. التهامي الراجي.

وكتب أحمد بن عبد العزيز الهلالي إضاءة الادموس ورياضة الشموس من اصطلاح صاحب القاموس، ثم عقب عليه محمد بن عبد القادر الكردودي في كتاب بعنوان : حلية العروس في جمع إضاءة الادموس لأحمد الهلالي (49) وهو من الضليعين في اللغة (ت 1761/1175).

وظلت أغلب المؤلفات شروحا وحواشي على مؤلفات شرقية أو منظومات مغربية كما هو الشأن فيما كتب من شروح لمتن الأجرومية الذي وضعه المغربي ابن آجروم الصنهاجي. ومن ذلك : الجواهر النحوية على المقدمة الأجرومية (خ . م .) لأحمد بن عبد الله الرسموكي (ت . 1682/1093)، وشرح عليها لمحمد بن قدور المراكشي المتوفى في الستينات من القرن 13 (أواسط القرن 19 م)، ومؤلف كبير حولها لمحمد بن عمر دينية (50) وحاشية لابن الحاج أحمد بن حمدون على شرح الأزهري للأجرومية (ط . ح)

ووضعت مذكرات تتناول بابا معينا في النحو كمذكرة أبي سالم عبد الله العياشي عن لو الشرطية، كما وضعت شروح على لامية الأفعال لابن مالك كشرح أحمد بن محمد الولالي (ت 1716/1128) وشرح ابن الهيب الأبيري (1866/1283) (51). ووضع ابن الحاج بن محمد بن حمدون 1274 ه نظما لاوضح المسالك في النحو مع شرح مطول في جزأين (ط . ح 1318) ومن المكثرين في ميدان الدراسات اللغوية والبلاغية والنحوية محمد بن الطيب بن كيران (1812/1227) وقد كتب هو أيضا عن «لو» الشرطية وشرح توضيح ابن هشام ووضع منظومة عن موانع ظهور الاعراب ومذكرة عن الفرق بين النكرة والجنس والعلم والمعرفة

48ـ عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة، 2، 31ـ32

49ـ فهرس المعرض السادس للمخطوطات، ص 39 و 42 بالمكررة. وزارة الثقافة، الرباط

50ـ جراري، اعلام، 2، 156

51ـ بنعبد الله، م . س. 142، و3، 140

باللام . ويمكننا أن نعتبر هذه الأبواب المتخصصة أهم تدخلات اللغويين المغاربة في مجالات علوم اللغة . وقد كتب هذا الباحث أو نظم حول العرض والبيان والاستعارة بالاضافة إلى مساهماته في المنطق والفقه والحديث والتفسير (52) .

وفي البلاغة تحلقت أهم المؤلفات حول إنتاج سعد الدين التفتازاني الخراساني (793/1390) صاحب المطول في البلاغة وشرح تلخيص المفتاح . وقد كتب حول مقدمة هذا الشرح أحمد الولالي المذكور سابقا (خ . م .) . ووضع محمد دينية مصنفا هاما عن الاستعارة بعنوان تحرير العبارة في تقرير الاستعارة .

وبلغت العناية بالمنطق أقصى مداها في هذا العصر كمحاولة لخلق توازن بين دراسة النصوص التي شغل الحديث النبوي منها حيزا كبيرا ، والمفاهيم العقلية التي توجهها قوة الاستدلال وحسن التعليل ، وتمييز بين الصحيح والفاسد وبين الراجح والمرجوح . والحق أن ما أنتج في هذا المجال لا يعدو أن يكون في أغلبه متونا وشروحا وحواشي تبين كثرتها عن الاهتمام الذي حظيت به دراسة هذا العلم الذي هو مدين في مبادئه الأولى لايساغوجي ولكن المسلمين توسعوا فيه حتى اخضعوا له علم الاصول بروح خلاقة . ومن ثم فإن الأثر العملي للمنطق برز في علم الاصول ، وان كان هذا العلم لا تصل إليه إلا نخبة النخبة من دارسي الفقه .

وإذا كانت مؤلفات ابن البناء والتفتازاني في المنطق قد حظيت باهتمام الباحثين شرحا وتعليقا فإن مصنفات أخرى اكتسحت الميدان تدريجيا وتحلقت حول ما وضعه محمد السنوسي ثم عبد الرحمن الأخضري في هذا المجال . وكلاهما لقي رواجا كبيرا في عموم المغرب الكبير وبالمشرق أيضا ، ومحمد بن يوسف السنوسي من تلمسان (ت . 895/1490) ألف المختصر في علم المنطق وشرحه كما شرحه مغاربة منهم أحمد بن العزيز الهلالي السابق ذكره وسمى شرحه بنور البصر في شرح المختصر . وتوجد نسخة خطية بجامعة محمد الخامس (كلية الآداب بالرباط) من

52ـ م . س . ج . 2، 96

مختصر وشرح السنوسي نسخت في منتصف القرن 12 هـ. وشرح مختصر السنوسي أيضا أحمد الولالي، ومحمد السوسي المنصوري (ت 1142 (53) واخرون غير هؤلاء.

واكتسح الميدان بعد السنوسي متن السلم لعبد الرحمن الأخضري (ت. 983/1575) وكلاهما من القطر الجزائري. وحول متن السلم وضعت شروح كثيرة منها فتح الباب المغلق إلى شرح السلم المرونق في أكثر من 300 ص (خ.ع. الرباط) لابي بكر الفرجي المراكشي، وشرح لابي مدين المنبهي واخر لمحمد بن الحسن بناني، كما شرحه إبراهيم التادلي وأحمد الولالي، وكل هذه الشروح توجد نسخها الخطية ب (خ.ع.) وهناك شرح لابن سودة المهدي بن الطالب قاضي مكناس والمحدث بها (54).

ومن المصنفات في المنطق أيضا، متن الجواهر المنطقية للقادري، وشرحه لأحمد الهلالي باسم الجواهر المنطقية، وشرح آخر لمحمد بن عمر دينية ذكره المرحوم عبد الله الجراري في (اعلام الفكر المعاصر).

ووضع حمدون بن الحاج (ت 1232/1817) متن الخريدة الذي شرحه نجله محمد (ت 1274/1857)، كما ساهم في التاليف بوضع مجموعة من الشرح والحواشي في المنطق محمد بن منصور الشفشاوني معاصر حمدون بن الحاج (55).

والواقع أن لائحة المتون والشروح والحواشي المرتبطة بالمنطق تتجاوز مجال هذه الدراسة التي تتناول الظواهر والمميزات والمآخذ دون العمل على حصر لوائح الكتب التي تتوفر عليها الخزانات الرئيسية مع اختلاف منهجها العلمي والتقني.

وهكذا فإن العناية بالمنطق تأليفا ودراسة لم تسبقها عناية مماثلة لمستوى هذا العصر بالرغم من أن رجوع الدارسين إلى هذه المؤلفات لم يخط بهم إلى الاهتمام بالفلسفة حتى ولا في شكلها التقليدي المرتبط بالدين.

53- انظر ما يتعلق بالسنوسي وشرحه عند: ع.ع. بنعبد الله، موسوعة، 3، 107، 140، ناصري، استقصا 8، 83. وفي قائمة مخطوطات كلية الآداب بالرباط..

54- راجع حول الأخضري وشروحه المغربية: زركلي، أعلام 4، 108. بنعبد الله، موسوعة، 2، 16. 3، 8، 140. وراجع فهرس مخطوطات خ.ع. الرباط

55- بنعبد الله، موسوعة 1، 66، 268، 123، وانظر حول شروح التفتازاني م.س. 2، 16، 123، 1403. قائمة مخطوطات كلية الآداب بالرباط.

الأدب

ظل الأدب حتى فجر استقلال المغرب بعد فترة الحماية الفرنسية والاسبانية ينظر إليه على أنه صورة موسعة للثقافة العامة التي يأخذ فيها بحظ كبير النثر والشعر، دراسة وحفظا وإنتاجا، ويختلف مردود صاحبه بين التقليد والابداع. وليس هناك أدباء متفرغون الا نادرا، لان الأدب في حد ذاته ليس حرفة يتعيش منها، ولكن الكتاب المجيدين يمكنهم أن يجدوا مجالا للعمل في سلك الوظيفة بشروط مرضية. ويمكن تقسيم الأدباء من حيث نزعاتهم الرئيسية إلى ثلاث فآت : فئة تعمل في سلك المخزن وتسيز في ركابه، فئة تعمل في سلك المخزن وتحتفظ لنفسها بحرية القول والتصرف فتنتقد أو تحبذ او تعارض بالقلم واللسان. وفئة ترفض التعامل مع المخزن، ثم هي تعتدل في مواقفها أو تعارض أو تنبذ المواقف السياسية. وهذا التصنيف شبيه إلى حد كبير، بالتصنيف الذي سبق ذكره حول فآت المؤرخين وسياتي المجال لذكر نماذج من أدباء الأصناف المختلفة.

لقد عرفنا أن العصر عصر المختصرات على أوسع نطاق، وهو عصر المتون المنظومة في كل فروع المعرفة المتداولة. وفي القرن الثامن / الرابع عشر الذي فشت فيه هذه الظاهرة لأول مرة بأقطار المغرب ندد ابن خلدون في مقدمته بانعكاساتها التربوية والعقلية. وحتى كتب الأدب التقليدية أخذ يصيبها التلخيص في عصر ما قبل الحماية ولربما كان أهم نموذج لهذا الباب هو كتاب (نفح الطيب) للأديب المقري المتوفى سنة 1038/1628 م، وممن اختصره : ابن الوكيل الميلودي يوسف بن محمد، وأتمه عام 1114/1702 وعلي الحريشي الفاسي (ت 1145/1732). وقد لخص ابن الوكيل نفح الطيب لفائدة أحد أشراف مصر. وعني المشارقة باختصار نفح الطيب ومنهم أحمد زيني دحلان (56).

وبصرف النظر عن كتب التراجم العامة وفهارس الشيوخ ونظائرها مما يفيد مؤرخي الأدب أيضا. فإن هناك ما ألف خصيصا عن أدباء

56ـ ابن سودة، دليل، ص 231، وكتب الأفرني عن المقري ترجمة خاصة (ن. م. ص 242)

المغـرب كالأنيس المطـرب فيمن لقيتـه من أدباء المغرب لمحمد بن الطيب العلمي المتـوفى بمصـر (1134 / 1721) وقـد طبـع بالمطبعـة الحجـريـة بفاس. ولمحمد بن الطيب الشرقي الصميلي كتاب بنفس الاسم. وكتب الوزير علي المسفيوي : السلاسل الذهبية في تاريخ أدباء الحضرة الحسنية (57)

والـواقـع أن مجتمـع الطلاب والمثقفين تعلق بالأدب بشكل لم يكن مالوفا، وجمع بين أدب الماضي وبين الابداع بشكل أوبآخر. وهكذا كتب محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي (ت 1120 / 1708) مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد، وهو شرح موسع وجيد لقلائد العقيان ويجمع بين الأدب والتـاريـخ واللغـة، ومنـه نسخة ب خ. ع. بالرباط، كما جمع ديـوان شعـره بعنـوان الـروض الأريض (58) وكـذا مجموعة من الخطب والرسائل بعنوان : أنفع الوسائل في أبلغ الخطب والرسائل، ووضع شرحا في ثلاثـة أجـزاء لديـوان الحـماسـة سماه : بعنـوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة (خ. م. الرباط)

وشرح موسى الودريمي السوسي رائية ابن عبدون (59) بينما جمع أحد علماء سوس سنة 1139 / 1726 أشعارا ومساجلات بين محمد العالم وأدبـاء سوس (60). وألف محمـد السليطن السمـلالي عالم مراكش كتابا باسم دواء المـوت تضمن كما قال عبـاس المـراكشي (اعـلام 6) أدبيـات ولطائف ونوادر ومستملحات.

وهكـذا نجد العلماء يساهمون في العمل الأدبي دون تحرج، ولكن غالبا في دائرة الوقار. ففي خارج الجلسات الفكرية والمطارحات الشعرية وبعض النزهات المختلسة من الأوقات العصيبة، لا يوجد متنفس لجماعة المثقفين عن أتعاب الحياة اليومية وقلق الظروف غير المستقرة.

وفي الواقع لا يوجد فاصل بين شخصيتين متباعدتين يتقمصهما معا شخص واحد، فالاديب قد يتعلق بالتصوف فيما هو ينشىء قصائد المدح

57ـ أورد ابن سودة هذه المؤلفات. م. س. ص 246، 279

58ـ م. س. ص 401

59ـ محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص 192

60ـ دليل ص 414. فهرس مخطوطات كلية للآداب (الرباط) ص 56

في الملوك. ويجسم هذا النموذج كثيرون بينهم على سبيل المثال ابن الغالي إدريس بن علي السناني المعروف بالحنش والذي ضرب في الأدب، بحظ كبير نثرا وشعرا مع نظمه الملحون أيضا. فقد سلك الطريقة الدرقاوية، وجمع في ديوانه : الروض الفائح، بين مدح السلاطين ومدح صلحاء المغرب وفقهائه ورؤسائه كما ضمنه غزليات ومسامرات (61). وهذا الأديب الكبير الذي عبر بكل صدق عن جوانب كثيرة من واقعه وواقع محيطه، يجسم أيضا براعة نادرة في تلوين هذا الواقع المتضارب بكل الصور الأدبية المتاحة كما تدل على ذلك نماذج من إنتاجه يأتي ذكرها.

إن في طليعة أدباء العصر قاطبة، الحسن بن مسعود السوسي (1102 / 1690) وقد عرف المستشرق بيرك بشخصية اليوسي وفكره في دراسة مستقلة هي نفسها نموذج للابداع ودقة التحليل. واليوسي مفكر أكثر منه أديبا. ومع ذلك ففكره حاضر في أدبه، وأدبه حاضر في فكره. مزجت محاضراته بين الفلسفة والنقد والأدب والتصوف وأنشأ الشعر يعايش فيه قضايا الوطن. وأنتج كتابا سماه زهر الأكم في الأمثال والحكم، يذكرنا بها دونه أدباء سابقون كالجاحظ وابن عبد ربه وابن منصور الثعالبي. وتدل كثرة نسخه المخطوطة بالرباط على أنه كان متداولا على نطاق واسع، وكذلك اشتهرت قصيدة الشمقمقية لابن الونان أحمد بن محمد الحميري (1187 / 1773) في مدح السلطان محمد بن عبد الله، وهي أرجوزة قافية تمثل الجزالة وسعة الاطلاع على أساليب اللغة وألفاظها فضلا عن جمال صورها الشعرية. واشتهرت القصيدة حتى أصبحت موضع اهتمام الأدباء وشرحها كثيرون منهم ابن الفقيه الجراري والعربي المشرفي وأحمد الناصري والمكي البطاوري (62) وابن الونان أصله من توات التي ألحقها الاحتلال الفرنسي في مطلع القرن 20 م بالجزائر، وعده الضعيف كشاعر خاص للسلطان محمد بن عبد الله.

وتضم الخزانة الداودية بتطوان سفرا أدبيا بعنوان نضار الأصيل في بساط الخليل من أربعمائة صفحة (63) ويضم خليطا من المعلومات والأدبيات والشعر والحكم، لشاب من تطوان هو عبد الله بن علي شطير

61- عباس المراكشي، اعلام، 3، 43

62- بنعبد الله، معلمة الصحراء، 1، 24

63- محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 200

(1800/1215) وقسم كتـابـه إلى أربعـة أبـواب : العلم، الأدب، الحكـايـات، الشعـر. وفي نثره يجمـع بين الافـادات والشوارد والنصائح والتوجيهات مع قصر العبارات وتجنب الزخرف اللفظي حيث لا ضرورة. وجمع شعره بين شتى الأبواب. وهو شعر يقف عند القاعدة، وعند محيطه بوجه خاص. ولا يتحرج في أن ينتقل من الغزل المذكر إلى التصوف شأن أدباء آخرين. ويعبر عن انخفاض المستوى الأخلاقي في زمنه (64):

لما رأيـت الـتقـى قد عز في زمـن ... قلت نصـيحتـه، طويت عذاري
وجئت مستشهدا بقول من ظهرت ... أعـلام نصـح له من دون استـار
الـنـاس في غفـلة عما يراد بهم ... كأنهـم غنـم في دار جزار

وتـدل كثـرة الكتب الأدبيـة نسبيـا، والتي وضعت في هذا العصر، على أن أدباءه (وحتى طلابه) قد قللوا من اهتمامهم المباشر بكتب الأدب القـديمـة، فاتجهـوا إلى المسـاهمة بانتاجهم الخاص، الذي لقي كثيرمنه ترحابا في أوساط الطلاب.

وقـد شهـدت منطقـة سوس نهضـة قويـة في ميادين المعرفة الدينية والادبيـة خلال هذا العصـر الذي وضعت فيه المنطقة كل ثقلها السياسي والاجتـماعي في توجيـه الأحداث ومحاولة تصحيح الانحرافات. ولا شك أن ما كتبـه المـرحـوم المختـار السوسي عن تاريخ التطور الفكري والأدبي بالمنطقة في شتى كتبه، كفيل بإبراز هذه الحقيقة. غيرأن أغلب الأدباءهم بالضـرورة فقهـاء، ومـا الأدب إلا عمـل كمالي في ميدان الحياة، ولكنه ذو أهميــة في الأوســاط المثقفـة والمستنـيرة. وقـد تحدث عبـاس بن إبـراهيم المـراكشي عن عبـد الـرحمن الجشتيمي كأكـبر أدبـاء سوس في القـرن 13/19م. وقال إنه كان مجدد الأدب العربي بسوس، وله تضلع عظيم في العلوم الفقهيــة، وقـد مال هذا الأديب إلى أدب الـتراجم فألف عن الحضيكيـين وهـم أسرة كبيرة اشتغلت بالدراسات الدينية في سوس. ومن تآليفــه : إعـراب القـرآن في جزأين، وهـو بدون شك من نوادر الكتب. وكان ينظم الشعر بالعربية والأمازيغية، وتوفي سنة 1269/1852 (65)

64ـم. س. 207.
65ـ مراكشي، اعلام 8، 123. محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص 197

وإذا كان الجشتيمي قد ساهم بشعـــره في الأدب الأمـازيغي ، فإن شعـر الـزجل والملحون حظي بمرتبة الشرف لدى جماعة من الأدباء الذين جمعـوا بين الفصيـح والملحـون ، ومن أبـرزهم عبـد القـادر العلمي دفين مكناس سنة 1266 / 1849 والتهامي ابن أحمد المدغري دفين فاس سنة 1273 / 1856 (66) . وشيـوع الملحـون والزجل في هذه المرحلة لم يكن من قبيـل الصـدفـة ، فالأحـداث السياسية بما فيها احتلال الجزائر ومأساة تطـوان ، ومـا أثـار ذلـك من قلق ومـاجـر من ذيـول ، جعلت من الأدب الشعبي ومن الفصيـح وسيلة تحميس لمتـابعـة النضال تارة ولتغطية الهموم بالأشعـار الـدينيـة واللجـوء إلى استـدرار الغوث الالهي تارة أخرى ، كما وجدت فيه الفآت الشعبية أصدق تعبير عن أحاسيسها وشواغلها .

ولقد كان المفروض أن هذا العصر الذي تخللته فترة أو فترات طويلة من الانحطـاط السيـاسي ، لابـد أن يكـون أدبه منحطا أيضا . غير أن ما حدث هو أن الأدب حتى وان لم يتطور تطورا عظيما في مجالاته فقد ظل في غالب الأحيـان جيـدا في أسلوبـه . لقـد احتجـزتـه الروح الدينية بشكل عميق ولكنه كان عند الاقتضاء ينفعل ويتأثر ، فتلامس هذه الروح الدينية عواطف إنسـانيـة رقيقة . وإذا ما قدر للأديب أن يتحرر في يوم ما من قيود الدين فلا تلبث في فترة أخرى من حياته أن تطوقه وتشده إليها شدا .

وتطور الأدب المنثور بما احتضنه من بعض الأبواب الجديدة خاصة في ميدان الصحافة والسياسة (مذكرات ، عرائض ، الخ . .) كذلك اتسع النثـر بأدب الـرحلات الذي تناول جوانب حضارية جديدة بالاضافة إلى الوصف الدقيق للبقاع المقدسة ، والذي تميز فيه المغاربة قبل زمن طويل .

كذلك تعزز الأدب المنثور بالنقد الاجتماعي والديني الذي اتسعت منـاحيـه وتعـدد رواده بعد أن كانوا قلة فيما سبق من عصور . واستمر النثر بطبيعة الحال يؤدي مهمته في المصنفات العلمية على اختلافها بالرغم من اكتساح المنظومات للميدان الدراسي ، ولا بد لها في كل حال من شرح منثور .

66ـ يوجد أحد دواوينه الزجلية مخطوطا بكلية الآداب (ج . م . خ . الرباط . مكل 16)

وتـراوح النثـر الرسمي بين المصطلحات العامية وبساطة الأسلوب (67) أو روعتـه حسب ثقـافـة الكتـاب ودرجـة امتـلاكهم لنـاصية اللغة وإلمـامهم بالمـوضـوعات المطروقة. غير أن النثر الصادر عن البلاط ظل في أغلبـه سليم اللغــة بل يجمــع بين جمال الأسلوب وحسن الأداء وإيجـاز العبـارة. ومن هذا النـوع الجيـد لا بأس بذكـر نمـوذج واحد (68)، وهو توجيهـات إلى أحـد العمال بشمال المغرب قصد اتخاذ الاحتياطات اللازمة بالسواحل من هجوم للاسطول الفرنسي :

خديمنا الاراضي القائد محمد اشعاش
وفقك الله، وسلام عليك ورحمـة الله

وبعـد، فإن عدو الـدين الفرنصيص دمره الله وفل حده، لا تؤمن غائلتـه، لبغضـه للمسلمـين وكثرة غدره وتمرده. وقد سولت له نفسه شيئا حين استولى على الجزائر ردها الله دار اسلام.

فلا تغـتروا من جهـة البحـر، وكـونـوا على حذر، وأذكـوا العيون والجواسيس عليه. ومهما بلغكم خَبَر عنه، طيروا به إلينا، فإن أهل الثغور هم أولى بالاحـتراس والحـذر، سيما وقـد علمتم ما جرى على الجـزائـر المشحـونـة بالعـدد والعـدد والأمـوال والعساكر، وما فعل من المكر والحيل حتى غصب المسلمـين فيهـا وطمـع فيـما سواهـا، ودخـل قبائل الأعراب بالخداع والطمع، حتى أوهن كيدهم وفض جموعهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام.

وقد صدر هذا الأمر عن السلطان مولاي عبد الرحمن

ووجـه السلطـان مولاي الحسن منشـورا طويـلا إلى قضـاة ومفتي مراكش حرره الكاتب إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي يندد بما لحق الـوظـائف المـرتبطـة بالقضاء في مراكش من رشوة وتلاعب شمل العدول والـوكـلاء والأعـوان أيضا. وتضمن المنشور عددا من الآيات والأحاديث بشأن القضاة خاصة. وفيما يلي أواخر فقراته (69) :

67ـ مجموعة الوثائق، 3، 244، 276، 376، 380 (نماذج)

68ـ تراجع مآت النماذج في مجموعة الوثائق، ومنها المشار إليه، ج 1، 464

69ـ مراكشي، اعلام، 3، 38

«هـذا واسـالوا عن سيرة من تقدم من قضاة هذه الحضرة المراكشية كالفقيه السيد محمد عاشور، والفقيه السيد الطالب بن حمدون ، فقد كانوا من الـدين والخـير بمكـانـة ، وأعطوا الخطة حظها من العفاف والصيانة ، وخـرجـوا منهـا بيض الصحـائف حمر الـوجـوه ، فاعـرفـوا فضلهـم واقتفوا سبيلهم ، وتشبهوا ان لم تكونوامثلهم .

واعلمــوا أننـــا بحـول الله لا نزال نبحث عن أحـوالكم بالتنقيب والتنقـير، ونعاملكم بالتحذير قبل التعزير وباللين ثم الجد، وبالصفح ثم الحد، لأن الله كلفنا بكم ، وسائلنا عنكم ، وأمور الشريعة عندنا أهم من كل مهم ، وآكد من كل أكيد، وما على هذامن مزيد :

(إن أريـد الا الاصـلاح ما استطعت ، ومـا توفيقي الا بالله ، عليه توكلت وإليــه أنيب) والله يوفقنـــا ويـوفقكم وجميـع المسلمـين ، لما يحبـه ويرضاه ، والسلام . »

وتضمن النثـر الصـوفي أعمق المشاعر الدينية وأبلغ أساليب التعبير النـابعـة عن عاطفـة يجللهـا الاخـلاص ويـذكيهـا الصـدق . وأصحاب التصـوف قد يجرف بعضهم تيـار السيـاسـة فيقتحمونه غالبا بشجاعة ولا يتخلون عن مثـاليتهم التي اختـــاروهـا مبـدأ ومخـبرا (70) ، وإن كان في حلبتهم فرسـان تكبـو جيادهم في معترك الحياة وينبو سيفهم عن صدمات الواقع . واغتنى النثر الصوفي مع هذا بالعديد من المراسلات والمواعظ التي كان الصـوفيـة والطرقيون يوجهونها إلى المريدين والمستفسرين . ومن ذلك ما ورد في رسالة كتبها الشيخ محمد الحراق إلى الوزير محمد بن ادريس (71) .

« . . . فقـد بلغنـا كتـابكم وفهمنا ما فيه وحمدنا الله على عافيتكم وسـلامتكم ومـا انتم عليـه من محبـة الله ورسوله والجنوح للاخوان ، فإني سائـل عنـك كثـيرا ، لانظـر هل نفع الله بلقينا لكم ، وإني لأرجو من الله خيرا إن شاء الله .

هذا وأعلمـــك يا أخي أن الـدخـول في هذه الطـريقـة وتعـاطيهـا كالدخول في الاسلام وتعاطيه عند المحققين . فكما أنه لا يكمل إيمان المرء

70ـ راجع على سبيل المثال، رسالة نصح من الشيخ محمد الحراق إلى السلطان مولاي عبد الرحمن في تاريخ تطوان 6 ، 331 لمحمد داود

71ـم . س . ص 351

حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما حتى روحه التي بين جنبيه، ووجبت محبة الرسول، لأنه يبلغ للمرسل إليه ما يؤديه للايمان بالله عموما، فكذلك لا يتأتى وصول المريد حتى يكون الوصول إلى الله ومن الوصول إليه أحب إليه مما سواهما حتى روحه التي بين جنبيه. . »

ومن توجيهات الشيخ الحراق إلى فقراء فاس في رسالة مطولة قوله (72)

«ولكن يا إخواننا وأحباءنا كما تعلمون، رحمة الله واسعة جدا، فهي أنواع متفاوتة بعضها أرفع من بعض. وأنتم إذا تأملتم بالقوة الناطقة والفكرة الصادقة أنواع الرحمة التي رحم الله بها عباده لم تجدوا فيها أفضل من الاشتغال بالله والاقبال عليه والادبار عن كل ما سواه والعكوف على ذكره في جميع الأوقات، وان كان ذلك يؤدي إلى تعطيل بعض رسوم النفوس وتفويت بعض حظوظها، ولكن، إذا ذاق الانسان حلاوة الايمان وكوشف ببهاء نور الحقيقة هان عليه ما فاته من حظوظ نفسه قطعا، وزهدا بحكم القهر في جميع الحظوظ فضلا عن بعضها»

وسجل النثر كثيرا من ملاحم الكفاح ضد التدخل الأجنبي ومهاجمة الثغور والاحتلال القائم وساهمت في ذلك عدة مؤلفات ذات صبغة تاريخية أو أدبية ككتاب الضعيف، والحلل البهيجة في فتح البريجة لمحمد بن أبي القاسم المراكشي. وهناك أيضا المنشورات الرسمية عن هذه الملاحم أو عن حركات ردع بعض الجهات الثائرة. ومن نماذج ما خصص لموضوع الجهاد والمقاومة مجموعة من الرسائل تضمنها كتاب (غرر المقاصد والمطالب) الذي وضعه محمد بن علي الرافعي التطواني الذي توفي بعد 1110/ 1698 (73). ووصفت هذه الرسائل ملاحم الثغور الشمالية. ومن أسلوب الرافعي ما جاء في وصفه لرسو الاسطول الفرنسي بميناء تطوان سنة 1085/ 1674 وتهديده للمدينة مع حاجته إلى الماء، قوله (74) :

72ـ م. س. ص 356

73ـ ترجمته في المصدر المذكور سابقا، ج 1، 390

74ـ م. س. ص 407

« . . . فلما عاين الـروم أهبـة الناس واستعداداتهم، وعزمهم على الجهـاد وصـدق نيـاتهم، والأحـزاب يتلو بعضها بعضا وقد ملأوا الأرض طولا وعـرضـا، يمـرحـون في آكـام الأرض وربـاها، وأباطحها وذراها، راعهم ماعاينوا من الحزم، وأفجعهم ما رأوا من النجدة والعزم، وأظهروا خلاف ما كانـوا أتـوا إليـه، حين رأوا مالا طاقة لهم عليه، وأذعنوا بالرغبة والخضـوع، لظـما أعـوزهم، عسى أن يسـد رمقهم ويـرتـوي ظمأهم، فتشاور في ذلك أعيان البلاد، فرأوا أن استسقاءهم إن كان بمصلحة ليس بفسـاد فأجـابوهم لما طلبوا، واشترطوا عليهم شروطا وأوجبوا، فمن ذلك قنـاطـير من البارود عديدة، وكراع وأسلحة فاخرة عتيدة، فملأوا من الماء ما سد به رمقهم وخـدام الأمـير من إذايـة النـاس تحرسهم، ثم أقلعوا عنا وساروا مدبرين، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين. . . »

وسـاد الشعـر من ناحيته، كل مجالات التعبير والعلاقات الانسانية والعـواطف الدينية، ومن ثم فقد داخل الحياة الاجتماعية والسياسية على نطاق لم يسبق له مثيل في تاريخ المغرب، وذلك أن عددا كبيرا من شعراء الفصيـح وضعـوا أنفسهم إلى جانب الـزجـالـين الشعبيـين، في خدمـة الملحـون والـزجـل، فاغتنى الشعـر بثـروة كبـيرة من القصائد والأشعار، ووضعت عشـرات الـدواوين على يد أصحـابهـا من الشعـراء أو من تلاميـذهم أو أسـرهم أو المتعـاطفـين مع إنتـاجهم الذي طرق كل أبواب الحياة وساده الجد دون أن يخلو بعضه من مجون، ودون أن يسوده التزمت المفرط الذي طبع شعر بعض العصور الماضية بهذا القطر.

وتضم الخـزائن الـرئيسيـة بالمغـرب عددا كبـيرا من الـدواوين التي ضمتها أيضا فهارس الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط، وكذا دليل مؤرخ المغرب الأقصى وما شملته كتب محمد المختار السوسي الخ . .

وبعض الدواوين خصصت للمديح النبوي أو لشعر التصوف عامة أو لمدح شخصية دينية أو رسمية، كما توجد دواوين عامة بكثرة، وضمت التقاييد وكتب التاريخ ومؤلفات الأدب والتصوف والرحلات أشعارا كثيرة لهذا لعصر.

وفيما يلي نظرة عن الأبواب التي طرقها الشعر :

1ـ المقاومة والصراع الداخلي :

تفاعل الشعراء مع الأحداث النضالية التي لمسوها عن كثب أو خاضوها، وهكذا دعا الشعراء الأمة إلى طرد المحتلين والوقوف في وجه أساطيلهم المهددة للثغور وانتشوا لما حققه المجاهدون من انتصارات في طنجة والعرائش والجديدة والمهدية، بقدر ما تفجعوا للمصير المحزن الذي لقيته تطوان على يد الأسبان وحمسوا المواطنين لاسترداد الثغور المغتصبة. وضمن هذا الشعر الذي كان فيما مضى يقحم في شعر الحماسة، نجد أيضا قصائد تنوه بانتصارات داخلية حققها المخزن أو بعض الأطراف المعارضة أو المتنصلة من السلطة المركزية.

وهذا الشعر يتفاوت في جودته وتحريكه للمشاعر ومدى قدرة قائليه على اختيار المواطن التي تثير الغيرة والاندفاع والتضحية، فلسنا نجد شيئا من ذلك عند ما نقرأ للرافعي وهو يتناول نضال المواطنين في طنجة وطردهم للانجليز (75) (1095/1684) :

سمت ملة الاسلام لما تضعضعت   معاقل كفر بالصواعق والصفاح
وجاشت جيوش في أباطح طنجة   ونادى منادي الجيش حي على الفلاح
هلموا هلموا يا غزاة وبادروا   لجنة عدن ما عليكم من جناح

وبدلا من ذلك نرى أبا علي اليوسي يذكر أهل تطوان بنكبة أسلافهم في الأندلس ويحمسهم ويثير غيرتهم ضد الاسبان الذين حققوا النصر على العرب، فأين النخوة العربية إذا؟ (76)

يا أهل هذا الفحص كيف معاشكم   وحولكم تلك النواقس تضرب
يا أهل أندلس ألم تستخرجوا   من أرضكم ودياركم وتنكبوا؟
هلا انتصرتم مثلما انتصر العدا   هلا تحزبتم غداة تحزبوا؟
أين الشجاعة والحفاظ وأنتم   عرب وللعرب الحفائظ تنسب ؟

وبمثل هذه الروح يخاطب ابن زاكور أهل تطوان ويحركهم لاسترجاع سبتة منطلقا من المنظور الديني (77) (الصليب × الاسلام) :

75ـ م. س. ج. 1، 398
76ـ م. س. ص 413
77ـ ن. م. ص 421

ولاحت الشم من أطواد أندلس تشكو ذراها النصارى وهي في لهفه
وقد بدت سبتة منه منادية يا أهل دين الهدى هل عندكم عطفه؟
هل عزمة تذر الصليب منكسرا حتى يظل الرشاد لامحا عطفه؟

لكن عندما تكون صفة الفقيه أقوى من صفة الشاعر، فإن الشعر يتأثر بالصفة الأقوى فيجمد ولا يحرك وجدانا كما نرى عند عبد الواحد البوعناني الذي يصفه الناصري بالخطيب البليغ أديب فاس ومفتيها (78):

الا يا أهل سبتة قد أتاكم بسيف الله سلطان وقور
إذا ما جاء سبتة في عشي تناديه إذا كان البكور
ووهران تنادي كل يوم متى ياتي الامام متى يزور

وكان البوعناني وعبد السلام جسوس وعبد السلام بن الطيب القادري من بين الذين دعوا إلى فتح العرائش وشاركوا بقصائدهم في التهنئة بفتحها (79) وعلى العموم فقد كان فتح الثغور مناسبة يرتادها الشعراء والمتشعرون لتهنئة السلطان الذي تم الفتح على يده أو في عهده، وبدون شك فإن مولاي إسماعيل نال أكبر نصيب من التهاني والمدائح في هذا المجال (80)

ولما تولى أحمد الذهبي خلفا لمولاي إسماعيل سنة 1139 / 1727 اضطربت الأحوال بسبب استبداد جيش البخاري وضعف العاهل الجديد، فاستبد بعض الولاة بأقاليمهم ومنهم عمر لوقاش بتطوان الذي قهر منافسه القوي وجاره بطنجة أحمد بن علي الريفي وكان عمر فقيها أديبا، ولما دحر جيش الريفي الذي فشل في الاستيلاء على تطوان، انتشى بهذا النصر ورآه مقدمة لأمجاد أوسع :

ظهرت لأحيي الدين بعد اندراسه فطوبى لمن أمسى يساق له الأمر
ولم يبق ملك يستتب بغربنا فعندي انتهى العلم المبرح والسر
أنا عمر المشهور في كل غارة أنا البطل المقدام والعالم الحبر

78- ناصري، استقصا، 7، 74-75
79- مشرفي، حلل بهية، ص، 127-131
80- انظر م. س. ص 176-179
81- ستقصا، 7، 116

وسجل محمد بن إدريس أحداث فاس 1235/1819 عندما امتنع العبيد من مرافقة مولاي سليمان إلى مراكش وسرى التمرد إلى ولاة الغرب وبني حسن ونهب الأوديا حي اليهود وارتكبوا أعمالا عدوانية به. وقد هجا ابن إدريس جميع الأطراف التي ساهمت في الفتنة، ولكنه نصح العاهل بالاعتماد على عبيد البخاري بالرغم مما حصل منهم (82) :

فعبيد الاله خير عبيد قد كفى منهم الامام كفاء
حاربوا، ضاربوا على الحق، راعوا ذمة الله لاعداهم علاء

وكان انتصار جيش السلطان مولاي عبد الرحمن على الشراردة وفتح زاويتهم سنة 1244/1828 مجالا لتقرب بعض الأدباء من العاهل وفرصة للتعبير عن مساندتهم لمواقفه كما نرى عند أكنسوس الذي ندد بالمهدي زعيم الشراردة (83) :

أتيح لهم لحينهم جهول غوي للضلال له جنوح
يقودهم إلى العصيان سرا ويظهر أنه البر النصوح

ويرهن ابن إدريس عن غيرة دينية عميقة في الدعوة إلى جهاد المحتلين للجزائر والذين صاروا يهددون المغرب ويقتحمون ترابه. ومما قاله قبيل معركة إيسلي (84) :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم إلى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه ما عدا قبل على الاسلام بالسخط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط ؟!

وعندما حسمت ثورة الدباغين بفاس سنة 1291/1874 تلافى الفقيه الشاعر محمد حركات معاني التشفي والاثارة، واستبدل بها معاني الرأفة والشفقة مغتبطا بالعفو الملكي على هذه الفئة المنتجة من الامة (85) :

82ـ ن.م.ج. 8، 146
83ـ ن.م.ج. 9، 22
84ـ ن.م.ج 9 ، ص 50. والبيت الأخير تضمين بيت لابن العسال
85ـ م.س.ص 141

فمـنـحـتهم بعــد الضــراعــة عزة   وكســوتهم بعــد الأسى ثوب الهنــا
إن الــكــريــم إذا تمكــن من أذى   صاحــت به أحــلامــه فتـحـنـنـا

ومن أروع ما قيـل في آخـر فترة من عهـد ما قبـل الحـماية، قصيدة لمحمد السليماني يثير فيها خطورة الأحداث التي تعرضت لها فاس والمغرب عمـومـا، ويـدعـو المـواطـنين إلى الالتفـاف حول العـاهل (مولاي عبد الحفيـظ) ويتجـه بالأخص إلى الـبربـر الـذين حاصـروا فاس ويـذكرهم بأمجادهم في خدمة الاسلام :

بني الخــلفــاء الــراشــديـن تهيؤوا   فأنـتم أســاة الضيم في زمن الخطب
وهـــل لبـــني بر بن قيس حماســـة ؟   فحفـظ ذرى استقلالكم غاية الحب
ذوي البأس والقوى بني البربرالأولى   لهم قدم في المجـد ساميــة الكعب
بهم نصــر الــديـن الحنيف كفى بما   أقــام به أســلافهم شعلة الحــرب
نصــرتم بني المختـار قدمـا فأنقـذوا   أمـيركم المحبـوب من وهـدة الكرب
ومــدوا إلـى فاس الأصيلة صفقــة   تطـهــرهــا مما عراهــا من الـنكب
أقـيـمـــوا بني الأمجــاد شأو بلادكـم   فإن شعـوب الغـال منكم على قرب
وحتى بنـو الاسبـان تركض نحـوكم   لما أنـست من نيــل نبلكم الــرطب
إلا هي لك الشكوى لقد ضاق درعنا   ولا ناصـر يرجى لكسـر شبا الخطب

2ـ الزجل والملحون

الزجل شعر عامي ليس الغرض منه أن يغنى بالضرورة. والملحون أيضـا شعـر عامي خصص للغنـاء، ثم يبقى لكـل منهـما مميـزات خاصة تنـاولتهـا أكثـر من دراسـة أدبيـة. ولا يلزم أن يكـون الـزجال أو صاحب الملحـون عاميـا، بل إن عددا كبيرا من المثقفين طرقوا الميدانين معا. وكان في ملوك الـدولـة من لهم ولـع كبـير بالملحـون، حتى إن مولاي محمـد بن الشريف أكرم أحد شعراء الملحون ممن مدحوه بخمسة وعشرين رطلا من الذهب كما قال الناصري وكان لمولاي عبد الله باع كبير في مجال الملحون (87).

86ـ السليماني، اللسان المعرب، ص 152
87ـ مراكشي، إعلام، 8، 314

وكثيرا ما خلط بعض المؤلفين بين الزجل والملحون. وعباس المراكشي يتكلم عن التهامي المدغري (1273/1856) كأحد الذين وضعوا من الأزجال ما يشذ عن الحصر وهو يقصد أشعار الملحون (88) وعلى هذا فالزجل كان يعني ما يغنى من العامي وما لا يغنى، والملحون للغناء قبل كل شيء. ومن أصحاب الزجل: إدريس السناني المعروف بالحنش، وعبد القادر العلمي ومحمد بن علي والجيلالي امتيرد (89).

وتناول الزجل كل أغراض الحياة، فكان بحق أدبا قائما بذاته أو موازيا للأدب الفصيح، وهو يواكب حياة الفآت الاجتماعية الشعبية بالأخص، ويعبر عن أنماط حياتها ووجوه أفراحها ومآسيها. وهكذا كان الشأن أيضا في الأدب الامازيغي الذي جمع بين رقة العاطفة وروعة الوصف وكان خير تعبير عن شواغل سكان الجبال وسفوحها.

ومما قاله أحمد بن عاشر الحداد الخمليشي من أتقياء الرباط (1326/1908 (في الظروف المأساوية التي كان يجتازها المجتمع المغربي)، من قصيدة طويلة توسل فيها بالرجال السبعة من صلحاء مراكش حيث أقام بضع سنوات (90):

من قصد باب كريم وجاه ما يطرد	حاشا الكريم يطرد اللي جاه قاصد
جوارحي وأعضايا عني كتشهد	وفاقتي واضطراري ما احتاجت شاهد
ما برحت على بابك طول ليل ونهار	شف من حال العبد إلى غريم حاصر
أهل البهجا الحمرا سيوفكم بتار	مال سيفي ما بين سيوفكم قاصر؟
حاشا من جالبابكم يبات حقير قاصد	وسيوف نصرتكم ديما غزارا
سيدي سعيد ياك الخير كثير نسعد	وفضل ربي، ما حصلت لعبارا
بفيض لمداد يسطع شميس غزير	يفرح القلب وتتواتر البشارا

فلحين يغيثني من لو إغارا

88- م.س.، ج 3، 91

89- في الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط دواوين وتقاييد في الملحون كثيرة. وكذا عند الخواص، وبخزانة كلية الآداب بالرباط (ج.م.خ). راجع فهرس مخطوطاتها

90- مراكشي، اعلام، 2، 461

3ـ المديح النبوي

اتخذ هذا الباب مكانا بارزا في الشعر ضمن الاتجاه الروحي الذي أصبح ملاذا للأمة في لجة التكالب الأجنبي والقلق النفسي الناجم عن انعدام الأمن وجور الولاة. وحينئذ يستقل المديح النبوي في وحدة موضوعية، بينما يختلط الجانب الثاني منه بالروح الصوفية شكلا وجوهرا، أما الجانب الثالث فيختلط بتهنئة الملوك في حفلات عيد المولد بوصفهم من آل البيت وحماة للشريعة المحمدية على غرار ما كان يراه شعراء العصر العباسي في خلفاء بغداد، أو شعراء مصر في الخلفاء الفاطميين، وإن كان شعراء الفريق الفاطمي أكثر مبالغة، وبصرف النظر عن كون العباسيين لم يسنوا حفلات المولد النبوي. على أن المديح النبوي لا يختص بالمولوديات، فإن له خطرات أخرى كشوق الشاعر إلى البقاع المقدسة، وكظروف قهر أو كرب يعيشها أو طمع في مغفرة الله عز وجل عن طريق التوسل برسوله (ص).

ومن باب المديح المستقل قصيدة لابن أبيج العلوي الذي عاش إلى ما بعد سنة 1250 هـ وهو من شنقيط التي كانت تدين بالولاء للدولة المغربية وقد بدأها بنسيب متأثر بالبيئة الصحراوية لدى الشاعر، ومن أبياتها (91):

لما برى كبدي ما قد جنته يدي   يممته صارفا عن غيره البصرا
وجهت وجهي إلى خير الورى وأرى   لنفسي الفوز بالمطلوب والظفرا

ومن المديح النبوي المتأثر بالروح الصوفية دالية الشيخ أحمد بن عجيبة (ت. 1224/1809) ومطلعها: (92)

وصل إله العرش في كل لمحة   على عنصر الوجود سر محمد

وأما الجانب الثالث من المديح النبوي فجله امتزج بمدح الملوك خاصة مولاي الحسن (93).

91ـ م. س. ج6، 240. وانظر نموذجا آخر لأحمد جـوس. م. س. ج2، 468
92ـ محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 253
93ـ مراكشي، اعلام، 2، 437. ناصري، استقصا، 9، 154، 170

4- التصــوف

كان من أهم الأبواب التي تميز فيها شعر هذه الفترة. وقد بقي طابع ابن الفارض في هذا الباب قويا حتى في القافية والبحر أحيانا كما هو الشأن في تائيـة ابن عجيبـة المتوفى سنة 1224 هـ وهي من حيث الصنعة تقارب تائيـة علي الجعيـدي دفـين تطـوان سنـة 1032 وإن كانت تائية الجعيدي تذكـرنـا بغلواء السهـروردي وأضـرابـه (94). وبين شعر التصوف ما هو معتدل وما يساير الروح السنية، وفيه الذي يتجه إلى الذات الالهية تعلقا وفنـاء، والـذي لا يخلومن معـانـاة خاصـة تضع صاحبه في مقام الراضي بقضاء الله وتحول كآبتة الداخلية إلى أمل باسم متطلع إلى الخير، توكلا على القادر واطمئنانا إلى حكمه كما عند محمد بن عبد السلام الناصري وهو ممن جمعوا بين علوم الشريعة والتصوف (95):

لله في الخـلق ما اختـارت مشيئتـه ما الخـير الا الـذي يختـاره الـله
إذا قضـى الله فاستسلم لقـدرتـه ما لامـرىء حيـلة فيـما قضى الله
اليأس بقطـع أحيـانـا بصـاحبـه لا تيأســن فإن الـصـانـع الـله

ومما جاء في الفنـاء في الـذات الالهيـة مصـوغـا فيـما دعاه الصوفية بالخمرة الأزلية، تائية ابن عجيبة المشار إليها ومنها :

أحـن إلـى خان الحـميـا لنشـوة تطيش لها الألبـاب في حال سكـرة
فإن تسألـوني عن نعـوت كما لها فإني خبـير عن شهـود وخـبرة

وأروع منه ما جاء في تائية الحراق وله في التصوف شيىء كثير (96)

أبــاح لي الخـمار منـه تفـضــلا خبـاهـا فصـار الشـرب ديني وملتي
فإن شئتهـا صرفـا شربت وإن أشأ مزجـت لأن الـكـل في طي قبضتي
شربت صفـاء في صفـاء فمن يرد من القوم شربا لم يجد غير فضلتي

94- تائية الجعيدي نقلها الاستاذ داود، تاريخ تطوان، 1، 330. وبعض أبيات تائية ابن عجيبة في نفس المرجع 6، 252

95- مراكشي، إعلام، 6، 195

96- داود، م. س. ص 339

5ـ الاخوانيات

تهم بالدرجة الأولى فئة المثقفين من أدباء وعلماء، وقد يكون موضوعها رغبة في الاجتماع بصديق، كقول محمد بن المعطي السرغيني المراكشي (ت 1296 / 1878) يعاتب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي نزيل مراكش على تعذر الاتصال به (97) :

أيا عالما أربى على كل مرتقى ويا بحر علم بالفنون تدفقا
صديق فكم بالباب من وقفة مضت وعنفني دهري وما كان ملتقى
فأبت على رسلي ومني التفاتة وأعوزني وصلي وعدت معوقا

وشبيه به قصيدة لأحمد الناصري يخاطب عالم مكناس محمد الطاهر بوحدو، وقد نقلها عنه عباس المراكشي في الاعلام (98) .

وفي موضوع تبادل الكتب بين الأدباء يقول ابن زاكور مستنجزا وعد صديقه الأديب أبي يعقوب الشوردي التطواني في إعارته (زهر البستان) (99) :

أنجز أبا يعقوب في إرسال ما همنا به من زهرة البستان
فلقد دجت أفكارنا كلفا به فعسى يضوع شذاه بالسلوان
زلت ترفل في برود مسرة بادي البشائر ضاحك الأسنان

وكذلك تشغل النزه والمجالس ذات الطابع الأدبي حيزا طيبا من هذه الاخوانيات التي تمثل سمات الصدق وطابع الارتياح في العلاقات الانسانية ومشاعرها العميقة (100)

6ـ الرثاء

إذا كان المدح تنويها بالأحياء، فالرثاء مدح للأموات، وهو بلا ريب أصدق عاطفة وأنبل مقصدا، وأهم الظواهر التي تستوقف الدارس في هذا المجال :

97ـ مراكشي، إعلام، 7، 28
98ـ م. س. ص 87
99ـ داود، تاريخ تطوان، 1، 421
100ـ من نماذج هذا الباب : مراكشي، إعلام، 7، 31 . 8، 164، 455

أ- تعدد مراثي العلماء
ب- إنشاء الشعر عند الوقوف على ضريح ولي يحظى بتعاطف الفآت الشعبية وعامة المثقفين.

ومن مراثي العلماء مرثية محمد الندرومي المراكشي (101) في إدريس بن محمد بن إدريس العمروي (ت. 1296/1878) :

أي بدر توارى بالقبر عنا وجرى النقص فيه بعد الكمال
أي فضل تخفته المنايا أي مجد هوى، فيا للرجال

وكان من أهم الظواهر التي فشت في هذا المجال رثاء الطلبة لشيوخهم، ومن ذلك رثاء علي بن مصباح الزرويلي الخميسي لشيخه الشهيد عبد السلام جسوس الذي ذكر الضعيف (102) انه توفي سنة 1121 :

حل بالدين يالقومي بلاء أحجمت دون وصفه الشعراء

قتلوه من أجل أن كان للشرع حساما تهابه الأمراء
لهف نفسي على ابن جسوس الحبر الذي تقتدي به الأولياء
عذبوه حيا وقد كان سيين لديه السراء والضراء

واجتنوا ماله الذي سوف يجني بؤسهم حين لا يغنيهم نجاء

وكذلك رثى الأدباء عددا من الملوك وبخاصة أدباء البلاط كرثاء محمد بن إدريس العمروي لمولاي سليمان (103) :

قد كان أوحد دهره ولذاته في العدل والتمكين والاحسان
قد كان عالم عصره وفريده في الفهم والتحقيق والاتقان
من للعلى من للنهى من بعده من للتقى وتلاوة القرآن

101- م. س. ج. 3، 35
102- ضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 84. وانظر نماذج أخرى لنفس الفئة، ص 86و88
103- استقصا، 8، 167

ورثى أكنسوس السلطان مولاي عبد الرحمن بقصيدة منها (104) :

دار أريد بها العبور لغيرها ويظنها المغرور دار مقام
لو كان ينجو من رداها مالك في كثرة الأنصار والخدام
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا أعلى ملوك الارض نجل هشام

وتميزت قصيدة أكنسوس بتمحورها حول تفاهة الحياة وسطوة الموت.أما توسلات الأدباء بالأضرحة فهي وان كانت موضوعا مستقلا، لا تخلو من علاقة بباب الرثاء وحتى بالمدح أيضا، لأن الواقف على الضريح يمكن أن يتشخص في الوَلِيّ الراقد قطبا لازالت بركته وفيوضه قائمة. قال علي مندوصة التطواني في ضريح ابن مشيش (105) :

شوقي وشوق المطايا لابن مشيش شديد
من ركن مجده عال فاق السماك مجيد
ما مثل عبد السلام أس المعالي عميد

وقد خصص محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس العمروي (ت 1264/1847) قصائد ضريحية جمع فيها بين عدد كبير من الأولياء وأخرى فردية من بينها يائية حول أبي العباس السبتي ونونية عن عبد الله الغزواني وأخرى عن ابن سليمان الجزولي (106)

وحيث إن الرثاء يشمل المدن والأماكن المهجورة فإن مدينة تطوان التي سقطت في يد الاسبان نالت حظها من هذا الباب أيضا. ومن ذلك قصيدة الأديب المفضل أفيلال التي جمعت بين محاسن المدينة قبل احتلالها وما صارت عليه مساجدها وأضرحتها في يد جيش الاحتلال، ثم التعبير عن الأمل في استعادتها ومن أبياتها (107) :

يا حسنها من ليال لو لم تصر كالمنامه
تطوان يادار أنس وخيس أهل الزعامه
هل للوصال سبيل فالهجر أكمل عامه

104- م.س.ج. 9، 77
105- محمد داود، تاريخ تطوان، 1، 369
106- مراكشي، اعلام، 6، 278-288
107- استقصا، 9، 93

7ـ المدح

تناول الأشخاص والمدن. وبين الأشخاص، السلاطين والزعماء والعلماء. وأغلب أشعار المدح في الكبار تأتي من موظفين سامين أو راغبين في هبات سخية أو تعيينات وظيفية.

وأكبر سلاطين المرحلة حظامن أمداح الشعراء هو مولاي الحسن، لكن لجميع الملوك البارزين حظا من هذه الامداح كمولاي رشيد ومولاي سليمان ومولاي عبد الرحمن. وتميزت قصيدة ابن الونان في السلطان محمد الثالث بجزالتها وبليغ معانيها وجاذبية صياغتها، وهي المعروفة بالشمقمقية، ومع أنها أرجوزة فقد حظيت بعناية الشراح ومن بينهم أحمد ابن خالد الناصري الذي قال عنها في الاستقصا (108) : «. . . وهي من الشعرا الفائق، والنظم البديع الرائق، أبان منشئها عن باع كبير واطلاع غزير على أحبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها، بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الأدب.» وعلى العموم يبقى المثل الأعلى في أمداح الملوك، شرف النسب وصفات العدل والكرم والقيم الدينية، أي أن الشعراء لم يتقدموا خطوة بعد ثلاثة عشر قرنا من ظهور الاسلام في تحويل شطر من هذه الامداح بكيفية لبقة على الأقل إلى تعبير عن تطلعات الأمة وآمالها المشتركة.

ومما مدح به مولاي الحسن قصيدة لادريس الجعيدي من كتاب البلاط، وقد وصفه الناصري بفلكي العصر، ومن أبياتها (109) :

يرى بنور حجاه كل عاقبة — وعين تدبيره للامر لم تنم
فصل الخطاب حباه الله مكرمة — وحكمة عظمت من أبدع الحكم

ومدح الفقيه عبد الوهاب بن العربي الفاسي أهل الزاوية الدلائية بقوله (109) :

من حل يوما حماهم فدهره في استقامه
ليس فيهم عيوب غير الندى والشهامه
تخالهم كالبدور مكانة ووسامه
وكالسيوف مضاء وحدة وصرامه
وكالأسود ولكن مهابة وزعامه

108ـ الناصري، الاستقصا، 8، 71
109ـ الكردودي، الدر المنضد، و 143ـ144

وكان في المثقفين الملتزمين من يكره المدح جملة، وفي هذا المجال قال علي بن أحمد مصباح (110) : «عصمني الله من مدح الرؤساء وولاة الأمر ابتغاء صلاتهم ورفدهم أنفة، وأسمو بهمتي عن بذلها في ذلك».

والمدن يتفاوت حظها بين مدح الشعراء وهجوهم حسب ظروف زيارتهم لها ونوع انطباعاتهم إشراقا أو كآبة. ومدينة القصر الكبير مدحها أكثر من واحد (111)، لكن في الأدباء من هجاها كما سياتي. ومدحها ابن زاكور :

أبى القصر إلا أن يحوز العلى قسرا   وأن يبقى المجد التليد به قصرا
فإن فاته الماء المفجر من صفا   ففيه مياه الفضل قد فجرت بحرا

8ـ الغزل والخمريات

كيف يتعايش المجون والتقاليد الدينية في مكان واحد وعصر واحد؟ لم تكن هذه الحقيقة خاصة بهذا العصر ولا بمناطق معينة من المغرب. إنها ظاهرة ليست عادية في كل عصر ومكان فحسب، بل هي أيضا حتمية، فاذا انصرفت فئة من المجتمع أو غالبيته إلى الجد والتزام الوقار تبعا لمؤثرات بيئية معينة، كان في الطرف الآخر متحررون فكريا يتماجنون أو يتطرقون إلى المجون. وليس كل التماجن ممارسة، فقد يكون قولا لا يتجاوز صورة من التعبير غير مكبوتة، غير أن هناك صورا من الشذوذ لم يعتد المغاربة من قبل أن يجرأوا على التعبير عنها في مجالسهم وحتى إذا فعلوا فلا يجرأ الآخرون على تناقلها في كتاب فأحرى أن يدونها أصحابها مباشرة. وهكذا نجد في هذا العصر من يتغنى بالخمر ومجالسها وسقاتها، ومن ينحو في اتجاهه منحى أبي نواس مؤسس مدرسة الغزل المذكر.

لم تكن هذه الظاهرة فاشية ولا طاغية، ولكنها أبرز منها في أي عصر مضى بالمغرب الاسلامي. وكلما ازداد الاحتكاك بالجالية اليهودية أو الأوروبية، ازداد معه الميل إلى التحرر في حدود تبقى على العموم ضيقة بسبب رقابة الرأي العام وعلى رأسه الفقهاء.

110ـ الضعيف، ص 91
111ـ محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 205

ومن نماذج الغزل المؤنث قول أحمد بن قاسم جسوس (112) (ت 1913/332) :

ورمين من قوس الحواجب أسهما غادرن كل غضنفر مطروحا
ومشين في جنح الظلام تسترا فوشى بهن المسك يفضح ريحا
متلفعات بالشباب يدرن من خمر التصابي جامه المصبوحا

وبين الشعراء من جمعوا بين الصفتين الدينية والأدبية، فكان عبد الله شطير التطواني مثلا، عدلا ثم إماما، وقرض الشعر تارة موسوما بالروح الدينية وتارة في التغني بالجمال وما يحرمه الدين. وكيفما كان الأمر فقد تضمن ديوانه كلا من الاتجاهين بما في ذلك الغزل المذكر (113). وكانت وفاة شطير سنة 1215/1800. وشبيه بهذا الاتجاه المزدوج، إدريس السناني المعروف بالحنش (1303/1885) فقد ألف في التصوف (نزهة الأعيان وتبصرة الاخوان). وقرض الملحون وكان فيه متميزا، كما تغزل وأسف ثم أظهر التوبة من خلال شعره الذي هو جدير بدراسة متخصصة. ومن غزله المذكر (114) :

بأبي مليحا أمردا حمل الفنار ليرشدا
ومشى أمامي ليلة حذرا علي من الردى
يكفي ضياء جماله فيه لنا نور الهدى
مالي وللاضواء إذ ذاك البها منه بدا

ويغلب أن تتجاور الخمريات والغزل في القصائد. وفي بعض المجالس يكون للطرب والمطربين مكان مفضل، فيعبر الشعر في هذه الحال عن تعايش الجيران الثلاثة : الخمر والغزل والطرب كما هو الحال في قطعة لموسى الوجاني السوسي ومنها (115) :

قطعت إلى الصباح بغانيات وأقداح تشعشع بالشراب
وأوتارلها نغمات وحي تبعثر من هم تحت التراب

112ـ مراكشي، اعلام، 2، 472
113ـ محمد داود. م. س. ص 207
114ـ مراكشي، إعلام، 3، 46
115ـ محمد المختار السوسي، سوس العالمية، ص 75

وعـرف الأمـير محمد العالم بثقافته الواسعة ومجالسه التي كانت تضم العـديـد من الأدبـاء والندماء بسوس. وله مساجلات عفوية مع الشعراء افتتح إحداها بقوله (116) :

هذي الكؤوس مشعشعـات الراح   فانهض نلب نداءهــا يا صاح

وتابع إبراهيم السجتاني :
ما عذر من ترك الـعقـار بروضــة   زهــراء بين منــادمــات صبــاح

وقال الايلالني :

وكأن ذاك الــورد في أشــواكــه   شاك تبـدى في أتـم سلاح

وقال الزدوتي :
قم واسـقنيهــا مثــل عين الــديــك تحفــز للمكــارم أنفس الشحــاح
ثم قال السجتاني :
من كف أغـيــد ردفــه مترجــرج   كالــدعص بين تقـلبــات ريــاح

وقـد رأينـا في هذه المسـاجلة التي وقـع الاقتصار فيها هنا على نحو النصف كيف تم الجمع بين الخمر والغزل والورد أيضا. وكان الورد كما هو معلوم يقــدم في مجالس الشـرب عنـد الفـرس قبـل أن ينتقـل في العصـر العباسي إلى العرب أيضا.

9ـ الهجــاء

شمـل الأشخـاص فرادى وجمـاعـات كما شمل الأماكن. وكان في الأفـراد أقـل منـه في غيرهم. ومن أطـرف نماذجـه هجـاء إدريس الحنش لامرأته (117) :

إلــى الــله أشكــو أذى زوجــة   تجرع قلبــي هموم الــشطــط
تزوجــتــهــا طلبــا للســرور   فجــاء ولــلسـين منــه نقــط
أرى من تزوج في وقــتــنــا   تعــرض من فوره للســخــط

116ـ م. س. ص 75ـ76
117ـ مراكشي، اعلام 4، 46

ويظهر أن هذا الشاعر المتأخر كان يشكو نقصا في توازن حياته العاطفية حيث سبق تقديم بعض نماذج شعره في مجال الغزل. ومع هذا فهو أشد نقدا لشريكة حياته من الحطيئة تجاه زوجته، وعصره عصر جاهلية. وإدريس الحنش هجا اليهود أيضا : (118)

لا تخالط من أناس ورثوا بغضنا من عهد آبا وجدود
ملئوا بالغش حتى لا ترى أحدا منهم يوفي بالعهود

وهجاء المدن أو هجوها لم يكن وليد العصر، فهو قديم ويعبر عادة عن انطباعات أديب زائر لم يرتح لمقامه أو لمشاهداته. وشارك أدباء بارزون في ذم المدن كما فعل ابن الخطيب، وكما فعل عدد من الرحالة كالعبدري الحاحي وابن بطوطة. ونالت مدينة فاس من ذم عدد من الأدباء بقدر ما نالت من مدح آخرين. وقد أورد ابن سودة في دليله (ج 2) أسماء مجاميع ومذكرات في هذا المجال (119). وكثير من الزوار يتأثرون بحالاتهم الخاصة أكثر مما يتأثرون بواقع الأماكن ومحاسنها، وقد يقتربون من هذا الواقع في جوانبه السلبية فحسب إذا لم يكن في التعبير عن انطباعاتهم مبالغة. فإذا كان ابن زكور ممن مدحوا القصر الكبير، فإن الأديب محمد الفاطمي الصقلي الذي برز أدبه في مطالع القرن 14 / 20 هجا هذه المدينة هجوا لاذعا جردها من كل خير (120) :

ما حله فضل ولا كرم ولا علم ولا غزو ولا نصر
خال من الأنعام الا أهله ما فيه قصف ولا هصر
وسخ، به وخم ونتن، وصفه قد ضاق عن تعداده العصر

إن هذه النظرة المجملة عن أدب المغاربة خلال قرنين ونصف قبل الحماية تمثل تقييما للتطورات التي حصلت في هذا الأدب. وإبرازا للمجالات التي أينع فيها وقد كان يتعايش مع حياة الأدباء أنفسهم وحياة المجتمع بوجه عام، في تناقضاتها وما اكتنفها من عواطف مع صدق في التصوير وتأرجح بين الحالة ونقيضها.

118ـ م. س. ص 45
119ـ ابن سودة، دليل، ص 447، 471، 494. وفي الرد على من ذم فاس، ص 493 و 494
120ـ مراكشي، إعلام، 7، 94

الفصل الثاني
العلوم الدينية

1ـ القرآن وعلومه المباشرة

كل العلوم الدينية ارتبطت بالقرآن الذي ظل موضع عناية شعبية فائقة، يقرأ ويحفظ في الكتاتيب والزوايا والمساجد والبيوت الخاصة والمدارس التقليدية. ومن أمثلة هذه العناية الخارقة ما قيل عن أحد صلحاء زاوية الشراردة حول مراكش وهو محمد الزوين، أنه كان يشرف على تحفيظ القرآن لنحو خمسمائة من التلاميذ بزاويته ويتولى إطعامهم من أملاكه العديدة التي حبسها كلها على الزاوية (1).

كان القرآن يمثل قاعدة للمعرفة الدينية وهرما للفضيلة الفكرية، فمن لا يحفظ القرآن يبق ناقص علم مهما اتسعت آفاق معرفته، وعالة على الآخرين في فهم الدين، هذا الدين الذي خدمه المثقفون حتى بالأمازيغية حيث لا تسود العربية (2)

ونالت القراءات مكانا مفضلا ربما فاق مكانها الذي عرفته خلال القرن العاشر (16 م) ومعرفتها ذات أهمية في التمييز بين بعض اللهجات التي قرئت بها ألفاظ معينة وبالتالي في تفسير القرآن بشكل موضوعي

وأساتذة القراءات أكثر من أن يتم حصرهم في لائحة. وقد يتنقل الطالب بين عدة أساتذة في علوم القراءات كما هو الشأن في دراسة السلطان محمد الرابع في حداثته، حيث درس القراءات على كل من

1ـ مراكشي، اعلام، 7، 108

2ـ مخطوطات كلية الآداب (ج. م. خ)، ص 68

قدور الصوصي وحمزة الفيلالي ومحمد بن عبد الواحد الفاسي والعربي الأوديي والطيب بليمني (3).

وكان محمد الزوين ضليعا في قراءة حمزة، غير أن منظومة حرز الأماني المعروفة الشاطبية، نسبة إلى أبي القاسم الرعيني الشاطبي المتوفى سنة 1194/590 ظلت أساسا للدراسات القرائية من أيام الموحدين ثم تتبعها وتكملها منظومات وشروح في مختلف القراءات. وكانت الاحاطة بالقراءات السبع تزكية كبيرة لصاحبها ويمكنه أن يجيز تلاميذه تماما كما يجيز فقيه كبير من تخرج عليه. وعلى العموم فإن أفضل مكان لدراسة هذه القراءات هو الزوايا والمدارس (4) ويكتسب بعض شيوخ القراءة شهره واسعة كلما كثر تلاميذهم كما هو الشأن في محمد الشرقي (ت 1071) الذي تخرج عليه نجباء من طلبة القراءات كما قال الناصري (5)، وأبي زيد عبد الرحمن بن أبي القاسم بن القاضي المكناسي من أسرة مؤلف (جذوة الاقتباس) وكان شيخ الجماعة في الاقراء كما قال الكردودي (6) الذي أضاف أن زيدا هذا أخذ عنه القراءات عدد لا يحصى من ألاعيان وغيرهم. وكانت وفاته بفاس 1671/1082 وضريحه بباب أبي الفتوح

ويجسم شيخ القراءة الفضل والصلاح إذا لم ينسب إلى الولاية، ولذلك يفضل الطلاب أو أولياؤهم أن يسندوا تعليمهم إلى هذه الفئة من الشيوخ بالذات، كما رأينا بعض نماذجها فيما سبق. وقد يحصل الطالب على معارفه القرائية توارثا في أسرته كما هو الشأن في شيوخ الزاوية الشرقاوية. وكيفما كان الأمر فإن أستاذ القراءة يطرد فيه الفضل والصلاح. وعندما يقول مؤلف تراجم عن أستاذ ما إنه مقصود في القراءات السبع وأنه كان صالحا ورعا زاهدا (7) فإن هذه الصفات تتلازم بشكل متشابه حيثما كان الحديث عن أي زميل له.

أما في التأليف فقد توزع اهتمام أصحابه بين مسائل الرسم والجانب الصوتي، ومن ذلك منظومة الدالية في تخفيف الهمز عند حمزة

3- مراكشي، م. س. ج، 6 379- 380

4- ناصري، 7، 104

5- م. س. ن. ص

6- الكردودي، الدر المنضد، و، 159

7- مراكشي، اعلام، 7، 34

وهشام لمحمد بن مبارك السجلماسي (ت. 1092/1681) وقد شرحها كل من عبد الرحمن المنجرة (1179/1785) ومحمدبن عبد السلام الفاسي (1214/1799)، والاعلان في قراءة الحبرين (رسالة في وقف حمزة وهشام) لأحمد العياشي الصنهاجي من القرن 13/19، والقرقاوية على رسم القراء السبعة لعلي بن إبراهيم الحيحي من القرن 13 أيضا (8) وحفظ الأماني وشرح الهمز والكنز والحرز لأبي القاسم بن درا الشاوي المتوفي بمكناس 1150/1137 (9) ومناهج رسم القرآن في شرح مورد الظمآن للخراز، من تأليف مسعود بن محمد جموع الفاسي (1119/1707) (10) والخراز هو محمد بن محمد الأموي (718/1318).

ومما كتب في الصوتيات غيرما سبق رسالة في اسقاط المد الطبيعي وإجراء الوصل مجرى الوقف، لأحمد بن عبد العزيز الفيلالي الهلالي (1175/1761) ورسالة أخرى حول إجراء الوصل مجرى الوقف لعبد الرحمن المنجرة (11)، والفوائد المحققة في إبطال دعوى أن التاء طاء مرققة (12) لاحمد الناصري وعرف الند في حكم حذف المد لأحمد الهلالي المذكور، والاتحاف بما يتعلق بالقاف (المعقودة) لعبد الله بن الهاشمي بن خضراء (1323/1905) وهو من المطبوعات الحجرية بفاس

ومن المؤلفين في باب القراءات : أحمد بن عجيبة : الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة (13). وإدريس بن عبد الله الودغيري البدراوي (1257/1841) ومن مؤلفاته : التوضيح والبيان في مقرأ نافع المدني بن عبد الرحمن، وعمدة البيان في علوم القرآن، وتقييد في تفسير الغنة (14).

أما فيما يتعلق بتفسير القرآن أو بيان إعجازه فإن عطاء المغاربة أقل منه بالقياس إلى أقطار مشرقية كإيران والعراق ومصر، بل وحتى بالقياس

8 - أنظر بشأن المؤلفات المذكورة، فهرس المخطوطات العربية (خ.ع. الرباط) ج 1. 15-17
9 - بنمنصور، أعلام، 2، 153
10 - فهرس المخطوطات العربية ص 7 (أنظر التعليق 8)
11 - ن.م. ص 21
12 - ن.م. ص 22
13 - ن.م. ج. 4، 12-13
14 - بنعبد الله، موسوعة، 2، 49

إلى عطائهم في جوانب أخرى كالفقه والتصوف. ولم يكن هذا عن قصور، بل تحرجا من تأويل ما يصعب تأويله كالمتشابه مثلا، وليس الامر كذلك في قضايا الرسم والتجويد والقراءات وكلها تنطلق من روايات متواترة ونصوص لا تغيرمن معنى الآيات شيئا ولا يمس الاختلاف الا جزءا من الألفاظ قراءة وليس صورة، ويبقى الأمر في هذا الحال مرتبطا بالشكل لا بالجوهر.

لكن العصر لم يخل من ظهور تفاسير متميزة، وفشو ظاهرة التفسير الجزئي المرتبط بسور صغيرة معينة، لاسيما التي يتبرك بها الشعبيون والمؤمنون وتتداول على ألسنتهم كالفاتحة وسورة الاخلاص، بل فشت ظاهرة أخرى إلى حد وهي إخضاع التفسير للمفاهيم الصوفية، وسنرى أن التأويل الصوفي امتد إلى أبواب أخرى كالفقه والنحو، وحينما يكون الحديث هنا عن فشو هذه الظواهر، لا يعني ذلك نشأتها في هذا العصر بالذات، فقد فسر الغزالي الفقه تفسيرا فلسفيا وصوفيا في إحياء علوم الدين، وصبغ الزمخشري تفسيره بروح الاعتزال، واتجه آخرون في التفسير على هذا النحو أو حسب ميولهم الخاصة كالشيعة والخوارج وأهل السنة.

والعناية بتفسير الفاتحة بالذات، تدريسا وكتابة، كان من مميزات العصر كظاهرة فاشية. وقد قيل عن الحسن بن مسعود اليوسي إنه مكث في تدريس الفاتحة بمراكش قريبا من ثلاثة أشهر دون تهييء مباشر (15). وألف في تفسيرها محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي (1144/1731) ثلاثين صفحة كجواب عن استشكالات وضعها في 16 صفحة، عمر بن عبد السلام لوقاش (16) وأحمد بن عجيبة (خ.ع. الرباط (17) وكان أبو زيد عبد الرحمن الفاسي ممن فسروا الفاتحة تفسيرا صوفيا (18) خلال العصر السعدي

وكتب ابن زكري في تفسير سورة الاخلاص، وابن عجيبة في تفسير الآية: (الله نور السماوات والارض...)

15- ناصري، استقصا، 7، 108، مراكشي، اعلام، 3، 157

16- فهرس المخطوطات العربية (خ.ع. الرباط) ص. 33-34. بنعبد الله، موسوعة، 1، 114

17- بنعبد الله، موسوعة، 2، 49

18- فهرس مذكور، ص 297

ومن التفاسير الكبرى أو الشاملة أو التي هي حواش لتفاسير سابقة :

1ـ عقود الفاتحة في خمسة أجزاء لابن الحاج حمدون بن عبد الرحمن اتمها نجله محمد، وطبع الأول على الحجر (695 ص) (19).

2ـ البحر المجيد في تفسير القرآن المجيد (4 أجزاء) لابن عجيبة ومنه نسخة عند أحد الخواص بفاس والجزء الأول ب.خ.ع. ويتجه أحيانا اتجاها صوفيا (20)

3ـ الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس لمحمد بن عبد السلام الناصري وهو يقصد ترتيب سور القرآن من أسفل إلى أعلى (21)

4ـ حاشية على تفسير أبي السعود والبيضاوي لابن الحاج المذكور، لم يلتزم فيها بمذهب (22)

2ـ الحديث النبوي

إذا كانت الدراسات القرآنية قد نشطت على أوسع نطاق فإن مدرسة الحديث قد اجتذبت إليها أيضا عدداً كبيراً من الدارسين والأساتذة والمؤلفين. غير أن مدرسة الحديث نمت في ظل السلطة وبتشجيعها، ومدرسة القرآن لازمتها الصبغة الشعبية بعيدا عن تدخل السلطة. وانتعاش مدرسة الحديث بعد فترة ركود وانحباس شملت معظم الحقبة الممتدة من وفاة المنصور الموحدي إلى أواسط القرن 12 / 18 يرجع إلى أسباب داخلية وخارجية. والاولى تتمثل في اتساع نفوذ الزوايا وشعبية الصلحاء أحياء وأمواتا إلى درجة تقديسهم واستدرار بركتهم ورجاء عونهم في الملمات، فضلا عن النفوذ السياسي البالغ الذي أصبحت بعض الزوايا تتمتع به في الاوساط الشعبية. والثانية تتجلى في تطور الحركة الوهابية ومؤثراتها على الصعيد الاسلامي، وإن كان هذا العامل متأخرا زمنا بالنسبة للعوامل الداخلية. ومع كل ذلك لا يمكن إغفال مقام الحديث لدى الفآت الشعبية لانه يمثل كلام رسول الاسلام الذي

19ـ بنعبد الله، م.س. 1. 66

20ـ فهرس،م.س. (خ.ع. الرباط)ص 36. وبالخزانة الملكية عدة نسخ ينقصها جزء واجد

21ـ ن.م.وص

22ـ بنعبد الله، ن.م.وص

يحظى بتقـديـر شعبي ورسمي معـا وهو تقدير لا يقبل الجدل. والواقع أن كتب صحاح الحديث لاسيما البخاري ومسلم، كان لها مقام القداسة بعد القرآن خصوصا منذ العهد السعدي أي بعد أن تحولت حركة الاستشراف إلى تيـار شعبي كاسـح. فلابـد والحالة هذه، من ربط تقديس البخاري ومسلم بشخص الملوك الأشراف أنفسهم لكن ما فعله محمد بن عبد الله يتجـاوز في الـواقع مجرد تأكيد علاقة دم بسيد آل البيت (ص)، بل وحتى مجرد محاربـة البـدع عن طريق الـرجـوع إلى السنة، فقد حاول أن يبعث الحيـاة في جيـل الفقهـاء الذين أغرقتهم الخلافات والوجوه الفرعية داخل مذهب مالـك وأن يحملهم على الـرجـوع إلى النصوص النبوية كمصدر تشـريـع بالـغ الأهميـة، وهـذا بعـد توحيـد تلك النصـوص على يد لجنة متخصصـة (23) تراجـع الـروايـات في مختلف المسانيد وتاخذ المتفق عليه منهـا دون غيره، وهـذا ما أسفـر عنـه كتاب مسانيد الأئمة الأربعة (24)، وكتاب الفتوحات الالهية الذي عد من تآليف العاهل المذكور.

غير أن هذه الحـركـة الجديدة (حركة توحيد الأحاديث) لم يكن من ورائهـا إلغـاء دراسة كتب الحديث الأخرى وإن أصبح صحيح البخاري وكأنـه قد زحـزح صحيح مسلم عن كل منافسة في المجالس الحديثية لان صحيح البخاري فرضته تزكية نقاد الحديث من زمن طويل. وقد اعتادت أطـراف التوجيه الديني بالمغرب أن تتوخى أصح الطرق الممكنة للاقتراب من السنة فيما يخص المبادىء والتشريعات

إن سلسلة المحدثين طويلة وقد سبق ذكر بعض رجالاتها من عصر محمد الثالث. وفيما يلي لائحة ببعض أساتذة الحديث بعد هؤلاء :

1ـ الطيب بن عبد المجيد بن كيران 1227/1812

2ـ المعطي الـزداغي المـراكشي كان يحضـر كسابقه دروس صحيح البخـاري في مجالس مولاي سليـمان بمكنـاس وفـاس (25). وكـان هذا العاهل يجمع أعيان العلماء لسرد الحديث (26).

23ـ راجع فصل 1، قسم 1 (بعنوان : المجالس العلمية)

24ـ استقصا، 8، 66

25ـ مراكشي، اعلام، 7، 257

26ـ مشرفي، حلل بهية

3ـ محمد المدني بن جلون الكومي معاصر الحسن الأول، وله تقييد في الاحاديث المتواترة ومساهمات كتابية في الفقه وغيره (27).

4ـ محمد بن حمو الدمناتي من أساتذة الفقه والحديث وتولى قضاء دمنات. توفي سنة 1304 (28).

5ـ محمد بن أحمد الصقلي من أعضاء مجلس الحسن الأول وهو مشارك في الفقه والحديث والأصول والعربية (29)

6ـ محمد المكي بن سودة المري، مشارك وأستاذ بالقرويين وعضو مجلس الحسن الإول (30).

7ـ محمد بن أحمد العراقي محدث جليل بالقرويين وعضو مجلس الحسن الأول (31)

8ـ محمد العلوي المدغري ت 1325 ه عالم مشارك وعضو بمجلس الحسن الأول ومولاي عبد العزيز (32).

وليست هذه اللائحة لمجرد السرد، بل للتدليل على الأهمية التي حظي بها صحيح البخاري بصفة خاصة في عهد مولاي سليمان والحسن الأول، على أن هناك طبقة من المحدثين تميزت عن معظم هؤلاء المذكورين بضلاعتها في الحديث وقوة إشعاعها في هذا المجال. ومن أفرادها :

1ـ ابن الحاج السلمي حمدون بن عبد الرحمن (1817/1232) وكان إلى قوة باعه في الحديث مفسرا للقرآن من أعلى مستوى مع مشاركته في علوم دينية أخرى درسها بالقرويين. وكان شديد الجرأة في الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر، لاسيما ضد ولاة السوء (33)

2ـ محمد بن محمد الصادق بن ريسون العلمي (1818/1234). وصفه المراكشي بالعلامة المحدث الضابط وبالراوية

27ـ مراكشي، إعلام، 7، 37

28ـ ن.م. ص 64

29ـ ن.م.ص. 111

30ـ ن.م.ص. 131

31ـ ن.م.ص. 133

32ـ ن.م.ص. 147

33ـ إعلام.ج. 3. 117

الصالح . تلقى إجازات عدد من علماء المشرق والمغرب الكبير، وكان ذا باع في القراءات أيضا (34).

3ـ ابن حماد محمد التهامي ، وصف بأنه آخر حفاظ المغرب ، وان كانت هذه الصفة لا تعني واقعا حاسما، وكان شيخ مجلس العاهل (ت. 1849/1832) (35)

4ـ ابن الحاج السلمي محمد بن حمدون (1857/1274). قال عنه المراكشي : انفرد في علم الحديث بالحفظ والضبط والاتقان ، فاتسعت بذلك عارضته ، واشتدت في العلم والعمل عنايته (36).

ورجل الحديث إذا لم يبرع في غيره لا يجد مجالا غير التدريس ، ثم لابد أن يكون لهذا العلم كرسي ، تموله الدولة أو الأوقاف. وحيث إن القرويين تميزت بكثرة أوقافها فإن أغلبية أساتذة الحديث ينتمون إلى فاس بالدرجة الأولى . ولهذا السبب نادرا ما يتخصص طالب بالحديث وحده ، لان الفقه مثلا يضمن من مجالات العمل ما لا يتوفر أمام أكثر الخريجين الآخرين . وقد أدرك الملوك المهتمون بتنشيط مدرسة الحديث ضرورة تشجيع روادها فأغدقوا عليهم من الصلات والهبات حصوصا أثناء انعقاد المجالس الحديثية باشراف الملوك.

وفي الواقع لم يكن تدريس الحديث أو سرده وقفا على القرويين وجوامع مراكش ، فهو يدخل كمادة أساسية للتدريس في عدد من المعاهد الخارجة عن إشراف الدولة لاسيما الزوايا . وعلى سبيل المثال نجد محمد ابن المعطي الشرقي يدرس بالزاوية الناصرية قسما من مجموعة كتب في الحديث : البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي والنسائي والموطأ (37) وداخل مراكش نفسها نرى الفقيه أحمد بن محمد بن موسى السلوي يتولى بالزاوية التيجانية تدريس صحيح البخاري (38)، وهكذا

وإذا كان التعايش بين الفقه والحديث أمرا مالوفا ، فإن المزج بين الحديث والتصوف لم يكن شاذا ، مع أن النصوص النبوية بعيدة في جملتها

34ـ ن.م.ج 6، 191

35ـ بنعبد الله، موسوعة، 1، 80

36ـ مراكشي ، اعلام، 6 . 306

37ـ م.س. ص 39

38ـم.س.ج. 2، 462

عن الاغــراق الصـــوفي، فقـد انبنت على الممارسـة والحكمـة ووضعت للتشـريـع، وهكـذا نرى محمـد الصنهـاجي التكـركسي يقـوم على سرد الصحيحـين وكتب الصـوفيـة معا. (39) وتوفي سنة 1167 هـ وقيل عن محمـد الحضيكي (1189) إنـه كان عارفـا بالسـير والحديث وأنه جمع بين شرف العلم وشرف الولاية (40)

وكـانت هذه الظـاهرة بالمشرق أيضا. وقد نقل العالم المغربي محمد الطاهر بن عبد الكبير الفاسي بالمشرق الطريقة الرفاعية عن الشهاب أحمد الـرفـاعي، وتلقى عدة طرق صوفيـة أخرى بمكة وغيرها. وكان مع هذا (موفور الحظ في الحديث والسير والتوحيد والفقه والعلوم العربية..) ولقي بالمشرق الشيخ عبد الغني الدهلوي فدرس عليه قسما من الموطأ وأخذ عنه الطـريقـة النقشبنـديـة. وذلـك أن الصوفية المغاربة يرتكزون على السنة نفسهـا فيـما سلكـوه من طرق (والأصـح طرائق) وهذا ينطبق على الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة فيحافظون على توازن بين الجانبين.

وأسهم المؤلفون بشروح قيمة على صحيح البخاري الذي أصبح بمثابة المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم بالنسبة للفقهاء البارزين وسـائـر الـدارسـين الذين يرغبون في إشباع فضولهم من المعرفة الحديثية. ومن أهم هذه الشروح :

1ـ أنوار إرشاد الساري (41) لاحمد بن عبد الله الحضيكي الذي برز في النصف الأول من القرن 12/18م.

2ـ حاشية على صحيح البخاري لمحمد بن عبد الرحمن بن زكري (42) 1144/1731 م، وكان بالمخطوط الأصلي بتر، فأكمله المدني جنون (1302/1884) وطبع الكتاب في خمسة أجزاء على الحجر بفاس (1328/1910)

3ـ حاشية على البخاري لابن الحاج حمدون بن عبد الرحمن وفيها بذكـر المؤلف من اتفقـوا مع البخـاري في إخـراج الحـديث بالاضافة إلى مقارنات بنصوص القرآن الكريم (43)

39ـ م.س.ج 6، 39
40ـ ن.م.ص 82
41ـ ن.م.ص 85
42ـ بنعبد الله، موسوعة، 1، 113
43ـ م.س.ص 66

4ـ شرح صحيح البخاري لمحمد يحيى الداودي الولاتي (1330 هـ) في أربعة مجلدات. ووصف عباس المراكشي الشرح بالنفاسة (44)

5 ـ حاشية على البخاري لمحمد التاودي بن سودة المري (1794/1209) وهو من أبرز المشاركين ودرس عليه طلاب المغرب الكبير وبعض أقطار المشرق (45)

6ـ حاشية على الجامع الصحيح لابن سودة أحمد بن الطالب (1903/1321) والأصل بالخزانة السودية بفاس (46)

7ـ تعليق على البخاري وآخر على مسلم للتهامي بن المدني جنون (47) (1912/1331)

وممن اهتموا بشرح موطأ مالك أو التعليق عليه عالم من سلا ينتمي إلى أسرة السدراتي وهو أحمد بن المكي (1253/1838) وله حاشية في مجلد ضخم (950 ص) بعنوان تقريب المسالك لموطأ مالك (خ. ع. الرباط) وذكر الجراري أنه في أربعة مجلدات (48).

وخارج نطاق صحيح البخاري وموطأ مالك نجد بعض كبار المحدثين الذين ألفوا أو شرحوا كتبا أخرى كإدريس بن محمد العراقي (1183/1769) الذي برز كمتخصص نادر في مجال الحديث، حتى وصف بأنه حامل لواء الحديث في زمانه وبسلطان المحدثين في وقته (49) وقد استدرك أكثر من خمسة آلاف حديث على الجامع الكبير للسيوطي وشرح شمائل الترمذي ووضع تكميلا في مجلد لمناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا للسيوطي (50). وممن ختموا المدرسة الحديثية في مجال التأليف لهذا العصر أبو جيدة بن عبد الكبير الفاسي (1328/1910) وقد وضع في الحديث كتاب المسلسلات وهو من نوادر الكتب في بابه (51)

44ـ مراكشي، اعلام، 7، 180

45ـ م. س. 6، 136

46ـ بنعبد الله، موسوعة، 2، 12

47ـ مراكشي، م. س. 3. 96

48ـ الخزانة العامة، فهرس المخطوطات، 1، 54. جراري، من أعلام الفكر، 2، 117

49ـ مراكشي، م. س. ص 16

50ـ بنعبد الله، موسوعة، 4، 14

51ـ بنمنصور، أعلام، 1، 302

وعلى المستوى الابتدائي اكتسبت «الأربعون حديثا النووية» شهرة فائقة في العالم الاسلامي قاطبة حيث وضعت لها شروح عديدة. وهي منسوبة ليحيى بن شرف الشافعي (1277/676) ومن شراحها بالمغرب: محمد بن علال الدليمي (52) (1879/1297) ومحمد بن إبراهيم السباعي من مراكش (1913/1332) وقد شرحها الأخير في جزأين.

3 ـ الفقه

يعتبر الفقه، وما يتعلق بالمعاملات والعبادات منه خاصة، أكثر العلوم رواجا بالمغرب لسببين: أولا، لانه يتصل بالحياة اليومية روحيا وماديا. وثانيا، لحاجة البلاد إلى الاطارات التي لابد لها من مستوى معين من الدراسة الفقهية لممارسة عدد من الوظائف كالقضاء والتوقيت والتوثيق ونظارة الأوقاف والامامة فضلا عن إطارات التدريس

وامتدت هذه الظاهرة طيلة ما يسمى بالعصر الوسيط ثم العصر الحديث إلى فجر الحمايتين الفرنسية والاسبانية. لكن أجيال العصر العلوي قبل الحماية واصلت اهتمامها بمتن خليل حفظا ودراسة وشرحا وتأليفا، في الوقت الذي نبذت فيه جل الشروح السابقة لتبحث عن شروح معاصره إما من عمل المغاربة أنفسهم أو من عمل المشارقة. إن طبقة فقهاء العصر هم مدينون في أغلبيتهم، وبشكل مباشر أو غير مباشر لفقهاء النصف الأول من القرن الحادي عشر / 16 م كعيسى السكتاني ومحمد بن سعيد المرغيتي وغيرهما من المغاربة والمشارقة الذين سبق ذكر أسماء عدد كبير منهم وهم ذوو تأثير إما من طريق مؤلفاتهم أو آرائهم ومناهجهم. وانشطرت المؤلفات الفقهية بين أربعة ميادين:

ا ـ قسم اتجه إلى المرحلة الأولية في التعريف بمبادىء الفقه والعقيدة ويمثله متن ابن عاشر وشروحه.

ب ـ قسم اتجه إلى المرحلة المتقدمة في فقه المعاملات والعبادات ودار معظمه حول متن خليل كشرحي الزرقاني والخرشي

ج ـ قسم اتجه إلى جوانب متخصصة كالقضاء وما جرى به العمل وكالفرائض والحسبة والأصول

52ـ مراكشي، اعلام، 7، 50

د ـ قسم تناول أوضاعا خاصة وأحكاما تخصها وهو النوازل التي تتناول أحوالا طارئة أو فريدة أو لا يعرف نص أو حكم متداول بشأنها.

وقد تبوأت منظومة ابن عاشر التي جمعت بين مبادىء الفقه والعقيدة والتصوف مقاما شعبيا حقيقيا. وصاحبها عبد الواحد بن أحمد المنسوب إلى جده ابن عاشر، توفي بفاس سنة 1040/1631 وسمى منظومته بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدّين. وتركز أهم مبادىء المعاملات والعبادات بشكل مبسط. ونال هذا المتن شهرة فائقة بأقطار إفريقيا الاسلامية وبالمشرق أيضا، طيلة ثلاثة قرون ونصف. ومن شراحه المغاربة : محمد بن أحمد ميارة الفاسي (1072/1661) ومحمد المرابط السملالي الأدوزي (1221/1806) وعبد الرحمن الحايك (1237/1821) ومحمد بدر الدين الحمومي الحسني (1266/1849) وإبراهيم التادلي (1311/1893) (53)

وتعد رسالة ابن أبي زيد القيرواني عبد الله بن عبد الرحمن (386/996) كمرجع تعليمي للطلاب بعد مستوى المرشد المعين. وقد وضعت عليها شروح عديدة بالمشرق والمغرب، ومن شراحها محمد بن قاسم جسوس (1182/1768) وقد طبع شرحه على الحجر بفاس.

وفي القسم الثاني ظل متن خليل في الفقه كصحيح البخاري في الحديث من حيث تداوله. وحفاظه ودارسوه أكثر عددا، لان الحديث يدرس إما تعظيما أو للاستعانة به في مجال الفقه من طبقة محددة، أما متن خليل فقد اكتسب أيضا قداسة خاصة، وكان يدرس لاعتماده مباشرة، وذلك أن معظم الفقهاء، كانوا يهابون الاجتهاد انطلاقا من النصوص النبوية.

وأهم شروح خليل، التي تداولها المغاربة في هذا العصر اثنان : 1) شرح عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (1099 / 1688) وهو من أكثر الشرحين تداولا، وقد ذيله أو حشاه كما كان يعبر الطلبة والأساتذة، عدد من الفقهاء المغاربة كمحمد بن الحسن بناني الفاسي (1194/1780) الذي عنون حاشيته بالفتح الرباني فيما ذهل عنه الزرقاني. وهي في أربعة

53ـ طبع شرح ميارة عدة مرات. وانظر عن باقي الشروح المذكورة : (خ.ع)، فهرس المخطوطات، 1، 175، 177، 178. موسوعة 17، 16. داود، تاريخ تطوان 6، 276

أجـزاء. وقـد طبعت بمصـر في أوائـل القرن 20/14، كما وضع حاشية على نفس الشرح ابن الطالب محمد التاودي بن سودة (54). 2) شرح محمـد بن عبـد الله الخـرشي المصـري (1690/1101). ووضع العالم المغربي محمد ابن الرهوني حاشية موسعة على مختصر خليل، وكانت وفاته سنة 1230/184 (55)

أمـا في القسم الثـالث حيث يدخل التأليف ميادين متخصصة من الفقه، فنجد إسهامات غنية ومتنوعة. ومن ذلك في علم الأصول حاشية على شرح المحلي على جمع الجوامع لابن السبكي، ألفها عبد الرحمن بن جاد البنـاني المتـوفى سنـة 1784/1198 (خ.ع) وطبعت بمصر أكثر من مرة، والـكـوكـب الســاطـع لمحـمــد بن محمــد بن حمدون بنــاني (1727/1140) ويـوجد مخطوطا بالرباط، وهناك تقييد في تعريف علم الأصـول من سبـع صفحات لأحمد بن مبارك السجلماسي. والاسهامات المغربية في هذا العلم أقل منها في فروع فقهية أخرى لا نحصار الدراسات في فروع المذهب المالكي أو في اتجاهاته.

وفي فقـه القضـاء اتجه الاهتمام في مستوى متوسط إلى لامية الزقاق حفظـا وشــرحــا، وهي منظــومــة لعــلي بن قاسم الــزقـاق الفـاسي (1506/912) وكـان من شراحهـا في أواخـر العصـر السعدي محمد بن أحمد ميارة (خ.ع). كما شرحها غيره في الحقبة التي تعالجها هذه الدراسة، كمحمـد الـدليمي الـورزازي وابن الطالب محمد التاودي بن سودة وعبد الـرحمن الحـايـك. والحقت ببعض هذه الشـروح حواش كحـاشية محمد الشدادي الفاسي (خ.ع) على شرح ميارة. وحاشية على التسولي على شرح التـاودي ابن سودة (خ.ع) وحـاشيـة إبـراهيم الخراص على شرح ميارة (56).

وفي مستـوى أوسـع تبـوأت أرجـوزة تحفـة الحكـام في نكث العقود والأحكـام مكـانـا لا يجارى في فقـه القضـاء المـالكي لهذا العصـر. وهي أرجـوزة طويلة تتجـاوز مائة صفحة. وواضعها محمد بن محمد بن عاصم

54- خ.ع. فهرس 1، 161، مراكشي، اعلام، 6، 138

55- استقصا. 8، 129

56- موسوعة مغربية، 1، 12. وبخزانة المؤلف نسخة خطية من شرح الدليمي

الغرناطي (829/1425). وعرفت بالعاصمية أيضا. ومن شراحها في أواخر العصر السعدي : محمد ميارة. أما في العصر العلوي فمن شراحها إبراهيم الخراص الرجراجي الذي أنهى شرحه هذا سنة 1179 (57) وعمر بن عبد الله الفاسي (خ. م. وخ سودية (58) وابن الطالب محمد التاودي بن سودة الذي أقبل الدارسون على شرحه لاختصاره (59) وعلى التسولي السابق ذكره والمعروف بمديدش وعبد السلام بن عبد الله حركات (60) (1230/1814) الذي اختصر أرجوزة التحفة وشرح المختصر في 889 صفحة (خ. ع)، وأبوبكر بن محمد التطواني (1337/1918) وقد ذكره الجراري في أعلام الفكر المعاصر

وأنشأ فقهاء فاس أو أدخلوا في نطاق الأحكام الشرعية قبل العلويين بوقت طويل وبالاخص منذ القرن 10/16 ما جرى به العمل بفاس من أحكام وقواعد أعراف لا تناقض أصول الشريعة أو المذهب المالكي.

وكان عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (1096/1685) من السابقين إلى تدوين تلك القواعد والأعراف فوضع نظما وشرحا في الموضوع كما طبع النظم مع شرح للسجلماسي مرارا على الحجر بفاس، وطبع بمصر مع شرح لجنون التهامي (فهرس خ. ع.)

وقال عباس المراكشي عن شرح السجلماسي المذكور محمد بن أبي القاسم (1214 هـ) : قرب به ما كان بعيد الادراك عن الأسباب. وأتى بما أربت به على الأوائل والأواخر (61) وكانت السلطة الرسمية نفسها تلح في العمل بما جرى به مذهب مالك (62).

ووضع محمد بن العربي السملالي الأدوزي مذكرة بعنوان : العكاز، المضروب به من جوز للأب بعد موت ابنته أن يسترد الجهاز. وتناول في هذه المذكرة حقائق الشريعة بشأن الجهاز والهبة والصدقة،

57ـ بمنصور، أعلام، 1، 159
58ـ موسوعة، 2، 38
59ـ مراكشي، اعلام، 6، 138
60ـ خ. ع. فهرس، 1، 203ـ204
61ـ مراكشي، اعلام 6، 156
62ـ بنمنصور، وثائق، 3، 464

والارث والمحاسبة بين الورثة، وقواعد الأحكام القضائية بالمغرب والعرف الجاري فيها واستفسارات وردودا بين علماء فاس ومراكش (63).

وساهم المؤرخ الفقيه أحمد الناصري بمذكرات فقهية قضائية كمذكرة حول تسليم الرسم للخصم وأخرى في الفرق بين خطط القضاء والولاية والحسبة حسب العرف، الخ.. (فهرس خ.ع.). والواقع أن عددا كبيرا من المذكرات الفقهية كانت ردودا على استفسارات من الطلبة أو من أفراد شعبيين أوحتى من فقهاء آخرين أومن السلطة العليا. وقد يكون نشر مذكرة من وحي ظروف اجتماعية أوسياسية معينة. ومن ذلك أرجوزة تحفة المحتاج في حكم أكل الناس الدجاج لمحمد بن سعيد المرغيتي وقد طبعت على الحجر عدة مرات، ومذكرة حول أحكام الطاعون لمحمد بن الحسن بناني وأخرى لمحمد بن أبي القاسم السجلماسي وقد استغرقت أكثر من مائتي صفحة وثالثة لمحمد الرهوني في ثمان وأربعين صفحة (64) ورابعة لاحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي (ثلاث صفحات).

وكذلك نشرت منظومات وردود ووضعت مذكرات حول شعائر الدين والمعاملات كمناسك الحج وقضاء الفوائت ومسألة الاستخلاف في الصلاة وشعائر الذبح.

وبلغت تدخلات الفقه شأوا بعيدا في حياة المجتمع وخدمة فضوله ونهمه الديني، فكتب جعفر بن إدريس الكتاني (1323/1905) مذكرة تقرب من ثمانين صفحة في أحكام الحمامات (خ.ع)، كما كتب عبد القادر الفاسي عن الامامة العظمى وهو معاصر لمولاي إسماعيل. وعالج ابن الحاج حمدون (1290/1871) أحكام الخنثى (65). وخصص أحمد ابن خالد الناصري مذكرة لاسرته وقرابته في مائة صفحة تمثل شرحا مبسطا لمنظومة وضعها محمد بن ناصر (66)

ونالت الحسبة والبيوع والمعاملات حظا متفاوتا من اهتمام المؤلفين بالنظر لما ساد ميدان الحسبة من تدهور، ولما نال التجارة من تطورات سواء

63- مراكشي، اعلام، 7، 138-139

64- الخزانة العامة بالرباط. فهرس المخطوات، 1، 224-225

65- موسوعة مغربية 1، 69

66- خ.ع. فهرس المخطوطات، 1، 179

في الشكـل أو الجـوهـر أو في الجانب الأخلاقي . وهكذا كتب أبو سالم عبد الله العيـاشي نظـما لبيوع ابن جماعة التونسي حول مهنة التجارة ، وشرح هو نفسه نظمه في مؤلف يقرب من مائتي صفحة بعنوان : إرشاد المنتسب إلى فهم معـونـة المكتسب وبغيـة التـاجـر المحتسب . ووضع عن الحسبة أرجـوزة ، عبـد الـرحمن بن عبد القادر الفاسي (خ . ع) . وفي شروح تحفة الحكام وغيرها ما يغني في مجال الحسبة .

وكتب الحسن المعداني التادلي (1140 / 1728) مذكرة عن مسائل الاستحقاق وأخرى في قضايا الخماس وانصافه بعنوان : رفع الالتباس عن شركـة الخـماس ، وثـالثـة في نزاع المتعـاملين مع الصنـاع بعنوان : كشف القناع في تضمين الصناع .

ومن المساهمات بالأمازيغية في باب البيوع مؤلف يقرب من ثلاثمائة صفحة لأحمد أبا عقيلي (67) (1314 / 1896)

وقـد ألف محمـد بن أبي القـاسم السجلماسي شرحـا لمنظـومتـه في العمل المطلق وهو يتناول ما جرى به العمل في مختلف أبواب الفقه وعلى نطـاق عام في إطـار المـذهب المالكي وهو بعنوان فتح الجليل . . . في 380 ص (خ . ع) وطبع على الحجر بفاس .

واعتمـد المـوثقـون والقضـاة مدة طويلة على الـدراسـات ونـماذج التـوثيق التي وضعهـا فقهاء مغاربة وغيرهم في فترة سابقة كوثائق الفشتالي محمد بن أحمد (779/1377) والمنهج الفائق لأحمد بن يحيى الونشريسي والكتـاب الفـائق لمعلم الوثائق لأحمد بن الحسن الشفشاوني المعروف بابن عرضـون (992/1594) وقـد نهج منهجـه في كتـاب في الـوثائق ، العالم الحيسوبي الفلكي عبد الرحمن لوباريس (68) (1307/1889) .

وعـرف المغـاربـة بتفـوقهم في مجال الفـرائض خصوصا منذ القرن العـاشـر الهجري . وإذا كان المتخصصون في هذا المجال قد اعتمدوا لمدة طويلة على الشـروح التي خصصت لبـاب الفرائض في مختصر خليل فإن شرح القلصـادي التـونسي (891 / 1486) نال شهـرة فائقة بعد ظهوره إلى أن نشر أحمد بن سليمان الرسموكي (1133 / 1720) منظومة وشرحا

67ـ من مخطوطات كلية الآداب (ج . م . خ 1 الرباط)
68ـ مراكشي ، اعلام ، 8 ، 158

لها بعنوان : إيضاح الأسرار المصونة . . . فاكتسح الميدان هو أيضا إلى فجر الاستقلال، غير أن الرجوع إلى باب الفرائض في متن خليل ظل قائما حيث نرى على سبيل المثال شرحا للفقيه بنيس يتناول هذا الباب بالذات من متن خليل، ثم حاشية عليه لمحمد المدني جنون الفاسي (69) كما كتب حاشية على نفس الشرح قاضي القضاة عبد الله ابن خضرا (70) وأنشأ محمد بن بناصر حركات منظومة مطولة في الفرائض تجاوزت ألفا ومائة بيت (71).

وتحتل النوازل حيزا كبيرا من لائحة الدراسات الفقهية، وهي بدون شك أهم مظهر فكري تبوأ فيه المغاربة مقاما لا يكاد يجاريه فيه غيرهم دقة وإلماما. وبين النوازل ماتناول حالات خاصة أو أوضاعا متنوعة، كما أن بينها ما يتناول أغلبه مناطق معينة وما هو عام وضعا وحكما. وكثير من كتب النوازل جمعها تلاميذ أصحابها أو أفراد من أسرهم، وهذا ما حصل في العديد من مجاميع الشعر ودواوينه سواء في ذلك المغاربة والمشارقة.

وكان إنتاج النوازل غزيرا في القرن الثاني عشر/18م بقدر ما مثل القرن الثالث عشر ذروة النشاط الطرقي. وقد عملت المطبعة الحجرية على طبع عدد كبير من كتب النوازل. ومن إنتاج الفقهاء في باب النوازل والفتاوي :

- نوازل عبد القادر الفاسي في جزأين (ط.ح) 1319 هـ
- نوازل بردلة محمد العربي 1133/1721 (ط.ج. . 1344 هـ)
- نوازل المسناوي محمد بن الدلائي)1136، 1724) جزء واحد (ط.ح)

- نوازل المنبهي محمد بن علي (خ.ع.). وقد تحدث عنه عباس المراكشي في الاعلام (ج 6) وهو من فقهاء القرن 12/18م
- نوازل العباسي أحمد السملالي السوسي (1152/ 1740) وهي في جزأين (ط.ح)

69- م.س. . ج 7، 56

70- موسوعة مغربية، 1، 78

71- جراري من أعلام الفكر، 2، 106

- مواهب ذي الاجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال لمحمد بن عبد الله المراكشي الكيكي (كاف معقودة) المتوفى سنة 1185 / 1779 في مجلد كبير بمراكش (72)

- نوازل محمد بن أبي القاسم السجلماسي (73) (1214/1799)

- نوازل عبد الرحمن الحايك نقلها محمد المهدي الوزاني في المعيار الجديد (74)

- نوازل العلمي الشفشاوني علي بن عيسى في مجلد (75) (ط.ح)

- نوازل محمد المهدي الوزاني (1343 / 1923) سماها بالمعيار الجديد واشتهرت باسم النوازل الجديدة الكبرى (76)، وهي في أحد عشر جزءا (ط.ح)

وفي باب التوحيد، أي ما عرف لدى المشارقة قديما بعلم الكلام، انشغل المغاربة منذ العصر الوطاسي بدراسة مؤلفات محمد بن يوسف السنوسي التلمساني 895 / 1490م كأم البراهين وشرحها، وشرح العقيدة الوسطى، وشرح على المقدمات في التوحيد وغيرها من مؤلفات السنوسي التي تمحور معظم الانتاج المغربي حولها. وقد تكاثرت كتب التوحيد والعقيدة في العهد السعدي في غمرة الاضطرابات السياسية والحروب الأهلية التي شهدتها الدولة، فشهد المجتمع في أجزاء من البلاد انحلالا وانحطاطا في الجانب العقائدي أدى إلى انتشار المؤلفات في هذا المجال وانشغال الزوايا والمعاهد بتدريس العقيدة. وتوبع هذا العمل في العصر العلوي فوضع الحسن بن مسعود اليوسي حاشية على عمدة أهل التوفيق للسنوسي المذكور. وشرح محمد بن قاسم جسوس عقيدة الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، كما شرح عقائد المرشد المعين في حوالي مائتي صفحة، الطيب بن كيران (1227/1812). ووضعت عدة شروح وتعاليق على مؤلفات السنوسي بالاضافة إلى أجوبة عن استفسارات حول مسائل من العقيدة، وتقاليد ومذكرات صغيرة (77) ومعظم هذا

72- ابن سودة، دليل، ص 485
73- مراكشي، اعلام 6، 156
74- محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 276
75- اهتمت وزارة الأوقاف المغربية باعادة طبع هذا الكتاب
76- انظر عن مؤلفات الوزاني: زركلي، اعلام، 7، 335
77- راجع عن كتب التوحيد: فهرس المخطوطات (خ.ع. الرباط) ج 1، 108-124

الانتـاج على كثـرتـه يحتاج إلى دراسة جيدة لعلم المنطق، ولذلك فإنه لا يغني في كثير، أولئك الذين حررت كتب العقيدة من أجلهم، بالرغم من أن كثرة الانتاج في المنطق كانت لهذا الغرض العقيدى بالذات.

4ـ التصـــوف

وجـد عشـاق التصوف غطاء ثخينا من الفكر الصوفي الذي خلفته عصور سابقة سواء بالمغرب أو خارجه. غير أن عطاء العصر بلغ الذروة في هذا المجـال بعـد أن برهن الأوليـاء وأنصارهم على فعالية قوية في زعزعة الاحتـلال الأجنبي واستقطـاب مآت الألـوف من المتعاطفين، فضلا عن قوة تأثـيرهم في إنشـاء الـدولـة السعـديـة ثم في تنحيتها. وإذا كانت هيئة الفقهاء هي التي أعطت سندا أساسيا للدولة العلوية في نشأتها فإن الحركة الطــرقيـة ما لبثت خلال القـرن 18 م ثم القـرن 19 م بصفـة أخص أن برزت مرة أخــرى كقــوة شعبيـــة اكتسحت المـــدن والسهـــول والجبـال واستقطبت العـديـد من المثقفـين الـذين تبـوأوا فيها مركز القيادة الروحية وحتى السيـاسيـة أو انصرفوا إلى الجانب التنظيري من التصوف في الاطار الذي يساير هذه الحركة أو تلك.

وانشغل المؤلفون والمربون منذ عصر بعيد بوضع أكثر ما يمكن من علوم الـدين والعلوم المـوصلة إليهـا كالنحـو واللغة وغيرها مما عرف بعلوم الآلـة، في خدمـة الصبيـان والفتيـان والـراشـدين انطـلاقـا من الأراجيز والنصوص المبسطة ثم الشروح المتدرجة سعة وحجما. وهكذا فإن منظومة ابن عاشـر : المـرشـد المعـين والتي عرفت خلال العصر السعدي المتأخر، كانت منطلقـا لتلقـين ميـادىء التصـوف بالنسبة للعصر اللاحق سواء في الكتاتيب أو الزوايا بقدر ما كان لها من تداول في مبادىء الفقه والعقيدة. وبعض المؤلفـات القـديمـة استمر الاهتمام بها تدريسا وتعليقا في مستوى عال كالحكم لابن عطاء الله.

على أن الظـاهـرة الـرئيسية في حركة التأليف في مجال التصوف أنها شملت أبـوابـا متعـددة وأن الانتاج كان غنيا إلى درجة كبيرة، ففي القرن 13 / 19 بالأخص كان هنـــاك صراع خافت أحيـانـا وحـاد أحيـانـا بين الطرق، لاسيما الطرق الكبرى، وهو يبدأ من التنافس على احتواء أكثر ما

يمكن من المتعاطفين وإنشاء أكثر ما يمكن من الزوايا، وتوضيح الطريقة بواسطة نشر المذكرات والمؤلفات. والصراع على العموم لم يأخذ قط اتجاها مسلحا ذا نطاق واسع على الأقل.

ومن بين الاهتمامات الفكرية الرئيسية في مجال التصوف شرح أسس الطرق ومميزاتها. وبعض التصانيف اتجهت إلى شرح الدعوات والأوراد التي تشكل العمود الفقري لكل طريقة على النطاق الشعبي، ومن ذلك شرح محمد بن حمدون البناني للصلاة المشيشية (خ.ع) ومنظومة أبي سالم عبد الله العياشي لمذكرة أحمد زروق المسماة أصول الطريقة (78) وتحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية لمحمد المهدي الفاسي في 129 ص واختصرها محمد بن الطيب القادري في عشرين صفحة.

وتناول أبو الربيع سليمان الحوات الزاوية الدلائية وتراجم أصحابها وجملة مهمة من أفكارهم في كتاب البدور الضاوية. كما كتب محمد اليازغي (1238/1920) منظومة في مائتي بيت تقريبا عن الدلائيين بعنوان: حدائق الأزهار الندية. والزاوية الدلائية تاخذ عن الجزولية التي هي نفسها شاذلية، فقد استخدمت دلائل الخيرات الذي وضعه مؤسس الزاوية الجزولية كمجموع أدعية وأوراد بإضافة دعوات تختلف حسب أشياخ الطريقة، واعتمدت من جهة أخرى على تعاليم زرّوق في التمسك بالسنة والامتناع عن الرقص وعن استخدام الأدوات الموسيقية أو آلات الطرب في حلقات الذكر.

وكتب الشيخ العربي الدرقاوي مجموع رسائل في نحو مائتي صفحة سماها شور الطوية في مذهب الصوفية، وهي غنية بالأفكار والتحليقات الصوفية وتداولها المثقفون حتى طبعت على الحجر بفاس. ووصف أحد المنتسبين إلى الطريقة الدرقاوية (79) شيئا من مظاهر حياة الشيخ العربي وأفكاره فقال: كان يحب التجريد ويامر به ويلبس المرقعة ويقول: التجريد من الدنيا ظاهرا وباطنا يصلح لجميع الناس. وعندي: ما من رسول ولا نبي إلا كان متجردا من الدنيا ومحذرا متبعيه منها.

78ـ فهرس مخطوطات الخزانة العامة، الرباط، 1، 198. وما لم يذكر مرجعه فيما يلي من مؤلفات التصوف فهو من هذا الفهرس أو يوجد بالرباط

79ـ فتح الله بناني، إتحاف، ص 131

واختـار الـدرقـاوي هذا طريقـة خاصـة للذكـر تتضمن حركات ودعوات معينة، كما يحمل أصحاب الطريقة سبحة خاصة. وتضم الحركة العنصر النسـوي في مجمـوعات مستقلة. وتفرعت الدرقاوية إلى شعب كالدباغية والبنانية والحراقية.

وقـد حرصت الحـركة الدرقاوية على مسالمة الطرق الأخرى (80) وأظهـر الشيـخ العـربي زعيمهـا المنظـر رغبتـه في احترام السنة (التي هي الحصن المـانـع من كل بليـة أو التي هي سفينـة النجـاة ومعـدن الأسـرار والخـيرات. .) كما قال في إحـدى نصـائحـه لتلميـذه الشيخ محمد الحراق (1261 هـ) (81) وتشبث الدرقاويون بروح الأخوة ومسالمة المومن لنظيره المـومن. وذهبت الـروح الـواقعية بالشيخ الحراق إلى حد مداراة السلطة الحاكمة طمعا في تخفيف ضغطها على الضعفاء والمظلومين (82)

وحيث إن ظاهـرة العصـر في حيـاة المثقفـين عمـومـا وفئة الصوفية خصـوصـا هي التعـامل بالمراسلات التي تعبر في كثير من الأحيان عن آراء وأفكـار في ميـادين خاصة، فإن هذه المراسلات بالذات تمثل أصدق تمثيل اتجاهات أصحابها وتحدد بشكل دقيق مميزات التصوف لهذا العصر كما هو الشأن في ميـادين ثقـافية أخرى. وهكذا نجد في إحدى مراسلات الحراق إلى الأديب محمـد بن إدريس فكـرة واضحـة عن التصور الصوفي للعبادة والتقـرب إلى الله (83) : «. . . واعلم يا أخي أن التقـرب بالفـرائض خاصة لا يفيد الوصول، لان الوصول ينشأ لا محالة عن شدة المحبة المؤدية للفنـاء في المحبـوب، وذلـك إنـما يفيـده التقرب بالزيادات، وأما الفرض الذي يؤديه الانسان بقهر الايجاب فلا يفيد الا السلامة من عقاب المخالفة.»

ويقـول محمـد الحـراق مخاطبـا أتبـاع زاويته بفاس (84) : «. . . واعلمـوا يا إخـوانـا أن من خواص الغفلة عن الله أن صاحبهـا يزداد في

80ـ م. س. ص. 70 و 102ـ103
81ـ داود، تاريخ تطوان، 6، 311
82ـ م. س. ص 335ـ336
83ـ م. س. ص 351
84ـ ن. سم. ص. 360

المضائق دهشا في لبه، وأن من خواص ذكر الله تعالى أن صاحبه يزداد في الشدائد قربا من ربه، ومن تعرف الله في الرخاء عرفه في الشدة. . »

وتضمنت رسائل العربي الدرقاوي أفكارا غير مصنفة ولا مرتبة تتناول علاقة الفقير بربه، وعلاقة الفقراء فيما بينهم، وواجبات من سلك طريق التصوف، وخدمة شيوخ الطريقة وما إلى ذلك من الأفكار الصوفية التي تتسم بمسحة فلسفية دون أن تخلو أحيانا من الروح العملية.

وهكذا فالانسان عند الشيخ العربي، سواء أكان فقيرا أم غيره، لا يمكن أن يفرق بين ما هو روحاني وما هو بشري مع جهله :

«إني أرى كثيرا من الفقراء وغيرهم يعملون الحسنات ولا يعلمون أنهم عملوها. ويعملون أيضا السيئات ولا يعلمون أنهم عملوها، ولا يفرقون بين الطاعة والمعصية، أو نقول : بين الروحانية والبشرية. . . إذ ليس من يعلم ما يعمل كمن لا يعلمه. قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟. . . » (رسائل ص 83)

ولا يعني هذا أن التواصل مع الله مستحيل بدون علم (فإن أهل النية والمحبة والصدق والظن الحسن لا يقطعهم عن ربهم قاطع ولا يمنعهم منه مانع) كما يوضح الشيخ العربي (ص 88). بل إن الناس لهم أن يروا ربهم في الجنة. . . . «وأما في الدنيا فإنها جائزة غير ممنوعة عند أهل السنة، وكفى بأهل السنة حجة، إذهم رضي الله عنهم يقولون : لو كانت الرؤية ممنوعة لم يسألها سيدنا موسى عليه السلام، إذ هو رسول الله وكليمه، والرسول لا يسأل المحال، إنما يسأل الجائز، إذ هو معصوم، والعصمة تمنعه من كل ما ليس بصواب. والرؤية لا تحصل لاحد قط إلا بعد فناء نفسه ومحوها واضمحلالها وذهابها وزوالها، كما عند شيوخ الطريقة المشارقة والمغاربة، المتقدمين والمتأخرين» (ص 139).

وحسب الشيخ العربي، يتطلب ذلك مقدمات لابد منها، كالتمسك بسنة الرسول (ص) والاستقامة ظاهرا و باطنا «وهي لا تحصل لاحدنا ولو عمل ما عمل إلا إن ترك حب الدنيا من قلبه. . . وعلامة ذهاب حبها من قلبه أن ينقبض بوجودها وينبسط بفقدانها. » (ص 91)

ولكي يتجرد المومن من حب الدنيا يجب أن تكول له إرادة عالية تمكنه من مخالفة هواه، وعندئذ يكون قد ملك نفسه وأطاع مولاه. وفي

ذلك يقول الشيخ العربي : «واعلموا أنكم إن ملكتم أنفسكم ملكتم من يؤذيكم والكـون بأسـره. . . إذ لا يملك الناس الا من ملك النفس، ولا يذهـب خصـم الجـنس الا من تحرر من خصيم النفس. ولا يتحـررمن خصيم النفس الا من خالف هواه وأطاع مولاه. . . .» (ص 109)

والشيخ العربي كسائر شيوخ الطرق يرى أن لابد للفقير من خدمة أهـل الطـريقة بحيث يكون عبدا لهم حتى يأخذ الطريقة على حقيقتها. ولكنـه يفسـر ذلـك أحيـانـا بغـير الصـورة المعتـادة للخدمة، بل بملازمة صلوات أهل الطريقة وحضور حلقات ذكرهم (ص 107)

وختم العـربي الـدرقاوي رسائله بالحض على ذكر الله، ويرى أن ذلـك يجب أن يكـون في سكينـة ووقار وحالة تامة من النظافة مع الاجلال والاعظـام وقـال إن المـواظبـة على ذكر الله بهذه الطريقة توصل حتما إلى حالة من الطمأنينة النفسية.

ومن المؤلفـين الـذين كتبـوا عن الطـريقـة الـدرقاوية وفروعها ابن عجيبـة (راجـع دراسـة ميشـون)، وعمر بن محمد عاشور (85) الرباطي 1314/1896 : المقـالـة المـرضيـة في بعض أحـوال الطائفة الدرقاوية. ولهـذا المؤلف مذكـرات وكتب أخـرى في التصـوف كالكشـوفات الربانية والحقائق العرفانية، وخلاصة التصرف في مبادىء التصوف الخ . . .

وإذا كانت الأخـوة تظهـر في أعـمال الدرقاويين المكتوبة، وتنعكس إلى حد على علاقاتهم الداخلية فإنها لم تكن دائما تجاه الأحداث الخارجية وبعض المواقف السياسية كما سبقت الاشارة إلى ذلك خلال الباب الأول من هذه الدراسة.

ومما كتب عن الطـريقة التيجانية : روض المحب الفاني فيما تلقيناه من أبي العباس التيجاني لمحمد بن المشرى الحسني (1224/1809) في أكثـر من ثلثـمائة صفحة، وشرح لمنظومة في الطريقة المذكورة والتي وضعها مؤسسهـا أحمـد التيجـاني. أمـا الشـرح فهـو لمحمـد بن العـربي السائح 1309/1892 في 232 ص، والـدر المنظـوم في نصـرة القطب المكتـوم لمحمـد بن محمـد جنون 1328/1910 في حوالي ستين صفحة، والحلل الزنجفورية في 77 ص لمحمد أكنسوس.

85ـ الجراري، من أعلام الفكر، 2، 361ـ362

وتعتبر الزاوية الكتانية الجديدة أحدث الطرق الصوفية قبل الحماية فإن محمد بن عبد الكبير الكتاني 1327 / 1909 أسس قريبا من مائة فرع لزاويته بالبوادي والحواضر، وهو الوحيد بين مشايخ الطرق، الذي زاوج في قلمه بين العمل السياسي والروحي في مواجهة التغلغل الاستعماري وتعرف بشكل دقيق على مكامن الضعف في سياسية المخزن وما يقابلها من مكائد التدخل الأجنبي. إن محمد الكتاني يتخذ من السنة منطلقه ومورده وينهج سياسة الطرقيين السابقين في حض أنصاره على التآخي والتآزر ويجري مجرى الشيخ محمد الحراق في اعتبار صلوات الجماعة بكل مناسباتها رمزا للأخوة والوحدة الايمانية. وأسس طريقته لاحياء السنة ومحاربة البدع والأعراف التي تخالف السنة. ولكن محمد الكتاني كانت له أيضا توجهات سياسية جعلت منه في النهاية زعيم معارضه تستقطب عددا من العلماء والفآت الشعبية، وأدي ذلك إلى عداء السلطة العليا وانشغال محركي السياسية الاستعمارية بين الفرنسيين بأمر هذا العالم الصوفي الذي ربما طمح إلى أن يتولى حركة التغيير السياسي بشكل مباشر إذا لم يكن قادة التوجيه الاستعماري هم المخططون لهذه التهمة.

وأهم مميزات الطريقة الكتانية كثرة أورادها وأذكارها مع تنوعها حسب الأوقات، وتتضمن توسلات بالغة الرقة، وفيها ما يختص بوقت الأذان وما يختص بوقت الصلاة وغير ذلك.

ولمحمد بن عبد الكبير أفكار واضحة في الميدان السياسي سبق عرض أهمها، كما أن أفكاره الصوفية ضمنها عددا كبيرا من المذكرات والرسائل والمؤلفات ووصفه صاحب (المدهش المطرب) بأنه كان متبحرا في التصوف غواصا على دقائقه وأنه نهج منهج أرباب الحقائق ووحدة الوجود كالحاتمي وابن سبعين وابن الفارض. (86)

ومن مؤلفات ابن عبد الكبير الكتاني (87) : تعليق على فصوص الحاتمي، والجوابات العظيمة عما أشكل في القرآن في حق المقام المحمدي، والبحر المسجور في شرح الصلاة الأنموذجية، والرسائل الكتانية في الهداية والارشاد (عدة مجلدات)

86ـ محمد الباقر الكتاني، الشيخ محمد الكتاني، ص 119
87ـ ن.م.ص. 155ـ160

والاسهامات في الكتابة عن التصوف العام كثيرة لاسيما خلال القرن 13/19 م. ومنها :

- سلسلة الأنوار في طريقة السادات الصوفية الأخيار لابن عطية الزناتي السلوي أحمد بن محمد 1129/1716 (206 ص)
- اليواقيت الحسان لعلي بن عبد الرحمن العمراني 1194/1780 في 340 ص
- تنبيه التلميذ المحتاج لابن بلة عبد الله بن عزوز المراكشي 1204/1290 في 40 ص وهو توضيح لمناهج التصوف وإبطال ما أقحم فيه.
- شرح حكم ابن عطاء الله، لأحمد بن عجيبة (طبع بالقاهرة). وابن عجيبة من المؤلفين المكثرين (88). وقد شرح هذا الكتاب أيضا محمد الطيب بن كيران ومحمد بن زكري (89)
- معراج التشوف إلى حقائق التصوف لنفس المؤلف، في أقل من 50 ص
- الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية، لمحمد بن أحمد البوزيدي الغماري في حوالي، 140 ص
- ميزان الفقراء في طريق العارفين أهل الذوق من الأولياء لعبد الرحمن البربوشي في 238 ص
- المناجاة الفردية الالهية في تبيين معالم الطريقة المحمدية لاحمد البدوي المعروف بزويتن الفاسي 1275/1858 في 630 ص، وعرفت بالرسائل الكبرى وهو من شيوخ الطريقة الدرقاوية.

وحيث إن للطرق خصومها والمدافعين عنها فقد نشأت معركة قلمية بين الفريقين انتجت عددا من المذكرات والردود، ومن ذلك في الدفاع عن درقاوة: الارشاد والتبيان في رد ما أنكره الرؤساء من أهل تطوان لمحمد ابن محمد المكودي التازي 1214/1799 هاجم فيه موقف أهل تطوان من أصحاب الطريقة الدرقاوية. والمذكرة في أكثر من 50 صفحة، وتوجد مخطوطة (خ.ع. وكلية الآداب بجامعة م.خ بالرباط، وتطوان). وممن

88- موسوعة مغربية، 2، 49-50

89- م.س.ح. 1، 114

ناصروا درقاوة عمر عاشور الرباطي في مذكراته : المقالة المرضية في بعض أحوال الطائفة الدرقاوية.

وتناول عبد الرحمن بن هاشم الحسني السجلماسي في مجلدين قضايا التصوف والطريقة الدرقاوية وشيوخها لاسيما أحمد البدوي. وقد رد المؤلف على اعتراضات بعض معارضي البدوي من الفقهاء في هذا الكتاب الضخم الذي سماه بالمشرفي المسلول في إبطال دعوى كل جهول، لنصرة الفقير الآوي إلى كهف الشيخ البدوي الدرقاوي.

وكتب محمد بن محمد بن عبد السلام جنون التيجاني في تزكية ترك زيارة أضرحة الأولياء مذكرة طبعت على الحجر في 48 ص سماها : رفع العتاب عمن ترك الزيارة من الأصحاب وهو هنا يساير مذهب مؤسس الطريقة التيجانية التي تجاوبت مع حملة البعث السني في عهد مولاي سليمان، لكن أحمد بن عبد السلام بناني هاجم بشدة طريقة التيجاني في تصنيفه : المعيار المعرب في فضيحة التيجاني بين أهل المشرق والمغرب (91)

وهاجم عدد من الفقهاء ونقاد التصوف جماعة العكازين (أو العكاكزة) التي ظهرت في منتصف القرن العاشر (16 م)، وكتب عنها في النصف الثاني من هذا القرن بالذات، كل من أبي القاسم القسمطيني الذي كان يقيم بتطوان سنة 1586/995 وأحمد المنجور المتوفى في نفس السنة (92).

ويبدو أن طائفة العكازين ظلت نشيطة خلال أواخر القرن 17/11 ولذلك رأينا مجموعة من الكتابات تظهر حولهم في هذه الفترة أو بعدها بقليل، ساهم فيها بالأخص : الحسن اليوسي 1102 ه ومحمد بن الحسن المجاصي الذي ضمن ما كتبه عن العكازين نوازله المطبوعة على الحجر بفاس وعبد الملك التجموعتي 1118 الذي كتب عنهم بضع صفحات نقلها أحمد الجزولي التاملي 1127 هـ في رحلته الدينية : هداية الملك العلام، (خ.ع) وهي من منقولات خزانة تمجروت (93)

90- ابن سودة، دليل، ص، 482
91- م. س. ص، 481
92- م. س. ص 79، 88
93- ن. م. ص 370

وشغـل العكـاكـزة عددا من المنـاطق التي كانت فيـما مضى ميدانا لنشـاط برغـواطـة كنـاحيـة أزمـور وتادلا . وذكر اليوسي أنهم ياكلون لحم الخنزير ويذبحون المسلمين وقت الفتنة . كما أنهم لا يصومون ولا يصلون ولا يتعـاقـدون عند المسلمين . وفريق تادلا المعروف بالبضاوضة لا يعترف بوجود الرسول (ص) ولا يزوج بناته من المسلمين .

ويظهـر أن مذهبهم خليـط من الخـارجي والـبرغـواطي والمزدكي ، وعلى الأقل فبعض أفكاره شبيهة ببعض مافي هذه المذاهب .

وشغل الشعر شطرا غير قليل من الانتاج الثقافي الصوفي لاسيما في مجال التوسلات وعمق الصلة بين العابد والمعبود ، وهو عمق يتلون بألوان الفنـاء في الـذات الالهيـة وبصور من العشق الصوفي والوله الذي يصطبغ بمادعي بالخمرة الأزلية . ومن بين المتجلين في هذا الباب ابن عجيبة ومحمد الحراق .

والحق أن التصـوف دخـل ميادين عديدة من المعرفة وحاول عشاقه أن يقـربـوه إلى الطـلاب والدارسين والمتعاطفين ، بكل الوسائل . وهكذا جمع أحمـد بن محمـد أبـا عقيـلي أحاديث حول التصوف وشرحها بالبربرية (94) وشرح أحمد بن عجيبة المقدمة الأجرومية شرحا صوفيا بعد الشرح النحوي في : الأحاديث القدوسية في شرح المقدمة الأجرومية (95) وهو بحق عجيب في بابـه ومشـوق في أسلوبـه ومعـارفه ، كما أن لمحمد بن عبد الكبـير الكتـاني ختمـة على الأجرومية في ست صفحات . وقد وضع ابن عجيبـة تفسـيرا مطولا للقرآن ينحو منحى صوفيا ، وسبقت الاشارة إليه في مجال الحديث عن القرآن وعلومه المباشرة (من هذا الفصل)

94- فهرس مخطوطات كلية الآداب (ج . م . خ / الرباط) ، ص 42

95- موسوعة مغربية ، 2 ، 49 . محمد داود ، تاريخ تطوان ، 6 ، 238

الفصل الثالث

العلوم الرياضية والطبيعية

1- الهندسة والحساب

إن عطاء المغاربة في هذا المجال خلال قرنين ونصف قبل الحماية ضعيف في مجمله كما وكيفا بالقياس إلى طول الفترة وإلى عطائهم في مجالات أخرى من المعرفة. فقد ظلت كتب وأعمال قديمة أو لاحقة للفترة القديمة معتمدا للطلاب والدارسين والمؤلفين والأساتذة ككتاب الأركان في الهندسة لاوقليدوس الاغريقي، والتلخيص في الحساب والجبر والمقابلة لاحمد بن البناء الأزدي المراكشي (1321/721) وتحفة الناشئين على أرجوزة ابن الياسمين وهي شرح وضعه عي بن محمد القلصادي البسطي (1486/891) لأرجوزة عبد الله بن محمد بن الياسمين (1204/601) في الجبر والمقابلة (1)، وأرجوزة منية الحساب وشرحها المدعو بغية الطلاب وكلاهما لمحمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي. وهكذا فإن أعمال ابن البناء و القلصادي وابن غازي في الحساب والجبر والمقابلة والهندسة تأخذ حيزا كبيرا من اهتمام الدارسين قبل أن تظهر أعمال أخرى للرسموكي أخذت هي أيضا مكانا بارزا في مؤسسات التعليم. والرسموكي هذا هو أحمد بن سليمان السملالي الرسموكي (1721/1133) وضع منظومة في الحساب كان قد بدأها إبراهيم السملالي من علماء القرن التاسع الهجري ثم شرح الرسموكي المنظومة في شرحين أصغرهما باسم مفتاح أجنحة الرغاب في معرفة الفرائض والحساب، والثاني كشف الحجاب للأصفياء الأحباب عن أجنحة الرغاب الخ. . وكلاهما مخطوط بالرباط. وكتب عن الفرائض منظومة

1 - المصنفات التي لم تذكر مراجعها توجد بالخزانة الملكية (الحسنية). ويتضمنها فهرس هذه الخزانة (ج3) من إعداد محمد العربي الخطابي، وبعضها بالخزانة العامة أيضا.

باسم الجواهر المكنونة وشرحها في ثلاثة شروح متدرجة (2) وليس للرسموكي مؤلفات في الهندسة وصلتنا على الأقل. وهو إلى جانب كونه حيسوبيا فهو أيضا فقيه، والذين يبرعون في الحساب أغلبهم فقهاء لان ميدان الفرائض في الفقه يتطلب معرفة الحساب. وحتى الاشتغال بالهندسة انصب بالدرجة الأولى على ما يهم الدين كمعرفة القبلة. وفي هذا الموضوع بالذات وضع محمد بن عبد العزيز كرضيل الآسفي في أوائل القرن 12 هـ مذكرة باسم إرشاد السائل إلى معرفة جهة القبلة بالدلائل.
وعلى العموم فإن إنتاج الأجيال الماضية ما زال محور شروح وتعاليق الأجيال التي سبقت الحماية كما هو الشأن في منية الحساب لابن غازي العثماني المتوفى سنة 919 هـ والتي شرحها محمد بنيس في أوائل القرن 13/19 م باسم نزهة ذوي الألباب وتحفة نجباء الأنجاب. بل إن كتاب إقليدوس في الهندسة أضيف إليه في أواخر القرن 19م شرح جديد للعالم الموسوعي إبراهيم التادلي (3) (1311/1894م) ولربما كان آخر شرح لاقليدوس قبل مطلع القرن العشرين م وكان السلطان محمد بن عبد الرحمن يسهر بنفسه على تدريس أحد شروح إقليدوس (4) والواقع أن العلماء الموسوعيين في نطاق الرياضيات كان لا يخلو منهم جيل وان لم يكونوا كلهم منتجين في هذا المجال، كما هو الشأن في محمد بن محمد بن ناصر (1126/1714) الذي وصف بنا درة الزمان وأعجوبة الأوان في علم الحساب والهندسة والتوقيت (5) وعلى مرسيل 1188/1774م. وكان عالما بالهندسة والتنجيم (6) وإدريس الجعيدي 1308/1891 الذي أولع بالهندسة والرصد والتعديل، وهو أيضا ممن أولعوا بالتجوال شرقا وغربا (7). أما إبراهيم التادلي المذكور فقليلة هي العلوم التي لم يكتب فيها ابتداء من النحو واللغة والتفسير وانتهاء بالطب وعلوم البحر والموسيقى.

وتعززت دراسة الهندسة والرياضيات الحديثة بالبعثات التي سبق الحديث عنها في أول فصل من هذه الدراسة

2- خطابي، فهارس، 3، 22، 94. مراكشي، اعلام، 2، 366. بنعبد الله، موسوعة، 3، 100
3- جراري، من أعلام الفكر، 2، 246
4- مراكشي، اعلام، 3، 9
5- مراكشي، اعلام، 6د18
6- ضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 179
7- جراري، م. س.، ص 275

2ـ الفلك والتنجيم

عرفت دراسة الفلك والتنجيم بالمغرب منذ القرن السابع / الثالث عشر نموا واسعا في خدمة الدين، وبالأخص في خدمة الفقه المالكي الذي جدد بنو مرين شبابه وأشرفوا على تكوين أكبر عدد من إطاراته. فهذا العصر بالذات أعطى انطلاقة جديدة في مجال التصوف واتساع حركة الزوايا وفرضت ألفية ابن مالك الأندلسي ومتن ابن آجروم نفسهما في ميدان النحو وانتشر متن خليل بن إسحق المصري في الفقه بالشمال الافريقي وغرب إفريقيا وجالت كتب ابن البناء في الرياضيات والهيأة جولة واسعة بأقطار المغرب والمشرق وإفريقيا. غير أن المؤلفات والأبحاث الفلكية التي وضعت في العصر العلوي قبل الحماية تأثر بعضها بأبحاث من عصور اسلامية سابقة، ثم بأخرى مغربية على نطاق المغرب الاسلامي. ومن ذلك كتب البيروني كالتفهيم في صناعة التنجيم وكتب ابن البناء ومنها منهاج الطالب في تعديل الكواكب، كما اعتمد الفلكيون على رسالة ابن الصفار من أهل القرن الخامس / الحادي عشرم. في العمل بالاسطرلاب. واكتسح ميدان الفلك بصفة أخص ما وضعه محمد ابن سبط المارديني 907/1501 في الأعمال الجيبية وغيرها كرسالته لفظ الجواهر في تحرير الخطوط والدوائر. واعتمد المؤلفون أيضا على أعمال ابن قنفذ القسمطيني وعبد الرحمن التاجوري نسبة إلى تاجرا من إقليم تلمسان، وهو من طرابلس (ليبيا) أصلا (8).

وتميزت أعمال المغاربة في هذا العصر بأن بعضها إنتاج مباشر وليس فقط شروحا أو حواشي. وجلها يتوخى الدقة ويبرز كفاءة الباحثين، وإن كانت في أغلبها أيضا تتوخى الاتصال بما هو ضروري لمعرفة شؤون الدين لاسيما في مجال التوقيت والتعديل. وهكذا تحاشى الفلكيون غالبا ما يتعلق بمؤثرات الأفلاك والبروج والمنازل على الانسان دون أن ينبذ بعضهم ظواهر الفضاء العلوي في حد ذاتها. وهكذا تحدثت رسالة كتبها عالم فرنسي من أفراد أسرة كاسيني المشهورة بضلاعتها في الفلك، سنة 1699 رسالة إلى علماء فاس ومراكش بطلب من السفير ابن عائشة، عن اكتشاف فلكي مغربي لنجم جديد قبل ثلاثين سنة من هذا التاريخ.

8ـ فهارس خ.م. 3، 164

وكان السفير المغربي هو الذي أخبر بذلك كاسيني (9) على أن هناك من اشتغلوا بالجداول وأسرار الحروف أو ما عرف بالسمياء. وههنا أيضا يبقى التأويل دينيا بالنسبة لمن أنتجوا في هذا المجال، وسترد عنه نماذج فيما سيلي.

ونجد في رأس قائمة علماء الفلك والرياضيات لهذا العصر شخصيتين كان لاحداهما تأثير دولي إسلامي وللاخرى تأثير في نطاق الأقطار المغربية. والشخصية الأولى محمد بن محمد بن سليمان الروداني الذي يمثل ظاهرة فريدة في موسوعيته وقوة إشعاعه العلمي والثانية محمد ابن سعيد المرغيتي وكلاهما من سوس وعاصر الدولة السعدية في مرحلة ضعفها والدولة العلوية في مرحلة نشأتها.

وقد تلقى الروداني دراسته بالمغرب والجزائر ومصر والشام وجمع بين العلوم الدينية والرياضية وكتب عن أصول الفقه الحنفي وألف في الحديث والفقه المالكي وفي الهيأة وتولى التدريس بمكة والمدينة وتركيا والشام ووضع عددا من الآلات وبالاخص اسطرلابا انتشر بشبه الجزيزة العربية والهند وأقطار المشرق، وتوفي بدمشق سنة 1094 / 1682 م ومن مؤلفاته : منظومة في علم الميقات وشرحها، وبهجة الطلاب في الاسطرلاب ومختصر في الهيأة (10) وصنع كرة جغرافية عظيمة

وأما ابن سعيد المرغيثي فكان كما قال الافرني في صفوة من انتشر (11)، إماما في علوم الحديث والسير مع المشاركة في العلوم الأخرى. غير أن المرغيثي اشتهر مع ذلك بنظم المقنع وشرحيه في التوقيت كما أن له كتبا أخرى في هذا الباب. وغير صحيح أنه كان مزجي البضاعة في التوقيت والفلك حسبما نقله عباس المراكشي 12)، لأن المقنع غزا بشرحيه مختلف المعاهد الدينية، كما أن تعدد إنتاجه واتقانه يؤكدان تمكنه وكفاءته. والمقنع نظم يتناول مبادىء التنجيم، وشرحه شرحا مبسطا في (المطلع على مسائل المقنع) ووسطا باسم الممتع في شرح المقنع وكلاهما من المطبوعات الحجرية بفاس، ومنها نسخ خطية بالرباط وغيرهما.

9_ Fred Hoeler, Empire du Maroc, p 284

10_ المحبي، خلاصة الاثر 4. مراكشي، اعلام 320. زركلي، أعلام. ج 7

11_ حسب المراكشي، اعلام، 5، 305

12_ م.س. ص 307

ويتنـاول التـوقيت المنـازل والأبـراج والأطـوال والعروض والشهور والحسـاب الـزمني عموما. وقد كتبت فيه رسائل وكتب كثيرة ووضعت من أجله آلات مع مذكـرات توضيحيـة عن صنعهـا أيضـا وإن كانت هذه الآلات لا تمثل في جلها تطورا يذكر بالنسبة لما سلف منها

ومما نشـر أو وضـع عن التعديل والتوقيت منظومة وشرحها لعلي بن محمد الدادسي 1094 / 1683 م وإكمال فتح المقيت في شرح اليواقيت في مائتي صفحـة لنفس المؤلف ومسـالـك الأخيار لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي وشرح أرجوزة الجادري المديوني من أهل القرن 9 / 15 م، لأحمد الـولالي، وريـاض الأزهـار في حوالي ستـين صفحـة للطيب بن عبد الله السمـلالي من القـرن الثـاني عشر/الثامن عشر م. وحصة أبدية لرمضان باعتبار التاريخ الميلادي، لابي بكر حركات، وذلك لعدة مدن من المغرب في آن واحد مع إدراج ما ينبغي تمكينه كما قال

ومن كتب الفلك العامة غير بعض ما ذكر، فتح الملك العلام لعبد السـلام بن إدريس الأودبي السبيطي معـاصر الحسن الأول، وهو في أقل من مائة وثلاثين صفحة، والطليعة الجلية، لاحمد بن عبد الواحد بن المواز 1341 / 1922 وهـو شرح في حوالي أربعـمائـة صفحـة لمنظـومـة ابن أبي الرجال الاندلسي المعروفة بالدلالة الكلية في الأحكام الفلكية.

وفي مجال الآلات الفلكيـة ومـا يدخـل في معنـاهـا من الأشكـال المـرسـومـة، نجـد الاسطرلاب والربع المجيب وبيت الابرة تأخذ باهتمام فلكيي العصـر أكثـر من غيرهـا، وهي كلهـا مسبوقة بأصول اعتمد عليها الفلكيـون أو على أعـمال اقتبست عنها ومن هذه الأصول في الاسطرلاب رسـالـة ابن الشـاط المغربي في أصول علم الاسطرلاب ورسالة في العمل بالاسطـرلاب لابي القـاسم أحمـد بن الصفار الاندلسي 426 / 1034، وأرجـوزة بغيـة الطـلاب في علم الاسطـرلاب لمحمـد الحبـاك التلمساني 867 / 1463. ومن مسـاهمات العصـر أرجـوزة في الموضوع لعبد الرحمن ابـن عبـد القــادر الفــاسي وأخـرى لصــالــح بن محمــد الشــرقي 1139 / 1726. وكتب رســالــة في العمــل بالاسطـرلاب، من أربـع وأربعـين صفحـة، محمـد العـربي بن مفرج الشفشاوني من القرن الثاني عشر ه. ولمحمد بن الطيب سكيرج 1194 / 1780 أرجوزة طويلة بعنوان : معينة الطلاب على التوصل للاسطرلاب. ووضع عبد السلام الأودبي

رسالة من ثلاثين صفحة أهداها للحسن الأول باسم نزهة الزمن وهدية لمولانا الحسن.

ومن أصول الربع المجيب رسالة سبط المارديني في العمل بالربع المجيب، وحاشيتها لعبد الرحمن التاجوري. ومما ألف عن الموضوع أرجوزة لعبد الرحمن الفاسي، وبغية ذوي الرغبات (48 ص) لسليمان الفشتالي، وهو شرح لرسالة سبط المارديني في الموضوع. ولعبد الرحمن الفاسي أرجوزة في بيت الابرة، أي البوصلة. وقد سبقه التاجوري إلى هذا الباب في رسالة كانت متداولة.

كذلك وضعت جداول فلكية عديدة تتناول أطوال وعروض بعض الكواكب والتقسيم الزمني ومطالع البروج وما إلى ذلك من الموضوعات الفلكية.

وهناك من كتبوا في علم الجداول وأسرار الحروف كمحمد بن محمد ابن ناصر الدرعي (13) المتوفى سنة 1126 هـ والذي كان ضليعا في الفلك والرياضيات، ومحمد بن سعيد المرغيثي (14) الذي كتب منظومة في الأوفاق أيضا، وإبراهيم التادلي الذي وضع حاشية على شرح الجزنائي في علم الجدول (15)

وفي نطاق الاهتمام بالرياضيات الحديثة بدأت تنشط حركة ترجمة بعض الأعمال العلمية خصوصا على يد السلطان محمد الرابع الذي عمل على تعريب إحدى الموسوعات الفلكية من الفرنسية في ثلاثة مجلدات بعنوان : الجامع المقرب النافع المعرب وتبلغ أزيد من ألفي صفحة، والاصل المترجم، بالخزانة الملكية التي تضم أيضا نسخة معربة عن الانجليزية من كتاب في فن الملاحة البحرية. وتبلغ أقل من أربعمائة صفحة. ويحتمل أن يكون التعريب قد تم قبل نهاية القرن 19م. وسمي النص المعرب بعلم السير في البحر. وكان السلطان محمد الرابع مشغوفا بالدراسات الرياضية والفلكية ويحيط نفسه بمجموعة من الطلبة والاساتذة يشرف عليهم عالم قدير هو أحمد بن عبد الله التناني السوسي

13- مراكشي، إعلام، 6، 19

14- ن.م. ج5، 307. بنعبد الله، موسوعة، 2، 5

15- الجراري، من أعلام الفكر، 2، 246

(16) الـــذي وضـــع مؤلفـــات وتقـــاييـــد في الحســـاب والجـبر والمقـابلة واللوغـاريتـها. وكـان يستفتى في الرياضيات كما يستفتى الفقيه في شؤون الدين (17). وتولى رئاسة قواد المدفعية في عهد الحسن الأول

ومما نقـل عن الفـرنسية على يد أحمد بن عبد الله معلومات تتعلق بآلة مقياس الحساب Arithmomètre وتم نقلها سنة 1291 ه

واستمـرت العلوم الـرياضية تلاقي اهتماما من الهواة والمتخصصين حتى حلول الحـمايـة. وقيـل إن العـالم الحسن بن أحمـد المـزميـزي المتوفى 1320 هـ أوزهـــاءهـا كان يتـوفـر على خزانـة كبـيرة في فنـون التعـاليم (الـريـاضيـات والفلك. .) وكـان يتولى تدريس الجغرافيا عن طريق كرة أرضيـــة، كما كان يتـــولى تدريس الهيأة. ووضـع ابن شهبـون كتـابـا في الجغـرافيـا تحدث عنـه الشيـخ عبـد الـرحمن بن زيـدان في إتحـاف أعلام الناس. وكتب أبو بكر حركات رسالة في مسألة حركة الارض وتوصل إلى دليـل يثبت حركتهـا حسب نظريته، وهذا في وقت بعيد عن ابتكار الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية التي أمدت البشرية بأغنى المعلومات وأدقها عن الارض والفضاء وبعض الكواكب

3ـ الطب والأدوية والعلاج

اعتمد الطب على مؤلفات قديمة، بقدر ما اعتمد على التجارب المحليـة في العـلاج والتغـذية والوقاية، انطلاقا من الأعشاب ومواد مختلفة تدخـل فيهـا أجـزاء حيـوانيـة وغيرها. إن الطب لم يكن علما بقدر ما كان تجربـة وممـارسة. لكن هناك أجتهادات واستثناءات لابد من أخذها بعين الاعتبار. ويبقى العلاج بالرقى والروحيات، وهو ماليس من هذا الموضوع.

ومن أقـدم المؤلفـات الطبيـة التي تداولها الدارسون : كتاب تقويم الأدويـة فيـما اشتهـر من الأعشاب والعقاقير والأغذية ليوحنا بن بختيشوع (18) 903/290 م وهـــو يتنـــاول الجـــانب العـلاجي أكثـر مما يتنـاول

16ـ مراكشي، اعلام 2، 453

17ـ ن. م. وص

18ـ الخطابي، فهارس الخزانة الملكية، 3، 82. وما لم يذكر مصدره أو موضعه فيما يلي فهو من هذا المرجع

تشخيص الامراض وأغراضها، وكتاب القانون لابن سينا، وأرجوزة ابن سينا وشرحها لابن رشد، وأرجوزة ابن عزرون في الحميات والاورام، والتصريف لمن عجز عن التأليف، وهو في ستة مجلدات لخلف بن عباس الزهراوي المتوفى في أوائل القرن الخامس / الحادي عشر م. وجله يتناول الأدوية والأشربة ووسائل العلاج.

ومن المؤلفات التي اكتسحت بيوت الأسر والطلبة في المغرب وأقطار المشرق والعالم الاسلامي، كتاب الرحمة في الطب والحكمة الذي ينسب إلى المهدي الصنبري 1412/815، كما نسب أيضا إلى جلال الدين السيوطي (19) 1505/911، وتذكرة أولى الالباب لداود بن عمر الأنطاكي 1596/1005 في أربعة أجزاء، والنزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة له أيضا. على أن هناك كتابا جمع بين الطب الروحاني والنباتي وقد نال إقبالا كبيرا بالمغرب فضلا عن المشرق، وهو كتاب فتح الملك المجيد الذي ألفه أحمد بن عمر الديربي من فقهاء مصر، وتوفي سنة 1151/1738، وقد عرف هذا التأليف الذي يقع في نحو ثلثمائة صفحة بمجربات الديربي لان المؤلف جمع فيه تجاربه الطبية والروحانية في مجال العلاج.

وقد سارت جل مؤلفات ما قبل الحماية بالمغرب على هدي هذه الأعمال كلا أو بعضا، مع اعتبار الأعشاب والتجارب المحلية. وكان من التجارب التي عرفها الأطباء المغاربة قبل عدة قرون تشخيص الأمراض من تحليل بول المريض، وكان المرغيثي ممن تصدوا للعلاج انطلاقا من فحص البول (20). ومن مؤلفي هذه الحقبة: عبد القادر بن العربي المنبهي المعروف بابن شقرون المكناسي والذي وضع أرجوزة في التغذية الطبية عرفت بالأرجوزة الشقرونية وهي في 668 بيتا، وتتناول مختلف الأطعمة والأشربة لحوما وخضرا وفواكه والبانا ومياها وأنواعا من الأدوية (21) وكان ابن شقرون على قيد الحياة سنة 1140/1727) ومنها نسخ خطية عديدة بالمغرب. وأحمد بن صالح الدرعي 1147/1734 الذي وضع أرجوزة الهدية المقبولة في حلل الطب مشمولة، وشرحها المسمى بالدرر المحمولة على الهدية المقبولة الخ. . وهو في 460 ص.

19ـ م.س. ص 110

20ـ مراكشي، اعلام 5، 306

21ـ خطابي، م.س. ص. 270. كلية الأداب ج.م.خ. الرباط. بنعبد الله، موسوعة، 2، 20

وأبيـات الأرجـوزة أكثـر من ألف. وعبد الوهاب بن أحمد أدراق السوسي 1159 / 1746 ولـه أرجـوزة في حب الأفرنج المعروف بالزهري (الزهري (النوار، بالدارجة المغربية). وعبد الله ابن أحمد الكضاضي الذي اختصر كتـاب أحمـد بن صالـح الـدرعي المـذكور، وسماه عنوان الشفا في تسعين صفحة. وعبد الله بن عبد العزيز المراكشي المعروف بسيدي بلة بن عزوز (22)، ومن مؤلفـاتـه : ذهـاب الكسـوف ونفي الظلمـة في علم الطب والطبائع والحكمة (576 ص) وقد جمع بين الطب والصيدلة والطبيعيات واعتمـد على الطب النبـاتي من مصـادر مختلفـة. ومحمـد بن إبـراهيم النظيفي الـذي شرح وتمم منظـومة الهدية المقبولة للدرعي، وسمى شرحه هذا بمشارق الأنوار في رياض الأزهار (554 ص)

ووضـع محمـد بن إبـراهيم الـروداني سنـة 1295 / 1878 مصنفا بعنـوان كنـز المحتـاج في علم الطب والعـلاج في 126 ض، ويأخـذ عن مصادر مغربية وغيرها. ووصف أعراض جملة من الأمراض وأدويتها.

وكتب العـربي المشـرفي 1313 / 1895 في 262 ص عن الأوبئـة بعنـوان أقـوال المطـاعـين في الطعن والطـواعـين. وهـو يجمع بين الجانب الموضوعي للأوبئة والجانب التاريخي. ومن ثم فهو من نوادر الكتب.

وألف أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج السلمي 1316 / 1899: الـدرر الطبيـة المهـداة للحضـرة الحسنية. وهو في خمسة أجزاء مجموعها 1614 ص، ويأخذ عن عدد كبير من كتب الطب القديمة والقريبة من عصره.

ومن المصنفـات الجيـدة، ضياء النبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة فاس لعبد السلام بن محمد العلمي 1323 / 1905. وقد طبع على الحجر بفاس في حياة مؤلفه الذي نشر بهامشه مذكرة طبية بعنوان : البدر المنير في علاج البواسير. أما ضياء النبراس، فيحول إلى اللهجة الفاسية، المصطلحـات الطبيـة التي تضمنتهـا تذكرة داود الانطاكي. وتوجد نسخة خطيـة من ضيـاء النـبراس بكلية الاداب (ج. م. خ الرباط) في 205 ص ضمن مجموعة. وتلقى المؤلف دراسته في الطب والتشريح والهيأة بمصر،

22ـ ترجمتـه في الاعـلام 8، 317 للمـراكشي. انظـر المـوسوعة المغربية، 2، 59، وفهرس مخطوطات كلية الأداب / الرباط، ص 15

كما درس على أطباء فرنسيين وأسبان، وفتح عيادة بفاس قبل أن يصاب بشلل نصفي ألزمه بيته حتى وفاته (23)

ومهما كان من قيمة هذه الأعمال في مجال الطب والصيدلة، فإن الطب الغربي خطا في هذا العصر بالذات خطوات جبارة باكتشاف المجهر وتحاقن الدم مع التقدم في الجراحة والتشريح. وخطت الكيمياء بدورها خطوات مهمة باكتشاف مزيد من المواد أملاحا وأحماضا وعناصر مختلفة. وبمقارنة هذا التقدم العلمي بالجهود المغربية يتضح مدى النقص الذي كان يسود مجال العلوم الحديثة بالمغرب، بالرغم من أن المغرب أقرب بلد عربي وإفريقي واسلامي إلى أرقى بلدان الغرب علما وحضارة.

23ـ مراكشي، م. س. ص 491

المـراجـع

* ابن زيدان عبد الرحمن :
- إتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. المطبعة الوطنية الرباط 1347-1352 هـ (1929 - 1933 م)

* ابن سحنون أحمد الراشدي :
- الثغر الجماني في أخبار الثغر الوهراني. الجزائر 1973 م. تحقيق محمد البوعبدلي

* ابن سودة عبد السلام المري :
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى (جزآن). دار الكتاب، الدار البيضاء

* ابن سودة محمد بن عمر :
- قبيلة زعير، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء 1977

* ابن عثمان المكناسي محمد :
- الاكسيرفي افتكاك الأسير. المركز الجامعي للبحث العلمي، تحقيق محمد الفاسي، الرباط

* ابن علي الدكالي محمد :
- أدواح البستان (تراجم شخصيات علمية)، ورقة واحدة من أصل عشرات التراجم

* أبو القاسم سعد الله :
- مجلة الأصالة، أكتوبر 1976 م، الجزائر

* الأفراني (انظر لائحة المراجع غير العربية)

* أكنسوس محمد بن أحمد :
- الجيش العرمرم . ط . ح (د. ت)

* الباقر (انظر الكتاني)

* بلحسني محمد المدني :
- مقدمة الفتوحات الالهية (انظر محمد بن عبد الله)

* البناني فتح الله بن أبي بكر :
- إتحاف أهل العناية الربانية. م. عامرية. قاهرة، 1342 هـ 1906 م

* بنسعيد عبد الله :
- مشروع إصلاحي قدم لعبد الكريم بنسليمان وزير الخارجية المغربية

* بنعبد الله عبد العزيز :
- الموسوعة المغربية في الاعلام البشرية والحضارية. وزارة الأوقاف بالمغرب. 1401/1395 (1975-1981 م)
- معلمة الصحراء. وزارة الأوقاف بالمغرب. 1396-1402 (1376-1982)

* بنمنصور عبد الوهاب :
- اعلام المغرب العربي. ج 1 و 2. م. ملكية الرباط
- مجموعة الوثائق، ج 2. مديرية الوثائق الملكية، الرباط

* بورك (إدموند) :
- العلماء المغاربة في 1860-1912 م. مجلة البحث العلمي، ع 1980/31 الرباط

* التازي (د.) عبد الهادي :
- جامع القرويين. بيروت

* الجراري عبد الله :
- من اعلام الفكر المعاصر. ج1 مطبعة الأمنية، 1971/1391 م. الرباط. ج2 دون تاريخ الطبع ومكانه

* حركات إبراهيم :
- المغرب عبر التاريخ، ج 3. دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1985/1405 م

* الخطابي محمد العربي :
- فهارس الخزانة الملكية، ج2، 1982/1402 م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء
- فهارس الخزانة الحسنية (الملكية)، 1983/1403 م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

* داود (انظر محمد داود)

* الدرقاوي محمد العربي :
- رسائل في الطريقة الدرقاوية. مع مقدمة لابن الخياط أحمد الزكاري. طبع حجري، فاس 1900/1318 م.

* الزركلي خير الدين :
الأعلام، 1378/1373 هـ (1954-1959 م). القاهرة.

* الزياني أبو القاسم :
- البستان الظريف في دولة مولاي علي الشريف. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 1577
- الترجمانة الكبرى. وزارة الانباء الرباط. 1967/1387 تحقيق عبد الكريم الفيلالي

* سفند دال (Sevend Dall)
- تاريخ الكتاب، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، 1958 م

* السليماني محمد :
- اللسان المعرب، مطبعة الأمنية ، الرباط 1972م

* الصفار محمد بن عبد الله بن عبد الكريم :
- رحلة إلى فرنسا. مخطوط بالخزانة الحسنية (الملكية) رقم 113، الرباط

* الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي :
- تاريخ الدولة السعيدة. م.خ.ع. 660 الرباط

* العمروي إدريس بن محمد بن إدريس :
- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز. بعناية د. زكي مبارك، مجلة البحث العلمي، ابتداء من العدد 31 (1980/1400 م) الرباط.

* عنان محمد عبد الله :
- فهارس الخزانة الملكية ،ج1، مطبعة النجاح الجديدة . 1980/1400

* العياشي عبد الله بن عمر :
- الاحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش. م.خ.ع (مصور) رقم 1433، الرباط

* الغزال أحمد بن المهدي الفاسي :
- نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد. م.خ.ع. 981، الرباط

* الغسال الحسن بن محمد :
- تقييد الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الانجليزية. م.خ.ع 1694 الرباط

* الفاسي علال :
- حفريات عن الحركة الدستورية. مطبعة الرسالة. الرباط

* الفاسي محمد :
- الرحلات السفارية. مجلة البينة، جمادى 1، 1382 / أكتوبر 1962، الرباط
- مقدمة الاكسير (أنظر ابن عثمان)

* الكتاني زين العابدين :
ـ الصحافة المغربية، ج 1 . وزارة الأنباء، (د.ت)، الرباط

* الكتاني محمد الباقر :
ـ ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد. مطبعة الفجر، الرباط، 1960/1380 م

* الكردودي أحمد بن محمد :
ـ الدر المنضد الفاخر. م.خ.ع 1584 ، الرباط

* كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط :
ـ فهرس المخطوطات، 1980 م الرباط

* مجموعة الوثائق (انظر بنمنصور)

* المحبي محمد :
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. م. الوهبية، القاهرة، 1867/1284

* محمد بن عبد الله (السلطان)
ـ الفتوحات الالهية. م. ملكية، الرباط، 1980/1400 م

* محمد دواد :
ـ تاريخ تطوان ج، 1 و 6 (تطوان، 1379 و 1390 ه، موافق 1959 و 1970)

* محمد المختار السوسي :
ـ سوس العالمة. م فضالة. المحمدية. 1960/1380 م

* مديرية الوثائق (انظر بنمنصور)

* المراكشي السملالي عباس بن إبراهيم :
ـ الاعلام بمن حل بمراكش من الاعلام (عشرة أجزاء) المطبعة الملكية، الرباط 1974/1394 م إلى 1983/1403 م

* المشرفي محمد الغريسي :
ـ الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية . م.خ.ع 1463 الرباط

* معنينو أحمد :
ـ مجلة البحث العلمي ع 15/1396/1976 الرباط

* المنوني محمد :
- مظاهر يقظة المغرب في العصر الحديث. وزارة الأوقاف. الرباط 1392/1973 م

* الناصري أحمد بن خالد :
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . دار الكتاب، الدار البيضاء 1954-1956 م

* وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية :
- رسالة الحسن الأول إلى الأمة. الرباط، جمادى 2/1399 (مايو 1979 م)

* وزارة الثقافة :
- فهرس المعرض السادس للمخطوطات والوثائق (كراسة المخطوطات) الرباط، 1974 م، (طبع بالمكررة)

* Berque (Jacques) :
  - al-youssi. Paris, Edit. Mouton et Co. la Haye

* Caillé (Jacques) :
  - Ambassades et missions marocaines en France, in Hespéris, Fasc. 1,1960, Rabat
  - La petite histoire du Maroc. Casablanca, Chérifienne d'Edition.

* Champion (Pierre)
  - Le Maroc et ses villes d'art. Lib. Renouard, Paris, 1972

* Coufourier (L.) :
  - Chronique de la vie de Moulay El-Hassan, in Archives marocaines Vol. 8/1906, Paris

* De Castries (H.) :
  Sources inédites de l'histoire du Maroc. (France), Paris

* Deverdun (Gaston) :
  - Marrakech des origines à 1912. Edit. Techniques, Rabat, 1959

* El-Fassi Allal :
  - Mémoires sur le régime représentatif au Maroc. Rabat

* EL-Fassi Mohammed :
  - Lettres inédites de Moulay ismaïl, in Hespéris, 1962, Rabat

* Hœfer (M.F.) :
  - Empire du Maroc. Editions Firmin - Didot Frères, Paris, 1848

* Hosotte (Reynaud)
  - Quatre documents inédits... in Hespéris 3/1960, Rabat

* Maillard (P.)
  - Essai de bibliographie marocaine, in Revue le Monde musulman, 35 / 1917-18, Paris

* Mission scientifique (Voir Résidence Générale)

* al-Oufrani Mohammed Es-Saghır al-Murrakouchî:
  - Nouzhat al-Hâdï, Traduction française de Houdas. Edit. E. le Roux, Paris

* Résidence Générale, Rabat. Mission Scientifique du Maroc :
- Villes et tribus du Maroc. (Tanger), Editions Ernest-Le roux. Paris 1915

* Slama (B.) :
- L'insurrection de 1864 en Tunisie. Maison Tunisienne de l'Edition, Tunis, 1967

* Sammut (G.)
- L'impérialisme capitaliste français et le nationalisme tunisien, in Revue d'histoire maghrébine, 1/1974, Tunis

* Soumille (P.)
- Une thèse récente sur les Européens de Tunisie, in Revue d'histoire maghrébine, 3, 1975, Tunis

* Tlili (Béchir) :
- Etude d'histoire sociale tunisienne, Université de Tunis, 1974

* Villes et tribus du Maroc (Voir Résidence Générale)

فهرس الموضوعات

هذا الكتاب

يعالج العصر العلوي حتى 1912 :

1ـ حركة التعليم والتثقيف
2ـ التيارات الدينية والمذهبية، بما في ذلك دور العلماء والزوايا ومؤثرات الشرق والحركة الحديثية.
3ـ التيارات السياسية بما فيها تيار القوى الشعبية والمخزن والمثقفين والصحافة.
4ـ مشاريع الاصلاح مع تحليل دقيق لمشروع بنسعيد، والمشروع الإصلاحي لسنة 1906 ومشروع دستور 1908.

5ـ فنون المعرفة ومميزاتها واتجاهاتها وأهدافها وإنتاج المؤلفين فيها:
* في الأدب والانسانيات: تقييم مركز وشامل. نظرة نقدية موسعة للمناهج التاريخية. تقييم للأدب الحضاري المرتبط بالرحلات الدبلوماسية.
* في العلوم الدينية: غزارة الانتاج والدور العلمي للمدرسة الحديثية.
* في الفلك والتنجيم: الارتباط بالدين.
* في الهندسة والحساب: مواصلة الاهتمام بالقديم. ظاهرة الترجمة.
* في الطب: إسهامات مغربية واعتماد مصادر شرقية وطب تقليدي. أول عيادة عصرية.

أضواء جديدة، و«مفاتيح عمل» للباحثين، وطلاب:

- الدراسات الاسلامية
- العلوم السياسية
- الانسانيات

ولسائر القراء المتطلعين إلى معرفة شاملة عن حقبة لا تزال غامضة.



دار الرشاد الحديثة
98 شارع فيكتور هيجو
الهاتف : 27.48.17 — 27.32.56
الدار البيضاء